الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز



رواية

جان - ماري جوستاف **لوكليزيو**

الباحث عن الذهب

ترجمة وتقديم: فتحي العشري

لوكليزيو، جان جوستاف، ١٩٤٠ ـ .....

الباحث عن الذهب: رواية/ تأليف: جان جوستاف لوكليزيو؛ مارى جوستاف لوكليزيو؛ ترجمة وتقديم: فتحى العشرى. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١.

٤٧٢ص ؛٢١سم . ـ (سلسلة جوائز)

تدمك ٣ ٨٧٥ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص الفرنسية.

أ ـ لوكليزيو، مارى جوستاف. (مؤلف مشارك)

ب ـ العشرى، فتحى. (مترجم)

ج ـ العشرى، فتحى. (مقدم)

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٨٤٩/ ٢٠١١

I. S. B. N 978 - 977 - 421 -875 - 3

ديوى ٨٤٣

الباحث عن الذهب

رواية

جان ـ ماري جوستاف لوكليزيو

ترجمة وتقديم: فتحي العشري



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠١١

• الكتاب: **الباحث عن الذهب**

Le chercheur d'or

• تأليف: **جان مارى جوستاف لوكليزيو**

J.M.G. Le clèzio

• ترجمة: **فتحى العشرى**

• الطبعة الأولى ٢٠١١.

• طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

مقدمة

لوكليزيو.. عاشق الشمس والصحراء

الروائى الصامت المنعزل، المتأمل، الذى يعيش بين الجبل والبحر، وبين الشمس والصحراء يناجى العصافير والجداول، ويرفض الأحاديث والأضواء.

"أنا من يبحث عن الحقيقة، أنا المفتون بالهواء، المولع بالضياء، العاشق للصحراء".

"الجمال هو الحياة، وأنا أجد فى الوحدة حرية وفى الحرية جمالا".

"لا يمكن أن أتخيل الأدب شيئًا آخر غير الحياة، كل الحياة".

"الإنسان يولد مرتين، مرة وهو مجرد من أى شىء، ومرة أخرى عندما يكتسب لغته فى عالم من الكلمات".

ج - م - ج لوكليزيو واحد من روائيى الأدب المعاصر الغامضين والغرباء معًا.. صامت، منعزل،

متأمل، وحيد، يعيش فى مدينة "نيس" الفرنسية بين الجبل والبحر، بين الشمس والأرض.. أحيانًا ما يهرب إلى إحدى حضارات الشمس ليحتمى بها: المكسيك، مصر، الهند، ثم يعود برواية جديدة، قد تشبه سابقاتها، ولكنها تختلف عنها بالتأكيد.. رواية "العمالقة" تختلف عن رواية "الباعة" وعن رواية "رحلات إلى الجانب الآخر".. وهكذا يقول لوكليزيو: "أنا مَنْ يبحث عن الحقيقة، أنا المفتون بالهواء، المولع بالضياء، العاشق للصحراء".. يسبح فى سحر الأنوار.. يناجى العصافير والجداول، ويرفض الأحاديث والأضواء والحياة الاجتماعية والمعارك السياسية.. ولكنه يحب الكتابة والقراءة..

جان ـ مارى جوستاف لوكليزيو وُلد فى الثالث عشر من إبريل عام ١٩٤٠ بمدينة نيس الفرنسية. والده الطبيب الجراح راؤول، تزوج من ابنة عمه سيمون، وهما لجد واحد السير أوجيه لوكليزيو من أصل بريطانى، وعائلة نزحت إلى فرنسا فى القرن الثامن عشر.

فى سن السابعة اهتم جان ـ مارى لوكليزيو بالكتابة.. أتم دراسته الجامعية بآداب جامعة نيس ثم استكمل دراسته بلندن. وفى عام ١٩٦٤ أعد رسالة للدراسات العليا عن هنرى ميشو.

فى سن الثالثة والعشرين أصدر أولى رواياته "المحضر" على طريقة "الغريب" لكامى وبأسلوب

الرواية الجديدة، فحققت له شهرة واسعة خاصة وأنها تعرضت للحرب الجزائرية، ونالت جائزة رونودو المعروفة عام ١٩٦٣.

فى عام ١٩٦٧ أدى الخدمة العسكرية فى تايلاند والمكسيك. وعمل بالمكتبة الفرنسية شعبة أمريكا اللاتينية. وعاشر الهنود فى بنما فاكتسب خبرات هائلة من طريقة حياتهم.

تزوج عام ١٩٦١ من روزالى بيكمال، وأنجبت له باتريسيا.. ثم تزوج عام ٧٥ من جيميا وأنجبت له آليس.

فى عام ١٩٦٣ أعد رسالة جامعية عن الحياة المكسيكية. وكان قد فاز فى عام ١٩٨٠ بجائزة بول موران من الأكاديمية الفرنسية والتى منحت لأول مرة، ومنحت لرواية "صحراء".

تركز اهتمامه على الثقافات البعيدة، فاتجه إلى كوريا.

فى عام ٢٠٠٧ كان واحدًا من أربعة وأربعين كاتبًا وقعوا على ما نيفستو" من أجل أدب عالمى"غير محدود بالفرانكوفونية، ويتجه إلى الجيل الشاب من الكتاب الذين خرجوا من "عصر الشك" والذين يرغبون فى فهم العالم الحالى..

فى عام ٢٠٠٨ فاز بجائزة نوبل للآداب، فأعلن أن هذا التقدير لن يغير من طريقة كتابته، رغم أن تقرير لجنة الجائزة أشاد بأنه كاتب ذو توجهات جديدة فى مغامرة شعرية وحسية تشمل الإنسانية

جمعاء وتتخطى الحضارة السائدة.. ونال جوقة الشرف برتبة ضابط فى أول يناير عام ٢٠٠٩.

طاف لوكليزيو ببلدان كثيرة على امتداد القارات الخمس، وإن كان مقره الرئيسى فى نيس وباريس.. نشر حوالى خمسين كتابًا بين رواية وقصة ودراسة وترجمة ومقدمات ومقالات.

وفيما عدا جائزة رونودو وبول موران من الأكاديمية الفرنسية عن مجمل أعماله وجائزة نوبل، فاز لوكليزيو بجوائز أخرى مهمة هى فاليرى لاربو ٧٢ الجائزة الدولية للاتحاد اللاتينى ٩٢، جائزة أكبر كاتب فرانكفونى حى عن طريق قراء مجلة "لير" ٩٤، جائزة مشاهدى التليفزيون ٩٦،جائزة جان جيونو الكبرى ٩٧، جائزة بوتر بوخ ٩٧، جائزة أمير موناكو ٩٨، جائزة ستيج داجرمان ٢٠٠٨ .

وجاءت رواياته وقصصه بالترتيب: "المحضر" ٦٣، "جائزة رونودو" يوم تعرف بومون على ألمه "٦٤"، الحمى"٦٥ "، الطوفان "٦٦"، أرض آماتا "٦٧"، كتاب الهاربين" ٦٩ "، الحرب"٧٠ "، العمالقة" ٧٣ ،"رحلات للجهة الأخرى"٧٥. ،"العالم وقصص أخرى"٧٨"، صحراء"٨٠"، جائزة الأكاديمية الفرنسية "الدائرة" ٨٢، "الباحث عن الذهب"٨٥"، رحلة إلى رودريج"٨٦"، ربيع وفصول أخرى" ٩٨، أونيتشا" ٩١ نجمة تائهة "٩٢"، يو وأنا "٩٢"، الأربعين"٩٥ "سمكة ذهبية" ٩٨،صدفة "٩٩"، قلب يحترق"٢٠٠٠"، ورات "٢٠٠٣"، الإفريقى"٢٠٠٤ أورانيا "٢٠٠٦، تكرار الجوع"٢٠٠٨.

وجاءت دراساته وأفكاره بالترتيب: "الاختطاف الأموى" ٦٧هابى سكيرا"٧١ "، ميدريياز" ٧٣"، نحو جبال الثلج"٧٨"، المجهول على الأرض" ٧٨ ثلاث مدن مقدسة" ٨٠ الحلم المكسيكى"٨٨"، دييجو وفريدا"٩٣"، فى موضوع آخر"٩٥"، العيد الغنائى"٩٧"، رجال السحب"٩٧"، راجا يقترب من المنطقة غير المرئية" ٢٠٠٦.

"وجاءت كتاباته الأخرى مختلفة ومنها "نبوة شيلام بالام" و"لولاباى" و"رحلة إلى بلاد الأشجار" و"من لم ير البحر أبدًا" و"الجبل" و"الحياة الكبرى" و"شعب السماء".

وجاءت كلمته فى حفل تتويج نوبل بعنوان "فى غابة الآراء المخالفة".

أما ما كُتب عنه فقد وصل إلى خمسين كتابًا وحوارًا وعدد من المقالات (لا يتسع المجال لذكرها بالتفصيل).

وأما أسلوب لوكليزيو فقد تنوع بين السهولة والبساطة وروح الطفولة والمذكرات والذكريات وأدب الرحلات.. حتى أنه قال "اللغة الفرنسية هى بلدى الحقيقى" معبرًا عن اعتزازه بلغته رغم معرفته لعدد من اللغات نتيجة لرحلاته وزياراته ودراساته المختلفة.

منذ شبابه وكتاباته الأولى ظهر ميله الشديد لأسلوب "الرواية الجديدة" وتأثره بميشيل بوتور

وجورج بيريك وناتالى ساروت.. وكانت موضوعاته تدور حول الألم والملل، جانحًا أحيانًا نحو الوجودية وخاصة ألبير كامى وهنرى ميللر.. إلى أن استقل بأسلوبه الخاص الذى اكتسبه من رحلاته وبث فيه روح الثورة من منابعها الهندية والمكسيكية.. ونهل هذه الثقافات التى ترى أن "الله واحد ولكنه كل الكائنات"..

تأثر أسلوبه الشاعرى بجون كيتس وأودين وسالنجر ووليم فوكنر وإرنست هيمنجواى، وهو يركز على العلاقة بين الفرد والمجتمع والمونولوج الداخلى والضمير اللاشعورى لدرجة التصوف وما يقوله المتصوفة حول الاعتقاد بالاتصالية بين الله والإنسان، كما آمن بها الشاعر لوترييامون وهنرى ميشو وأنطونين آرتو، وهذا الأخير الذى كان يحلم بأرض جديدة كل ما فيها ممكن، مازجًا بين الصوفية والإرادة.. ولهذا تحمس لوكليزيو للشباب الجدد فقدم لأعمال مارجريت ميتشيل ولاوو شى وتوماس موقولو وغيرهم.

وتعد روايته "صحراء" ١٩٨٠ أهم أعماله، وقد لقيت إقبالاً جماهيريًا وتقديرًا نقديًا، خاصة بعد أن فازت بجائزة الأكاديمية الفرنسية.. وفازت فى استفتاء مجلة "لير" متقدمًا على أقرانه، بل والذين تأثر بهم مثل ناتالى ساروت وكلود سيمون (الفائز بجائزة نوبل قبله) وفرنسواز ساجان (أشهر من أقبل عليهم الجمهور) وميشيل تورنييه وجوليان جراك..

بعد "صحراء" تجيء رواية "الباحث عن الذهب" التى تكاد تكون سيرة ذاتية، فالشخصية الرئيسية تنطبق عليها كل الصفات والمواصفات التى ترسم شخصية الكاتب، كما أعلن عنها فى تصريحاته وحواراته القليلة.

الرواية تدور حول أسرة صغيرة تتكون من الأب والأم والابن والابنة.. وتظهر وتختفى شخصيات أخرى من العائلة مثل العم وابن العم والخالة.

أما محور الأحداث فهو الابن، الذى يجد فى أوراق والده خرائط تؤكد وجود كنز فى البلاد البعيدة، عليه أن يركب البحر من أجل الوصول إليها، ويقدم على الرحيل بعد وفاة والده وبعد أن طردهم العم من بيتهم، تاركًا أمه للمرض وأخته للفراغ والحيرة والقلق والتفكير فى الالتحاق بالدير، وهو ما فعلته بعد ذلك.. وتطول رحلة الفتى الذى يصادف المغامرات البحرية وأهوال الحرب العالمية، التى انخرط بسببها متطوعًا فى صفوف الجيش الفرنسى وكاد أن يلقى حتفه.. ويصل إلى موقع الكنز المزعوم، ولكنه لا يجد شيئًا، كل ما يجده أو يعثر عليه، فتاة غجرية من لابسات الخيش فى تلك البلاد البعيدة الغريبة، يحبها وتحبه، ولكنهما يفترقان ويلتقيان مرارًا وتكرارًا، ويظلان على هذا الحال طوال مجرى الأحداث.. وأخيرًا يقرر العودة إلى موطنه بعد أن يأس من الوصول إلى الكنز أو الوهم، كما كانت تسميه أخته وكذلك صديقته..

الرواية تتميز بالمعلومات الغزيرة فى الفلك والنجوم والسماء والبحر والجبال والمراكب والطيور والأشجار والنباتات والأجناس وأسلحة الجيوش والمقاومة وآلات ومعدات الحروب.. وغير ذلك..

كما تتميز الرواية بالأسلوب المنتقى بدقة وتفرد، فهو أسلوب خاص بالكاتب دون غيره.. يتكلم عن الماضى بصيغة الحاضر، يعود إلى الأحداث أحيانًا، وأحيانًا يستدعى الأحداث ذاتها.. يسمى الأشياء بأسماء مختلفة، ويصف الناس المقربين والغرباء على حد سواء بالتفصيل لدرجة النفاذ إلى أعماقهم واستخراج مكنوناتهم ببساطة ويسر وكأنه عالم نفس يحلل البشر بما فيهم من غموض وغرابة.. ويستخدم كلمات بعضها لا يوجد فى أكبر وأحدث قواميس اللغة، مما يؤكد ان لغته فريدة وخاصة، وكأنه يستحدث كلمات إضافية من عنده.. مع استخدام الفواصل والنقط وعلامات الاستفهام والتعجب بكثرة..

وأخيرًا تتميز هذه الرواية "الباحث عن الذهب" بالملحمية والشاعرية والواقعية فى الوقت نفسه.. كما تتميز بإمتاع القارئ، الذى لا يملك إلا أن يحبها ويحب كاتبها أيضًا..

إن لوكليزيو هو حتى الآن أكثر كاتب فرنسى ترجمت أعماله فى العالم أجمع (ألمانيا، إنجلترا، الصين، كوريا، إسبانيا، اليونان، إيطاليا، اليابان، البرتغال، روسيا، تركيا) وتضاف مصر واللغة العربية

إلى هذه القائمة، بعد ترجمة هذه الرواية "الباحث عن الذهب" وبعض القصص القصيرة ورواية "الحوت"، وغيرها فى الطريق، وعلى المدى القريب!

***

وفى حوار وحيد، تم بينه وبين أكثر من محاور، كشف لوكليزيو ـ على غير عادته ـ عن شخصيته وأفكاره.

كلود مورسيه:

هل يكفيك أن تكون الرواية هى السبيل الوحيد إلى مخاطبة الآخرين والتحاور معهم؟

لوكليزيو:

أعتقد ـ دون الحاجة إلى اللعب بالكلمات -أن وسيلة الاتصال بالآخرين ليس لها حدود ولكنى أقول كلمتى، أو أقول ما أريد من خلال عملى الأدبى، الذى اخترت له ـ وربما بالصدفة ـ الرواية قالبًا وأسلوبًا.. فأنا أفكر أثناء النهار، وفى وهج الشمس، والشمس عندى حاجة أساسية وأولية فى الحياة، وهى مظهر مهم وممتع من مظاهر الحياة.. أما فى الليل، فى سواد الليل الداكن، حيث الوحدة والغربة والرهبة فإنى أكتب ما استطعت أن أعبر به.. والقمر هو الضوء الذى يعكس ما أعطيه للآخرين..

موريس نادو:

ما حكاية الشمس معك وفى رواياتك، وأنت تتحدث عنها وكأنها كل شىء فى حياتك؟

لوكليزيو:

هى كذلك، حرارة الكون والوجدان، نور النهار والسبب فى ضوء الليل أيضًا، المدار الذى تدور حوله وتستمد منه الصحة والقدرة على الاستمرار، ماذا تكون الحياة بغيرها؟!

اكتشفتها مبكرًا ونعمت بجزء منها فى موطنى، ولكنى استمتعت بها، وسعدت عندما كبرت وتمكنت من الوصول اليها، أعنى بالقرب منها أكثر، فى المكسيك وفى مصر وفى الهند، حيث الشمس كبيرة وساطعة والضوء كامل ومبهر، حتى الظل فيها ليس عتمة ولا هو بموحش، إنها الطاقة الحقيقية، ولعلى أقول علمًا إلى جانب أحاسيس الخيال.. من هذا المزيج الرائع بين الواقع والخيال وبين العلم والمشاعر، أكتب رواياتى..

هنرى توماس:

فى هذه الوحدة الشمسية والحياتية، هل تجد حياة اجتماعية حقيقية، والإنسان ما هو إلا كائن اجتماعى، أم أنك تهيئ لنفسك هذا الإحساس بالحياة الاجتماعية؟

لوكليزيو:

الجمال هو الحياة، وأنا أجد فى الوحدة حرية وفى الحرية جمالاً.. وفى بلاد الشمس تتفتح الزهور ويبرز الجمال ويصبح للأخلاق والأخلاقيات قيمة ومعنى، فلا تتحول إلى مجرد دروس ونصائح وهدف

اجتماعى، لأنها تكمن فى نسيج الوجود، شكلاً ومضمونًا، إحساسًا وتعقلاً.. وعلى فكرة أنا لا أقول شعرًا بهذه الكلمات، ولكنها أفكار أعيها تمامًا وأعنيها، ولعلك ستجدها فى رواياتى التى أحب أن يحكم عليها بأنها روايات أخلاقية كما قال بعض النقاد؛ لأنها فى تقديرى روايات جمالية، إن صح هذا التعبير..

كلود مورسيه:

تحدثت عن الحضارات القديمة فى مصر والمكسيك والهند وسيلان أيضًا، علمًا بأن هناك حضارات مماثلة أخرى، وعلمًا بأن الحضارة الأوروبية الحديثة ليست قاصرة أو ضعيفة بحيث لا تذكر بالقياس إلى الحضارات سالفة الذكر؟

لوكليزيو:

الحضارات القديمة الأخرى لم أعرفها ولكنى أتحدث عن الحضارات القديمة، التى لمستها بنفسى ولم أكتف بالقراءة عنها، أما الحضارة الأوروبية الحديثة التى تتكلم عنها فهى حضارة حقًا ولكنها حضارة أرضية ولذلك هى حضارة تعسة وبعيدة عن الجمال، بينما الحضارات القديمة، حضارات سامية وعُليا.. ماذا أقول أيضًا؟!

توماس:

وماذا تقدم تلك الحضارات الشمسية للإنسان ولغته معًا، زيادة عما تقدمه أية حضارة أخرى، ولنقل غير شمسية؟

لوكليزيو:

ما هو غير عادى حقًا فى تلك الأجواء الشمسية، هو أنها تمنح الثقة للإنسان فى الحياة وفى نفسه معًا وفى وقت واحد..

هذه المساحات الشاسعة وهذا الجمال الحقيقى والمرئى، أشياء تحرك الأحاسيس الداخلية والمشاعر الخاصة جدًا، سواء بالزمن أو الموت.. والإنسان هو أسلوبه أو لغته ـ كما يقول الفرنسيون ـ والصمت الداخلى والخارجى معًا بإزاء تلك الأحاسيس والمشاعر والزمن والصوت هى اللغة الشديدة التى لا يمكن أن تجىء على قلم كاتب موهوب يعيش فى بقعة غير تلك البقاع.. لغة لانهائية، لغة البلاد التى يصمت فيها الناس كثيرًا ولا يتكلمون إلا قليلاً.. أرجو أن أكون قد وضحت نفسى وأصبحت مفهومًا؛ لأنى لا أجيد التعبير عن نفسى ولا عما يعتمل فى صدرى ولا عما يثور فى عقلى إلا فى رواياتى.. فمعذرة، حقًا معذرة!

موريس نادو:

إنك تبحث دائمًا عن جمال الأسلوب وفخامته، حتى تكاد لغتك المكتوبة تبدو كما لو كانت لغة مسموعة على الرغم من أنك لا تحب الأحاديث.. ما هو الأسلوب فى رأيك؟

لوكليزيو:

الكتابة ليست معجزة.. أبدًا.. إنها لحظة حياة إنسانية، لحظة بسيطة نتركها بعيونها لنتلقى فيها

تعاليم السماء وسط النور والاتساع.. والحياة بهذا المعنى هى الأسلوب.. فالكلمات تجىء وتذهب، تقترب وتبتعد، أما الأسلوب فهو نظام الكون.. والكمال فى الأسلوب أمل بعيد المنال، بل هو ضد طبيعة الأشياء ومعجزة الوجود، ولكنى أجد فى الاقتراب من الشمس اقترابًا من الكمال حيث الوضوح والدقة والقوة والجمال أيضًا..

كلود مورسيه:

هل أنت شىء آخر غير إنسان أو كاتب صاحب رؤية؟

لوكليزيو:

منذ أن كتبت "رحلات إلى الجانب الآخر" و"الهروب" وأنا أعلم بأنى لست شيئًا آخر غير إنسان وكاتب له رؤى!

كلود مورسيه:

منذ "الرحلات" والهروب" ـ كما تقول ـ تردد دائمًا هذه العبارة "أخف من الهواء".. ما الفرق بين هذا التعبير وبين تعبير حديث وقتى يقول "أخف من الحقيقة"؟!

لوكليزيو:

"أخف من الهواء" تعبير علمى يمكن استخدامه فى الأدب، أما "أخف من الحقيقة" فهو تعبير أدبى لايمكن استخدامه علميًا..

موريس نادو:

ماذا تمثل الصحراء بالنسبة لك، خاصة بعد أن لعبت دورًا رئيسيًا فى "رحلات إلى الجانب الآخر"؟

لوكليزيو:

الصحراء، هى بلد الشمس، إذًا هى كل الجمال على الأرض..

هنرى توماس:

"إننا لا نستطيع أن نتقبل الشيخوخة إلا لأنها تتيح لنا السفر". هذه العبارة التى جاءت فى روايتك "رحلات إلى الجانب الآخر" ألا تعكس خوفًا من شىء ما، ليكن هو السبب المباشر والعميق فى "الهروب" الذى تحياه وتنشده، كما عبرت عنه فى روايتك المسماة بهذا الاسم نفسه؟

لوكليزيو:

السفر فى الزمان أو فى المكان، لا يعد هروبًا بالنسبة إلىَّ.. أما الشيخوخة فهى حقيقة، صحيح أنى لم أبلغها بعد، ولكن الصحيح أيضًا أنى سأبلغها حتمًا إذا قدر لى أن أعيش حتى أبلغها.. والشيخوخة بهذا المعنى هى بداية الرحلة والرحيل، والسفر الذى أعنيه هو بالتأكيد الرحلة والرحيل، لأن الحياة ذاتها رحلة ورحيل.. إننا نجىء لنرحل.. أليس كذلك؟!

موريس نادو:

كيف تتخيل الجليان؟

لوكليزيو:

غروب الشمس..

هنرى توماس:

قلت: "لا يوجد غير تجربة واحدة، هى التجربة الأرضية".. فهل اللغة تعد جزءًا من هذه التجربة الأرضية، أم هى شىء غريب ودخيل على الحياة؟

لوكليزيو:

اللحظة الأكثر درامية فى الحياة، والأكثر سحرًا أيضًا، هى لحظة الميلاد الثانى، أى عندما نولد فى اللغة.. فالإنسان يولد مرتين مرة وهو مجرد من أى شىء، ومرة أخرى عندما يكتسب لغته فى عالم من الكلمات.. ذلك أن ما نكتشفه بعد ذلك وما نتعلمه وما يجد علينا هو عن طريق اللغة وبها ومعها.. ومع هذا فالكلمات ليست منفصلة عن العالم، فهى تنتمى إلى العالم بنفس القوة، التى تنتمى بها مكونات الحياة الأخرى إلى الأرض، ولنذكر الحركات والأفعال والأصوات على سبيل المثال.. وهناك أشياء مادية بل وحيوانية أيضًا فى اللغة، كل لغة أشياء تتحرك خارج الإنسان.. أما التجربة الأرضية فهى مغامرة الإنسان الذى يترك العالم غير المحسوس إلى عالم اللغة بمعارفها اللانهائية وغير المحدودة وغير الكاملة والمتكاملة فى الوقت نفسه.. الكلمات إذًا ليست فقط هى ما يقال ولكنها أيضًا وبدون توقف ومن كل جانب وبأى معنى ما يفعل وما يصدر من أوامر ونداءات

وأسئلة واستجابات.. الكلمات بالنسبة إلىَّ بعد ذلك التعريف العام هى التى حددت معنى البحر والأرض والسماء والإنسان والحيوان والجماد.. والكلمات القصيرة أو الطويلة، السريعة أو البطيئة، الواضحة أو الغامضة. السهلة أو الصعبة، المنمقة أو الجارحة، كلها مفاتيح للحياة، بغيرها تظل الحياة مغلقة أمام الإنسان.. حتى الإشارة ما هى إلا تعبير عن كلمة أو عن الكلمات وليس العكس أبدًا.. فالصم الذين لايسمعون والبكم الذين لا يتكلمون هم الذين يفقدون الإحساس بالكلمات، رنينها ومعانيها، وليست الكلمات هى التى تفقد وظيفتها، تموت الكلمات بالنسبة إليهم ولكن الكلمات لا تموت، وقد لا توجد الكلمات أصلاً فى حياتهم ولكنها موجودة بشكل عام ومطلق..

كلود مورسيه:

قلت فى رواية "ناجا.. ناجا" هذه العبارة: "تحرر! فهذا هو الوقت المناسب، جدًا، أما إذا انتظرت قليلاً، فسوف يكون ذلك متأخرًا جدًا". ولعلها دعوة لإيقاظ الإنسان وصحوته.. فهل قصدت الحياة الواقعية أم أنها دعوة مطلقة؟

لوكليزيو:

أعتقد أن الإنسان يضيع تمامًا عندما يفقد تلك اللغة التى تحدثت عنها، اللغة الأرضية.. أما إذا ضعفت ـ هذه اللغة، فإنها تعذب الإنسان بدلا من أن تحرره، وتعميه بدلاً من تنير أمامه الطريق، ومع هذا

فإن اللغة الإنسانية غير كافية، لأنها لا تصلح للإنسان ولا تتفق إلا ومزاجه، وكمالها يتوقف على قدرتها فى استيعاب متطلبات الإنسان وما حوله أيضًا، دون حاجة إلى البحث عما وراء الكلمات فى كثير من الأحيان، وهذا "الماوراء" كان ينبغى أن يكون متضمنًا "الكلمات الإنسانية".. صحيح أن هذا البحث ينصب على ما لا يراه الإنسان، وبالتالى فإنه يبحث له عن كلمات غير مستخدمة فى الحياة الواقعية المعيشة ولكن الكلمات المستخدمة هى التى تخلق عالمًا جديدًا غير عالمنا هذا.. أليس هذا هو عمل الكاتب؟!

كلود مورسيه:

علاقة غريبة!

لوكليزيو:

حقًا، فالكاتب يبحث عن كلمات عميقة وبعيدة المنال، وهذا لا يتأتى له بالقوة والضغط ولكن بيقظة الضمير الخالص وحب الحياة، معجزة الحياة..

هنرى توماس:

فكرة الانتماء إلى الأدب، الماضى والحالى، هل هى مرضية لك ومشجعة، أم أنها لا تحمل أى معنى؟

لوكليزيو:

لا يمكن أن أتخيل الأدب شيئًا آخر غير الحياة: كل الحياة.. وأنا أحيا هذه الحياة، وكلنا نحياها على ما أعتقد!

موريس نادو:

ذهبت فى روايتك "ولع الأمومة" أبعد مما ذهبت فى رواياتك الأخرى،فيما يتعلق بتسكين الإنسان روحك، بل والجماد والحيوان والنبات وعناصر الإبصار والسمع والشعور، بحيث تستحضرها جميعًا وتطلقها بعد ذلك فى فلك جديد يظل مرتبطًا بداخلك وفى محيط عالمك.. (دعنى أتحدث بلغتك وأستعير بعض عباراتك).. هل تفعل ذلك تشبهًا بالخياليين الذين قيل إنهم واقعيون مثل "فلوبير" مثلا.. أم أنها كليات ترسبت فى نفسك منذ الطفولة.. أم هى عادات الشرق الذى تعشقه وفى مقدمتها "اليوجا" على سبيل المثال؟

لوكليزيو:

أحاول عادة أن أكتب بما يمكن أن يحول الأشياء الصامتة إلى أشياء ناطقة، بمعنى أن أخلق لغة لمن لالغة له، سواء أكان إنسانًا أو جمادًا، وبمعنى آخر أجعل الأشياء تتكلم، ليس فقط الكلام ولكن بلغة خاصة، سرعان ما تدور فى تلك اللغة المتعارف عليها والمعترف بها والمتداولة فى كافة الأوساط وعلى كافة المستويات.. عندما يدرك الطفل فيما بعد ضرورة اللغة وحدودها ودورها العضوى والوظيفى والقائد وفائدتها فيما يتعلق بالعالم الخارجى، فلن يعثر على تناسقها بسهولة ويسر، وعندئذ يصبح عليه أن يبحث عن عناصر أخرى مستحدثة، يجدها بنفسه أو

يستعيرها من غيره.. والكاتب هو أول مَنْ يشعر بتلك الحاجة إلى لغة جديدة وأول مَنْ يبحث عنها، وأول من يعثر على عناصرها ومكوناتها وأول مَنْ يستخدمها فى ثوبها المستحدث.. ولذلك فهو القدوة..

لقد اكتشف الكُتّاب أن التفاحة تدخل داخل الإنسان، أما الإنسان فلا يمكن أن يدخل فى التفاحة،فماذا يفعل فى داخلها؟..

واكتشف الكتّاب أيضًا أن الأشجار والأحجار والحيوانات والسحب والنجوم ليست غريبة عن الإنسان، وليست غريبة فى حد ذاتها!

إننا ونحن نكتسب أشياء جديدة ومفاهيم جديدة طوال مشوار حياتنا، نفقد أيضًا أشياء فطرية وأصيلة على امتداد الطريق، ونحس فى نهاية الأمر بأننا نفتقد إلى ما حصلنا عليه وما لم نحصل عليه بعد وما هو مستحيل..

وهذا المستحيل، أو مجرد الشعور به هو الذى يعذب الإنسان ويؤرقه.. وإن كان يكمن فى داخلنا.. فمن الذى يستخرجه وفى الوقت المناسب، قبل فوات الأوان؟!

فتحى العشرى


https://telegram.me/maktabatbaghdad

إهــداء

إلى جدى ليون

لوكليـزيو.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

قاع بوكان ١٨٩٢



منذ زمن طويل كما أتذكر سمعت البحر، ممزوجًا بالريح فى محيطات "فيلاوو" بالريح الذى لايكف حتى عندما نبتعد عن الشواطئ ونتقدم عبر حقول القصب. هذا الصخب هوالذى هدهد طفولتى. أسمعه الآن، فى أعمق أعماقى، أحمله فى كل مكان أذهب إليه. الصخب المتهمل، النشط للأمواج، التى تتكسر على البعد فوق سد مرجانة والتى تجىء لتموت على رمال النهر الأسود. لايمر يوم دون أن أذهب إلى البحر، لاتمر ليلة دون أن أستيقظ، ظهرى مبلل بالعرق، أجلس فى فراشى بالكامب، أبعد الناموسية، وأسعى لمراقبة المد والجزر المضطرب الملىء برغبة لا أفهمها .

أفكر فيه كما لو كان إنسانًا، وفى الظلام، كل حواسى تكون يقظة لكى أسمعه جيدًا وهو يجىء، لكى أستقبله. والأمواج العملاقة تقفز فوق الصخر، تنهار فى ماء البحر، والصخب يهز الأرض والهواء كما لو كانت غلاية. أسمعه يتحرك، يتنفس. ـ

عندما يكون القمر مكتملاً، أنزلق خارج الفراش دون إحداث ضجيج، محاذرًا قرقعة الأرضية الناخرة. ومع هذا أعلم أن لور لاتنام، أعلم أن عينيها تظلان مفتوحتين فى الظلام وأنها تكتم نفسها. أتسلق حافة النافذة وأدفع مصراعى الخشب، أصبح بالخارج، فى الليل ضوء القمر الأبيض يضىء الحديقة. أرى الأشجار تلمع؛ حيث تهدر القمة فى الريح، أتبين كتل الأشجار الوردية الظليلة والبامية. القلب يدق، أسير على الممر الذى يؤدى إلى الروابى، هنا حيث تبدأ الأراضى البور. بالقرب من الجدار المنهار، توجد شجرة "شالطا" الضخمة، التى تطلق عليها لور شجرة الخير والشر، وأتسلق الفروع الكبرى لأرى البحر من فوق الأشجار وامتداد القصب. القمر يتدحرج بين السحب، يلقى ضياء من الضوء. ربما أراه فجأة من فوق الأوراق، على يسار برج تاماران، لوحة كبيرة مظلمة حيث تلمع البقعة التى تومض. هل أراه حقًا هل أسمعه؟ البحر داخل رأسى، وعندما أغمض عينى أراه وأسمعه أفضل، ألمح كل قصفة موج يقسمها الصخر، ثم تتحد لكى تتدفق على الشاطئ. أبقى طويلاً معلقًا على أفرع شجرة "شالطا" حتى ينحدر ذراعى. ريح البحر تمر على الأشجار وعلى حقول القصب، تلألأ الأوراق تحت القمر. أحيانًا أبقى هنا حتى مطلع الفجر، أسمع أحلم فى الطرف الآخر من الحديقة، البيت الكبير مظلم، مغلق يشبه حطامًا. الريح تضرب البغال الصغيرة المقطوعة الأوصال

وتجعل هياكلها تقرقع. هذا أيضًا هو هدير البحر وطقطقة جذع الشجرة وأنين قمم الأشجار السامقة. خفت وأنا وحدى فوق الشجرة، ومع هذا لا أريد العودة إلى الغرفة. أقاوم فى برد الريح، والإرهاق الذى يثقل رأسى .

ليس من الخوف فى الحقيقة. إنه كما لو كنت أقف أمام هاوية. حور عميق، وأنا أنظر بحدة مع القلب الذى يدق بقوة والعنق الذى يقرع ويؤلم، ومع هذا نعلم أنه يجب علينا أن نبقى، وأننا سنعلم فى النهاية شيئًا ما. لا أستطيع العودة إلى الغرفة طالما سيصعد البحر، هذا مستحيل. يجب أن أبقى متسلقًا شجرة "شالطا" وأنتظر بينما القمر ينزلق نحو طرف السماء الآخر، وأعود فى الغرفة تمامًا قبل طلوع الفجر، عندما تصبح السماء رمادية ناحية مانانافا، وأنزلق تحت الناموسية .

أسمع لور التى تتنفس، لأنها لم تنم هى الأخرى، طوال الوقت الذى كنت فيه بالخارج .لاتحدثنى أبدًا عن هذا ببساطة أثناء النهار، تنظر إلىَّ بعينيها القاتمتين اللتين تسألان، وأعتذر عن خروجى لكى أسمع البحر.

كل يوم أذهب حتى الشاطئ. يجب أن أعبر الحقول، القصب مرتفع لدرجة أنى أذهب على غير هدى، أعدو بامتداد طرق التقطيع هنا، لم أعد أسمع البحر. شمس نهاية الشتاء، تحرق، تخنق الضوضاء. عندما أكون قريبًا جدًا من الشاطئ. أشعر به لأن

الهواء يجىء ثقيلاً، ساكنًا محملاً بالذباب. فى أعلى، السماء زرقاء مشدودة خالية من العصافير، عمياء. فى الأرض الحمراء والمتربة، أتوغل حتى الأوتاد. حتى لا أفسد نعلى، أحمله، وأضعهما حول عنقى، معقودين بالرباطين، وهكذا تكون يداى متحررتين. نكون فى حاجة لليدين متحررتين عندما نعبر أحد حقول القصب. القصب مرتفع للغاية. كوك الطاهى يقول إنهم سيقطعونها الشهر القادم. إنها أوراق تقطع، مثل شفرات سيف قطع الأشجار، يجب إبعادها ببطن اليد لكى نتقدم. دونيس حفيد كوك، أمامى لاأراه أبدًا هو يذهب حافى القدمين منذ وقت طويل، يسير أسرع منى مسلحًا بخطافه لكى نتنادى قررنا أن نصر خطاف العشب مرتين أو نعوى إذًا مرتين هكذا: أوها! الهنود يفعلون هذا عندما يسيرون وسط القصب المرتفع، فى وقت القطع بسكاكينهم الطويلة.

أسمع دونيس بعيدًا أمامى: أوها ! أوها ! أرد بخطافى. لاوجود لضجيج آخر. البحر فى كامل انخفاضه هذا الصباح، لن يصعد قبل الظهيرة. نذهب بأسرع مايمكننا، حتى نصل إلى المستنقعات حيث يختفى الجمبرى والأخطبوط.

أمامى وسط القصب، توجد أحجار من مادة سوداء. هنا فى أعلى أحب أن أصعد لأرى مساحة الحقول الخضراء، وبعيدًا خلفى الآن، ضائعًا فى فوضى الأشجار والغابات، بيتنا كما لو كان ضالاً بسقفه الغريب ذى اللون السماوى، وكوخ كابتن كوك

الصغير، وأكثر بعدًا أيضًا، مدخنة بيمان، والجبال المرتفعة الحمراء المنتصبة نحو السماء. أدور حول نفسى فى قمة الهرم، وأرى كل القرية وأدخنة معامل السكر، ونهر تاماران الذى يتثنى وسط الأشجار والتلال، وأخيرًا البحر المظلم، المتلألئ الذى تراجع فى الناحية الأخرى من الصخور .

هذا ما أحبه. أعتقد أنى أستطيع أن أبقى أعلى هذه الكومة لساعات وأيام، دون أن أفعل شيئًا غير النظر .

أوها ! أوها ! دونيس ينادينى فى الطرف الآخر من الحقل. هو أيضًا فوق قمة كومة من الحجارة السوداء، غارق فوق جزيرة وسط البحر. بعيد لدرجة أنى لا أتبين شيئًا منه. لا أرى غير ظل هامته الطويلة. فوق قمة الكومة أضع يدى على باب صوتى وأعوى بدورى: أوها! أوها! نهبط معًا ونسير من جديد تحسسًا بين القصب فى اتجاه البحر.

فى الصباح يكون البحر أسود ومغلقًا. رمل النهر الكبير الأسود ونهر "تاماران" هما اللذان يفعلان ذلك، وكذلك غبار سائل البركان. عندما نتجه ناحية الشمال، أو عندما نهبط نحو نهر العابس، فى الجنوب. البحر يضىء. دونيس يصطاد الأخطبوط فى البحيرة المالحة عند ملجأ الصخور. أنظر إليه يبتعد فى الماء على فخذيه الطويلتين وهو من طوال الساق، وعصاه فى يده. لايخشى القنافذ ولا غيرها .يسير وسط برك الماء المعتمة بحيث يكون ظله خلفه دائمًا كلما ابتعد عن النهر، أزعج أسراب الطيور المهاجرة،

والقاق والغربان. أنظر إليه بقدمين عاريتين فى الماء البارد. دائمًا ما أطلب منه الإذن بمصاحبته لكنه لا يرغب. يقول إنى صغير جدًا، يقول إنه يحرس روحى.. يقول إن أبى ولى أمرى له. هذا ليس صحيحًا، لم يتحدث إليه أبى مطلقًا. لا أحد غيرى يصحبه حتى النهر ابن عمى فرديناند ليس له الحق رغم أنه أكبر منى قليلاً ولا حتى لور لأنها فتاة أحب دونيس أنه صديقى ابن عمى فرديناند يقول إنه ليس صديقًا بما أنه أسود وأنه حفيد كوك. لكن هذا سيان عندى. فرديناند يقول هذا لأنه غيور، هو أيضًا كان يريد أن يسير فى القصب مع دونيس، حتى البحر.

عندما يكون البحرمنخفضًا جدًا، هكذا مبكرًا فى الصباح، تظهر الصخور السوداء. توجد مستنقعات كبيرة معتمة، وأخرى مضيئة حتى أننا نعتقد أنها تصنع ضوءًا، فى العمق تبدو القنافذ ككرات معدنية بنفسجية والشقائق تفتح لوزاتها الدامية، ودببة البحر تحرك ببطء أذرعتها الطويلة الزغبرية. أنظر فى عمق المستنقعات، بينما يبحث دونيس عن الأخطبوط بحرف عصاه على البعد.

هنا ضجيج البحر جميل كما الموسيقى. الريح تحمل الموجات التى تتحطم على قاعدة المرجان بعيدًا جدًا. وأسمع كل ارتجاج فى الصخر، وكل ريح فى السماء. يوجد كما الجدار فى الأفق يدق البحر عليه بكل طاقته. أعشاب زبدية تفور أحيانًا وتسقط فوق الصخر التحتى. المد بدأ يصعد. هذا هو الوقت الذى يدفع فيه دونيس الأخطبوط؛ لأنه يشعر فى مجساته

بماء عرض البحر البارد ويخرج من مخبئة. الماء يكتسح المستنقعات الواحد بعد الآخر. دببة البحر تمرجح أذرعتها فى المجرى المائى، سحب الخسالة تصعد ثانية فى الشلالات وأرى نجمًا يمر، يبدو متعجلاً وغبيًا. منذ وقت طويل منذ أن كنت صغيرًا جدًا أجىء إلى هنا .أعرف كل مستنقع، كل صخرة، كل زاوية هنا حيث توجد مدن القنافذ، هنا حيث تزحف الكائنات البحرية الضخمة، هنا حيث يختفى سمك الثعابين، المائة باع. أبقى هنا دون أن آتى بحركة، دون أن آتى بضجة لكى تنسانى، لكى لاترانى أبدًا. البحر إذًا جميل ورقيق جدًا عندما تكون الشمس مرتفعة فى السماء فوق برج تاماران، يصبح الماء خفيفًا، أزرق شاحب لون السماء. زمجرة الأمواج فوق الصخر تدوى بكل قواها. مبهورًا بالضوء أبحث عن دونيس مطرف العينين. البحر يمرق عن طريق المضيق، الآن يعظم أمواجه البطيئة التى تغطى الصخر.

حينما أصل إلى الشاطئ، عند مصب النهرين أرى دونيس يجلس فوق الرمل، أعلى الشاطئ فى ظل صناع المخمل. فى طرف عصاه، دستة من الأخطبوط معلقة كأردية الشيفون. هو ينتظرنى دون حركة. حرارة الشمس تحرق كتفى، وشعرى. فى لحظة أخلع ملابسى وأسبح عاريًا فى ماء المستنقع، هنا حيث يلتقى البحر بالنهرين. أسبح ضد تيار الماء الرقيق، إلى أن أشعر بالحصى الصغيرة المدببة فى بطنى وركبتى. عندما أكون قد دخلت تمامًا فى النهر، أمسك

بيدى حجرًا كبيرًا وأدع ماء الأنهر يسكب فوقى، لكى يغسلنى من لهيب البحر والشمس.

لاشىء لم يعد يوجد، لاشىء لايحدث. لايوجد غير هذا، أن أشعر أن أرى السماء زرقاء تمامًا، ضجيج البحر الذى يصارع ضد المستنقعات والماء البارد الذى يجرى حول جسدى .

أخرج من الماء مرتعشًا رغم الحرارة، وأرتدى ملابسى دون أن أتنشف. الرمل تسلل إلى قميصى، وإلى بنطالى نسلخ قدمى فى حذائى. شعرى مازال ملتصقًا بالملح. دونيس نظر إلىّ دون حركة. وجهه الأملس معتم، ولايمكن فهمه. يجلس فى ظل صناع المخمل يظل ثابتًا، يداه تعتمدان على العصى الطويلة حيث يتعلق الكالمار كما النحاس. لايذهب أبدًا ليستحم فى البحر. أجهل حتى إذا كان يعرف السباحة. عندما يستحم يكون ذلك عند هبوط الليل فى أعلى نهر تاماران أو فى جدول "حوض ساليه". أحيانًا يذهب بعيدًا نحو الجبال ناحية مانانافا، ويغتسل بالنباتات فى جداول المضايق. يقول إن جده هو الذى علمه ذلك لكى يكتسب القوة، لكى يكتسب الرجولة.

أحب دونيس، يعرف أشياء كثيرة عن الأشجار والماء والبحر، كل ما يعرفه تعلمه من جده، ومن جدته أيضًا، عجوز سوداء تسكن كاس نوايال. يعرف أسماء كل الأسماك، وكل الحشرات، يعرف كل النباتات التى يمكن أكلها فى الغابة، وكل الفاكهة البرية وهو قادر على التعرف على الأشجار، فقط من رائحتها أو وهو يمضغ طرفًا من قشرتها. يعرف أشياء كثيرة بحيث لانمل أبدًا معه. لور أيضًا تحبه كثيرًا؛ لأنه يحمل

إليها دائمًا هدايا بسيطة، ثمرة فاكهة من الغابة أو حتى وردة، محارة، قطعة من الصوان الأبيض، حجر. فرديناند يسميها "جمعه" ليسخر منا وأنا أسمانى رجل الأخشاب لأن العم لودوفيك هو الذى قال ذلك يومًا، وهو يرانى عائدًا من الجبل.

ذات يوم منذ فترة طويلة كان ذلك فى بداية صداقتنا، دونيس جلب للور حيوانًا صغيرًا رماديًا غريبًا تمامًا بخرطوم طويل مدبب وقال إنه كان فأرًا برائحة المسك لكن والدى قال إنه كان ببساطة فأر الديدان. لور احتفظت به معها طوال اليوم ونامت على فراشه، فى علبة صغيرة من الكرتون لكن فى المساء وقت النوم استيقظ وأخذ يجرى فى كل مكان وأحدث كثيرًا من الضجيج حتى جاء والدى برداء النوم حاملا شمعته فى يده وأبدى غضبه وطرد الحيوان الصغير خارجًا. بعد ذلك لم نره من جديد أبدًا. أعتقد أن هذا تسبب فى ألم شديد للور.

عندما تكون الشمس عالية جدًا فى السماء يقف دونيس ويخرج من ظل صناع المخمل ويصيح: "آلى بيس! " هذه هى طريقته فى نطق اسمى عندئذ نسير بسرعة عبر حقول القصب حتى لو كان دونيس يتوقف لكى يأكل فى كوخ جده وأنا أجرى نحو البيت الكبير ذى السقف الأزرق السماوى.

عندما يطلع النهار وتضىء السماء خلف جبال"الضروع الثلاثة" أذهب مع ابن عمى فرديناند بطول طريق الأرض الذى يتجه نحو حقول سكر

"اليمن" ونحن نتسلق الجدران العالية، ندخل فى"الصيادات" حيث تعيش ثعابين المقاطعات الكبيرة ڤولمر، تاماران، ماجون، بارفوت، ڤالالا. فرديناند يعرف إلى أين يذهب والده. ثرى جدًا صحبه فى كل المقاطعات ذهب أيضًا إلى بيوت تاماران، إيستات حتى ڤولمر وميدين فى الشمال تمامًا. ممنوع الدخول فوق" الصيادات". أبى كان سيغضب جدًا لو علم أننا نذهب إلى المقاطعات. يقول إن هنا خطرًا، لامكان لوجود صيادين، وأننا يمكن أن نقع فى جب لكنى أعتقد أن سبب ذلك تحديدًا لأنه لايحب سكان الأملاك الكبرى. يقول إن كل شخص يجب أن يبقى فى محيطه، ولا يجب أن يجور على أراض الغير .

نسير بحذر كما لو كنا على أرض أعداء. على البعد فى شوك الغابة الرمادى نلمح بعض الأشكال السريعة التى تختفى تحت المخبأ إنها الثعابين.

ثم يقول فرديناند إنه يريد أن يهبط حتى"تاماران إيستات". نخرج من "الصيادات" ونسير من جديد على طريق الأرض الطويل. لم أذهب أبدًا بعيدًا إلى هذا الحد. فقط ذات يوم، مع دونيس صعدت حتى أعلى برج تاماران". هنا حيث نرى كل المنظر حتى جبال"الضروع الثلاثة" وحتى "مورن" ومن هنا رأيت أسقف البيوت ومدخنة مصنع السكر العالية التى تخرج دخانها الكثيف .

الحرارة تزداد بسرعة؛ لأننا فى هجود الصيف. حقول القصب مرتفعة جدًا. منذ أيام كثيرة بدءوا فى القطع. على امتداد الطريق نشبك فى العربات التى

تسحبها الأبقار، والتى ترتج تحت ثقل القصب. شباب من الهنود هم الذين يقودونها، بملامح لامبالية كما لو كانوا نائمين. الهواء ملىء بالذباب، وذباب البقر. فرديناند يسير بسرعة، أعانى من اللحاق به، كل مرة تجىء فيها عربة نقفز جانبًا فى الهوة لوجود مكان بها للعجلات الحديدية المستديرة الضخمة .

الحقول مليئة بالرجال والنساء الذين يعملون الرجال معهم سيوف قطع الأشجار ومناجل، والنساء يذهبن مع مجارفهن يرتدين أغطية، رءوسهن مختفية فى حقائب قديمة من القنب. الرجال عراة مفتولون، يتصببون عرقًا. نسمع صيحات، نداءات أوها! التراب الأحمر يصعد من الطرق بين مربعات القصب. رائحة جافة تملأ الهواء، رائحة ماء القصب، والتراب وعرق الرجال. سكارى إلى حد ما نسير نعدو فى اتجاه بيوت " تاماران" هنا حيث يتم التحميل. لا أحد يهتم بنا توجد كمية من التراب فوق الطرق بحيث أصبح لوننا أحمر من الأقدام حتى الرءوس، وأصبحت ملابسنا شبيهة بالهلاهيل. يوجد أطفال يعدون معنا فوق الطرق وهنود وكفار يأكلون القصب الذى يسقط على الأرض الخصبة. الجميع يتجهون نحو مصنع السكر ليشاهدوا المراحل الأولى للعصر.

نصل أخيرًا أمام النباتات أشعر بشىء من الخوف؛ لأنها المرة الأولى التى أجىء فيها إلى هنا. أمام الجدار المرتفع المزين بالجبس، توقفت العربات والرجال يضعون القصب الذى سيلقون به فى الأساطين. المدخنة تقذف دخنة كثيفة، شقراء تعتم

السماء وتخنقنا عندما يدفعها الريح نحونا. الضجيج يملأ المكان، وكمية كبيرة من البخار. أمامنا تماماً أرى فريق الرجال الذى يضع فى الفرن تفل قصب السكر الذى يسحق فى الأتون. إنهم شبه عرايا كما العمالقة، العرق يتصبب على ظهورهم السوداء وعلى وجوههم المتشنجة بألم النار. لايقولون شيئًا يمسكون فقط بالتفل فى أذرعتهم ويلقون به فى الأتون وهم يصيحون فى كل مرة: هان.

لم أعد أعرف أين هو فرديناند. أظل مذهولاً وأنا أنظر إلى دخنة السبك ودن الصلب الضخم الذى يغلى مثل مرجل العملاق والآلات التى تسحب الأسطوانات. داخل مصنع السكر يوجد رجال يشتغلون. يلقون القصب الطازج بين فكى الأساطين ويستعيدون القصب المسحوق لاستخلاص ماء النبات منه أيضًا. يسود ضجيج شديد وحرارة وبخار بما يدير رأسى. العصير النقى يسيل على الأسطوانات يذرف نحو الدنان التى تفور عند مركز الفصل يوجد الأطفال. ألمح فرديناند الذى ينتظر واقفًا أمام الدن الذى يدور ببطء بينما الشراب السميك يصل إلى حد التبريد. يوجد عباب كثير فى الدن والسكر يسكب على الأرض يتعلق بالروبة السوداء التى تتدحرج على الأرض المغطاة بالأوراق والقش الأطفال يلقون بأنفسهم وهم يصيحون يجمعون قطع السكر ويحملونها إلى خلوة لكى يمصوها فى الشمس. أنا أيضا أترقب أمام الدن وعندما يفور السكر ويتدحرج على الزراعية أتحفز وأتناول بيدى العجين الملتهب المغطى بالأعشاب وبقطع

التفل. أحمله إلى الخارج وألعقه مقرفصًا فى التراب وأنا أنظر إلى الكثافة المدخنة الشقراء التى تخرج من المدخنة. ضجيج وصيحات الأطفال وهرج الرجال كل هذا يصيبنى بشىء من الحمى التى تجعلنى أضطرب. هل هو ضجيج الآلات والبخار الذى يصفر هل هى الدخنة الشقراء الجافة التى تغشانى وحرارة الشمس وطعم السكر الملتهب الشديد؟ تضطرب رؤيتى أشعر بأنى سأتقيأ. أنادى ابن عمى للنجدة لكن بح صوتى ومزق حلقى. أنادى أيضًا دونيس ولور لكن لا أحد يهتم حولى . حشد الأطفال يهرع دون توقف بالقرب من الدن الكبير الذى يدور حول نفسه ترقبا للحظة التى تفتح فيها الصمامات بينما ينفذ الهواء وهو يصفر داخل الأفران ويصل موج الشراب الفائر، الذى يفيض بطول المزاريب كنهر أصهب. أشعر فجأة بضعفى بأنى ضائع أسند رأسى على ركبتى وأغلق العينين.

ثم أشعر بيد تربت على شعرى أسمع صوتًا يحدثنى بهدوء: "لماذا البكاء"؟ من خلال دموعى أرى امرأة هندية، كبيرة وجميلة ملفوفة، فى ملابسها الملطخة بالأرض الحمراء تقف أمامى مستقيمة، هادئة دون أن تبتسم، وأعلى جسدها لايتحرك بسبب المسحاة التى تضعها بالتساوى على شيفون مطوى فوق رأسها، تحدثنى بهدوء تسألنى من أين أجىء والآن أسير معها على الطريق المزدحم، يضيق بها ثوبها وهى تشعر بارتجاج خلفيتها البطىء. عندما تصل أمام مدخل "بوكان" فى الناحية الأخرى من

النهر، تصحبنى حتى بيت الكابتن كوك. ثم ترحل فى الحال. دون أن تنتظر مكافأة ولا شكر وتبتعد وسط الممر الكبير، بين تفاح الورد، وأنا أنظر إليها وهى تذهب مستقيمة تمامًا بالمسحاة المتساوية فوق رأسها.

أنظر إلى البيت الخشبى الكبير مضاء بشمس ما بعد الظهيرة بسقفه الأزرق أو الأخضر، بلون بالغ الجمال أتذكره اليوم كلون سماء السحر. أشعر أيضًا على وجهى بحرارة الأرض الحمراء والفرن أنفض التراب ونبت الحبات التى تغطى ملابسى. عندما أقترب من البيت، أسمع صوت الأم التى تسمع صلوات للور، فى الظل. كم هى عذبة نقية تلك الدموع التى لاتزال تسيل من عينّى ويأخذ قلبى فى الدق بمنتهى القوة. أسير نحو البيت حافى القدمين على التربة المتداعية بالجفاف. أذهب حتى حافظ الماء خلف المقلاد، أغترف ماء البركة العفن بالوعاء المزين، وأغسل يدىّ ووجهى وكوعى، وفخذّى وقدمّى. الماء الرطب يهيج اتقاد الخدوش، وجروح نصال أوراق قصب السكر. فى كل مساحة الحوض ينتشر الذباب، وعناكب الماء وعلى امتداد الحواجز يعكف الدود. أسمع زقزقة عصافير العصارى العذبة أشعر برائحة الدخنة التى تهبط على الحديقة، كما لو كانت تعلن عن الليل الذى يبدأ فى مجارى "مانانافا" ثم أذهب حتى شجرة "لور" عند حافة الحديقة، وشجرة "شالطا" الضخمة، شجرة الخير والشر. كل ما أشعر به كل ما أراه إذًا يبدو له خالدًا لا أعلم أن كل هذا سيختفى قريبًا.

يوجد أيضًا صوت "الماما". هذا هو كل ما أعرفه عنها الآن هذا هو كل ما احتفظت به منها. ألقيت بكل الصور الصفراء والبورتريهات والرسائل والكتب التى كانت تقرؤها، لكى لايضطرب صوتها أريد أن أسمعه دائمًا مثل كل الذين نحبهم ولم نكن نعرف وجوههم على الإطلاق، صوتها، رقة صوتها الذى يحتوى على كل شىء، حرارة يديها، رائحة شعرها، ثوبها وضوء ما بعد الظهيرة وهو يرحل عندما نكون قد عدنا لور وأنا تحت الشرفة والقلب لايزال يخفق من الجرى وقد بدأ التدريس. "ماما " تتحدث بهدوء شديد ببطء شديد ونحن نستمع معتقدين أننا هكذا فهمنا. لور أكثر ذكاء منى ماما تردد هذا كل يوم تقول إنها تعرف كيف تطرح الأسئلة عندما ينبغى. تقرأ كل فى دوره واقفًا أمام ماما التى تتهدهد فى مقعدها الوثير على أرجوحة أبنوسية تقرأ ثم تسأل ماما أولا عن القواعد تصريف الأفعال توافق أسماء الفاعل والمفعول والصفات. بعد ذلك تسألنا معًا عن معنى ما قمنا

بقراءته عن الكلمات والتعبيرات تطرح أسئلتها! بعناية وأسمع صوتها بسعادة واهتمام؛ لأنى أخاف أن أخيب أملها. أخجل من عدم الفهم بسرعة لور نفسها، ويخيل إلىّ أننى لا أستحق هذه اللحظات من السعادة وعذوبة صوتها وعطرها وضوء آخر النهار الذى يزين البيت والأشجار والذى يجىء من نظراتها وكلماتها.

منذ أكثر من عام ماما هى التى ترعانا؛ لأنه لم تعد لنا مربية أخرى. فيما مضى أتذكر بالكاد كانت توجد مربية تجىء من "فلوريال" ثلاث مرات فى الأسبوع لكن انهيار أبى المتفاقم لايسمح أبدًا بهذه الرفاهية. أبى كان يريد أن يودعنا فى بنسيون لكن ماما لم تشأ قالت إننا كنا صغارًا جدًا لور وأنا. إذًا هى التى تضطلع بتربيتنا كل يوم فى المساء وأحيانًا فى الصباح تعلمنا ماكنا فى حاجة إليه: الكتابة، القواعد بعض الحساب والتاريخ المقدس أبى كان يشك فى البداية فى قيمة هذه التربية لكن فى أحد الأيام دهش جوزيف ليتان المدرس الأول بالكلية الملكية من معلوماتنا حتى أنه قال لأبى إننا كنا متقدمين جداً بالنسبة لعمرنا ومنذ هذا الحين قبل أبى بشكل مطلق هذه التربية.

مع هذا لن أستطيع أن أقول اليوم كيف كانت حقيقة هذه التربية كنا نعيش حينئذ أبى وماما ولور وأنا مغلقين فى عالمنا فى "قاع بوكان" تحده من الشرق أحرف الجبال المقطعة فى " الضروع الثلاثة" من الشمال المزارع الشاسعة من الجنوب أراضى النهر

الأسود البائرة ومن الغرب البحر. فى المساء عندما تصيح العصافير على أشجار الحديقة الضخمة يسمع صوت ماما الرقيق والشاب وهو يملى قصيدة أو يتلو صلاة. ماذا تقول؟ لا أعلم على الإطلاق. معنى كلماتها اختفى مثل صيحات العصافير وضوضاء ريح البحر. فقط تظل الموسيقى ناعمة خفيفة تكاد تكون غير مفهومة متحدة بالضوء فوق أوراق الأشجار فى ظل الشرفة وفى عطر المساء .

أستمع إليها دون ملل. أسمع صوتها يرتج فى وقت غناء العصافير نفسه. أحيانًا أرقب اختلاس الزرازير كما لو كان مرورها بين الأشجار نحو خفايا الجبال يشرح درس ماما. هى من وقت إلى آخر تجعلنى أعود على الأرض وهى تنطق اسمى ببطء مثلما كانت تعرف كيف تنطقه ببطء لدرجة أن أتوقف عن التنفس.

"أليكسى ...؟ أليكسى؟ "

هى وحدها مع دونيس، اللذان يناديانى باسمى الأول، الآخرون يقولون ربما لأن لور هى أول من جاءته الفكرة: على. أبى لاينطق أبدا أى اسم أول فيما عدا ربما اسم ماما كما سمعته، مرة أو مرتين. كان يقول بصوت منخفض: آن آن وعندئذ فهمت: آم" أى روح أو ربما أنه كان يقول حقًا: روح بصوت عذب ورصين لم يكن له إلا عندما يتحدث. إليها كان يحبها حقًا كثيرًا.

ماما جميلة فى هذا الوقت، لن أستطيع أن أقول إلى أى حد هى جميلة. أسمع جرس صوتها وأفكر على الفور فى ضوء المساء فى "بوكان" تحت الشرفة محاطة بانعكاسات البامبو وفى السماء الصافية التى تخترقها أسراب العصافير أعتقد أن كل جمال هذه اللحظة مصدره هى وشعرها الكثيف والمعكوف بسمرة صهباء قليلا تجلب أقل لمعان للضوء ولعينيها الزرقاوين ولوجهها الذى لايزال ممتلئًا فتيًا وليديها الطويلتين القويتين كما لو كانتا لعازفة بيانو تتمتع بكثير من الهدوء والبساطة بكثير من الضوء أنظر خفية إلى أختى لور الجالسة باستقامة شديدة على مقعدها قبضتاها مستندتان على حافة المائدة أمام كتاب الحساب والكراسة البيضاء التى تحتفظ بها مفتوحة بأطراف أصابع اليد اليسرى. تكتب بعناية، الرأس يميل قليلا على الكتف الأيسر شعرها الكثيف الأسود يخفى ناحية من وجهها الهندى. لاتشبه ماما لايوجد شىء مشترك بينهما لكن نظرة عينى لور السوداوين تلمع مثل الأحجار، وأعلم أنها تشعر بإعجابى ذاته بالحرارة ذاتها. المساء طويل إذًا وضوء الغسق الذهبى يميل شيئًا فشيئًا على الحديقة يجذب أسراب العصافير ويحمل من بعيد صيحات العاملين فى الحقول وضجة الدواب على طرق القصب.

كل مساء درس مختلف، قصيدة، حكاية، مسألة جديدة غير أن اليوم يخيل إلىّ أنه دون توقف الدرس نفسه، تعترضه مغامرات النهار الساخنة والتسكعات

حتى شاطئ البحر أو أحلام الليل. متى يوجد كل هذا؟ ماما منحنية على المائدة، تشرح لنا الحساب وهى تضع أمامنا أكوامًا من اللوبياء "ثلاثة هنا آخذ منها اثنين، يكونان ثلثين . ثمانية هنا، وأجنب منها خمسة الناتج خمس الثمانية. عشرة هنا آخذ منها تسعة ماذا يتبقى؟ " اجلس أمامها أنظر إلى يديها الطويلتين بأصابع نحيلة أعرفها جيدًا واحدًا واحدًا سبابة اليد اليسرى قوية جدًا والأوسط والبنصر بشكل حلقة فى نهايته شريط ذهبى استهلكه الماء والزمن. أصابع اليد اليمنى أكبر أكثر خشونة وأقل رقة والخنصر الذى تعرف كيف ترفعه عاليًا جدًا عندما تجرى أصابعها الأخرى فوق السلسلة العاجية لكنها تضرب فجأة علامة حادة "اليكسى. أنت لاتسمع.. لاتستمع أبدًا لدروس الحساب لن تستطيع أن تلتحق بالكلية الملكية "هل تقول هذا؟ كلا لا أعتقد، لور هى التى تخترع هذا، كم هى دءوبة دائمًا وصادقة دوما فى إعداد أكوام اللوبياء؛ لأن هذه هى الطريقة الخاصة للتعبير عن حبها لماما.

أكسب مع الإملاء ما خسرته. لحظة ما بعد الظهيرة هى التى أفضلها عندما أميل على صفحة كراستى البيضاء ممسكًا بالقلم فى يدى فى انتظار مجىء صوت ماما تنطق الكلمات كلمة كلمة ببطء شديد كما لو كانت تهبها لنا، كما لو كانت ترسمها بتصاريف المقاطع. توجد الكلمات الصعبة التى اختارتها بعناية ذلك لأنها هى التى تبتدع نصوص

الإملاء الخاصة بنا: "كاره" بمعنى عربة "منفذ" بمعنى نافذة "قوس قزح" "نزهة فارس" "جبيرة " "معبر" "لمح" وبالتأكيد من وقت إلى آخر لكى تضحكنا تقول كلمات بالنهايات ذاتها مثل

(les poux – les choux – les hiboux – les bijoux)

أى: القمل ـ الكرنب ـ البوم ـ المجوهرات. أكتب دون استعجال بقدر ما أستطيع لكى أطيل الوقت الذى يدوى فيه صوت ماما فى صمت الورقة البيضاء فى انتظار اللحظة أيضًا التى ستقول لى فيها بإيماءة صغيرة من رأسها كما لو كانت المرة الأولى التى تلاحظها:

"خطك جميل"

وعلى الفور تستعيد القراءة لكن بإيقاعها وهى تبين الفواصل بوقفة قليلة وفترة صمت بالنسبة للنقط وهذا الأمر لايمكن أن يتوقف إنها حكاية طويلة تلك التى تحكيها مساء بعد آخر؛ حيث تتكرر الكلمات ذاتها والموسيقى ذاتها لكن مشوشة وموزعة بطريقة مختلفة فى المساء وأنا نائم على فراشى بالمعسكر تحت غلالة الناموسية تمامًا قبل أن أستغرق فى النوم أسمع الضجيج العائلى، صوت أبى الخشن وهو يقرأ مقالا بالجريدة أو هو يتناقش مع ماما والخالة آديلاييد وضحكة ماما الخفيفة وأصوات السود البعيدة وهم جالسون تحت الأشجار يرقبون ريح البحر فى قمم الأشجار السامقة، إنها الحكاية اللامتناهية

ذاتها التى تعود إلىّ مليئة بالكلمات والأصوات تمليها ماما ببطء، أحيانًا النبرة التى تضعها على حرف أو الصمت الطويل جدًا الذى يضخم كلمة وضوء نظرتها اللامعة على عبارات غير مفهومة وجميلة. أعتقد أنى لاأستغرق فى النوم إلا عندما أرى هذا الضوء يلمع وعندما ألحظ هذا الشرر. كلمة، لاشىء غير كلمة أحملها معى فى منامى.

أحب أيضًا دروس ماما الأخلاقية دائمًا كل صباح أحد مبكرًا قبل تلاوة الصلاة أحب الدروس الأخلاقية لأن ماما تحكى دائمًا حكاية جديدة كل مرة تدور فى أماكن نعرفها. بعد ذلك تطرح علينا أسئلة، على لور وعلىّ. ليست أسئلة صعبة لكنها تطرحها ببساطة وهى تنظر إلينا وأشعر بزرقة نظرتها العذبة للغاية والتى تنفذ إلى أعمق أعماقى .

"هذا يحدث فى دير حيث تقيم دستة من النزيلات اثنتا عشرة فتاة صغيرة يتيمات مثلما كنت عندما كنت فى عمركما. فى المساء أثناء العشاء هل تعلمان ماذا كان على المائدة؟ فى صحن كبير سردين ويحين هذا كثيرًا، إنهن فقيرات هل تفهمان بالنسبة لهن السردين عيد! بالضبط يوجد فى الصحن سردين بقدر اليتيمات اثنتا عشرة سردينة عندما أكل الجميع أشارت الأخت إلى السردينة الأخيرة التى تبقت وسط الصحن وسألت: مَنْ التى ستأكلها؟ هل توجد بينكن واحدة تريدها؟ ولا يد ترتفع ولا واحدة من الفتيات الصغيرات تجيب. حسنًا تقول الأخت بابتهاج هذا

ماسنفعله سننفخ فى الشمعة وعندما يسود الظلام من سترغب فى السردينة يمكنها أن تأكلها دون خجل. تطفئ الأخت الشمعة وماذا يحدث؟ كل واحدة من الفتيات الصغيرات تمد يدها فى الظلام لكى تأخذ السردينة فتلتقى بيد فتاة صغيرة أخرى. توجد اثنتا عشرة يدًا صغيرة ممدودة فى الصحن الكبير! .

إنها الحكاية التى تحكيها ماما، لم أسمع أبدًا حكايات أجمل منها ولا أبشع منها.

لكن ما أحبه كثيرًا فى الحقيقة التاريخ المقدس. إنه كتاب مجلد بجلد أحمر غامق كتاب قديم على غلافه شمس ذهبية يتفجر منها اثنا عشر شعاعًا. أحيانًا تتركنا ماما ننظر إليه، لور وأنا نقلب الصفحات ببطء شديد لكى ننظر إلى الصور ولكى نقرأ الكلمات المكتوبة أعلى الصفحات وسير القديسين. توجد نقوش أحبها أكثر من كل شىء مثل برج بابل أو التى تقول: "النبى يونس يبقى ثلاثة أيام فى حوت ويخرج منه حيًا "على البعد بالقرب من خط الأفق سفينة كبيرة بأشرعة تختلط بالسحب وعندما أسأل ماما عَمّن فى هذه السفينة لا تستطيع أن تجيبنى. يخيل إلىّ أننى يومًا ما سأعرف عَمّن كان يسافر فى هذه السفينة الكبيرة لكى ألمح يونس فى اللحظة التى يغادر فيها بطن الحوت. أحب أيضًا عندما أظهر الله على المسيح أسلحة فى الهواء وسط السحب. ومعركة عازار ضد أنتيوكوس، حيث رأى أحدهما فيلاً مخيفًا يدفق بين المحاربين. ماتفضله لور البدايات خلق الرجل

والمرأة والصورة التى يرى فيها الشيطان فى شكل ثعبان برأس إنسان يلتف حول شجرة الخير والشر، وهكذا عرفت أنها كانت شجرة شالطا الموجودة عند حافة حديقتنا؛ لأن لها الأوراق ذاتها. والفاكهة ذاتها. لور تحب كثيرًا أن تذهب حتى الشجرة فى المساء تصعد على الفروع الرئيسية وتقطف الفاكهة ذات الجلد السميك التى حرم علينا أكلها. لاتتحدث عن ذلك الا معى .

ماما تقرأ علينا قصص الكتابة المقدسة وبرج بابل، هذه المدينة التى كان البرج فيها يطول السماء وتضحية إبراهيم أو أيضًا قصة يعقوب الذى باعه إخوته. حدث ذلك فى عام ٢٨٧٦ قبل الميلاد اثنا عشر عامًا قبل موت إسحق. أتذكر جيدًا هذا التاريخ. أحب أيضًا كثيرًا قصة موسى الذى أنقذ من الماء. لور وأنا نطلب دائمًا من ماما أن تقرأها لنا. لمنع جنود فرعون من قتل ابنها وضعته أمه فى "مهد صغير من الخيزران المشبك" كما يقول الكتاب" وعرضته على ضفاف النيل". عندئذ جاءت ابنة فرعون على ضفاف النهر" لكى تستحم مصحوبة بكل خادماتها. وما أن لمحت سلة الخيزران هذه، أراد فضولها معرفة الأمر فأرسلت واحدة من فتياتها لحمله. وعندما رأت هذا الصغير الذى كان يصيح فى المهد أخذتها الشفقة نحوه وزاد من حنانها جمال الطفل فعزمت على إنقاذه نسمع القصة عن ظهر قلب ونتوقف دائمًا عند تبنى ابنة فرعون للطفل وإعطائه اسم موسى؛ لأنها كانت قد أنقذته من المياه.

توجد قصة أحبها بصفة خاصة هى قصة ملكة سابا. لا أدرى لماذا أحبها لكن من كثرة التحدث عنها وصل بى الأمر إلى جعل لور تحبها هى الأخرى. ماما تعلم هذا وأحيانًا تفتح بابتسامة الكتاب الكبير الأحمر على هذا الفصل وتبدأ فى القراءة. أعرف كل عبارة عن ظهر قلب واليوم أيضًا "بعد أن شيد سالومون للرب معبدا غاية فى الروعة شيد لنفسه قصرًا استمر بناؤه أربعة عشر عامًا حيث يلمع الذهب من كل اتجاه وحيث تخطف أبصار الجميع روعة الأعمدة والنحت.." وهنا تظهر ملكة سابا". التى تجىء من أعماق الوسط لمعرفة ما إذا كان كل ماقيل عن هذا الأمير الشاب صحيحًا. جاءت فى هيئة رائعة وحملت لسالومون هدايا نفيسة مائة وعشرين ثقلاً من الذهب يقدر بحوالى ثمانية ملايين جنيه، مجوهرات نادرة وعطور لم نر مثلها أبدًا". ليست الكلمات هى التى ألمحها لكن صوت ماما يصحبنى داخل قصر سالومون المنتصب على عرشه بينما الملكة سابا رائعة الجمال تقود العبيد الذين يدحرجون الكنوز على الأرض. لور وأنا نحب كثيرًا الملك سالومون حتى وإن لم نعلم لماذا فى نهاية حياته أنكر الله ليعبد الأصنام. ماما تقول وهكذا حتى الأكثر عدلاً والأكثر قدرة بين الرجال من الممكن أن يرتكبوا معاصى. لا نفهم كيف يكون ذلك ممكنًا لكن نحب رده للعدالة وهذا القصر البديع الذى شيده حيث جاءت الملكة سابا. لكن ما تحبه ربما يكون الكتاب بغلافه الجلدى الأحمر وهذه الشمس الذهبية

الكبرى وصوت ماما العذب الهادئ وعينيها الزرقاوين اللتين تنظران بين كل عبارة وضوء الشمس الذهبية فوق أشجار الحديقة ذلك أنى لم أقرأ أبدًا كتابًا آخر كان له تأثير عميق إلى هذا الحد.

فى فترات ما بعد الظهيرة عندما تنتهى دروس ماما مبكرًا نذهب لور وأنا لنفتش فى محتويات البيت، يوجد سلم خشبى صغير يصل حتى السقف ويكفى دفع باب. تحت الأسقف اللون رمادى والحرارة خانقة لكنا نحب أن نبقى هنا. عند حافة كل صندرة توجد كوة مستقيمة بدون زجاج مغلقة بمصاريع متفسخة. عند ما نفتح المصاريع نرى المنظر بعيداً جدًا من ناحية مزارع قصب "اليمان" و"ماجنتا"، وسلسلة الجبال والضروع الثلاثة وجبل رومبار.

أحب أن أبقى هنا فى هذا المخبأ حتى ساعة العشاء وحتى وقت متأخر عندما.. تجىء الليل. مخبئى هو نهاية جزء تمامًا عند حافة السقف من ناحية الجبال. يوجد كثير من الأثاث الملىء بالتراب الذى قرضه دود الخشب وهو كل مابقى مما كان جدى الأكبر قد اشتراه بصحبة الهنود، اجلس على مقعد خياطة منخفض جدًا وانظر من خلال الكوة نحو سيرك الجبال الذى يظهر فى الظل. فى وسط الصندرة توجد صناديق كبيرة مليئة بالأوراق القديمة ومجلات فرنسا مربوطة فى حزم بالخيط، هنا وضع أبى كل جرائده القديمة. كل ستة شهور، يعد لفافة يضعها على الأرض بالقرب من الصناديق هنا تجىء

لور وانا دائمًا لنقرأ ونشاهد الصور. ننبطح على البطن فى التراب أمام أكوام الجرائد القديمة ونقلب ببطء الأوراق. توجد"جريدة السفر" مع رسم دائم فى الصفحة الاولى يقدم مشهدًا غير عادى، اصطياد نمر فى الهند أو كذلك هجمة "الزولوس" الوثنيين ضد الإنجليز أو أيضًا هجوم هنود الجنوب على السكة الحديد فى أمريكا. فى الداخل لور تقرأ بصوت مرتفع مقاطع من "روبنسون مارسيبه، رواية مسلسلة تحبها كثيرًا. الجريدة التى نفضلها هى "أخبار لندن المصورة " وبما أنى أفهم الإنجليزية خطأ أطالع الصور باهتمام أكبر لكى أخمن ما يقوله النص. لور بدأت تعلم الإنجليزية مع أبى وهى تشرح لى المعنى ونطق الكلمات. لانظل كثيرًا؛ لأن التراب يجعلنا نعطس على الفور ويؤذى عيوننا ومع هذا نبقى أحيانًا لساعات أيام الأحد بعد الظهر عندما يكون الطقس حارًا جدًا فى الخارج أو أن الحمى تجبرنا على البقاء فى البيت.

فى الجرائد الخالية من الصور أطالع الدعاية الخاصة بالمغسلة الباريسية وصيدلية A فلورى وA تولورج ودخان كورنجى، الحبر الأزرق الأسود، ساعات الجيب الأمريكية، الدراجات التى تجعلنا نحلم مع لور ألعب بشراء أشياء، إنها الدعاية التى تمدنا بالأفكار. لور كانت تريد دراجة حقيقية مزينة بالمينا السوداء وبعجلات مجهزة بالمطاط وجادون من الكروم مثلما نراه عندما نذهب بالقرب من "شون دومارس" بيور لوى. بالنسبة لى توجد أشياء كثيرة تجعلنى أرغب

فيها مثل كراسات الرسم الكبيرة والرسومات و"مخزن ويمفان "أو براءات الصفائح الاثنتى عشرة لصناعة الأسلحة. لكن لايوجد شيء رغبت فيه أكثر من ساعة الجيب "فافرلوبا" القادمة من جنيف. أراها دائمًا فى المكان نفسه بالجرائد فى الصفحة قبل الأخيرة بالعقارب التى تسجل الوقت ذاته وعقرب الثوانى على منتصف اليوم. أقرأ دائمًا بالمذاق نفسه عبارات الدعاية التى تصفها "ضد الكسر" لاينفذ إليها الماء ولا الهواء مصنوعة من الصلب غير القابل للتأكسد وجه منقوش بالمينا عجيبة من حيث الدقة والقوة مستعدة لخدمتك مدى الحياة".

هكذا نحلم فى مخبئنا تحت الأسقف التى جففتها الشمس، يوجد أيضًا المنظر كما أراه من خلال النافذة، المنظر الوحيد الذى أعرفه وأحبه ولا أقبل عليه أبدًا بهاتين العينين عبر أشجار الحديقة المظلمة ومساحة حقول القصب الخضراء وبقع صبر "والهللا" اليمن الرمادية والزرقاء، مداخن مصانع السكر التى تطلق دخانها وبعيد سلسلة الجبال شبيهة بجدار نصف دائرى أحمر اللون متلألئ حيث تنتصب أذرع الضروع الثلاثة فى مواجهة السماء ورءوس البراكين مدببة وخفيفة تشبه أبراج قصر الجنيات. انظر إليها من خلال نافذة السقف الضيقة دون ملل كما لو كنت رقيب باخرة راسية ترسل بعض الإشارات. اسمع ضجيج البحر فى أعماقى وخلفى يحمله ريح المستنقعات. أنا فى الحقيقة داخل باخرة فى حين

تخبط أخشاب ودعامات الهيكل تجدف دائمًا أمام خط الجبال. هنا سمعت البحر لأول مرة، وهنا أحسست به من جديد بشكل أفضل بصفائحه الطويلة التى تدفع مقدمة الممر مصب النهرين وتفجر عاليًا الزبد فوق حواجز المرجان.

لانرى أحدًا أيام بوكان. أصبحنا لور وأنا متوحشين حقيقيين. ما أن تمكنا حتى هربنا من الحديقة نسير نحو القصب فى اتجاه البحر تهبط الحرارة، الحرارة الجافة التى تلسع كما يقول الكابتن كوك. هل تعلم أننا نستمتع بحرية مماثلة ؟ لكنا لانعلم حتى معنى هذه الكلمة. لانترك قاع بوكان هذه المقاطعة الساحرة المحاطة بالنهرين والجبال والبحر .

الآن وقد بدأت فترة الإجازات الطويلة يجيء ابن عمى فرديناند دائمًا عندما ينزل العم لودوفيك على أملاكه فى بارفوت واليمن. فرديناند لايحبنى. ذات يوم أسمانى "رجل الغابات" مثل أبيه وتحدث أيضًا عن"جمعه" بسبب دونيس قال "حذر" روح وجسد اسودين وغضبت. برغم أنه أكبر منى بشهرين قفزت فوقه، وحاولت أن أدك عنقه لكنه قفز فوقى بسرعة وضغط على رقبتى بتجويف ذراعه حتى شعرت بتكسير عظامى وبدموع تملأ عينىّ. لم يعد إلى "بوكان" منذ ذلك اليوم. إنى أكرهه وأكره أباه أيضًا العم لودوفيك؛ لأنه ضخم وقوى ويتحدث بصوت مرتفع وينظر إلينا دائمًا بعينين سوداوين ساخرتين ومساحة ابتسامته متشنجة. آخر مرة جاء إلينا فيها.

كان أبى غائبًا ولم تشأ أمى أن تراه. جعلتنا نقول إنها مصابة بحمى وأنها كانت متعبة. العم لودوفيك جلس رغم ذلك فى قاعة الطعام على أحد مقاعدنا القديمة الذى تكسر تحت جسده، وحاول أن يتحدث إلينا لور وأنا مال على لور تذكر ذلك وقال لها "ما أسمك؟ " عيناه السوداوان كانتا تلمعان عندما كان ينظر إلىّ أيضًا. لور كانت شاحبة تجلس مستقيمة تمامًا على مقعدها وكانت تنظر بتركيز أمامها دون أن تجيب. ظلت هكذا وقتًا طويلاً ساكنة تنظر أمامها تمامًا بينما قال لها العم لودوفيك لكى يهاجمها "ماذا؟ ليس لك لسانٌ؟ أما أنا فكان قلبى يدق بقوة من الغضب وفى النهاية قلت له " أختى لاتريد ان تجيبك" فوقف دون أن يقول أى شىء آخر، تناول عصاه وقبعته ورحل. سمعت وقع خطواته على ممرات الفالوكة ثم على ممشى الأرض المطروقة ثم ضجيج عربته الذى سمعناه وشخشخة جهاز الفرس وزمجرة العجل وشعرنا براحة تامة. منذ ذلك اليوم لم يجئ إلينا مرة أخرى.

اعتقدنا أنه كان ضربًا من الانتصار فى ذلك الوقت. لكنا لم نتحدث عن ذلك أبدًا لور وأنا ولم يعلم أحد بما جرى فى تلك الأمسية ولم نر أبدًا فرديناند فى الأعوام التالية فضلاً عن ذلك أنه بلا شك فى هذا العام عام الإعصار ألحقه والده بداخلية الكلية الملكية أما نحن فلم نكن نعلم أن كل شىء سيتغير وأننا كنا نعيش أيامنا الأخيرة فى قاع "بوكان".

فى هذا العهد علمنا لور وأنا أن شيئًا ما لايسير كما ينبغى فى أعمال أبينا. أما هو فلم يتحدث لأحد

ولا حتى لأمنا، لكى لايشغلها ومع ذلك كنا نشعر تمامًا بما كان يحدث كنا نخمن، قالت لى لور يوما عندما كنا كما هى العادة نستمر طويلاً فى السحارة أمام رزم الجرائد القديمة.

"إفلاس ماذا تعنى هذه الكلمة إفلاس؟"

هى لاتطرح علىّ السؤال بما انها تشك تمامًا فى أنى أجهله. هى كلمة قيلت هنا سمعتها ترن فى رأسها فيما بعد رددت كلمات أخرى تخيف أيضًا رهن عقارى حجز كمبيالة. على ورقة كبيرة قرأت بسرعة ـ وهى على مكتب أبى ـ كلمتين غامضتين بالإنجليزية: أصول ومديونيات. ماذا يعنى هذا؟ لور لاتعرف هى الأخرى معنى هذه الكلمات ولاتجرؤ على أن تطلب من أبينا. هى كلمات مليئة بالتهديد تحمل فى طياتها خطرًا لانفهمه مثل الأرقام التى تحتها خط والمشطوبة والمكتوب بعضها بالأحمر.

مرات كثيرة استيقظت على ضجيج أصوات فى ليل متأخر. رداء النوم مبلل بالعرق السائل على جسمى أركض على طول الممر حتى باب حجرة الطعام المضاءة. من خلال الباب الموارب أسمع صوت أبى الخشن ثم أصواتًا أخرى غير معروفة ترد عليه، عما يتحدثون؟ حتى لو سمعت كل كلمة لا أتوصل إلى فهمها لكنى لا أسمع الكلمات أسمع فقط ضجيج الأصوات والزجاجات التى تصطدم بالمائدة والأقدام التى تضرب الأرض والكراسى التى تقرع. ماما ربما تكون هنا هى

الأخرى تجلس إلى جوار أبى مثلما فى ساعات الطعام؟ لكن رائحة التبغ القوية تخبرنى. ماما لاتحب تدخين السيجار يجب أن تكون فى حجرتها فى فراشها الجلدى تنظر هى الأخرى إلى خط الضوء الأصفر الذى يمر من تحت الباب الموارب مستمعة إلى ضجيج الأصوات غير المعروفة مثلى أنا الذى لبد فى ظل المعبر بينما يتكلم أبى، يتكلم كثيرًا. وأعود بسرعة إلى الحجرة وأنساب تحت الناموسية. لور لاتتحرك أعلم أنها لاتنام وأن عينيها مفتوحتان تمامًا فى الظلام وأنها تستمع هى الأخرى إلى الأصوات فى الناحية الأخرى من المنزل. ممددًا على سريرى ذى السيور أنتظر مستعيدًا أنفاسى حتى أسمع وقع الخطوات فى الحديقة وصرير محاور العربة التى تبتعد. أنتظر أيضًا حتى يتناهى ضجيج البحر وجزر الليل غير المرئى عندما يصفر الريح فى قمم الأشجار السامقة ويضرب مصراع النوافذ لدرجة أن هيكل المنزل يئن مثل هيكل سفينة قديمة. عندئذ أستطيع أن أنام.

دروس دونيس هى الأجمل. يعرفنى بالسماء والبحر والكهوف عند سفح الجبال والحقول البائرة حيث نعدو معًا فى ذلك الصيف بين أهرامات جدران المستعمرات السوداء. أحيانًا نذهب منذ الفجر بينما لاتزال قمم الجبال قيض زوال النهار والبحر المنخفض، على البعد يستعرض حكاياته. نمر خلال نباتات الصبر على امتداد الطرق المستقيمة الصامتة.

دونيس يسير فى الأمام أرى ظله الطويل الدقيق والمرن الذى يتقدم كما لو كان يرقص. هنا لايعوى كما يفعل فى حقول القصب. من حين إلى آخر يتوقف يشبه كلبًا اشتم أثر حيوان متوحش، أرنب مفترس. عندما يتوقف يرفع يده اليمنى قليلاً بعلامة وأتوقف أنا الآخر وأسمع. أسمع ضجيج الريح فى الصبر وضربات قلبى أيضًا. الضوء الأول يلمع فوق الأرض الحمراء يضىء الأوراق المعتمة. زوال النهار ينتشر على قمم الجبال. السماء الآن متوهجة. أتخيل البحر بلون اللازورد بالقرب من سد المرجان الأسود أيضًا عند مصب الأنهار. "توقف! " قالها دونيس. هو ثابت على المضيق يرينى الجبل من ناحية نحور النهر الأسود. أرى عصفورًا عاليًا جدًا فى السماء ينساب على المجرى الهوائى رأسه مستدير قليلاً فى ناحية وذيله الأبيض الطويل يتحرك خلفه "قش" فى ذيله. كما يقول دونيس. هى المرة الأولى التى أراه فيها يدور ببطء فوق الشعاب ثم يختفى من ناحية "مانانافا".

دونيس يواصل السير نتبع وادى "بوكان" المستقيم، نحو الجبال نجتاز حقول قصب قديمة هى الآن بائرة، حيث لايبقى غير الجدران القصيرة لسائل البركان المدفون تحت أدغال الأشواك. لم أعد فى منطقتى. أنا على أرض غريبة أرض دونيس وسود الناحية الأخرى فى "شاماريل" والنهر الأسود" و" كازنويال" كلما ابتعد دونيس عن "بوكان" وصعد نحو الغابة والجبال يصبح أقل حذرًا، يتحدث أكثر ويبدو أكثر حرية يسير ببطء الآن حركاته أكثر يسرًا حتى وجهه

ينير ينتظرنى فوق الساحة ويبتسم ـ يشير إلى الجبال القريبة منا ناحية اليد اليمنى" لويس الكبير جبل الأرض الحمراء". الصمت يحيط بنا لم تعد هناك ريح لم أعد أشم رائحة البحر، الأشواك النابتة كثيفة لدرجة أنه يجب علينا أن نصعد من جديد مهاد السيل. خلعت حذائى وشبكته بالبريم حول عنقى مثلما أفعل عندما أصحب دونيس. نسير فى منطقة الماء البارد على الحصى المدبب فى الأبازيم، يتوقف دونيس يتفحص الماء بحثًا عن جمبرى وجراد البحر.

الشمس تكون عالية فى السماء عندما نصل إلى منبع "بوكان" قريبًا جدًا من الجبال الشاهقة. حرارة يناير ثقيلة أشعر بألم فى التنفس تحت الأشجار ذباب متنمر يخرج من ملاجئه ويتراقص أمام عينىّ وأراه يتراقص أيضًا حول شعر دونيس الصوف. على منحدر السيل خلع دونيس قميصه وبدأ فى قطف الأوراق. أقترب لأرى الأوراق الخضراء الداكنة مكسوة بزغب رمادى خفيف يجنيها فى قميصه الذى تحول إلى حقيبه". بسرعة خيالية كما يقول دونيس يلقى قليلاً من الماء فى مجوف ورقة ويبسطها لى على الزغب الدقيق، تظل القطرة متجمدة شبيهة بجوهرة سائلة. بعيدًا أكثر يجنى أوراقًا أخرى "بسرعة خاطفة" على جذع شجرة يطلعنى على معرشة " معرشة سبعة أعوام". أوراق على شكل كف تفتح على هيئة قلب": «نغمة الفا» كنت أعلم أن العجوز سارة، أخت الكابتن كوك، كانت يافعة " وكانت تعد أدوية سائلة للحيوانات وكانت تقرع لكنها كانت المرة الأولى التى يصحبنى

فيها دونيس عندما يذهب باحثًا عن نباتات لها. سارة مدغشقرية جاءت من الأرض الكبيرة مع كوك جد دونيس عندما كان لايزال هناك عبيد. ذات يوم حكى لنا كوك لور وأنا أنه خاف خوفًا شديدًا عندما وصل إلى بور لوى "مع العبيد الآخرين وأنه كان معلقًا فوق شجرة "الوكالة" ولم يشأ أبدًا أن يهبط؛ لأنه كان يعتقد أنه سيؤكل هنا على الأرصفة. سارة عاشت عند النهر الأسود وكانت فيما مضى تأتى لترى أخاها وكانت تحبنا كثيرا لور وأنا. الآن هى عجوز جدًا.

دونيس يستمر فى السير بطول السيل نحو المنبع. الماء الذى يجرى خفيف أسود وأملس على صخر البازلت. الحرارة ثقيلة لدرجة أن دونيس يرش وجهه وجسمه بماء الجدول ويقول لى أن أفعل الشىء نفسه لكى أنتعش. أشرب من الجدول نفسه الماء الطازج الخفيف. دونيس يتقدم دائمًا أمامى على طول المجرى المستقيم. يضع على رأسه حزمة الورق. أحيانًا يتوقف يشير إلى شجرة فى كثافة الغابة وإلى نبات "وعرشة: نيزوان" "لسان بقرة" غابة زوزو" عطر كبير "غابة نبيذ "برين" "غابة جدى" "غابة طبل".

يجنى نباتًا زاحفًا له أوراق مستقيمة يسحقه بين إبهامه وسبابته لكى يشمه"رعى الحمام". بعيدًا جدًا أيضًا، يخترق الغياض حتى شجرة كبيرة ذات جذع اسمر. ينزع قليلاً من القشر البازغ بصوانة فينساب الماء الذهبى. يقول دونيس "تاتاماكا". أسير خلفه عبر الأشواك المثنية لتجنب الفروع التى تحلب. دونيس

ينساب بلا صعوبة وسط الغابة صامتًا كل حواسه راصدة. تحت قدميّ العاريتين التربة ندية وفاترة. خائف أنا ومع هذا أريد أن أذهب بعيدًا أكثر أغرز فى قلب الغابة. دونيس يتوقف أمام جذع مستقيم تمامًا ينزع قطعة من القشرة ويجعلنى أشمها، إنها رائحة تدير رأسى. دونيس يضحك ويقول ببساطة "غابة صمغية".

نواصل، دونيس يسير بسرعة أكثر كما لو كان يعرف الطريق غير المرئى. حرارة ورطوبة الغابة تضغطان على صدرى أجد صعوبة فى استعارة أنفاسى، أرى دونيس يتوقف أمام دغل :"فستق كستنائى" فى يده قرن مفتوح قليلا يتجنب به بذورًا سوداء هى ذات مرارة زيتية لكن هذا يمنحنى القوة. يقول دونيس: كان هذا هو طعام الحيوانات الداجنة، مع "ساكالافو العظيم". إنها المرة الأولى التى يحدثنى فيها عن "كالافو" قال لنا أبونا ذات مرة أنه مات هنا عند سفح الجبل عندما قبض عليه «البيض». ألقى به من أعلى الصخر بدلا من أن يحاكم. أصابنى هذا بانطباع غريب أن يأكل المرء ما أكله هو هنا فى هذه الغابة مع دونيس. نحن الآن بعيدان عن الجدول تمامًا عند سطح جبل "الأرض الحمراء" الأرض جافة والشمس حارقة خلال أوراق شجر الطلح الخفيفة.

يقول دونيس:"رجل دجاجة خيار".

يتوقف فجأة. وجد ماكان يبحث عنه يتجه مباشرة إلى الشجرة وحده وسط الشوك إنها شجرة

جميلة ظليلة ذات فروع منخفضة ومنبسطة تحمل أوراقًا سميكة خضراء لها انعكاسات نحاسية. انبطح دونيس أرضًا تحت قدم الشجرة المختبئة فى الظل عندما اقترب ودون أن ينظر إلىَّ وضع حزمته على الأرض.

"ماهذا؟"

دونيس لايجيب مباشرة يبحث فى جيوبه.

يقول: "تفتت".

يده اليسرى تمسك بشىء ما، دونيس يغنى قليلاً بصوت منخفض دون أن يقف كما يفعل الهنود فى الصلاة، يمرجح جسمه من الأمام إلى الخلف ويغنى بصوت منخفض فى ظل الشجرة، ولا أرى غير ظهره الذى يلمع من العرق. عندما أنهى صلاته، حفر الأرض قليلا عند قدم الشجرة بيده اليمنى قبضته اليسرى تتفرج وأرى على الكف فلسًا. العملة تنساب وتقع فى عمق الحفرة ويغطيها دونيس بعناية بالأرض وبقليل من الشيبة التى يأخذها من الجذور ثم يقف ودون أن ينشغل بى يجنى أوراق الفروع المنخفضة ويضعها على التربة بالقرب من الحزمة. يفصل بظرره المدبب قطعًا من الجذع الأملس يسيل من الجرح لبنًا رائقًا. دونيس يضع أطراف القشر والأوراق المفتتة فى قميصه ثم يقول: "هيا" ودون أن ينتظرنى يبتعد سريعًا عبر الأشواك. يهبط من جديد منحدرات التلال نحو وادى "بوكان" الشمس أصبحت فى الشرق أرى من

فوق الأشجار شائبة نار البحر والأفق حيث تولد السحب. خلفى متراس الجبال الأحمر يعكس الحرارة كما لو كان فرنًا. أسير سريعًا على آثار دونيس حتى الجدول الذى هو نبع "بوكان" ويخيل إلىّ أنى رحلت منذ زمن طويل ربما لأيام وهو ماسبب لى دوارًا.

فى غضون ذلك الصيف من عام الإعصار حدا بأبى إلى خوض غمار تحقيق مشروعه القديم الخاص بمعمل إنتاج الكهرباء فى النهر الأسود. متى بدأ هذا حقيقة؟ لم أحتفظ فى هذا الشأن بذكرى محددة؛ لأن أبى كانت لديه فى ذلك الوقت عشرات المشروعات المختلفة التى كان يحلم بها فى صمت ولم نلاحظها لور وأنا فيما عدا أصداء مخففة. كان لديه فيما أعتقد مشروع مصنع سفن عند مصب النهر الأسود وأيضًا مشروع منطاد لنقل الأشخاص بين أرخبيل ماسكارانى الهندى وجنوب إفريقيا. لكن كل هذا ظل وهمًا ولم نعرف غير ما قالت به ماما أو الذين كانوا يجيئون أحيانًا فى زيارة. مشروع معمل إنتاج الكهرباء هو ماكان بالتأكيد الأقدم ولم يبدأ تنفيذه إلا فى هذا الصيف فى الوقت الذى كانت فيه ديون أبى عضالا. ماما هى التى حدثتنا عن ذلك ذات يوم، بعد الفصل. تحدثت عن ذلك كثيرًا بتأثر وقد لمعت عيناها. عهد جديد كان يبدأ وسنعرف الأمان أخيرًا دون خوف من الغد أبونا كان قد نظم الحوض فى العفرات هنا حيث يلتقى ذراعا النهر الأسود .

كان هذا هو الموقع الذى اختاره لكى يقيم المعمل الذى سيعطى الكهرباء لأنحاء المقاطعة الشرقية

من"ميدين" حتى "بل اوميز" أو "الظل الجميل". المولد الذى كان قد اشتراه من لندن بالمراسلة أبحر بالفعل إلى "بور لوى" وكان قد جاء على عربة أبقار بامتداد الشاطئ حتى النهر السود. عندئذ كان زمن الإنارة بالزيت وبماكينة البخار قد انتهى والكهرباء بفضل أبينا ستحدث فى أنحاء الجزيرة تقدمها شيئًا فشيئًا. ماما شرحت لنا أيضًا ماذا كانت تعنى الكهرباء خواصها واستخدامها لكنا كنا أصغر من أن نفهم أى شىء إلا كشف أسرار قطع الورق الممغنطة بعقد ماما العنبر كما كنا نفعل كل يوم فى ذلك الوقت.

ذات يوم ذهبنا جميعًا ماما، أبى لور، وأنا فى العربة ذات الجواد إلى البركة فى "ايجريت" فى وقت مبكر جدًا بسبب الحرارة؛ لأن ماما تريد أن تعود قبل الظهر. عند ثانى منحنى من الشارع المتجه للنهر. الأسود وجدنا الطريق الذى يصعد بطول النهر، أبى نظف الطريق ليسمح بمرور العربة ذات الأبقار التى تحمل المولد وعربتنا تجرى فى ضباب كثيف من التراب.

إنها المرة الأولى التى نصعد فيها لور وأنا بطول النهر الأسود وننظر حولنا بفضول. تراب الطريق ينتشر حولنا ويغطينا فى سحابة بلون الحديد. ماما لفت وجهها بشال متشبهة بامرأة هندية. أبى سعيد يتكلم وهو يقود الجواد أراه بحيث لا يمكننى أبدًا أن أنساه: ضخم جدًا أو رفيع وأنيق يرتدى حلته الرمادية السوداء شعره الأسود يتدلى إلى الخلف أرى جانب

وجهه وأنفه الدقيق الرومانى، لحيته المشعثة، يداه الأنيقتان تمسكان دائمًا سيجارة بين السبابة والإبهام على طريقة القلم. ماما تنظر إليه هى الأخرى أرى ضوء نظراته فى ذلك الصباح على شارع التراب بامتداد النهر الاسود.

عندما نصل بالقرب من البركة فى "ايجريت" أبى يربط الجواد فى جذع شجرة. ماء المفيض نقى فى لون السماء. الريح تكّون الأخاديد التى تهز اليراع . لور وأنا نقول إننا سنحب تماما أن نستحم لكن أبى يكون قد سار نحو السقالة التى ترفع المولد يطلعنا فى كوخ من الخشب على الدينامو المقيد فى التوربين بحبال وسيور. فى الظل التداخلات تلمع بشظية غريبة جعلتنا نخاف بعض الشىء. أبونا أطلعنا أيضا على ماء البركة الذى يجرى عن طريق قناة تصب فى النهر الأسود. بوبينات كابلات ضخمة موضوعة على الأرض أمام المولد أبى يشرح مبينًا أن الكابلات ستحلق بامتداد النهر حتى مصنع السكر ثم منه خلال التلال نحو "تاماران" ووهدان "بوكان". فيما بعد عندما يقوم التجهيز بتجاربه ستمتد الكهرباء أيضًا بعيدًا جدًا فى الشمال نحو "ميدين" و"فولمار" وربما حتى "فينيكس". أبى يتحدث إلينا وإلى أمى لكن وجهه متجه إلى وجهة أخرى إلى زمن آخر إلى عالم آخر.

وهكذا لا نكف عن التفكير فى الكهرباء. لور وأنا نعتقد أنها ستجىء كل مساء كما لو كان ذلك بفعل معجزة وانها ستنير فجأة داخل منزلنا وتلمع فى

الخارج فوق النباتات والأشجار مثل نار "سان ـ إيلم". "متى ستأتى؟ . ماما تبتسم عندما نلقى عليها السؤال إننا نريد أن نكتشف سرًا ."قريبًا..." وتشرح بوجوب رفع التوربين وتثبيت القنطرة وغرس الأوتاد الخشبية وتعليق الكابلات بها، كل هذا يتطلب شهورًا وربما سنوات. كلا من المستحيل وجوب الانتظار طويلاً هكذا. أبى قليل الصبر هو الآخر فالكهرباء هى أيضًا نهاية همومه وبداية ثروة جديدة. العم لودوفيك سيرى وسيفهم هو الذى لم يشأ أن يعتقد فى ذلك. كما فى كل مصانع السكر بالغرب ستحل التوربينات الكهربائية محل ماكينات البخار أبى يذهب كل يوم تقريبًا إلى "بورلوى" فى شارع "رومبار". يرى شخصيات مهمة ورجال بنوك ورجال أعمال. لم يعد العم لودوفيك يأتى إلى "بوكان" يبدو أنه لايعتقد فى الكهرباء على الأقل فى هذه الكهرباء. لور سمعت أبانا يقول ذلك ذات مساء لكن إذا كان العم لودوفيك لايعتقد فيها فكيف ستأتى حتى هنا لأنه هو الذى يملك كل الأراضى المحيطة وهو الذى يملك كل ساحات الماء. حتى وهدان "بوكان" له. لور وأنا نمضى هذا الصيف الأخير وطوال شهر يناير فى القراءة على الأرض فى الردهات. نتوقف كل مرة يتعلق فيها الأمر بماكينة كهربائية ودينامو أو حتى بلمبة ذات خيط .

الليالى ثقيلة يوجد الآن توقع فى رطوبة الملاءات تحت النموسية. شىء ما يجب أن يجىء. فى الظلام أرصد ضجيج البحر وأنظر إلى ظهور اكتمال القمر

عبر مصراع النوافذ كيف تعرف ما يجب أن يجىء؟ ربما يكون ذلك فى نظرة ماما كل مساء فى ساعة الدرس. تجتهد فى ألا تترك شيئًا يظهر لكن صوتها ليس هو نفسه وتغيرت كلماتها، نشعر بالقلق ينتابها وعدم الصبر أحيانًا تتوقف أثناء الإملاء وتنظر من ناحية الأشجار الضخمة كما لو أن شيئًا ما ينبغى أن يظهر.

ذات يوم فى نهاية الظهيرة وأنا عائد من تيهان طويل مع دونيس فى الغابات، من ناحية النحور لمحت أبى وماما على الشرفة ولور إلى جوارهما منكمشة بعض الشىء، آلمنى قلبى لأنى خمنت مباشرة بأن شيئًا خطيرًا قد حدث عندما كنت فى الغابة. خفت أيضًا من تبكيت أبى. يقف بالقرب من السلالم عابس الوجه نحيف للغاية فى حلته السوداء التى تعوم فوقه وهو ممسك دائمًا بسيجارته بين إبهام وسبابة اليد اليمنى.

"أين ذهبت "

ألقى علىّ بالسؤال بينما كنت أصعد الممرات وتوقفت. لم ينتظر إجابتى قال فقط بصوت لم أعهده فيه صوت غريب ومكتوم بعض الشىء :

"أحداث خطيرة تخاطر فى عمل..."

لايعرف كيف يستطرد .

ماما تتكلم بدورها. إنها شاحبة وتبدو شاردة. هذا هو ما آلمنى بصفة خاصة. أردت كثيرًا ألا أسمع ما عندها لتقوله لى.

"اليكسى يجب علينا أن نترك هذا البيت علينا أن نرحل من هنا وللابد "

لور لاتقول شيئًا. تقف مستقيمة تمامًا على الفالوكة تنظر بثبات أمامها بذات الوجه عدم الإحساس والمتصلب مثلما كان عندما سألها العم لودوفيك عن اسمها بصوته الساخر .

إنه الغروب بعد الليل اللطيف يبدأ على الحديقة. أمامنا فجأة فوق الأشجار يلمع النجم الأول بضوء ساحر. لور وأنا ننظر إليه وماما تستدير هى الأخرى نحو السماء مثبتة النجم كما لو كانت تراه للمرة الأولى فوق النهر الأسود .

لفترة طويلة ظللنا ساكنين تحت بصر النجم. الظل يهبط تحت الأشجار ونسمع فرقعات الليل والخشخشات وموسيقى البعوض الزبرجدية .

ماما هى أول من قطع الصمت قالت بتنهيدة "كم هو جميل! " ثم قالت ببشاشة وهى تهبط درجات الشرفة :"هيا سنبحث عن النجوم" .

هبط أبى هو الآخر، سار ببطء بانحناءة قليلة ويداه خلف ظهره، أسير بالقرب منه ولور تتشبث بماما، درنا معًا حول البيت الكبير، كسفينة غارقة. فى كوخ الكابتن كوك ضوء متذبذب نسمع ضجيج صوت مخنوق. إنه آخر من بقى فى المنطقة مع زوجته. أين سيذهبان؟ عندما جاء أول مرة إلى "بوكان" فى زمن جدى كان فى العشرين من عمره، وكان قد عتق فى

ذات الوقت أسمع صوته الذى يرن فى كوخه يتكلم وحده أو يغنى، على البعد توجد أصوات أخرى ترن من ناحية حقول القصب، إنهم المهلهلون الذين يلتقطون أو الذين يسيرون فى اتجاه "تاماران"عن طريق"لاكوب" يوجد أيضًا صرير البعوض وغناء الضفادع فى البركة فى الطرف الآخر من الحديقة.

بالنسبة إلينا السماء تضىء. يجب نسيان كل شىء ولا نفكر مطلقًا إلا فئ النجوم. ماما تطلعنا على الأضواء تنادى أبى، ليلقى علينا بأسئلة، أسمع فى الظلام صوته الجلى الشاب وهذا يريحنى ويجعلنى واثقًا .

"انظروا هنا... أليست هى "بيتلجوز" عند قمة "أوريون " ؟ والملوك المجوس الثلاثة! انظروا نحو الشمال سترون العربة. ماسم النجم الصغير الذى يرى بالكامل عند حافة العربة فوق المجر ؟"

أنظر بكل قواى لست متأكدًا من رؤيته.

"بحجم صغير جدًا فى أعلى العربة فوق النجم الثانى؟ " أبى يلقى السؤال بحدة كما لو أن ذلك له فى هذا المساء أهمية استثنائية .

"نعم هو هذا. إنه صغير جدًا أراه وكان يختفى". يقول أبى إنه الكور". ويسمى أيضًا حوذى العربة الكبيرة، العرب أطلقوا عليه اسم الكور بما يعنى اختبار؛ لأنه صغير للغاية بحيث تراه العيون الثاقبة جدًا التى تستطيع أن تتبينه" ويصمت لحظة ثم يقول

لماما بصوت أكثر بهجة " لك عينان ثاقبتان أنا لا أستطيع أبدًا أن أراه " .

أنا أيضًا رأيت الكور أو بالأحرى أحلم بأنى لمحته، دقيق مثل ذرة تراب من نار فوق مجر العربة الكبيرة ولمجرد رؤيته فإن هذا يمحى كل الذكريات السيئة وكل الهموم .

أبى هو الذى علمنا أن نحب الليل. أحيانًا فى المساء عندما لايعمل فى مكتبه يجذبنا من اليد لور على يمينه وأنا على اليسار، ويقودنا بطول الممر الذى يخترق الحديقة حتى أسفل نحو الجنوب ويقول ممر النجوم، لأنه يتجه نحو منطقة السماء المأهولة أكثر وهو يسير يدخن سيجارة، ونشم رائحة التبغ الطيبة فى الليل، ونرى الوميض الذى يتوهج حمرة بالقرب من شفتيه ويضىء وجهه ـ أحب رائحة التبغ فى الليل.

الليالى الأجمل فى يوليو عندما تكون السماء باردة ومضيئة وبحيث نرى فوق جبال النهر الأسود كل أضواء السماء الأكثر جمالاً: فيجا، إيجل ـ تقول لور إنها تشبه أكثر لمبة طيارة ـ والثالث الذى لا أتذكر أبدًا اسمه يشبه حلية فريدة فى قمة الصليب الكبير. إنها النجوم الثلاثة التى يسميها أبى جميلات الليل التى تلمع فى مثلث فى السماء الصافية. يوجد أيضًا" جوبيتير" و"ساتورن" فى الجنوب تمامًا وهما نيران ثابتة فوق الجبال. تنظر كثيرًا إلى "ساتورن" لور وأنا لأن خالتنا آديلاييد قالت لنا إنه كان كوكبنا ذلك الذى

يسود فى السماء عندما ولدنا فى ديسمبر. هو جميل يميل للزرقة يلمع فوق الأشجار. صحيح أن به شيئًا ما يخيف، ضوء نقى وحاد مثل ذلك الذى يلمع أحيانًا فى عينى لور "مارس" ليس بعيدًا عن "ساتورن" هو أحمر ونشط وضوؤه أيضًا يجذبنا. أبى لا يحب الأشياء التى تحكيها عن النجوم يقول لنا "هيا سننظر إلى صليب الجنوب يسير أمامنا حتى حافة الممر من ناحية شجرة "شالطا" لكى نرى جيدًا صليب الجنوب يجب أن نكون بعيدًا عن أضواء البيت ننظر إلى السماء دون حتى أن نتنفس. أعلم على الفور "التوابع" العالية فى السماء عند حافة "سونتور" فى اليمين الصليب شاحب وخفيف يخفق بميل بعض الشىء كشراع ورق. لور وأنا نلمحه فى الوقت ذاته، ولسنا فى حاجة إلى قول ذلك. ننظر معًا الى الصليب دون أن نتكلم ماما تأتى لتلحق بنا ولا تقول شيئًا لأبينا نبقى هنا، وكما لو كنا نستمع إلى ضجيج النجوم فى الليل. كم هو جميل ألا نكون فى حاجة إلى قول ذلك لكنى أشعر بقلبى يؤلمنى وعنقى الذى يلتك لأنه فى هذه الليلة، تغير شىء ما شىء ما يقول إن كل شىء يجب أن ينتهى. ربما يكون ذلك مكتوبًا فى النجوم هاهو ما أفكر فيه ربما يكون ذلك مكتوبًا فى النجوم فكيف يجب أن نفعل لكى لايتغير شىء وأن ننقذ.

توجد علامات كثيرة فى السماء. أتذكر كل ليالى الصيف عندما كنا مختبئين فى عشب الحديقة، وكنا نرصد النجوم الجارية على مهل. ذات مساء رأينا

مطرًا من النجوم وقالت ماما على الفور: "هذه علامة حرب ولكنها صمتت؛ لأن أبانا لايحب أن نقول أشياء من هذا القبيل. نظرنا طويلا إلى السحب المتقدة التى كانت تعبر السماء فى كل اتجاه، بعضها طويل للغاية حتى كنا نستطيع أن نتبعها بالنظر وأخرى قصيرة كانت تتبدد بسرعة. علمت اليوم أيضًا أن لور مثلى تحاول أن ترى فى ليالى الصيف خطوط النار هذه التى تسطر قدر الناس وتسمح للأسرار أن تتحقق. ننظر إلى السماء باهتمام لدرجة أن رءوسنا تدور وتترنح من الدوار أسمع ماما التى تتحدث بصوت منخفض إلى أبى لكنى لا أفهم معنى كلامهم. فى الشرق وحتى الشمال يوجد نهر "جالاكسى" الكبير الشاحب الذى يكوّن جزرًا بالقرب من الصليب "شديد البياض" ويصب ناحية "أوريون". فى أعلى قليلا ناحية بيتنا ألمح وميض "بليياد" المشوش الشبيه بـ "لوسيول" أعرف كل موقع فى السماء وكل برج. أبونا يدرس لنا السماء الليلية، وكل مساء تقريبًا يطلعنا على مكانها على خريطة كبيرة ملصقة على حائط مكتبه ويقول "من يعرف السماء جيدًا لايمكنه أن يخشى من البحر. هو الغامض دائمًا الصامت، عندما يتعلق الأمر بالنجوم يتكلم، ينتعش وتلمع عيناه ويقول عندئذ أشياء جميلة عن الدنيا وعن البحر وعن الله، يتحدث عن رحلات كبار البحارة هؤلاء الذين اكتشفوا طريق الهنود ومحيط الأقيانوس وأمريكا. فى رائحة التبغ الذى يطير، فى مكتبه أرى الخرائط يتحدث عن

"كوك" و"دارك" و"ماجلان" الذى اكتشف بحار الجنوب على"فيكتوريا" ثم مات فى جزر "صوند" يتحدث عن"تاسمان " و"بيسكو " و" فيلكس" الذى ذهب حتى جليد القطب الجنوبى الدائم، وأيضًا عن رحالة فوق العادة ماركو بولو فى الصين "سوتو" فى أمريكا اوريللانا " الذى صعد إلى نهر الأمازون "جميلان" الذى ذهب إلى حافة سيبيريا" مونجو بارك" "ستانلى" ليفنجستون "بيجيفالسكى" أسمع هذه الحكايات وأسماء البلاد "إفريقيا" "التبت" "جزر الجنوب" إنها أسماء ساحرة هى بالنسبة إلىَّ مثل أسماء النجوم مثل رسومات الأبراج فى المساء وأنا نائم على سريرى فى المخيم أسمع صخب البحر الذى يأتى والريح فى ابر الشباك. وعندئذ أفكر فى كل هذه الأسماء ويخيل إلى أن السماء الليلية تفتح وأنا فوق مركب ذات أشرعة شامخة على البحر اللامتناهى تبحر حتى"مولوك" وحتى خليج "آسترولاب" وحتى "فيجى" و"موريا" على كوبرى هذا المركب قبل أن أخلد إلى النوم، أرى السماء كما لم أرها أبدًا من قبل كبيرة للغاية زرقاء داكنة فوق البحر الفوسفورى المتوهج أعبر ببطء إلى الناحية الأخرى من الأفق وأجدف فى اتجاه "ملوك المجوس ونحو "صليب الجنوب".

أتذكر رحلتى الأولى فى البحر كان ذلك فى يناير كما أعتقد لأن الحرارة كانت عندئذ شديدة للغاية قبل الفجر ولم يكن هناك نفس واحد على وهد "بوكان" عند بزوغ الفجر ودون أن أحدث ضجيجًا انزلقت

خارج الحجرة، لم يكن هناك ضجيج بعد فى الخارج والجميع ينامون فى المنزل، فقط وميض يلمع فى كوخ الكابتن كوك لكنه فى هذه الساعة لا ينشغل بأحد ينظر إلى السماء الرمادية فى انتظار طلوع النهار ربما يكون الأرز فى سبيله إلى الغليان فى القدر الكبير الأسود فوق النار، ولكى لا أحدث ضجيجًا أسير حافى القدمين على أرض الممر الجافة حتى حافة الحديقة. دونيس ينتظرنى تحت شجرة "شالطا الكبيرة وعندما وصلت إليه وقف دون أن يقول كلمة واحدة ويبدأ السير نحو البحر يذهب سريعًا عبر النباتات دون أن يهتم بى، أنا الذى يلهث. يمام يجرى بين القصب خائف لكن دون أن يجرؤ على الطيران. عندما ظهر ضوء النهار سلكنا طريق النهر الأسود، الأرض أصبحت ساخنة تحت قدمى والهواء يشم التراب، بدأت العربات ذات الأبقار تجرى على طرق النباتات وأرى على البعد الدخان الأبيض لمداخن معامل السكر أنتظر عصف الريح. يتوقف دونيس فجأة نظل ثابتين وسط القصب أسمع عندئذ ضوضاء الأمواج فوق الصخر. يقول دونيس "عظيم البحر" ريح المفيض تجىء نحونا.

نصل إلى النهر الأسود وقت ارتفاع الشمس خلف الجبال، لم أكن أبدًا بعيدًا إلى هذا الحد عن "بوكان" وقلبى يدق بقوة بينما أجرى خلف ظل دونيس الأسود نعبر النهر بمعبر بالقرب من المصب يغطينا الماء البارد حتى القامة ثم نسير بطول تلال الرمل الأسود. على

الشاطئ توجد زوارق الصيادين مصطفة فوق الرمل بعضها تستقر مقدمته فى الماء. الرجال يدفعون الزوارق فى الفضاء، يمسكون حبل الشراع الذى نفخه ريح الغيضة وجعله يخبط. زورق دونيس عند حافة الشاطئ رجلان يدفعانه نحو البحر رجل، عجوز ذو وجه متشنج فى لون الجلد ورجل ضخم أسود ومصارع معهما امرأة شابة غاية فى الجمال تقف على الشاطئ، الشعر مضغوط فى منديل أحمر "إنها أختى" هكذا يقول دونيس صراحة ويقول هو خطيبها الزورق خاص به. المرأة الشابة ترى دونيس تناديه. معا ندفع الزورق إلى الماء. عندما يلامس الفضاء خلفية الزورق يصيح دونيس فى "اصعد! " ويقفز هو نفسه إلى الحافة. يجرى نحو المقدمة يقبض على العصا الطويلة لكى يقود الزورق نحو الاتساع. الريح ينفخ عن قرب شديد الشراع الكبير كما لو كان علمًا والزورق يقفز وسط الأمواج. عندئذ نكون بعيدين عن الشاطئ أرتجف وأنا مبلل بالموج الذى يصطدم ولكنى أنظر إلى الأرض السوداء التى تبتعد. منذ وقت طويل وأنا أنتظر هذا اليوم! حدثنى دونيس ذات يوم عن البحر، عن هذا الزورق وسألته: "متى ستصحبنى معك على الزورق؟ نظر إلىَّ دون أن يقول شيئًا كما لو كان يفكر. أنا لم أتحدث لأحد بهذا الشأن ولا حتى للور لأنى خفت من أن تقول لأبى. لور لاتحب البحر ربما لأنها تخاف منه. ولهذا عندما خرجت هذا الصباح حافى القدمين لكى لا أحدث ضجيجًا استدارت فى سريرها ناحية الحائط حتى لاترانى.

ماذا سيحدث عندما أعود؟ لكن الآن لست على استعداد للتفكير فى ذلك كما لو كنت لن أعود أبدًا. الزورق يغطس فى جوف الأمواج مفجرًا حزمًا من الزبد فى الضوء. الرجل العجوز والخطيبة ربطا الشراع المثلث الزوايا فى الصار والريح العتية التى تهب من المضيق ترجح الزورق. دونيس وأنا نجلس القرفصاء فى مقدمة الزورق فى مواجهة الشراع الذى يهتز وقد غطانا البلل. عينا دونيس تلمعان عندما ينظر إلىّ. ودون أن يتكلم يطلعنى على البحر الأزرق المرتفع والمعتم أو أيضًا خط الشاطئ الأسود خلفنا بعيدًا جدًا وظلال الجبال فى مواجهة السماء الصافية.

الزورق يسير على البحر المرتفع، أسمع ضجيج الأمواج العميق والريح يملأ أذنى. لم أعد أشعر بالبرد ولا بالخوف. الشمس تحرق توقف جسارة الموج. لا أرى شيئًا آخر، ولا أفكر فى شىء آخر غير البحر العميق الأزرق والأفق الذى يتحرك وطعم البحر والريح. إنها المرة الأولى التى أكون فيها فوق مركب ولم أعرف أبدًا شيئًا فى مثل هذا الجمال. الزورق يعبر النفق ويجرى بطول الصخور فى رعد الأمواج ومتفجرات حزم الزبد.

دونيس يميل على صدر الزورق ينظر إلى الماء المعتم كما لو كان يرصد شيئًا ما ثم يفرد يده ويشير إلى صخرة كبيرة محترقة مستقيمة إلى الأمام ويقول: العابسة" .

لم أره أبدًا فى مثل هذا القرب. "العابسة" منتصبة فوق البحر شبيهة بحصاة بركانية بدون شجرة واحدة وبدون نبات. تمتد حولها شواطئ الرمل النقى وماء البحيرات المالحة كما لو كنا سنذهب إلى آخر العالم. طيور البحر تطير حولنا وهى تصيح وزمج الماء. وطيور بحرية بيضاء وبارجات ضخمة. قلبى يدق بقوة وأضطرب من القلق لشعورى بأنى ذهبت بعيدًا جدًا فى الناحية الأخرى من البحر الموج البطىء يضرب الزورق من العرض والماء يكتسح العمق. دونيس يندس تحت الشراع وهو يجمع قرعتى إناء من عمق الزورق ويناديني. ننزح الماء معًا. فى الخلف الرجل الأسود الضخم يلف ذراعه حول أخت دونيس. ممسكًا بحبل الشراع بينما يستند العجوز ذو الوجه الهندى على القضيب. يسيل منهم ماء البحر لكنهم يضحكون وهم يروننا ونحن ننزح الماء الذى يجىء دون توقف. وأنا أجلس القرفصاء فى عمق الزورق أقذف الماء من فوق الحافة تحت الريح، وأرى فى ذات الوقت تحت الشراع سمك العابسة الأسود وبقع الرغاوى على الصخر .

ثم نغير مقدم الزورق، والريح يكنس الشراع الكبير فوق رءوسنا ويطلعنى دونيس على الضلع:

"هنا المضيق وجزيرة الماء المقدس".

نكف عن نزح الماء ونركض نحو مقدمة الزورق لنرى بشكل أفضل. خط الصخر الأبيض يفتح أمامنا. الزورق المدفوع بالأمواج يندفع مباشرة نحو العابسة

هدير الأمواج على قضيب المرجان قريب جدًا. الأمواج تندفع بانحراف وتصطدم. دونيس وأنا نرقب الماء العميق بزرقة تؤدى إلى الدوار. رويدًا رويدًا يفتح اللون أمام جذع الزورق. نرى انعكاسات خضراء وسحبًا ذهبية. العمق يظهر تجرى بكل قوة صفائح المرجان وكرات بنفسجية كبيرة من القنافذ وأكوام من الأسماك الفضية. الماء هادئ الآن والريح قد كف. الشراع المنتفخ يحارب حول الصار كما العلم. نحن فى بحيرة "العابسة" هنا حيث يجىء الرجال ليصطادوا .

الشمس عالية. الزورق يتهادى فوق المياه الساكنة فى صمت، مدفوعًا بعصا دونيس. فى الخلف خطيب اخت دونيس يسند دون أن يتركها بمجداف صغير بإحدى يديه. الرجل العجوز يرقب الماء وهى فى مواجهة الشمس. يبحث عن الأسماك فى حفر المرجان فى يده خط طويل يجعل الرزاز يصفر فى الهواء. بعد عنف البحر المرتفع المعتم، بعد هبات الريح الشديدة والضباب أجد نفسى هنا كما لو أنى فى حلم فاتر ملىء بالضوء. أشعر بحرقة الشمس على وجهى وعلى ظهرى. خلع دونيس ملابسه لكى ينشفها وقلدته، عندما تعرى غطس فجأة فى الماء الشفاف دون ضجة تقريبًا. أراه يسبح تحت الماء ثم اختفى. عندما أعاد مساحة تناول سمكة كبيرة حمراء كان قد خطفها بخطاف وألقى بها فى عمق الزورق. غطس من جديد فى الحال. انزلق جسمه الأسود بين مياهين وظهر من جديد وغطس أيضًا. فى النهاية جلب سمكة

أخرى ذات قشور زرقاء ثم ألقى بها أيضًا فى الزورق. الزورق قريب جدًا من قضيب المرجان الآن. الكبير الأسود والرجل العجوز ذو الوجه الهندى يلقيان بخطوطهما. يعودان مرات عدة بأسماك وعجائز وسيدات وإسكافيات.

مكثنا طويلاً فى الصيد بينما حاد الزورق عن طريقه بامتداد الصخور. الشمس تحرق فى كبد السماء المظلمة لكن من البحر يفيض الضوء، ضوء أعمى يسكر. وأنا ساكن أميل فوق صدر الزورق أنظر إلى الماء الذى يلمع، يلمس دونيس كتفى ويخرجنى من خدرى. نظرته تبرق مثل أحجار سوداء وصوته يغنى بشكل مضحك كمواليد المستعمرات :

"ليزييه مانى مانى"

إنه دوار يجىء من البحر مثل سحر الشمس والانعكاسات التى تجعلنى مضطربًا وهى تسحب قوامى. وبرغم الحرارة الشديدة أشعر بالبرد. أخت دونيس وخطيبها تمهلا فى عمق الزورق تحت ظل الشراع الذى يتموج فى النسيم. دونيس يأخذ من ماء البحر فى يديه ويبلل وجهى وجسمى. ثم مدفوعًا فوق العصا يقود الزورق نحو الساحل بعد قليل ترسو فوق الشاطئ الأبيض بالقرب من رأسى "مورن". هنا توجد بعض الشجيرات وبعض المخمل أسير بمساعدة دونيس حتى ظل مخمل. أخت دونيس تعطينى أشرب من قارورة شرابًا حمضيًا يحرق لسانى وحلقى

وأصحو. أريد عندئذ أن أقف أن أسير نحو الزورق لكن أخت دونيس تقول يجب أن أبقى فى الظل أيضًا حتى تهبط الشمس نحو الأفق. الرجل العجوز ظل فى الزورق معتمدًا على العصا إنهم يبتعدون الآن فوق الماء التى تلمع لكى يستمروا فى الصيد .

دونيس ظل جالسًا بالقرب منى لايتكلم، هو معى فى ظل المخمل فخذاه ملطختان بالرمل الأبيض. هو ليس مثل الأطفال الآخرين الذين يعيشون فى المناطق الجميلة. هو ليس فى حاجة إلى الكلام. هو صديقى وصمتى هنا بالقرب منى هو طريقة للقول .

كل شىء جميل وهادئ فى هذا الموقع. أنظر إلى ساحة البحيرة الخضراء ومخمل الزبد بطول سد المرجان ورمل الشواطئ الأبيض والتلال الرملية والرمل المختلط بالشجيرات الشائكة وغابات الأشجار السامقة المظلمة وظل المخامل وأمامنا صخرة "مورن" المحترقة الشبيهة بقبعة مليئة بعصافير البحر .

ونحن كما لو كنا غرقى هنا منذ شهور بعيدًا عن كل العمار فى انتظار مجىء مركب فى الأفق لكى تعيدنا. أفكر فى لور التى وجب عليها أن ترقب عند شجرة "شالطا" وأفكر فى ماما وأبى وأرغب فى ألا تنتهى هذه اللحظة.

لكن الشمس تهبط نحو البحر تحوله إلى معدن، وإلى زجاج كثيف. الصيادون يعودون. دونيس هو الذى شاهدهم أولا. يسير على الرمل الأبيض وظله المتخلع

فى مشيته يشبه ظل ظله. يسبح أمام الزورق فى المياه المليئة بالشرر. أدخل فى البحر خلفه الماء المنعش يغسل تعبى وأسبح فى أثر دونيس حتى الزورق. الخطيب يمد لنا يده ورفعنا بدون مجهود عمق الزورق ممتلئ بالأسماك من كل نوع. ويوجد قرش صغير أزرق قتله الخطيب بضربة خطاف عندما اقترب لكى يأكل غنيمة مطعونًا فى منتصف الجسد تجمد القرش مفتوح الفم الذى يظهر أسنانه مثلثة الزوايا يقول دونيس إن الصينيين يأكلون القرش ويصنعون أيضًا عقدًا من أسنانه.

رغم حرارة الشمس أرتعد. خلعت ملابسى ووضعتها بالقرب من مقدمة الزورق لكى تجف. الآن يتهادى الزورق نحو المضيق ونشعر بالدوامات الطويلة التى تجىء دائمًا من أعالى البحر والتى تنكسر على سد المرجان. فجأة يصبح البحر بنفسجيًا قاسيًا. الريح ينطلق عندما نتجاوز السد بطول الجزيرة فى "بنيتييه". الشراع الكبير مط إلى جوارى ودوى والزبد تفجر فى مقدمة الزورق طوينا ملابسنا بسرعة دونيس سوانا، واخفيناها بالقرب من الصار. طيور البحر تتبع الزورق بسبب الأسماك التى شعرت بها. إنها تبحث أحيانًا عن الفوز بسمكة ويصيح دونيس مادا ذراعيه لكى يخيفها، إنها طيور بحرية لها نظرة ثاقبة تحلق فى الريح بالقرب من الزورق وهى تصيت على البيض. خلفنا تبتعد صخرة "مورن" المحترقة الضخمة فى ضوء الفسق المحجوب الشبيهة بقصر

مستفيد بالظل. بالقرب من الأفق تماماً تختلط الشمس بسحب طويلة رمادية.

لن أنسى أبداً هذا اليوم الطويل للغاية هذا اليوم الشبيه بشهور وسنين. ففيه عرفت البحر لأول مرة أردت ألا يكف وأن يستمر أكثر، أردت ألا يكف الزورق عن الجرى فوق الأمواج فى الزبد المتفجر حتى الهند وحتى المحيط يذهب من جزيرة إلى جزيرة مضاء بشمس لا تغيب .

كان الوقت ليلاً عندما رسونا عند النهر الأسود سرت بسرعة مع دونيس حتى "بوكان" عارى القدمين فى التراب. ملابسى مليئة بالملح وشعرى أيضاً وجهى وظهرى يحترقان بضوء الشمس عندما أصل أمام البيت يذهب دونيس دون أن يقول شيئاً. أسير على الممر والقلب يدق، وأرى أبى منتصباً فى الشرفة. وهو يبدو فى ضوء لمبة الصعق أكبر وأرفع فى حلته السوداء. وجهه شاحب مكدوداً بالهم والغضب. عندما أصبحت أمامه لم يقل شيئاً لكن نظرته جامدة وباردة حلقى مقبوض. ليس بسبب العقاب الذى ينتظرنى لكن لعلمى أنى لن أستطيع أن أعود أبداً إلى البحر وأن هذا الأمر قد انتهى. فى تلك الليلة وبرغم التعب والجوع والعطش ظللت ساكناً فى الفراش الذى يلهب ظهرى غير عابئ بالذباب أسمع كل حركة للهواء وكل نفس وكل فراغ يقربنى من البحر.

نعيش لور وأنا آخر أيام هذا الشتاء عام الإعصار أكثر انطواء على أنفسنا فى قاع "بوكان" حيث لا أحد يجىء لرؤيتنا. ولهذا السبب ربما استشعرنا هذا الانطباع الغريب بإنذار بخطر يقترب منا أو أن الوحدة أيضًا جعلتنا أكثر حساسية لعلامات ماقبل الركض بنهاية "بوكان". وربما أيضًا بسبب الحرارة غير المحتملة تقريبًا التى تحط على الشواطئ فى وادى"تاماران" ليل نهار. حتى نسيم البحر لايمكنه أن يخفف وطأة الحرارة على الزراعات وعلى الأرض الحمراء. بالقرب من حقول الصبر فى "والهالله " و"تاماران" الأرض تحترق كما الفرن والجداول تجف. فى المساء أشاهد دخان معمل تقطير "كاه هين" ممزوجًا بسحب الغبار الأحمر. لور تحدثنى عن خطر النار الذى يرسله الله فوق مدن "سودوم" الملعونة ومدن "جومور" وفوران بركان "فيزوف عا م ٧٩ عندما التهمت مدينة "بومبى" تحت وابل الرماد الساخن. لكن هنا ترصدنا بلا طائل، وظلت السماء فوق جبل"روميار" و"الضروع الثلاثة" صافية تحجبها بالكاد

بعض السحب غير المؤذية لكنا شعرنا فى أعماقنا بالخطر للحظات.

منذ أسابيع وأمى مريضة وقد أوقفت دروسها. أبونا بدوره قاتم ومتعب يظل مغلقًا على نفسه فى مكتبة للقراءة أو الكتابة أو للتدخين وهو ينظر من النافذة بذهول أعتقد أنه فى هذا الوقت تحدث معى صراحة عن كنز مجهول للقرصان وعن مستندات أحتفظ بها فى أعلى. منذ زمن طويل سمعت عن هذا لأول مرة ربما من أمى غير المقتنعة لكن هذا هو الوقت الذى حدثنى فيه عن ذلك مطولاً باعتباره سرًا مهمًا. ماذا قال؟ لايمكننى أن أتذكر على وجه اليقين لأنه اختلط فى ذاكرتى بكل ماسمعت وقرأت فى وقت لاحق لكنى أتذكر الغرابة التى بدت عليه عندما أدخلنى إلى مكتبه .

إنها غرفة لاندخلها قط إلا فى الخفاء ليس لأن هذا محظور صراحة لكن هناك فى هذا المكتب نوعًا من سر كان يخيفنا بل ويرعبنا قليلاً. فى ذلك الوقت مكتب والدى كان عبارة عن غرفة طويلة ضيقة فى آخر المنزل تمامًا بين غرفة المعيشة وغرفة نوم أبوينا غرفة هادئة ومفتوحة إلى الشمال مع الأرضية والجدران الخشبية المطلية ومؤثثة فقط بطاولة كبيرة للكتابة بدون أدراج وكرسى وبعض جذوع معدنية تحتوى على الأوراق. الطاولة كانت فى مواجهة النافذة بحيث عندما تكون المصاريع مفتوحة يمكن أن نرى لور وأنا وراء الشجيرات فى الحديقة تختبئ صورة ظلية

لوالدنا وهو يقرأ أو يكتب ملفوفة فى سحب دخان السجائر. من مكتبه كان يمكن أن يرى الضروع الثلاثة وجبال وديان النهر الأسود الضيقة وهو يرصد تحرك السحب.

تذكر إذًا دخولى فى مكتبه وأنا أسترد أنفاسى بالكاد وأنظر إلى الكتب والصحف المكدسة على الأرض والخرائط المعلقة على الجدران الخريطة التى أفضلها هى الخاصة بالأبراج التى أظهرت لى علم الفلك. عندما ندخل إلى المكتب نقرأ بشغف أسماء النجوم وعلامات من السماء والقوس مسترشداً بالنجم – Nunki- Lupus –Aquila – Orion Bootesالعقرب بالرسم الحذر واضعًا ذيل مثل رشق للضوء، النجمة شولا فى رأسه الحمراء انتاراس. الدب الأكبر كل نجمة فى المنحنى – Alkaid – Mizar Alioth – Me grez – Phecda – Dubhe – Merak - Auriga حيث يثبت بغرابة فى ذاكرتى النجم الأكبر وهو Menikalian أتذكر الكلب الكبير الذى يحمل فى فمه شيئًا مثل الخطاف وسيريوس الجميلة وإلى أسفلAdhare مثلث يدق. مازلت أرى التصميم المتقن الذى أحبه أكثر من غيره وكنت أبحث عنه ليلة بعد ليلة فى سماء الصيف جنوبًا فى اتجاه المنحدر: سفينة أرجو التى أرسمها أحيانًا فى تراب الطرق هكذا:

***

والدى يقف يتحدث وأنا لا أفهم جيدًا ما يقول. إنه لا يتحدث إلىّ إنما إلى هذا الطفل ذى الشعر

الطويل جدًا ذى الوجه الملفوح بالشمس وملابس ممزقة من السباق فى الأدغال وحقول قصب السكر. يتحدث إلى نفسه عيناه تلمعان وصوته مختنق إلى حد ما بالانفعال يتحدث عن الكنز الهائل الذى سوف يكتشفه؛ لأنه يعرف المكان الذى يختبئ فيه اكتشف الجزيرة التى وضع فيها القرصان المجهول مستودعه. لايذكر اسم القرصان لكن فقط كما سأقر فيما بعد فى وثائقه وثائق القرصان المجهول وهذا الاسم يبدو لى اليوم أكثر واقعية ومحمل أكثر بغموض أكثر من أى اسم آخر .

يحدثنى للمرة الأولى عن جزيرة "رودريج" واحدة من توابع موريشيوس على مسافة عدة أيام بالمركب. على حائط مكتبه علق كشفًا للجزيرة أعاد طباعته بالحبر الصينى وملونًا بالألوان المائية مغطى بعلامات ومعالم. فى أسفل اللوحة أذكر أنى قرأت هذه الكلمات جزيرة رودريج وأدناها 1876,wharton admiralty chart وأسمع والدى دون أن أستمع إليه كما فى أعماق حلم اسطورة الكنز والأبحاث التى تمت منذ مائة عام فى جزيرة "العنبر" فى Flac en flac "سيشيل". ربما تكون المشاعر أو القلق هى التى تدفعنى للفهم لأنى أعتقد أن أهم شىء فى العالم هو سر يمكنه فى كل لحظة أن ينقذنا أو يضيعنا. لم يعد الأمر خاصًا بالكهرباء الآن ولا أى مشروعات أخرى. إضاءة كنز رودريج تبهرنى وتجعل كل ماعداها شاحبًا. أبى يتحدث كثيرًا هذا المساء وهو يسير طولاً وعرضًا فى الغرفة الضيقة

يرفع أوراقًا لكى ينظر إليها ثم يضعها دون حتى أن يطلعنى عليها بينما أظل واقفًا بالقرب من طاولته دون أن أتحرك ناظرًا خلسة خريطة جزيرة رودريج المعلقة على الحائط بالقرب من لوحة السماء. وهذا قد يكون السبب فى نظرتى فيما بعد للإحساس بكل ماحدث بالتبعية هذه المغامرة وهذا المسعى فى مناطق من السماء وليس على أرض الواقع، وأنى كنت قد بدأت رحلتى على متن السفينة "آرجو".

إنها آخر أيام الصيف وتبدو لى طويلة جدًا ومحملة بأحداث كثيرة فى كل وقت من النهار والليل إنها أكثر من شهور أو سنوات تغير بعمق العالم من حولنا وتتركنا عجزة. أيام حارة عندما يبدو الجو كثيفًا وثقيلاً وسائلاً على وادى "تاماران" وتشعر أننا محاصرين فى دائرة من الجبال. ماوراء ذلك السماء صافية متغيرة السحب تنسل فى مهب الريح ظلالها تغطى التلال المحترقة. الحصاد الأخير سيكتمل قريبًا والغضب يهدر بين العاملين فى الحقول؛ لأنهم لايجدون مايأكلون. أحيانًا فى المساء أرى دخان الحرائق الأحمر فى حقول القصب فتكتسى السماء بلون غريب عاصف أحمر يؤذى العينين والحنجرة. على الرغم من الخطر أذهب كل يوم تقريبًا فى أنحاء المزارع لرؤية الحرائق أذهب حتى "اليمن" وأحيانًا حتى "تاماران" أو حتى "ماجنتا" والنهر الجميل. من أعلى البرج أرى أدخنة أخرى تتصاعد على الساحل الشمالى من ناحية "كلارونس" و"مارسوناى" على

حدود "وولمار". أنا وحدى الآن من رحلة الزورق نهانى والدى عن رؤية دونيس. لم يعد يأتى إلى "بوكان". تقول لور إنها سمعت جده والكابتن كوك وهما يصيحان به بعد ذلك لأنه جاء لمقابلته رغم المنع. ومنذ ذلك الوقت اختفى. هذا جعلنى أشعر بالفراغ وبوحدة كبيرة هنا.كما لو كنا والدى ولور وأنا آخر سكان "بوكان".

لذلك أنا ذاهب بعيدًا أبعد من أى وقت مضى. أصعد إلى قمة جدران مولد الكهرباء وأراقب الدخان المتصاعد من حجبها. أعدو عبر الحقول التى دمرها التقطيع. لايزال يوجد عمال فى بعض الأماكن نساء فقيرات جدًا من كبار السن ترتدى الخيش تلتقط أو تقطع العشب المستهجن بمناجلها. عندما ترانى بوجوه مسيجة وملابس ببقع الأرض الحمراء وأقدام حافية تضع أحذيتى المربوطة فوق الرقبة تطاردنى وهى تضحك لأنها خائفة. لايغامر أى شخص أبيض بالمجىء إلى هنا أبدًا أحيانا يسبنى السردار ويلقوننى بالحجارة وأعدو عبر قصب السكر حتى أفقد أنفاسى. أكره السيردار وأحتقرهم أكثر من أى شىء فى الدنيا؛ لأنهم قساة وأشرار يضربون الفقراء بالعصى عندما لايصل محصول القصب بسرعة أكبر إلى العربات. لكن فى المساء يحصلون على أجر مضاعف ويسكرون بالعرقى إنهم جبناء ومتملقون مع المديرين يتحدثون إليهم وهم يخلعون قبعاتهم ويتظاهرون بحب من أساءوا معاملتهم من قبل. فى

الحقول يوجد رجال عراة تقريبًا الجسد وحده مغطى بأسمال ينزعون بقايا الجذوع وسلالات القصب القديمة بملاقيت الحديد الثقيلة والتى تسمى "جلة" يحملون كتل البازلت على الأكتاف حتى عربة البقر ثم يكدسونها فى آخر الحقل، يشيدون أهرامات جديدة إنهم الذين دعتهم أمى "شهداء" قصب السكر. يغنون وهم يعملون وأحب تمامًا الاستماع إلى أصواتهم الرتيبة فى مساحات المزارع الخالية أعلى هرم أسود. أحب تمامًا أن أغنى لنفسى الأغنية القديمة بلغة الموالد التى كان يغنى بها الكابتن كوك للور ولى عندما كنا صغيرين ويقول:

"مو" عبر نهر " تانييه "

التقى بالأم الكبيرة

"مو" يقول "لى" ما الذى يفعله هنا

"لى" يقول: مو مو على كابوت

وای، وای، مو الطفل

يجب أن يعمل ليكسب خبزه

وای، وای، مو الطفل

يجب أن يعمل ليكسب خبزه

هنا فوق كومة الحجارة أرى دخان النار من ناحية "اليمن" و"هلا" إنه قريب جدًا هذا الصباح قريبًا جدًا من مخيم نهر "تاماران" وأفهم أن شيئًا خطيرًا فى سبيله للحدوث. القلب يدق أركض عبر الحقول حتى

الطريق الترابى. سقف منزلنا الأزرق الناصع بعيد جدًا حتى يمكننى أن أخبر لور بما يحدث. أسمع ضوضاء مكافحة الشغب عند وصولى إلى باب "بوكان". إنها إشاعة مثل الزوبعة التى تهب من كل اتجاه دفعة واحدة لها صدى فى أودية الجبال. توجد صيحات وهدير وأعيرة نارية أيضًا. رغم الخوف أعدو وسط حقل قصب السكر دون الحذر من التقاطيع. أصل فجأة أمام مصنع السكر وسط خضم الضجيج وأرى مكافحة الشغب. حشد مرتدى الخيش تجمع أمام الباب وكل الأصوات تصرخ معًا. أمام الحشد ثلاثة رجال على ظهور الخيل وأسمع صوت الحوافر على الأرصفة عندما يرفعون أرجل دوابهم. وعلى البعد أرى الفم المتثائب من تفل الفرن حيث دوامة الشرر.

حشد الرجال يتقدم ويتراجع على شكل رقصة غريبة، بينما تشعل الصرخات وهجًا مروعًا. الرجال يشهرون سيوفًا مزيفة والنساء ترفع مجارف وسواطير. مأخوذًا بالخوف بقيت بلاحراك بينما الحشد يدفعنى ويحيط بى. أختنق أعمانى الغبار بصعوبة كبيرة شققت طريقًا حتى جدار مصنع السكر. فى هذه اللحظة دون أن أفهم مايحدث أرى الفرسان الثلاثة يندفعون نحو الحشد الذى يحيط بهم. صدور الخيل تدفع الرجال والنساء والفرسان يضربون بأعقاب البنادق. جوادان يهربان فى اتجاه المزارع تتبعهما صرخات غضب الحشد.

مروا بالقرب منى لدرجة أنى ألقيت على الأرض فى التراب خوفًا من تعرضى للدهس ثم لمحت الفارس الثالث. سقط من فوق جواده أمسكه الرجال والنساء من ذراعيه وصرعوه. عرفت وجهه رغم الخوف الذى يشوهه إنه أحد أقارب فرديناند زوج ابنة عمه مدير مزارع العم لودوفيك ويدعى دومون. قال لى والدى إنه كان أسوأ من سردار يضرب العمال بكعوب العصى ويسرق أجور الذين يشكون منه. الآن رجال المزارع هم الذين يقسون عليه ويكيلون له الضربات ويسبونه ويطرحونه أرضًا. فى لحظة وسط الحشد الذى يصرعه أصبح قريبًا منى بحيث أرى نظراته الضائعة اسمع حشرجة أنفاسة أصابنى الخوف لأنى فهمت أنه سيموت. الغثيان يرتفع فى رقبتى يخنقنى. عيناى مليئتان بالدموع أقاتل بقبضتى الحشد الغاضب الذى لايرانى حتى. الرجال والنساء الذين يرتدون الخيش يواصلون رقصتهم الغريبة وصرخاتهم. عندما تمكنت من الخروج بعيدًا عن الحشد عدت ورأيت الرجل الأبيض. ثيابه تمزقت يحمله من ذراعيه وساقيه رجال سود نصف عراة حتى مصب تفل الفرن. الرجل لايصرخ ولا يتحرك. وجهه عبارة عن بقعة بيضاء من الخوف بينما يرفعه السود من ذراعيه وفخذيه ويبدءون فى مرجحته أمام باب الفرن الأحمر. أظل مأخوذًا وسط الطريق وأنا أسمع أصواتًا تصرخ بصوت أقوى وأقوى وهو الآن مثل أغنية بطيئة ومؤلمة تحدد إيقاع تمايل الجسم فوق ألسنة اللهب. وهناك

حركة واحدة للجمهور وصرخة كبيرة متوحشة عندما اختفى الرجل فى الفرن. وفجأة كف الصخب وأسمع من جديد هدير النيران المكتوم والغرغرة فى الأوعية الكبيرة اللامعة. لا أستطيع غض بصرى عن وجه الفرن المشتعل بالنيران حيث يجرف السود الآن تفل القصب الجاف وكأن شيئًا لم يكن. ثم ببطء ينقسم الحشد. النساء مرتديات الخيش تسرن فى التراب الوجه مغطى بالطرحة. الرجال يتوغلون فى طرق القصب سيوفهم فى أيديهم. لم يعد هناك صراخ ولا ضوضاء فقط صمت الريح على أوراق القصب بينما أسير نحو النهر. إنه صمت بداخلى يملؤنى ويصيبنى بالدوار وأعرف أننى لا أستطيع أن أتحدث إلى أحد ممن رأيتهم هذا اليوم.

أحيانًا لور تجىء معى فى الحقول نسير فوق المسارات وسط القصب المقطوع وعندما تكون الأرض رخوة جدًا أو توجد أكوام القصب المقطوع أحملها على ظهرى حتى لايتسخ ثوبها وأحذيتها. هى أكبر منى بعام واحد وهى خفيفة وهشة بحيث أتصور أنى أحملها طفلة صغيرة. تحب كثيرًا أن نمشى هكذا بينما أوراق القصب المقطوعة تكون أمام وجهها وخلفها، ذات يوم جعلتنى أرى بين الأكوام عددًا قديماً من أخبار لندن مع الرسم الذى يمثل "ناعومى" محمولة على أكتاف "على" وسط حقول الشعير."ناعومى" تضحك بصخب وهى تقتلع السنابل التى تضرب وجهها . تقول لى إنه بسبب هذا الرسم

أسمتنى "على" لور تحدثنى أيضًا عن "بول وفرجينى" لكنها قصة لا أحبها لأن فرجينى كانت خائفة من خلع ملابسها للنزول فى البحر. أجد هذا هزلاً وأقول للور إن هذه بالتأكيد ليست قصة حقيقية لكن هذا يغضبها. تقول إنى لا أفهم فى ذلك شيئًا .

نذهب فى اتجاه التلال حيث تبدأ مقاطعة "ماجنتا" و "مصايد" الأثرياء. لكن لور لاتريد أن تدخل إلى الغابة. لذلك نهبط معًا من جديد نحو نبع "بوكان". فى التلال الهواء يكون رطبًا مثل ضباب الصباح الذى يظل عالقًا طويلاً بوريقات الشجيرات لور وأنا نحب تمامًا الجلوس فى أحد الأماكن الخالية عند خروج الأشجار بالكاد من ظل الليل ونحن نرقب ممر الطيور البحرية. أحيانًا نرى زوجًا من الطيور البحرية ذات الذنب .

العصافير الجميلة البيضاء تخرج من عنق النهر الأسود من ناحية "مانانافا" وتحلق طويلاً فوقنا أجنحتها مفتوحة تشبه صلبان الزيد وأذيالها الطويلة تجرجر خلفها. لو تقول إنها أرواح البحارة الموتى فى البحر ونساء تنتظر عودتهم بلا جدوى. إنهم صامتون لاثقل لهم يعيشون فى "مانانا فا" هنا حيث الجبل مظلم وحيث السماء مغطاة. نعتقد أن المطر يولد من هنا.

"يومًا ما سأذهب الى "مانانافا"

لور تقول :

"كوك يقول يوجد دومًا كستناء فى "مانانافا" إذا ذهبت إلى هناك سيقتلونك".

"هذا ليس صحيحًا. لايوجد أحد هناك. دونيس ذهب قريبًا جدًا قال لى إنه عند الوصول إلى هذا المكان كل شىء يستحيل إلى سواد فيقال إن الليل هبط ولذلك لابد من العودة إلى الوراء .

لور تهز كتفيها. لاتحب أن تستمع إلى هذه الأشياء. تقف تتطلع إلى السماء حيث اختفت العصافير. تقول بنفاد صبر:

"هيا! "

عبر حقول نعود، نحو "بوكان". وسط الوريقات سطح منزلنا يلمع مثل بركة صغيرة.

منذ كانت مريضة بالحمى لم تعد أمنا تعطينا دروسًا فقط بعض القراءات والتعليم الدينى. هى ضعيفة وشاحبة تمامًا لاتغادر حجرتها مطلقًا إلا لكى تجلس على المقعد الوثير فى الشرفة. جاء الطبيب من "فلوريال" فى عربته التى يجرها جواد يدعى "كوينج". قال لوالدى وهو ينصرف: الحرارة هبطت لكن لعلها لاتسبب أزمة أخرى لأن ذلك سيكون مرضًا معديًا. قال ذلك ولايمكنى أن أنسى هذه الكلمة إنها فى رأسى كل لحظة نهارًا وليلا . وبسبب ذلك لا أستطيع أن أبقى فى المكان. على أن أتحرك طوال الوقت من كل حدب وصوب كما يقول أبى فى حقول قصب السكر التى تحرقها الشمس منذ الصباح، وأنا أستمع

مرتدى الخيش وهم يغنون أغانيهم الرتيبة أو نحو شاطئ البحر على أمل لقاء دونيس العائد من الصيد.

إنه الخطر الذى يتهددنا أشعر به يحط فوق"بوكان". لور أيضًا تشعر بذلك. لانتحدث عن ذلك لكن هذا مايبدو على وجهها وفى نظراتها الزائغة. فى الليل لاتنام ونظل ساكنين نحن - الاثنين - نرصد ضجيج البحر. أسمع انفاس لور المنتظمة وأعرف أن عينيها مفتوحتان فى الظلام. أظل أنا أيضًا ساكنًا على فراشى دون أن أنام، الناموسية مبعدة بسبب الحر أستمع إلى رقص البعوض لا أخرج أبدًا أثناء الليل منذ مرضت أمى لكى لا أزعجها. لكن فى مطلع النهار قبل الفجر أبدأ سباقى عبر الحقول أو أهبط نحو البحر حتى حدود النهر الأسود. أعتقد أنى ما زلت آملاً فى رؤية دونيس وهو يظهر حول الخمائل أو وهو جالس تحت شجرة لوز. أحيانًا أناديه حسب الإشارة التى كنا قد اتفقنا عليها ونحن نصر قيثارة العشب. لكنه لايجىء أبدًا. لور تعتقد أنه ذهب على جزيرته. حتى لو - أصبحت أكثر صمتًا فى الوقت الحالى.

أخذنا نقرأ فصول الرواية التى تظهر كل أسبوع فى "أخبار لندن المصورة "(نادا ليلى رايدرهاجار) المزينة بنقوش تخيف قليلاً وتجعلنا نحلم. الجريدة تصل كل يوم إثنين متأخرة ثلاثة أو أربعة أسابيع وأحيانًا تصل ثلاثة أعداد فى لفافة واحدة على سفن "ستيم تافيجيش. البريطانية الهندية. والدنا يتصفحها فى عجالة ثم يتركها على طاولة الممر وهنا نراقب

وصولها. نحملها إلى مخبئنا تحت السقف لنقرأها بمزاجنا ممددين على الأرض فى خمول الحرارة. نقرأ بصوت مرتفع دون فهم معظم الوقت لكن مع الاقتناع بأن هذه الكلمات تظل محفورة فى ذاكرتى. الساحر "زويك" يقول "أنت تسألنى يا أبى لأقول لك شباب" آمسلوبوجاس" "المسمى" بالاليو. السلوجترر وحبه لنادا أجمل نساء "زولو". كل اسم من هذه الأسماء فى أعماقى مثل أسماء الكائنات الحية التى نلتقى بها هذا الصيف فى ظلال هذا البيت الذى سنتركه قريبًا. أنا" موبو" الذى ذبح الملك شاكا" هكذا يقول الرجل العجوز. "دينجان" الملك الذى مات من أجل "نادا". "باليكا "الفتاة الشابة التى قتل"شاكا" عائلتها والتى اضطرت أن تصبح زوجته. "كاووس" "كلب" موبو" الذى يقترب من سيدة أثناء الليل بينما يراقب جيش "شاكا" الموتى يطاردون الأرض التى احتلها "شاكا" لم تستطع النوم لسماعنا "إيتونجو" وأشباح الموتى الذين يتحركون فى الأنحاء وينادى كل منهم الآخر. أرتعد عندما أسمع لور وهى تقرأ لى وتترجم هذه الكلمات وأيضًا عندما كان يظهر "شاكا" أمام محاربيه .

"أى شاكا أيها الفيل! عدالته ناصعة ورهيبة كما الشمس "انظر إلى النقوش هنا حيث تحلق نسور الظلام أمام قرص الشمس نصف المختفى فى الأفق.

توجد "نادا" أيضًا "نادا" الزئبقية بعينيها الكبيرتين وشعرها المجعد ولون بشرتها النحاسى سليلة أميرة سوداء ورجل أبيض الوحيدة التى نجت

من "كرال" الذى قتله "شاكا" إنها جميلة وغريبة فى جلد حيوان "امسك بوجاس" ابن "شاكا" الذى تعتقد إنه أخوها تحبه بجنون. أتذكر ذلك اليوم الذى طلبت فيه "نادا" من الرجل أن يحضر لها شبلا وانزلق"امسلوبوجاس" إلى عرين اللبؤة. لكن هاهى الأسود تعود من الصيد زأر الذكور لدرجة هزت الأرض. تعارك "الزولو" مع الأسد لكن اللبؤة أمسكت"امسلوبوجاس" فى فمها وبكت"نادا"موت شقيقها. كم تحب قراءة هذه القصة! تعرفها عن ظهر قلب. اللغة الإنجليزية التى بدأ يعلمها لنا والدنا هى بالنسبة إلينا لغة الأساطير. عندما نريد أن نقول شيئًا خارقًا للعادة أو سرًا نقوله بهذه اللغة كما لو أن أحدًا لايمكنه أن يفهمها .

أتذكر أيضًا المحارب الذى ضرب "شاكا" فى وجهه ويقول "أشم رائحة الجنة فوقى. "وأيضًا ظهور ملكة السماء "إنكوسافانا - إى - زولو" التى أعلنت عقاب شاكا القريب "وجمالها كانت رؤيته رهيبة ". عندما تسير "نادا" الزئبقية حتى الاجتماع "بهاء نادا كان واضحًا على كل منهم ..." هذه هى العبارات التى نرددها دون ملل فى الذروة فى الضوء الخافت فى نهاية اليوم. يبدو لى اليوم أنها كانت تحمل فى طياتها معنى خاصة القلق الأصم الذى يسبق التحولات.

نحلم دائمًا أمام صور الجرائد. لكنها تظهر لنا الآن صعبة المنال: دراجات "جونون" او دراجات "كوفنترى" الآلية وشركاؤه نظارات أوبرا "ليليبوت"

التى أتصور أننى أستطيع أن أجتاز عمق "مانانافا" ساعات "كيلابس" "من"بنسونز" أو "ووتربورى" من النيكل بالمينا المطلية. لور وأنا نقرأ بمهابة كما لو كان بيتًا من شعر شكسبير العبارة المكتوبة تحت رسم الساعات "ميزان الساعة دوبلكس، ساق العمود بدون مفتاح مقاومة للغبار ضد الكسر غير مغناطيسية ". نحب أيضًا دعاية صابون بروك الذى يمثل فردًا يلعب بالمندولين على اكتمال القمر ونعلن معا:

"نحن ثنائى جوهرى، القمر وأنا.

أجرف الأرض وتنير هى السماء.."

وننفجر فى الضحك. عيد الميلاد لايزال بعيدًا خلفنا ـ حزينا للغاية هذا العام. بسبب الأزمات المالية ومرض أمنا وعزلة "بوكان" ـ لكنا نلهو باختيار هدايانا فى صفحات الجرائد. لكن بما أنها لعبة واحدة لانتردد فى اختيار الأشياء الأغلى ثمنًا. لور تختار بيانو دروس الكنيسة الأبنوسى وقلادة من اللؤلؤ الشرقى وبروش بالمينا والألماس الذهبى والفضى تمثل كتكوتًا يخرج من بيضته! وهذا يساوى تسعة جنيهات وأنا أختار لها زجاجة من الفضة والزجاج المنقوش وعندى هدية ماما المثالية: صندوق الزينة "مابان" الجلدى مع زجاجات متنوعة وعلب وقرش ودبابيس وما إلى ذلك لور تحب كثيرًا هذا الصندوق وتقول إنها ستحصل على صندوق مثله هى الأخرى فيما بعد عندما تصير فتاة شابة. بالنسبة إلىَّ اخترت فانوسًا

سحريًا "نجريتى وزامبرا " وحاكى بإسطوانات واير وبالتأكيد دراجة "جونون" أفضل أنواع الدراجات. لور التى تعرف ما أحب اختارت لى علبة مربعات نارية "توم سميث" وهذا ما يضحكنا كثيرًا .

تقرأ أيضًا الأخبار التى ترجع إلى عدة أشهر وأحيانًا إلى سنوات كثيرة لكن لايهم! حكايات تحطم السفن، زلازل أوساكا ونتطلع طويلاً للرسوم. يوجد أيضًا الشاى مع كهنة منغوليا فنارة اينوس "سلطة فواكه" ودراجون المطارد وحورية وحدها وسط قطيع من الأسود فى غابة سحرية ورسم واحدة من أساطير "نادا الزئبقية" التى ترعبنا: شبح الجبال وهو حجر عملاق مفتوح الفم، وهو الكهف الذى ستموت فيه" نادا"الجميلة.

هذه هى الصور التى أنظر إليها فى زمنها مختلطة بضوضاء الريح فى الأشجار السامقة فى الهواء الثقيل للحمم الساخنة عندما يغزو ظل الليل تدريجيًا الحديقة حول المنزل وتبدأ ثرثرة البحارة.

ننتظر دون أن نعرف ما ينبغى انتظاره فى المساء تحت الناموسية قبل النوم أحلم بأننى فى سفينة بأشرعة منتفخة تتحرك وسط البحر المظلم وأننى أراقب شرر الشمس، أسمع تنفس لور بطيئًا ومنتظمًا وأعلم أن عينيها مفتوحتان أيضًا. بما تحلم؟ أفكر فى أننا جميعًا فوق سفينة تتجه شمالاً نحو جزيرة كابرى المجهولة. ثم نقلت فورًا إلى أعماق أودية النهر الأسود بالقرب من مانانافا هنا حيث الغابة مظلمة وصعبة

الاختراق وحيث نسمع أحيانًا تنهد العملاق ساكالافو الذى قتل لتجنب البيض فى المزارع الغابة مليئة بمخابئ وسموم تدوى بصيحات القردة وفوقى يمر أمام الشمس ظل الطير البحرى الأبيض مانانافا هى مدينة الأحلام .

الأيام التى تقودنا نحو يوم الجمعة ٢٩ إبريل طويلة إنها مرتبطة بعضها البعض كما لو أنه لايوجد غير يوم واحد طويل تتخلله ليال وأحلام بعيدًا عن الحقيقة، خرجت بالفعل فى الذاكرة فى اللحظة التى رأيتها فيها، ولا أستطيع أن أفهم سوى هذه الأيام التى تحمل فى طياتها هذا العبء المصيرى. كيف يمكننى أن أعرفه وليس لدى استدلال؟ البرج فقط هو الذى آراه بين الأشجار عن بعد لأنه راصدى لكى أرى البحر وعلى الجانب الآخر صخور الضروع الثلاثة الحادة وجبل السور الذى يحرس حدود هذا العالم .

هناك الشمس الحارقة منذ الفجر تجفف الأرض الحمراء على طول الخندق الذى حفرته الأمطار المتساقطة على سطح القصدير الأزرق. كانت هناك عواصف فبراير مع رياح الشرق وشمال الشرق التى صفرت فوق الجبال والمطر الذى جرف التلال ومزارع الصبر والجداول، التى تسببت فى بقعة كبيرة فى زرقة البحيرات .

لذلك ظل أبى واقفًا منذ الصباح فى مأمن الشرفة يراقب ستار المطر الذى يتقدم نحو الحقول

والذى يغطى قمم الجبال من ناحية جبل "ماشابيه" وكسارة الحديد هنا حيث يوجد مولد الكهرباء. عندما كانت الأرض غارقة فى الشمس المشرقة جلست على أسوار الشرفة وأنا أنحت تماثيل صغيرة من الطين لأمى: "كلب، حصان، عساكر وأيضًا سفينة صواريها من الأعشاب والأشرعة من الأغصان.

والدى كثيرًا ما يذهب إلى بور لوى ومنه يستقل قطار "فلوريال" لزيارة آديلايد. هى التى ستستضيفنى العام القادم عندما ألتحق بالكلية الملكية كل هذا لايعنينى على الإطلاق إنه خطر يثقل هنا على عالم بوكان كعاصفة غير مفهومة .

أعلم أنى أعيش هنا وليس فى أى مكان آخر. هذا هو المشهد الذى أمعن النظر فيه دون أن أمل منذ زمن طويل، حيث أعرف كل حفرة، كل رقعة ظل، كل مخبأ . ودائمًا خلفى الهاوية المظلمة لخوانق النهر الأسود ووادى مانانافا الغامض .

هناك مخابئ المساء أيضًا وشجرة الخير والشر حيث أذهب مع لور تحط على الفروع الرئيسية سيقاننا متدلية، ونبقى هنا دون أن نتخاطب ونحن ننظر إلى الضوء القريب تحت كثافة أوراق الشجر. عندما يبدأ سقوط المطر نحو المساء نسمع صوت القطرات على أوراق الشجر العريضة كما الموسيقى .

لدينا مخبأ آخر، إنه واد فى أسفله يتدفق جدول دقيق يصب بعيدًا جدًا فى نهر بوكان. تأتى النساء

أحياناً لتستحم أسفل قليلا أو قطيع من الماعز يقوده صبى صغير لور وأنا نذهب حتى آخر الوادى هنا حيث توجد منصة وشجرة تمر هندى قديمة تميل فوق الفراغ. بسيقان منفرجة فوق الجذع نزحف نحو الفروع ونبقى هناك، الرأس تميل نحو الغابة ونحن نحلم ونراقب تسرب المياه فى أعماق الوادى فوق صخور الحمم. لور تعتقد أن هناك ذهبًا فى الجدول ولهذا تأتى النساء لغسل ملابسهن ولكى يكتسب نسيج ملابسهن لمعانًا. ثم نشاهد المياه المتدفقة بلا نهاية ونحن نبحث عن انعاكاسات الشمس فى الرمال السوداء على الشواطئ عندما نكون هنا لانفكر فى أى شىء بعد ولا نشعر أبدًا بالتهديد. لم نعد نفكر فى مرض ماما ولا فى المال الذى يقل ولا فى العم لودوفيك الذى بصدد شراء أراضينا لصالح مزارعه ولهذا نذهب إلى هذه المخابئ .

عند الفجر غادر والدى إلى بور لوى فى العربة التى يجرها حصان. خرجت إلى الحقول على الفور وذهبت أولا إلى الشمال لكى أرى الجبال التى أحبها ثم أدرت ظهرى لمانانافا والآن أسير نحو البحر وحدى لور لا تستطيع ان تأتى معى لأنها ليست على مايرام. هذه هى المرة الأولى التى تقول لى هذا والتى تحدثنى فيها عن الدم الذى يأتى للنساء عند وقت القمر ثم لاتتكلم عن هذا مطلقًا كما لو كان الخجل قد جاء متأخرًا. أتذكرها فى هذا اليوم فتاة صغيرة شاحبة ذات شعر طويل أسود تبدو عنيدة بهذا الجبين الجميل

المستقيم جدًا حتى تعبث فى الدنيا وفى شىء ما تغير بالفعل، يبعدها، يجعلها غريبة. لور تقف فى الشرفة ترتدى فستانها الطويل القطنى الأزرق الناصع ذا الأكمام المشمرة تكشف ذراعيها الرفيعتين وابتسامتها عندما أهم بالذهاب تبدو وكأنها تقول: أنا شقيقة رجل الغابات.

أعدو دون أن أتوقف حتى سفح البرج قريبًا جدًا من البحر لا أرغب أبدًا فى الذهاب إلى شاطئ النهر الأسود ولا على حواجز تاماران الرملية بسبب الصيادين. منذ المغامرة فى الزورق منذ عوقبنا دونيس وأنا وفرقوا بيننا لا أريد أبدًا الذهاب إلى حيث ذهبنا من قبل. وصلت إلى أعلى البرج أو فوق النجم فى مخابئ الأدغال وشاهدت البحر والعصافير حتى لور لاتعرف أين تجدنى.

أنا وحدى وأتحدث إلى نفسى بصوت مرتفع أطرح الأسئلة والإجابات هكذا:

"هيا سنجلس هنا.

أين هذا ؟

هناك على الصخرة المسطحة.

هل تبحث عن أحد؟

لا، لايارجل إنى أراقب البحر .

هل تريد أن ترى الغربان ؟

انظر باخرة تعبر هل ترى اسمها ؟

أعرفها إنها "آرجو" إنها باخرتى، تجىء للبحث عنى.

هل سترحل؟

نعم سأرحل قريبًا غدًا او بعد غد سأرحل ...."

أنا فوق النجمة عندما يبدأ المطر فى الهطول.

كان الجو جميلاً والشمس كانت تحرق الجلد متخللة ملابسى، وكانت المداخن تطلق دخانها بعيدًا فى حقول القصب. أتطلع على امتداد البحر الأزرق الداكن العنيف ماوراء الشعب المرجانية .

المطر يهطل يجتاح البحر من ناحية بور لوى ستار كبير رمادى على شكل نصف دائرة يأتى نحوى بسرعة قصوى. إنها مفاجأة لم أفكر حتى فى البحث عن مأوى أظل واقفًا على نتوء صخرى، القلب يدق. أحب رؤية المطر وهو يهطل .

فى البداية لاتوجد رياح. كل الضوضاء سكنت كما لو أن الجبال كانت تستعيد أنفاسها. هذا أيضًا ما يجعل قلبى يدق هذا الصمت، الذى يفرغ السماء ويجمد كل شىء .

بضربة واحدة تقبل الرياح الباردة نحوى تدفع أوراق الشجر. أرى الأمواج تزحف على حقول القصب. دوامة الرياح تغطينى بعواصف تجبرنى على جلوس القرفصاء فوق الصخرة حتى لا أنجرف. من ناحية النهر الأسود أرى الشىء نفسه الستار الكبير الداكن

الذى يركض نحوى يغطى البحر والأرض ففهمت أنه ينبغى على أن أرحل بسرعة شديدة ليست مجرد أمطار إنها عاصفة، إعصار مثل الذى حدث فى فبراير واستمر يومين وليلتين لكن اليوم يسود هذا الصمت كما لم أسمع عنه من قبل ومع ذلك لا أتحرك لا أتمكن من إبعاد نظرى عن الستار الكبير الرمادى الذى يتقدم بكل قوة نحو الوادى وفوق البحر ويجتاح التلال والحقول والأشجار. الستار غطى بالفعل القواطع ثم يختفى جبل السور الضروع الثلاثة السحابة الداكنة مرت فوق رءوسهم ومحتهم. الآن تتجه نحو منحدر الجبال فى اتجاه تاماران ومدق بوكان. أفكر فجأة فى لور وأمى المقيمتين وحدهما بالمنزل ينتزعنى القلق لمشهد المطر الذى يتدفق، أقفز من فوق الصخرة وأهبط بأسرع مايمكننى منحدر النجمة دون تردد خلال الشجيرات التى تخدش وجهى وساقى، أجرى كما لو أن قطيعًا من الكلاب المسعورة فى أعقابى، كما لو كنت غزالا هاربًا من "مصيدة". دون أن أفهم أجد كل الاختصارات، أهبط منحدرًا جافًا يتجه نحو الشرق وفى لحظة واحدة أكون فى بانون .

يضربنى الريح وينهار فوقى حائط المطر، لم أشعر بذلك من قبل الماء يغطينى، يسيل على وجهى يدخل فى فمى، فى أنفى أختنق لا أرى أرتبك فى الريح الضجيج بشكل خاص هو الذى يخيف. ضوضاء عميقة وثقيلة تدوى فى الأرض، وأعتقد أن الجبال

تتداعى أدير ظهرى للعاصفة وأسير على أربع وسط الشجيرات. فروع الشجر المنزوعة مزقها الهواء تتطاير كالسهام، وأجلس القرفصاء تحت شجرة كبيرة أخفى رأسى بين ذراعى وأنتظر اللحظة التالية، مرت العاصفة، سقطت أمطار فى السيول لكنى أستطيع الجلوس والتنفس وأن أرى أين أنا. الفرشاة على حافة الوادى قد داسوا عليها ليس بعيدًا شجرة كبيرة مثل تلك التى آوتنى أطيح بها مع جذورها التى لاتزال ثابتة فى الأرض الحمراء. أعود للسير على نحو عشوائى وفجأة وبهدوء أرى تل سان مارتان وأنقاض مصنع السكر القديم لامجال لأى تردد: هذا هو المكان الذى سوف أوى ليه.

أعرف هذه الأنقاض رأيتها كثيرًا عندما كنت أعبر القفار مع دونيس. هو لم يشأ أن يقترب يقول إن هذا هو منزل مونامونا الذى ضربوا فيه "برميل الشيطان". فى الجدران القديمة أحتمى فى زاوية تحت قسم من السقف، ملابسى المبللة تلتصق بجلدى، أرتعش من البرد ومن الخوف أيضًا، أسمع الرياح القادمة عبر الوادى. هذا يحدث صوت حيوان ضخم يختفى فوق الأشجار ويسحق الشجيرات والفروع ويحطم الجذوع التى تشبه الأغصان، المياه الغزيرة تتقدم على الأرض وتحيط بالأنقاض وتتوالى نحو الوادى. التيارات تتبدى كما لو كانت المصادر تتولد من الأرض. الماء ينساب، ينجرف، يصنع عقدًا ودوامات لم تعد هناك سماء ولا أرض فقط هذه الكتلة السائلة

والرياح التى تحمل الأشجار والطين الأحمر، أنظر أمامى مباشرة على أمل رؤية السماء خلال حائط الماء أين أنا؟ أطلال بانون ربما تكون كل ماتبقى على الأرض والفيضان ربما يكون قد أغرق الجميع، أردت أن أصلى لكن أسنانى اصطكت ولم أعد أتذكر حتى الكلمات. أتذكر فقط قصة الطوفان التى قرأتها علينا أمنا فى الكتاب الأحمر الكبير عندما داهم الماء الأرض وغطاها حتى الجبال والسفينة الضخمة التى بناها نوح لكى يهرب وكان قد وضع فيها زوجين من كل أنواع الحيوانات، أما أنا فكيف يمكننى أن أصنع سفينة؟ لو كان دونيس هنا ربما استطاع أن يصنع زورقًا أو عوامة بجذوع ولماذا يواصل الله معاقبة الأرض؟ هل لأن الناس أكثر صلابة كما يقول أبى وأنهم يأكلون فقر العمال فى المزارع. ثم أفكر فى لور وماما فى البيت المهجور وقد سيطر على القلق بقوة لدرجة أستطيع فيها أن أتنفس بالكاد كيف أصبحنا؟ الرياح الغاضبة الجدار السائل ربما يكون أغرقها وغسلها وأتخيل لور وهى تناضل فى نهر الوحل فى محاولة للتعلق بفروع الأشجار وهى تنزلق نحو الوادى. رغم سرعة الرياح والمسافة أنهض وأصيح "لورا! ...لورا"

لكنى أدرك أن هذا لا طائل منه فضوضاء الرياح والمياه تغطى على نداءاتى لذلك جلست من جديد فى مواجهة الجدار، وجهى مختف بين ذراعى والماء الذى يتدفق فوق رأسى يختلط بدموعى لأنى أشعر بيأس

مطبق وفراغ مظلم يبتلعاننى دون أن أتمكن من عمل شىء وأقع جالسًا على كعبى خلال الأرض السائلة.

أبقى طويلاً دون حراك بينما تتغير السماء فوقى وتتقدم جدران الماء مثل الأمواج. أخيرًا يسقط المطر ويعصف الريح، أنهض، أسير، أصم الأذنين بالصخب الذى توقف. السماء تمزقت فى الشمال وأرى ظهور ظل جبل السور والضروع الثلاثة. لم تبد لى فى مثل هذا الجمال. قلبى يخفق بقوة كما لو أن أشخاصًا حميمين فقدتهم ثم وجدتهم من جديد. شخصيات غير حقيقية زرقاء داكنة وسط السحب الرمادية. أرى كل تفاصيل خطهم كل صخرة. السماء حولها ساكنة تهبط إلى هوة تاماران التى تنبثق ببطء من صخور أخرى وتلال أخرى. أرى على البحر وأنا أستدير سحبًا وجزر التلال المحيطة: البرج جبل الأرض الحمراء والحديد المكسور والنظرة الجامدة بعيدًا "النظرة الكبيرة"؟ مضاء بشمس لاتصدق.

كل هذا جميل بالفعل أن أظل بلا حراك. تأخرت فى مشاهدة المنظر الطبيعى الجريح حيث بقع الغيوم تتشبث. من ناحية الضروع الثلاثة نحو كاسكاد ربما يوجد قوس قزح رائع أردت تمامًا أن تكون لور معى لكى ترى هذا تقول إن أقواس قزح هى طرق المطر. قوس قزح له قدرة يميل نحو الغرب فوق قاعدة الجبال ويهبط حتى الجانب الآخر من الحدود نحو فلوريال أو نحو فونيكس. الغيوم الكثيفة مازالت

تتجمع لكن فجأة فى شق أرى فوقى السماء زرقاء صافية مبهرة كما لو كان الوقت يقفز إلى الوراء على عكس مساره هناك لحظات أخرى وكان المساء وقد تلاشى الضوء لكنه مساء لا ينتهى يؤدى إلى العدم. والآن أرى أنها الظهيرة بالضبط الشمس فى أوجها وأشعر بحرارتها وضوئها على وجهى وعلى يدى .

جريت خلال العشب الرطب وهبطت التل من جديد نحو وادى "بوكان" فى كل مكان الأرض جرداء والجداول مليئة بالماء الاحمر وأكسيد الرصاص وتوجد أشجار مقطوعة فى طريقى لكنى لم آخذ حذرى. انتهى الأمر هذا ما أفكر فيه، كل شىء انتهى بما أن قوس قزح ظهر ليرسخ سلام الله .

عندما أصل أمام منزلنا يقطع القلق قواى الحديقة والمنزل سليمين يوجد فقط أوراق شجر وفروع مكسورة تملأ الممر وبرك طين فى كل مكان. لكن ضوء الشمس يسطع على السقف المنير وعلى أوراق الشجر، وكل شىء يبدو جديدًا أكثر ومنعشًا .

لور فى الشرفة ما أن رأتنى صاحت "اليكسى!.." جرت نحوى واحتضنتنى. ماما هنا أيضًا تقف أمام الباب شاحبة قلقة قلت لها بلطف"انتهى ياماما كل شىء، انتهى لن يكون هناك طوفان! " لا أراها تبتسم لذلك فقط فكرت فى والدنا الذى ذهب إلى المدينة أحسست بألم "لكنه سيأتى الآن؟ سيأتى؟ " ماما ضغطت على ذراعى وقالت بصوتها الأجش"نعم

بالتأكيد سيأتى ..." لكنها لم تستطع أن تخفى قلقها وكان على أن أردد وأنا أمسك بيدها بكل قوتى "أنتهى الآن لا لم يعد هناك شىء نخشاه"

جلسنا معًا ملتصقين فى الشرفة نراقب أعماق الحديقة والسماء؛ حيث تجمعت من جديد سحب كبيرة سوداء. لايزال هذا الصمت الغريب يهدد ويثقل على الوادى حولنا كما لو كنا وحدنا فى الدنيا. كوخ كوك فارغ غادر هذا الصباح مع زوجته إلى النهر الأسود. فى الحقول لانسمع صرخة ولا ضوضاء عربة.

إنه هذا الصمت الذى يقتحم أعمق أعماق جسدنا صمت التهديد والموت الذى لايمكن أن أنساه لاتوجد عصافير على الشجر ولا حشرات ولا حتى ضوضاء الريح فى قمم الأشجار السامقة. الصمت أقوى من الضوضاء يبلعه وكل هذا الفراغ يتبدد حولنا. نظل ساكنين فى الشرفة أرتعش فى ملابسى المبللة أصواتنا عندما نتكلم تتردد بطريقة غريبة على البعد وكلماتنا تتبدد على الفور .

ثم يصل إلى الوادى صوت الإعصار مثل قطيع يعدو خلال المزارع والأدغال، وأسمع أيضًا ضوضاء البحر مرعبة عن قرب. نبقى مجمدين فى الشرفة وأشعر بالغثيان فى حلقى لأنى أفهم أن الأعصار لم ينته. كنا فى عين الزوبعة حيث كل شىء هادئ وصامت الآن أسمع الريح القادم من البحر القادم من

الجنوب وعلى نحو متزايد بقوة جسد الحيوان الضخم الغاضب الذى يحطم كل شىء فى طريقه .

هذه المرة لايوجد حائط المطر الريح هو الذى يأتى وحده أرى الأشجار تتحرك بعيداً والسحب تتقدم مثل الدخان طويلة مسحوبة عليها بقع أرجوانية، إنها السماء التى تخيف تماماً تتحرك بكل سرعة تنفتح وتنغلق ولدى انطباع بأنها تنزلق إلى الأمام وتسقط.

"بسرعة ! بسرعة يا أولادى"! .

ماما هى التى تكلمت فى النهاية صوتها أجش لكنها نجحت فى كسر السحر وجاذبيتنا الرائعة أمام السماء وهى على وشك أن تدمر، تجذبنا وتدفعنا داخل المنزل فى حجرة الطعام ذات المصاريع المغلقة سدت الباب بالكتل. المنزل ملىء بالظل مثل سفينة من الداخل حيث نسمع الرياح القادمة. رغم الحرارة الثقيلة أرتجف من البرد والقلق لاحظت ماما تذهب إلى حجرتها بحثًا عن غطاء، أثناء غيابها ضرب الريح المنزل مثل انهيار جليدى، لور تلتصق بى ونسمع ألواح الخشب تصرخ، الفروع المكسورة تصطدم بجدران المنزل والحجارة تضرب الشيش والباب .

خلال مصاريع الشيش نرى فجأة ضوء النهار وهو ينطفئ، وأفهم أن السحب تغطى الأرض من جديد ثم يسقط الماء من السماء ويضرب الجدران داخل الشرفة. يتسرب تحت الباب وعبر النوافذ

ويحول الأرضية حولنا إلى جداول داكنة بلون الدم. لور تنظر إلى الماء الذى يتقدم نحونا يتدفق حول المائدة الكبيرة والكراس ماما تعود وأرتعد من نظرتها لأنى أخذت الغطاء لكى أحاول عرقلة الفضاء تحت الباب لكن الماء يبعده ويفيض على الفور. عويل الريح فى الخارج يصعقنا ونسمع أيضًا طقطقة الكربون المروعة، انفجارات الشرائح المنزوعة المطر يغمر الآن الأسقف وأفكر فى صحفنا القديمة وكتبنا كل مانحب وسوف يدمر. الريح سحق المناور واخترق الأسقف وهو يزمجر ويحطم الأثاث. فى هدير مدو يقتلع شجرة تسحق واجهة المنزل الجنوبية والنوافذ. نسمع ضوضاء الشرفة التى تتداعى ماما أخرجتنا بعيدًا عن حجرة الطعام فى لحظة اختراق فرع شجرة ضخم إحدى النوافذ.

الريح تدخل عن طريق فجوة مثل حيوان غاضب وغير مرئى وفى لحظة جاءنى انطباع بأن السماء هبطت على المنزل لكى تحطمه أسمع قرقعة الأثاث الذى يتدحرج والنوافذ التى تتحطم، ماما أخرجتنا لاأدرى كيف من الناحية الأخرى من المنزل هربنا إلى مكتب والدنا وبقينا فيه محتشدين نحن الثلاثة فى مواجهة الجدار؛ حيث توجد خريطة رودريج ولوحة السماء الكبيرة. المصاريع مغلقة لكن رغم هذا فإن الريح حطمت النوافذ وماء الإعصار يسيل على الباركيه وفوق المكتب وفوق الكتب وأوراق والدنا. لور تحاول برعونة أن ترتب بعض الأوراق ثم تجلس

محبطة فى الخارج. خلال مصاريع الشيش السماء مظلمة لدرجة أننا اعتقدنا أنه الليل. الريح يصفر حول المنزل ويدور ضد حاجز الجبال ودون توقف هدير الأشجار ينكسر حولنا .

"صلوا" هكذا قالت ماما تخفى وجهها بين يديها وجه لور شاحب تنظر دون أن تطرف نحو النافذة وأنا أحاول أن أفكر فى رئيس الملائكة جبريل أفكر فيه دائمًا عندما أشعر بالخوف فهو كبير مكسو بالضوء مسلح بسيف هل من الممكن أن يديننا وأن يتخلى عنا بإزاء غضب السماء والبحر؟ الضوء لايكف عن التدهور. ضوضاء الريح صاخبة وحادة، وأشعر بأن جدران المنزل تهتز وقطع من الخشب تنخلع من الشرفة، الألواح نزعت من السقف. الفروع تحوم حول النوافذ مثل الأعشاب، ماما تحتضننا لاتصلى هى الأخرى، تتطلع بعينين محدقتين خائفتين بينما هدير الريح يرعب قلوبنا، لا أفكر فى شىء، لم أعد قادرًا على قول أى شىء حتى لو أردت أن أتكلم فإن الضوضاء تمنع ماما ولور من سماعى تمزق لا نهائى يذهب حتى أعماق الأرض وموجة تشن علينا بطئًا لا محالة.

هذا يدوم طويلاً ونسقط عبر السماء الممزقة، خلال الأرض المفتوحة أسمع البحر كما لم أكن سمعته أبدًا من قبل، لقد عبر حواجز الشعاب المرجانية وصعد حتى مصب الأنهار وهو يدفع أمامه السيول التى تفيض. أسمع البحر فى الريح، لم أعد أتمكن من

الحركة، كل شىء انتهى بالنسبة لنا. لور تسد أذنيها بيديها وهى تميل على ماما دون أن تتكلم، ماما تركز عينيها الآخذتين فى الاتساع على مساحة النافذة المظلمة كما لو كانت تحافظ عن بعد على غضب العناصر. منزلنا الفقير اهتز فى كوم الأرضية جزء من السقف مزق على الواجهة الجنوبية غزارة الماء والرياح خربت القطع المخلوعة تقسيم خشب المكتب تصدع هو الآخر فجأة عن طريق الثقب الذى أحدثته الشجرة رأيت كوخ الكابتن كوك يطير فى الهواء كلعبة رأيت أيضًا قوس الخيرزان ينثنى حتى الأرض كما لو أن يدًا خفية ضغطت عليه أسمع على البعد الريح الذى يصطدم بسور الجبال مع قعقعة رعدية تنضم إلى ضجيج البحر الذى يئن والذى يصعد إلى الأنهار .

فى أية لحظة عرفت أن الريح أصبحت أقل؟ لا أعرف قبل عدم توقف ضجيج البحر وقرقعة الأشجار فى داخلى أنا متأكد، شىء ما تحرر. تنفست والحلقة التى قلصت معابدى هزمت.

ثم سقط الريح بضربة واحدة وأطبق من جديد صمت عميق حولنا سمعنا جريان المياه فى كل مكان على السطح وفى الأشجار وحتى فى المنزل وآلاف الجداول كانت تتدفق. الخيرزان كان يقرقع، عاد ضوء النهار رويدًا رويدًا، وكان ضوء الغسق الناعم الدافئ ماما فتحت المصاريع بقينا فى المكان دون أن نجرؤ على التحرك ملتصقين أحدنا فى الآخر ننظر من

النافذة إلى ظلال الجبال التى تنشأ من السحب وكانت مثل أناس متآلفة ومطمئنة .

بعدها أخذت ماما تبكى فى هذا الوقت؛ لأنها كانت مضغوطة للغاية وفجأة مع هذا الهدوء كانت تنقصها الشجاعة. لور وأنا أخذنا نبكى أيضًا وأذكر وكما أعتقد أنى لم أبك أبدًا هكذا تمددنا على الأرض مباشرة ونمنا متعانقين بسبب البرد.

إنه صوت والدنا الذى أيقظنا عند الفجر هل جاء فى الليل؟ أذكر وجهه الشاحب وملابسه الملطخة بالطين وهكذا روى كيف فى ذروة الإعصار قفز من عربته ورقد فى حفرة على جانب الطريق حيث مرت العاصفة فوقه وجرت العربة والحصان لايدرى أحد أين. شاهد أشياء خارقة سفنًا غارقة داخل أراض حتى فروع أشجار الإدارة العسكرية. البحر المنتفخ يغزو مصبات الأنهار ويغرق الناس فى أكواخهم. الريح خاصة الذى قلب كل شىء. الذى نزع أسطح المنازل الذى حطم مداخن مصانع السكر وهدم المخازن وبدد نصف بورلوى. عندما تمكن والدنا من الخروج من خندقه أوى ليلاً فى خص للسود بالقرب من "ميدين" لأن الطرق كانت تغمرها المياه. عند مطلع النهار صحبه رجل هندى فى عربته حتى تاماران إيستات ولكى يصل إلى بوكان كان على أبى أن يعبر النهر وقد وصلت المياه إلى صدره. يتكلم أيضًا عن بارومتر. أبى كان فى أحد مكاتب رومبار ستريت عندما هبط مؤشر البارومتر. يقول إن هذا كان شيئًا لايصدق

ومرعبًا لم ير أبدًا مؤشر البارومتر يهبط إلى هذا الحد بهذه السرعة، كيف يمكن أن يكون سقوط الزئبق مرعبًا؟ أنا لا أفهم هذا لكن صوت أبى عندما تكلم عن هذا بقى فى أذنى لا أستطيع أن أنساه .

فى وقت لاحق وجد نوع من الحمى أعلن نهاية سعادتنا. نعيش الآن فى الجناح الشمالى للمنزل فى الغرف الوحيدة التى نجت من الإعصار. فى الناحية الجنوبية البيت نصف منهار دمرته المياه والرياح السقف محطم، الشرفة لاوجود لها. مالا يمكننى نسيانه أبدًا الشجرة التى اخترقت جدار المنزل والفرع الأسود الطويل، الذى اخترق شيش نافذة حجرة الطعام والذى ظل ساكنًا مثل ظفر حيوان أسطورى ضرب بقدرة الرعد.

لور وأنا غامرنا عن طريق السلالم المفككة حتى المخزن. من خلال فتحات فى السقف سكب الماء بعنف ودمر كل شىء. أكوام من الكتب والجرائد ولم يبق غير بعض الأوراق المبللة. لانستطيع حتى المشى فى الجملون؛ لأن الأرضية منبعجة فى كل مكان والهيكل منفصل النسيم الضعيف الذى يأتى من البحر كل مساء صدع كامل هيكل المنزل الضعيف. حطام هكذا يبدو منزلنا فى الحقيقة حطام سفينة غارقة.

نطوف كل الأنحاء لقياس حجم الكارثة. نبحث عما كان لايزال هنا أمس: الأشجار الجميلة ومزارع النخيل وأشجار الجوافة وأشجار المانجو وكتل من

نباتات الزينة والكركديه نتجول مترنحين كما لو كنا نتحرك بعد مرض طويل. فى كل مكان ترى الأرض دامية وقذرة مع أعشاب نائمة فروعها مكسورة والأشجار جذورها مقلوبة نحو السماء. مع لور أذهب حتى المزارع بالقرب من اليمن وتاماران وفى كل مكان القصب الخام مقصوص بحاصدة عملاقة.

حتى البحر تغير. من أعلى نجم البحر أرى طبقات الوحل الضخمة موزعة على البحيرة. عند مصب النهر الأسود لم تعد توجد قرية واحدة. أفكر فى دونيس هل تمكن من الهرب ؟

لور وأنا ظللنا معلقين طوال اليوم تقريبًا أعلى هرم خلاسى،وسط حقول شاسعة. توجد رائحة غُريبة فى الهواء رائحة غثة يحملها الريح عن طريق العواصف ومع هذا فالسماء صافية والشمس تحرق وجوهنا وأيدينا كما فى عز الصيف. حول بوكان الجبال خضراء داكنة جلية تبدو أكثر قربًا عن ذى قبل. نشاهد كل هذا البحر وراء الصخور والسماء لامعة والأرض دامية هكذا ودون أن نفكر فى شىء تحترق عيوننا من التعب لايوجد أحد فى الحقول لا أحد يمشى على الطرق .

الصمت أيضًا فى منزلنا. لم يأت أحد منذ العاصفة نأكل بالكاد قليلاً من الأرز مصحوبًا بشاى ساخن. ماما تظل راقدة فوق سرير مؤقت فى مكتب والدنا وننام نحن فى الممر لأنها الأماكن الوحيدة التى

لم يتعرض لها الإعصار. ذات صباح صحبت أبى حتى الحوض فى " ايجريت" تقدمنا عبر الأراضى الشاسعة فى صمت نعلم مقدمًا ما سوف نجده وهذا ضغط على الحلق. فى أماكن أخرى على حافة الطريق سيدة عجوز سوداء من مرتدى الخيش تجلس أمام بقايا منزلها عندما مررنا رفعت قليلاً فقط شكواها، وتوقف أبى لكى يعطيها قطعة نقود. عندما وصلنا أمام الحوض رأينا على الفور ماتبقى من المولد الكهربائى الماكينة الجميلة الجديدة قلبت غاطسة إلى النصف فى المياه الموحلة. اختفى العنبر ولم يتبق من أداة الدفع سوى قطع من الصفيح الملتوى يصعب التعرف عليها. توقف أبى قال فقط بصوت مرتفع وبوضوح انتهى كل شىء إنه كبير وشاحب يلمع ضوء الشمس على شعره وعلى لحيته السوداء يقترب من المولد الكهربائى دون أن يأخذ حذره من الطين الذى يصل إلى منتصف ساقيه له حركة طفولية تقريبًا لكى يحاول أن يقوم الجهاز. ثم يقوم بنصف استدارة ويبتعد على الدرب. عندما يمر بالقرب منى يضع يده على رقبتى ويقول "هيا نعود" هذه اللحظة مأسوية حقًا يبدو لى إذًا أن كل شىء انتهى وللأبد وعيناى وحلقى امتلئوا بالدموع. مشيت بسرعة فى أثر أبى وأنا أنظر إلى خياله العالى النحيف والمقدس.

خلال هذه الأيام كل شىء يتجه إلى نهايته لكنا لاندرك هذا بعد جيدًا. نشعر لور وأنا بهذا الخطر بتحديد أكثر يجىء هذا مع الأخبار الأولى من الخارج

التى أشاعها عمال المزارع ومرتدو الخيش من اليمن ووالها للا. الأخبار تجىء، وتتردد ويبالغ فيها تحكى عن الجزيرة التى دمرتها العاصفة.. "بورلوى" يقول أبى هى مدينة مبادة مثلما يحدث بعد تفجير قنبلة. معظم البيوت الخشبية دمرت وشوارع كاملة اختفت ، شارع السيدة وشارع ايميكيلان وشارع الفلفل. من جبل سينيو حتى حقل مارس لايوجد غير أطلال المبانى العامة والكنائس انهارت واحترق أناس أحياء فى الانفجارات. فى الرابعة بعد الظهر يحكى أبى كان مؤشر البارومتر منخفضًا للغاية وصفر الريح بنسبة أكثر من مائة ألف فى الساعة وبلغ مائة وعشرين ألف زيادة عما نقول. البحر تضخم بطريقة مخيفة يغطى الشواطئ والزوارق ألقيت حتى مائة متر داخل الأراضى على شاطئ روميار البحر طغى على النهر بفجاجة والسكان غرقوا. أسماء القرى المدمرة تشكل قائمة طويلة البركة الجميلة، روزهيل، العور الأربعة فاكووا، فونيكس، بالما، مدينة رؤى جميلة، فى بركة على الجانب الآخر من الضروع الثلاثة سطح مصنع للسكر انهار ودفن مائة وثلاثين رجلاً كانوا قد لاذوا به فى فونيكس، ستون رجلا ماتوا، وكذلك مائة آخرون أيضًا فى بامبو وفى المياه الجميلة وشمال الجزيرة ومابو. جبل المذاق وفورباش وعدد الضحايا يرتفع كل يوم أناس يجرفهم نهر الطين وأناس مسحوقون تحت المنازل وتحت الأشجار. أبى يقول يوجد عدة مئات من الموتى لكن فى الأيام التالية بلغ الرقم ألفًا ثم ألفًا وخمسمائة.

لور وأنا. ظللنا طوال اليوم بالخارج غائبين مختفين فى البساتين المكدومة حول المنزل دون أن نجرؤ على الابتعاد. سوف نرى الوادى حيث السيل الجارف لايزال مليئًا بالغضب ومحملا بالطين والفروع المكسورة أو من أعلى شجرة شالطا ننظر إلى الحقول المدمرة التى أشعلتها الشمس. نساء الخيش يجمعن القصب البكر ويطلقنه على الأرض الموحلة. أطفال جياع يجيئون لسرقة الفاكهة الساقطة والكرنب الملفوف بالقرب من منزلنا .

ماما تنتظر فى المنزل صامتة ترقد على أرض المكتب مغطاة بأغطية رغم الحر. وجهها محترق من الحمى وعيناها حمراوان تلمعان بتألق مؤلم. أبى لايزال فى الشرفة المتداعية ينظر على البعد خط الأشجار وهو يدخن سجائر دون أن يتحدث إلى أحد.

فى وقت لاحق عاد كوك مع ابنته. تحدث قليلاً عن النهر الأسود وعن قوارب غارقة ومنازل مدمرة كوك الطاعن فى العمر يقول إنه لم يعرف هذا منذ الزمن الذى جاء فيه للمرة الأولى إلى الجزيرة عندما كان عبدًا حدث الإعصار الذى حطم مدخنة الإقامة الجبرية التى كادت أن تقتل الحاكم باركلى. لكنه قال أن هذا لم يكن حتى بالقوة ذاتها. نعتقد أنه بما أن العجوز كوك لم يمت وأنه عاد فإن كل شىء سيعود كما كان من قبل لكنه نظر إلى ماتبقى من كوخه وهو يهز رأسه وركل بقدمه بعض أطراف الخشب ثم قبل أن نتمكن من الفهم ذهب من جديد "أين هو كوك؟"

تسأل لور. ابنته تهز كتفيها "رحل يا آنسة لور" وأين ذهب؟ " فى خصه ياآنسة لور "لكنه سيعود؟ " لور صوتها قلق "متى سيعود؟ " إجابة ابنة كوك تهز القلب "الله يعلم يا آنسة لور. ربما لن يعود أبدًا"جاءت تبحث عن طعام وقليل من النقود. الكابتن كوك لن يعيش هنا بعد ذلك لن يعود أبدًا نعرفه جيدًا.

بوكان ظلت إذًا كما هى منذ العاصفة ـ مكانًا وحيدًا، منعزلاً عن العالم. جاء مزارع أسود مع ثيرانه لسحب الجذوع التى كانت قد خرقت حجرة الطعام مع أبى، أزلنا كل الحطام الذى غطى المنزل: أوراق زجاج: أوان فخارية مختلطة بفروع وأوراق فى الوحل. بجدرانها المثقوبة الشرفة المنهارة والسقف الذى ترك السماء ترى، أصبح منزلنا يشبه وأكثر حطام سفينة نحن أنفسنا غرقى متمسكين بحطامها على أمل أن كل شىء سيعود إلى ما كان عليه من قبل .

لمحاربة القلق الذى يزداد كل يوم غادرنا لور وأنا بعيدًا للغاية عبر المزارع حتى حدود الغابات. نذهب كل الأيام يجذبنا وادى مانانافا المظلم؛ حيث يعيش قس الذيل الذى جال عاليًا جدًا فى السماء. لكنه هو أيضًا اختفى أعتقد أن الإعصار حمله، هشمه فى مواجهة حواجز الشعب أو ألقى به بعيدًا على الساحل بحيث لايمكنه أن يعود أبدًا .

كل يوم نبحث عنه فى السماء الخالية. الصمت رهيب فى الغابة كما لو كان الريح سيعوذ .

إلى أين ؟ لكن لم يعد يوجد رجال هنا لم نعد نسمع نباح الكلاب فى المزارع ولا صراخ الأطفال بالقرب من الجداول. لم يعد مزيد من الدخان فى السماء. نطفو على هرم خلاسى نتطلع إلى الأفق فى اتجاه كلارنس دى وولمار. الأدخنة توقفت. فى الجنوب نحو النهر الأسود السماء دون أثر. لانتحدث. نظل معرضين لشمس الظهيرة ننظر إلى البحر على البعد حتى تصاب عيوننا بالأذى .

فى المساء نعود بقلب حزين إلى بوكان. الحطام دائمًا هنا فى نصف انهيار على الأرض التى لاتزال رطبة فى أنقاض الحديثة المدمرة. نتسلل خلسة إلى داخل المنزل، أقدامنا حافية على الأرضية حيث الأرض كونت بالفعل طبقة من الغبار الكثيف لكن والدنا لم يلاحظ غيابنا. نأكل مانجده وقد جوعتنا تجوالاتنا الطويلة: فاكهة ملتقطة فى الممتلكات الخاصة، بيض الأرز فى الوعاء الكبير الذى يجعله والدى يغلى كل صباح .

ذات يوم عندما كنا بالقرب من الغابة كونيج طبيب فلوريال جاء من أجل ماما. لور هى التى ترى أثر عجلات عربته فى الطريق الموحل وهو عائد. لا أجرؤ على الذهاب بعيدًا وأنتظر مضطربًا بينما تجرى لور حتى الشرفة وتقفز فى المنزل. عندما أدخل بدورى من الواجهة الشمالية أرى لور التى تمسك بماما وتحتضنها وتضع رأسها على صدرها. ماما

تبتسم، رغم تعبها. تذهب ناحية الخزانة حيث يوجد موقد الكحول.

تريد أن تسخن أرزًا وتعد شايًا لنا.

"تناولا الطعام ياولدى، "كلا الوقت متأخر جدًا أين كنتما؟" تتكلم بسرعة بنوع من الضيق لكن سعادتها ليست مختلفة .

"سنرحل ونترك بوكان"

"إلى أين نحن ذاهبون ياماما ؟ "

"آه لاينبغى أن أقول لكما ليس الأمر مؤكدًا بعد وأخيرًا الأمر ليس محددًا تمامًا بعد سنذهب إلى الغابة الجانبية والدكما وجد منزلاً ليس بعيدًا عن عمتكما آديلاييد".

احتضنتنا ولم نشعر بشىء آخر غير سعادتها لانفكر فى شىء آخر. والدى عاد من جديد إلى المدينة فى عربة كونيج بلا شك. عليه أن يعد المغادرة والمنزل الجديد بالغابة الجانبية. فيما بعد عرفت كل مافعله إذًا فى محاولة لتأخير ما لا مفر منه. عرفت كل الأوراق التى وقعها للمرابين فى المدينة. سندات الدين والرهونات العقارية والقروض على العهدة. كل أراضى بوكان والبور وفدادين الحديقة والغابات حتى المنزل ذاته كل شىء كان على العهدة، وقد تم بيعه. لم يكن يستطيع أن يخرج من كل هذا. أمله الأخير كان قد وضعه فى هذا الجنون، هذا المولد الكهربائى للماء فى ايجريت الذى كان من شأنه أن يحقق التقدم لكل

غرب الجزيرة ولم يكن أبدًا إذًا غير كومة من الخردة غاصت فى الوحل. كيف كان يمكننا أن نفهم ذلك نحن الذين لم نكن غير أطفال؟ لكنا لسنا فى حاجة لفهم الأشياء فى ذلك الوقت. كنا نخمن رويدًا رويدًا كل ما لايقال لنا. عندما هب الإعصار عرفنا جيدًا أن كل شىء قد ضاع بالفعل. كان مثل الفيضان.

"هل هو العم لودوفيج الذى سيستقر هنا عندما نكون قد رحلنا؟ هكذا سألت لور. مزيد من الغضب والشجن فى صوتها حتى أن ماما لم تستطع أن تجيب. تحولت نظرتها" أنه هو! هو الذى فعل كل شىء! هكذا قالت لور. كنت أريد تمامًا أن تصمت هى. شاحبة وترتجف، صوتها يرتجف أيضًا. "إنى أكرهه" اسكت "قالت ماما: أنت لا تعرف ماتقول. "لكن لور لاتريد أن تدعها تفلت. لأول مرة تعاند كما لو كانت تدافع عن كل هذا، ماتحبه وهذا المنزل المدمر وهذه الحديقة والأشجار السامقة ووادينا وما وراء ذلك حتى الجبال المظلمة والسماء والريح الذى يحمل ضجيج البحر". لماذا يريد أن نرحل، هل لكى يأخذ منزلنا؟ ماما تجلس على الأريكة فى ظل الشرفة المفككة كما فيما مضى عندما كانت تستعد لقراءة الكتاب المقدس أو لكى تبدأ الإملاء. لكن اليوم ينقضى وقت طويل فى يوم واحد ونعلم أن لاشىء من ذلك سيكون ممكنًا. ولهذا صرخت لور وارتعش صوتها وامتلأت عيناها بالدموع لأنها تريد أن تقول كم هى تتألم: "لماذا جعل العالم كله ضدنا عندما لم يكن لديه

غير كلمة واحدة يقولها، هو ذلك الثرى! لماذا يريد أن نرحل هل لكى يأخذ منزلنا لكى يأخذ حديقتنا ويضع القصب فى كل مكان؟ " اسكتى اسكتى! "هكذا صاحت ماما. وجهها ملىء بالغضب والضيق. لور لم تعد تصرخ. تقف أمامنا ممتلئة بالخجل عيناها تلمعان بالدموع وفجأة استدارت وقفزت فى حديقة الظل، وهربت وهى تجرى. أسمع الأغصان التى تتكسر فى طريقها ثم صمت الليل الذى يحل. أعدو خلفها "لورا لور عودى! " أبحث عنها دون توقف ودون العثور عليها ثم أفكر ولا أعلم أين هى كما لو كنت أراها عبر الأدغال إنها المرة الأخيرة إنها فى مخبئنا فى الناحية الأخرى من حقل النخيل المدمر على الفرع الرئيسى لشجرة التمر هندى فوق الوادى تنصت إلى ضوضاء الماء الذى يتدفق. فى الوادى الضوء الرمادى وقد بدأ. الليل توجد بعض العصافير العائدة وحشرات تصر.

لورا لم تصعد على الفرع بأنها تجلس على حجر ضخم، بالقرب من شجرة التمر هندى ثوبها الأزرق الناصع ملطخ بالطين حافية القدمين. عندما وصلت لم تتحرك لاتبكى، وجهها اكتسى بالتعبير العنيد الذى أحبه أعتقد أنها سعيدة بأنى جئت. أجلس بجانبها أحيطها بذراعى. نتحدث لانتحدث عن العم لودوفيك ولا عن رحيلنا الوشيك لاشىء من كل ذلك. نتحدث عن شىء آخر عن دونيس كما لو كان سيعود وهو يحمل كما فى الماضى أشياء غريبة، بيضة سلحفاة،

ريشة من رأس شرطى، بذرة أو أشياء من البحر، قواقع حصى عنبر. نتحدث أيضًا عن نادا ليلى وينبغى أن نتحدث عنها كثيرًا لأن الإعصار دمر مجموعتنا من الصحف وطيرها حتى أعلى الجبال ربما. عندما جاء الليل بالفعل تسلقنا كما فى الماضى طول الجذع المائل وظللنا للحظة معلقين دون أن نرى السيقان والأذرع المتدلية فى الفراغ.

هذه الليلة طويلة مثل الليالى التى تسبق الرحلات الكبرى. وصحيح أنها الرحلة الأولى التى سنقوم بها ونحن نترك وادى بوكان نرقد فوق الأرضية فى أغطيتنا، وننظر إلى ضوء المصباح الصغير الذى يخفق فى نهاية الممر دون نوم. إذا استغرقنا فى النوم فللحظة فقط. فى صمت الليل نسمع حفيف ثوب ماما الأبيض الطويل وهى تسير فى المكتب الخالى. نسمعها تتنفس وعندما تعود للجلوس فى المقعد الوثير بالقرب من النافذة نستطيع أن ننام .

عند الفجر عاد أبى أحضر معه عربة بحصان ورجلا هنديًا من بور لوى لانعرفه، رجل ضخم ونحيف يشبه بحارًا. فى العربة أبى والرجل الهندى يحملان الأثاث الذى دمره الإعصار: بعض الكراسى ومقاعد وطاولات ودولاب كان فى حجرة ماما وسريرها النحاسى ومقعدها الوثير ثم الصندوق الذى يحتوى على أوراق الكنز وملابس. بالنسبة لنا هى ليست حقًا مغادرة بما أننا لانملك شيئًا نحمله. كل كتبنا وكل لعبنا اختفت فى العاصفة وحزم الصحف لم تعد موجودة.

ليس لدينا ملابس أخرى غير التى نرتديها والتى لطخت ومزقت بفعل التشرد لفترة طويلة فى الأدغال. هكذا أفضل. ماذا يمكننا أن نحمله؟ مانحتاجه هى الحديقة بأشجارها الجميلة وجدران منزلنا وسقفه بلون السماء وكوخ كابتن كوك الصغير وتلال شجرة التمر هندى والنجم والجبال ووادى مانانافا المظلم حيث يعيش القس ذو الذيل. نظل واقفين فى الشمس بينما يحمل أبى آخر الأشياء على حافة العربة .

أقل قليلاً من ساعة زمن ودون أن نكون قد أكلنا رحلنا. أبى يجلس فى المقدمة بجانب الحوذى. ماما ولور وأنا على القماش وسط الكراسى التى تتخبط وصناديق تصطدم بأجزاء ناجية من الغسالة. لانبحث حتى عن رؤية المشهد الذى يبتعد من خلال فتحات القماش. هكذا رحلنا فى ذلك اليوم الأربعاء ٣١ اغسطس وهكذا تركنا عالمنا فلم نكن قد عرفنا غيره لقد فقدنا كل ذلك منزل بوكان الكبير، حيث ولدنا الشرفة حيث كانت ماما تقرأ لنا الكتاب المقدس وقصة يعقوب والملاك وموسى المنقذ من الماء، وهذه الحديقة الكثيفة مثل جنة عدن مع أشجار الإدارة وأشجار الجوافة وأشجار المانجو ووادى أشجار التمر هندى المائلة وشجرة شالطا الكبيرة شجرة الخير والشر وممر النجوم الذى يؤدى إلى بقعة السماء حيث مزيد من الأضواء. نرحل، نترك ذلك ونعلم أن لاشىء من ذلك على الإطلاق له وجود أبدًا لأنه مثل الموت رحلة بلا عودة.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

فورســت سـايد


https://telegram.me/maktabatbaghdad

بدأت أعيش فى شركة القرصان غير المعروف"لوبريفاتير" كما كان يسميه أبى. كل هذه السنوات فكرت فيه، حلمت به. كان يشاطر حياتى وعزلتى. فى الظلام البارد والممطر بجهة فورست سايد"حى الغابة" ثم فى كلية كوربيب الملكية، معه كنت أعيش حقًا. كان هو "لوبريفاتير"حقًا هذا الرجل بلا وجه وبدون اسم كان قد اجتاز البحار واستولى مع طاقمه من القراصنة على السفن البرتغالية والإنجليزية والهولندية ثم اختفى يومًا دون أن يترك أى أثر سوى هذه الأوراق القديمة وهذه الخريطة لجزيرة لا اسم لها وشفرة مكتوبة بالعلامات المسمارية.

الحياة فى "فورست سايد" بعيدًا عن البحر لم يكن لها وجود. منذ طردنا من بوكان لم نعد مطلقًا إلى شاطئ البحر معظم زملائى بالكلية فى أيام العطلات يستقلون القطار كأسرة واحدة، ويذهبون لقضاء بضعة أيام فى المعسكرات بناحية فليك اون

فلاك أو فى الناحية الأخرى من الجزيرة فى اتجاه ماهيبورج أو حتى مسحوق الذهب. كانوا يذهبون أحيانًا إلى جزيرة الغزلان وكانوا يحكون على الفور وطويلاً عن رحلتهم وهى عيد تحت ظلال النخيل وعن وجبات الغذاء والوجبات الخفيفة حيث كانت تجىء الكثيرات من الفتيات الصغيرات فى ثيابهن الزاهية والمظلات. أما نحن فكنا فقراء لم نكن نذهب أبدًا. إلى جانب ذلك ماما لم تكن تريد. منذ يوم الإعصار كرهت البحر والحر والحمى. فى حى الغابة شفيت من ذلك حتى إذا كانت قد سبغت حالة من الكسل والتخلى. لور كانت تجلس بالقرب منها طوال الوقت دون أن ترى أحدًا أيًا كان. فى البداية كانت قد ذهبت إلى المدرسة مثلى لأنها قالت إنها كانت تريد أن تتعلم العمل لكى لا تكون فى حاجة إلى الزواج. لكن بسبب ماما اضطرت إلى التخلى عن هذا. ماما قالت إنها فى حاجة إليها فى المنزل. كنا فقراء للغاية فمن يساعدها فى الأعمال المنزلية؟ يجب مصاحبة ماما إلى السوق وإعداد وجبات الطعام والتنظيف. لور لم تقل شيئًا. تخلت عن الذهاب إلى المدرسة لكنها أصبحت مكتئبة صامتة ممتعضة. ومع هذا لاتشرق إلا عندما أعود من الكلية لكى أمضى فى المنزل ليلة السبت ويوم الأحد. أحيانًا كانت تجىء للقائى السبت على الطريق الملكى. كنت أتعرف عليها عن بعد خيالها الطويل والرفيع وهى مشدودة فى ثوبها الأزرق. لم تكن تضع قبعة وكانت تضع شعرها الأسود فى جديلة

طويلة مطوية ومعقودة فى ظهرها. عندما كانت تمطر مطرًا خفيفًا كانت تأتى بشال كبير حول رأسها وكتفيها كما لو أنها امرأة هندية .

من بعيد جدًا كانت تلمحنى وكانت تصيح وهى تجرى نحوى "على ! على! ..." كانت تحتضننى وكانت تبدأ فى الحديث وهى تحكى كمًا من الأشياء بلا أهمية كانت تحتفظ بها طوال الأسبوع. صديقاتها الوحيدات كن هنديات نساء أكثر فقرًا منها يعشن على تلال الغابة وكانت قد أحضرت بعض الطعام والملابس المستعملة، وكانت تتجاذب معهن أطراف الحديث لفترات طويلة. ربما لهذا السبب انتهت إلى التشبه بهن قليلاً بخيالها الرفيع وشعرها الطويل الأسود وشالها الكبير .

بالنسبة إلىَّ كنت أستمع إليها بالكاد؛ لأنه فى هذا الوقت لم تكن لدى أفكار أخرى إلا للبحر و"لوبريفاتير "رحلاته، مطارداته فى أنتونجيل و"دييجو سوياريز" و"مونومونايا" "إرسالياته السريعة مثل الريح حتى " كارناتير" فى الهند لكى يقطع الطريق على السفن العملاقة والثقيلة للشركات الهولندية والإنجليزية والفرنسية. قرأت إذًا الكتب التى تحدثت عن القراصنة وأسمائهم ومفاخرهم التى وجدت صدى فى مخيلتى. إفيرى الملقب "بالملاك الصغير" الذى كان قد سرق وأسر ابنة المغولى الأكبر ومارتيل وتيتش والميجور ستيدبونيه الذى أصبح قرصانًا باضطراب فى عقله والقبطان إنجلند وجون راكهام

وروبرتس وكنيدى والقبطان انستيس وتيلور، وديفيس والشهير أوليفييه الرهيب، الملقب "بلابوز"، الذى بمساعدة تيلور استولى على نائب ملك جووا وعلى سفينة كانت تحوى الغنيمة الشهيرة من الألماس الوارد من كنز جولكوند. لكن من أحببته فوق الجميع كان ميسون القرصان الفيلسوف الذى بمساعدة الراهب المخلوع كارا كيولى كان قد أسس فى دييجو سواريز جمهورية الحرية، حيث كل الناس يجب أن يعيشوا أحرارًا ومتساوين بصرف النظر عن أصولهم أو عرقهم.

لم أكن أتحدث قليلاً عن هذا إلا مع لور، لأنها كانت تقول إنها كانت خرافات، مثل تلك التى دمرت عائلتنا. لكنى كنت أقسم أحيانًا حلمى بالبحر والقرصان المجهول مع أبى، وكنت أستطيع النظر طويلاً فى الوثائق التى تتعلق بالكنز والتى كان يحتفظ بها فى خزانة مغطاة برصاص تحت الطاولة التى كان يستخدمها كمكتب. كل مرة كنت فيها فى فورست سايد مساء منغلقًا فى تلك الغرفة الطويلة المتواضعة والباردة فى ضوء شمعة كنت أمعن النظر فى الرسائل والخرائط والوثائق التى كان أبى قد شرحها والعمليات الحسابية التى أتمها منذ التعليمات التى تركها القرصان. أعدت بعناية نقل الوثائق والخرائط وحملتها معى إلى الكلية للحلم.

السنوات مرت هكذا فى عزلة ربما تكون أيضًا أكبر مما كنا عليه فى بوكان لأن الحياة فى برد الكلية

ومهاجعها. كانت حزينة ومهينة ازدحام الطلاب الآخرين، وراثحتهم وعلاقتهم ودعاباتهم البذيئة دائمًا وذوقهم للكلمات الكريهة وهو سهم بالجنس كل ما أكن عرفه حتى الآن والذى بدأ عندما طردنا من بوكان.

كان هناك موسم الأمطار، ليس عنف عواصف شاطئ البحر، لكنه مطر خفيف ورتيب يستقر فوق المدينة والتلال لأيام وأسابيع فى أوقات الفراغ، وأنا أرتجف من البرد كنت أذهب إلى مكتبة كارنوجى وأقرأ كل الكتب التى يمكننى أن أجدها بالفرنسية أو الإنجليزية رحلات ومغامرات فى جزيرتى فرنسوا ليجا المهجورتين إله البحر الشرقى لمانفيللات، الرحلات إلى مادغشقر، وإلى المغرب والهند الشرقية للابيه بوشون، وأيضًا شارل آللوم وجرونييه وأوهييه دى جراند بريه، وكنت أتصفح الجرائد بحثًا عن صور وأسماء لتغذية حلمى بالبحر.

ليلاً فى برد المهجع، كنت أردد عن ظهر قلب أسماء البحارة، الذين عبروا المحيطات وهربوا إلى العمارات البحرية، سعيًا لتحقيق الأحلام والسراب وانعكاس الذهب بعيد المنال. افيرى دائمًا والكابتن مارتيل وتيتس الذى يسمى اللحية السوداء والذى كان يجيب عندما كنا نسأله أين أخفى ذهبه "لم يكن هناك غيره والشيطان الذى هاجمه وأن الأخير الحى حمل كل شىء". هكذا قال شارل جونسون فى كتابه "تاريخ بيرات اونجلوا " القبطان ونتر وابنه بالتبنى إنجلند.

هو ويل ديفيز الذى سيلتقى يومًا فى طريقه بسفينة الأنبوب وكل فرد يرفع راية سوداء قرروا إذًا التحالف والإبحار معًا. القرصان كوشلين هو الذى ساعدهم فى الاستيلاء على حصن سيراليون. مارى ريد. متنكرة فى زى رجل وآن بونى زوجة جون راكهام تيو الذى تحالف مع ميسون ودعم ليبرتاليا وكورنيليوس وكامدين وجون بلونتان الذى أصبح ملكًا لرانتابيه وجون فالمبرج وإدوارج جوتر ودانييل دارون وجوليان هاردوين وفرنسوا الأخ وجيوم اوتروف وجون آلين ووليام مارتن وبنجامان ميللى وجيمس باتر وجيوم بلانتييه وآدم جونسون.

وكل المسافرين الذين عبروا البحر إذًا بلا حدود، اكتشفوا أراضى جديدة. دوفوجراى وجوتشيه دى لاجولوتيرى وشارل نيكولا مارييت والكابتن لوميه الذى يعيش ربما وعلى مقربة منه سفينة قرصان لاكاسندرادى تايلور " ثرى من خمسة إلى ستة ملايين بعد عودته من الصين حيث كان قد نهب هذه الكنوز "هكذا يقول شارل آللوم. جاكوب دى باكوى هو الذى حضر احتضار تايلور، والتقط سره الأخير. جرونييه الذى كان أول مَنْ اكتشف أرخبيل دى شاجو وسير روبيرت فاركار ودى لونجل الذى صاحب لابيروس إلى ألاسكا أو أيضًا هذا الرجل الذى أحمل اسمه "وليتنج "الذى صدق على وضع اليد على جزيرة موريس الذى نفذه جييوم دوفرسن قبطان "القناص" فى العشرين من سبتمبر عام ١٧١٥. هذه هى الأسماء التى أسمعها

فى الليل بعينين مفتوحتين على آخرهما فى ظلام العنبر أحلم أيضًا بأسماء السفن أجمل الأسماء فى العالم مكتوبة فى مؤخرة السفينة وهى تحط الأثر الأبيض فوق البحر العميق كتابة إلى الأبد فى الذاكرة التى هى البحر والسماء والريح. البروجى المحظوظ المنتقم، المنتصر الذى وجهه الطائر ثم جلد رلاند الذى كان قد أسره ودفاع تايلور وعودة سوركوف والمحلق دراجون دى كاموان والطيار الذى حمل بانجريه إلى رودريج ولامفيتريت والسنونو الكبير الذى قاده القرصان نفسه قبل أن يهلك على السفينة لافورتون. لانيرييد ولوتير ولوسافير التى جاء عليها إنجليز رוולى فى سبتمبر ١٨٠٩حتى لابوانت أوه جاليه لكى يحتلوا جزيرة فرنسا. توجد أسماء الجزر أيضًا أسماء شهيرة أعرفها عن ظهر قلب كتل بسيطة كانت قد سيطر عليها المستكشفون والقراصنة بحثًا عن الماء أو بيض العصافير المختبئة فى الخلجان وكهوف القراصنة؛ حيث أسسوا مدنهم وقصورهم ودولهم: خليج انطونجيل فى مدغشقر وجزيرة سانت ـ مارى وفولبوانت وتانتانج. جزر القمر اونجوان ماهيلى، مايوت. ارخبيل سيشيل وآميرونت وجزيرة ألفونس، كووتيفى، جورج، روكبيز الدابرا، جزيرة انتقال السيدة العذراء كوزموليدو، واستوف، سان بيير، بروفيدونس، جوان دى نوفا. مجموعة شاجو جزيرة سان براندون العجيبة حيث لاتستطيع النساء أن تذهب إليها رافاييل، تروملان، جزيرة الرمل، رصيف سايادى مالها

رصيف الناصرة، اجاليجا .. كانت هى الأسماء التى سمعتها فى صمت الليل الأسماء البعيدة تمامًا ومع هذا مألوفة للغاية والآن أيضًا بينما أكتبها يدق قلبى أسرع ولا أعود أعرف إذا لم أكن قد ذهبت إليها.

لحظات الحياة كانت عندما نتلاقى لور وأنا بعد أسبوع من الانفصال. على طول الطريق الموحل الذى يذهب حتى " فورست سايد" على امتداد السكة الحديد حتى المياه الزرقاء دون الالتفاف إلى الناس تحت مظلاتهم، كنا نتحدث لكى نتذكر أيام بوكان ومغامراتنا بين القصب والحديقة والوادى، وصوت الريح فى الأشجار السامقة. كنا نتحدث بسرعة وكل هذا بدا أحيانًا كحلم. ومانانافا " قالت لور. لم أستطع أن أرد عليها؛ لأنى كنت مصابًا بألم فى بطنى وكنت أفكر فى الليالى بدون نوم، بعينين مفتوحتين فى الظلام وأنا أستمع إلى تنفس لور الهادئ تمامًا أترقب وصول البحر مانانافا، الوادى المظلم حيث كان يولد المطر وحيث لم نجرؤ أبدًا على الدخول فيه. كنت أفكر أيضًا فى ريح البحر الذى كان ينمو ببطء مثل روح الأسطورة والقشتان بالذي الأبيض الناصع وكنت أسمع أيضًا رجع صدى الوادى وصراخه الأجش مثل صوت حشرجة الموت. مانانافا حيث كانت زوجة العجوز كوك تقول إن أحفاد العبيد السود كانوا يعيشون هنا، وكانوا قد قتلوا السادة وحرقوا حقول القصب. هنا كان سنجور قد هرب وهنا كان ساكالافو قد ألقى من أعلى هاوية لكى يهرب من البيض الذين

كانوا يطاردونه. وكانت تقول كذلك إنه عندما هبت العاصفة سمع أنينًا يتصاعد من مانانافا وشكوى أبدية.

لور وأنا كنا نمشى ونحن نتذكر، نمسك أيدينا مثل العشاق. كنت أردد الوعد الذى وعدت به لور منذ فترة طويلة: سنذهب إلى مانانافا.

كيف سيستطيع الآخرون أن يصبحوا أصدقاءنا وجيراننا؟ فى فورست سايد لا أحد يعرف مانانافا.

عشنا هذه السنوات فى فقر لدرجة أننا تعلمنا أن نصبح غير مبالين. فقراء جداً لشراء ملابس جديدة لم نخالط أحداً، لم نذهب إلى أى مطعم إلى أى حقل. لور وأنا نلنا شيئًا من المتعة من هذه الوحدة أبى لكى يجعلنا نعيش حصل على عمل محاسبى فى أحد مكاتب العم لودوفيك برومبار ستريت بيور لوى ولور كانت تسخط على الرجل الذى ساعد أكثر من غيره على رحيلنا من بوكان، وكان هو الذى امدنا بالغذاء كصدقة .

لكنه كان فقرًا أقل من العذاب ومن المنفى .أتذكر هذه الأمسيات المظلمة فى البيت الخشبى فى "فورست سايد" وبرد الليالى الخجول وصوت الماء المتساقط على صفيح السطح .الآن بالنسبة لنا البحر لم يكن موجوداً على الإطلاق. بالكاد نلمحه أحيانًا عندما كنا نركب القطار لمرافقة أبينا حتى بور لوى أو عندما كنا نذهب مع ماما ناحية "حقل مارس" على

البعد كانت منطقة تلمع باستمرار فى الشمس بين أسقف الأحواض وقمم الأشجار. لكننا لم نكن نقترب منها. لور وأنا كنا نبعد نظرنا مفضلين حرق عيوننا على أجنحة جبل "سينيو الجرداء".

فى هذا الوقت ماما كانت تتحدث عن أوروبا وعن فرنسا. رغم عدم وجود أية عائلة لها هناك كانت تتحدث عن باريس كملاذ آمن سوف نركب الباخرة التجارية التابعة لستيم نافيجيشن البريطانية الهندية إلى بلد المنشأ كلكتا وسنذهب حتى مارسيليا. بداية سنعبر المحيط حتى السويس وسنحصى المدن التى سيمكننا رؤيتها. مونباز، عدن، الإسكندرية، أثينا، جنوة ثم نركب القطار حتى باريس حيث يعيش أحد أعمامنا شقيق والدنا الذى لم يكتب قط ولانعرفه إلا باسم العم بيير موسيقى أعزب له كما يقول أبى شخصية سيئة للغاية لكنه سخى جدًا. هو الذى كان يرسل نقودًا لدراستنا، وبعد وفاة أبى جاء لمساعدة ماما. لهذا قررت ماما أننا سنذهب للإقامة عنده على الأقل فى الأوقات الأولى قبل إيجاد مكان للإقامة. حمى هذه الرحلة أصابت حتى أبى الذى كان يحلم بصوت عالٍ بمشروعاته. بالنسبة إلىَّ لايمكننى أن أنسى القرصان المجهول ولا ذهبه السرى. هل هناك فى باريس كان يوجد مكان لقرصان؟ .

إذًا سنبقى فى هذه المدينة الغامضة حيث يوجد كم من الأشياء الجميلة وكثير من المخاطر أيضًا. لور

كانت قد قرأت فى حلقة من مسلسل جريدة عن "خفايا باريس" رواية لاتنتهى تتكلم عن قطاع طرق وخاطفى الأطفال والمجرمين. لكن هذه المخاطر كانت بالنسبة إليها مظللة بنقوش الصحف التى كانت تعرض "حقل مارس" الحقيقى والمسلة والميادين الكبيرة والموضة. طوال أمسيات السبت الطويلة تحدثنا عن الرحلة ونحن نستمع إلى صوت المطر يقرع على صفيح السطح وقرقعة عربات لابسى الخيش تجرى فى وحل الطريق. لور كانت تتحدث عن أماكن سوف نذهب لزيارتها عن السيرك بصفة خاصة؛ لأنها كانت قد رأت فى جرائد أبى الرسومات التى تعرض خيمة سيرك ضخمة تطوف تحتها نمور وأسود وأفيال تركبها فتيات ترتدى ثيابًا مزركشة. ماما تعيدنا إلى أشياء أكثر جدية سوف ندرس أنا الحقوق ولور الموسيقى وسنذهب إلى المتاحف، وربما نزور القصور الضخمة. بقينا صامتين للحظات طويلة فى طريق الخيال .

لكن الأفضل للور ولى كان عندما كنا نتحدث عن اليوم ـ البعيد بطبيعة الحال ـ حيث سنعود إلى بيتنا فى موريشيوس مثل هؤلاء المغامرين المسنين الذين يبحثون عن العودة إلى أرض طفولتهم. سنصل يومًا ربما بالباخرة ذاتها التى حملتنا وسنسير فى شوارع المدينة دون التعرف على شىء. سنذهب إلى الفندق فى مكان ما فى بور لوى على وارف ربما فى الشرق الجديد أو إلى فندق الحديقة فى "شارع الكوميديا" أو

نأخذ أيضًا القطار فى الدرجة الأولى، ونذهب إلى فندق العائلة فى كوروبيب ولن يخمن أحد من نحن. فى السجل سأكتب اسمينا السيد والآنسة ليتونج ـ سائحان.

ثم نذهب بالحصان ـ عبر حقول القصب نحو الغرب حتى "كانتون الخامس عشر" وماوراءها، ونهبط الطريق الذى يمضى بين قمم الضروع الثلاثة ثم على طول طريق ماجنتا، وسيكون المساء قد حل عندما نصل إلى بوكان وهنا لاشىء يكون قد تغير. سيكون هناك دائمًا منزلنا مائل قليلاً منذ مرور الإعصار بسقفه ذى اللون السماوى والزواحف التى غزت الشرفة. الحديقة صارت أكثر توحشًا ولاتزال بالقرب من الوادى دائمًا شجرة شالطا الضخمة شجرة الخير والشر؛ حيث تأتى العصافير وتلتقى قبل الليل. سنذهب أيضًا حتى حدود الغابة أمام مدخل مانانافا هنا حيث يبدأ الليل دائمًا وستكون فى السماء القشتان بالذيل الأبيض كما الرغوة تستديران ببطء فوقنا وهما تطلقان صيحاتهما الغريبة من الخشخشات ثم تختفيان فى الظلام .

وسيكون البحر ورائحة البحر التى يحملها الريح وصوت البحر وسنستمع ونحن نرتعش صوته المنسى الذى سيقول لنا: لاترحلا أبدًا لاترحلا أبدًا .

لكن السفر إلى أوروبا لن يكون أبدًا لأنه فى ذات مساء من شهر نوفمبر بالضبط قبل مطلع القرن الجديد مات والدنا بعد أن قضت عليه النوبة. جاء

الخبر فى الليل حمله ساعى بريد هندى. وجاء من يوقظنى فى عنبر الكلية ليصحبنى إلى مكتب المدير المضاء بشكل غير طبيعى فى هذه الساعة. أخبرونى بما حدث مع المراعاة، لكنى لم أشعر إلا بفراغ كبير فى الساعة الأولى اقتادنى فى سيارة إلى "فورست سايد" وعندما وصلت وبدلاً من الحشد الذى كنت أخشاه لم أر غير لور وعمتنا آديلاييد وماما شاحبة وساجدة على كرسى أمام السرير؛ حيث يسجى والدى بكامل ملابسه هذا الموت المفاجئ حدث بعد سقوط المنزل الذى ولدنا فيه وكان بالنسبة إلىَّ كما بالنسبة للور شيئًا غير مفهوم وقد بدا لنا عقابًا من السماء. ماما لم تشف تمامًا أبدًا .

النتيجة الأولى لفقدان والدنا أدت أيضًا إلى حرمان كبير جدًا وخاصة لماما. لم يعد الأمر يتعلق بأوروبا فى الوقت الحالى. كنا سجناء جزيرتنا دون أمل فى الخروج منها بدأت أكره هذه المدينة الباردة والممطرة وهذه الطرق المزدحمة بالبؤساء وهذه العربات التى تنقل كميات القصب إلى قطار السكر وحتى ماكنت أحبه كثيرًا فيما مضى هذه المساحات الشاسعة من المزارع؛ حيث كانت الرياح تدفع موجات. هل سأكون مجبرًا على العمل يومًا مثل مرتدى الخيش وتحميل حزم القصب على العربات التى تجرها الثيران لخبزها فى فوهة الطاحونة كل يوم من حياتى دون أمل وبلا حرية لم يكن ذلك حتى لكن ربما يكون أسوأ أيضًا منحتى فى الكلية، انتهت اضطررت

للالتحاق بعمل، وكان المكان الذى شغله والدى فى المكاتب الرمادية شركة التأمينات والتصدير التى كانت فى قبضة العم لودوفيك القوية.

شعرت عندئذ بكسر الروابط التى تربطنى بلور وبماما خاصة الشعور الذى بدده إلى الأبد بوكان ومانانافا.

فى شارع السور كان عالمًا آخر كنت أصل كل صباح بالقطار مع حشد من عابرى الجداول ومن التجار الصينيين والهنود الذين يجيئون لإنجاز أعمالهم. من عربات الدرجة الأولى يخرج الرجال المهمون رجال الأعمال والمحامون يرتدون السترات السوداء ويمسكون بعصا وقبعة. كانت هذه الموجة تحملنى حتى باب مكاتب شركة التأمينات والتصدير حيث ينتظرنى فى الحجرة الصغيرة الساخنة بنورها الخافت، السجلات ورزم الفواتير. أبقى فيها حتى المساء عند الخامسة مع التوقف نصف ساعة عند الظهر لتناول الغداء. زملائى كانوا يذهبون معًا للطعام عند أحد الصينيين فى الشارع الملكى أما أنا فبدافع اقتصادى وأيضًا لطعم الوحدة أقنع بقضم بعض القرص بفلفل أمام المحل الصينى وأحيانا بشىء من الترف أخذ برتقالة أقسمها إلى أربعة أجزاء وأجلس على جدار فى ظل شجرة أتطلع إلى الفلاحات الهنديات العائدات من السوق .

كانت حياة بلا صراع، بدون مفاجآت، كان يخيل إلىَّ دائمًا أن كل هذا لم يكن حقيقيًا، وأنه كان حلمًا

أحلم به وأنا يقظ كل هذا القطار، الأرقام على السجلات رائحة التراب فى المكاتب، أصوات الموظفين فى الشركة الذين يتحدثون بالانجليزية وزوجاتهم الهنديات العائدات ببطء من السوق يحملن فوق رءوسهن سلالهن الفارغات على امتداد الشوارع الشاسعة تحت ضوء الشمس .

لكن كانت هناك القوارب. من أجلها كنت أذهب إلى الميناء كلما تيسر لى ذلك عندما كانت تتاح لى ساعة واحدة قبل فتح مكاتب الشركة أو بعد الخامسة عندما يكون شارع السد خاليًا. فى أيام العطلات عندما يذهب الشباب للنزهة ممسكين بأذرع خطيباتهم على طول ممرات حقل مارس، كنت أفضل التسكع على الأرصفة وسط حبال المراكب وشباك الصيد لكى أستمع لحديث الصيادين، ولكى أتطلع إلى القوارب التى تتمايل فوق الماء المتدفق وأتابع بالنظر شباك معدات السفن. بالفعل كنت أحلم بالذهاب لكن علىّ أن أشبع من قراءة أسماء القوارب على المؤخرات. أحيانًا كانت قوارب صيد بسيطة تحمل فقط رسمًا بدائيًا لطاووس وديك أو دولفين. كنت أنظر خلسة إلى وجوه البحَّارة والهنود المسنين والسود والقمريين المعممين جالسين فى ظل الأشجار الضخمة يدخنون سجائرهم دون أن يتحركوا تقريبًا.

أتذكر أيضًا اليوم أسماء قرأتها على مؤخرات السفن أنها مسجلة عندى مثل كلمات أغنية: جلاديس، السلام نجمة البحر الهندى الصداقة

روزالجميلة، كومودا، روبانيكا تان الأحمر، روزاليا مسحوق الذهب حسناء الجنوب كانت بالنسبة إلىَّ أجمل أسماء الدنيا لأنها كانت عن البحر وعن أمواج عرض البحر الطويلة وعن الشعاب المرجانية وعن الجزر البعيدة وعن العواصف ذاتها. عندما كنت أقرؤها أكون بعيدًا عن الأرض بعيدًا عن شوارع المدينة بعيدًا بصفة خاصة عن ظل تراب المكاتب والسجلات المغطاة بالأرقام.

ذات يوم لور جاءت معى على الأرصفة. مشينا طويلاً على امتداد القوارب تحت أعين البحَّارة اللامبالية والجالسين فى ظل الأشجار. هى التى حدثتنى أولا عن حلمى السرى وهى تسألنى "هل ستغادر قريبًا على متن قارب؟ "ضحكت قليلاً مستغربًا سؤالها كما لو كان مزحة. لكنها نظرت إلىَّ دون أن تضحك وعيناها الجميلتان المظلمتان مليئتان بالحزن. "نعم نعم أعتقد أنه بإمكانك الرحيل على أى من هذه القوارب، تذهب إلى أى مكان كما هو الحال مع دونيس على الزورق " قلما لم أجب بشىء، قالت بشىء من المرح فجأة :" هل تعلم أحب كثيرًا ذلك أنا أن أذهب إلى أى مكان على قارب إلى الهند إلى الصين إلى أستراليا إلى أى مكان. لكن ليس أبدًا إلى فرنسا". توقفت عن الكلام وواصلنا النظر إلى القوارب الراسية على طول الرصيف وأنا كنت سعيدًا كنت أعلم لماذا كنت سعيدًا فى كل مرة يرفع قارب أشرعته ويبتعد نحو الاتساع .

هذه هى السنة التى تعرفت فيها بالكابتن برادميروبزيتا. أريد الآن أن أتذكر تفاصيل ذلك اليوم لكى أعيشه من جديد لأنه كان يومًا من أهم ايام حياتى.

كان يوم أحد صباحًا منذ الفجر كنت قد خرجت من المنزل القديم فى "فورست سايد" وركبت قطار بورلوى، تجولت كما هى عادتى على امتداد الأرصفة وسط الصيادين العائدين توًا من البحر مع سلالهم المليئة بالأسماك. القوارب كانت لاتزال مبللة من البحر المرتفع مجهدة أشرعتها معلقة بطول السوارى لكى تجف فى الشمس. كنت أحب أن أكون هنا تمامًا عند العودة من الصيد أسمع حركة هياكل السفن وأشم رائحة البحر، التى لاتزال فوقها. ثم بين قوارب الصيد، مراكب الصيد، وحشد من القوارب الشراعية رأيتها: كان قاربًا قديمًا بالفعل مع خيال دقيق وفارع لسفينتين بصاريين وساريين يميلان بخفة إلى الخلف وشراعين جميلين يخفقان فى مهب الريح. على هيكل سفينة طويلة سوداء فى اتجاه المقدمة قرأت اسمها الغريب مكتوبًا بحروف بيضاء: زيتا.

وسط قوارب الصيد الأخرى بدا وكأنه دم نقى جاهز للسباق بأشرعته الكبيرة شديدة البياض ومعداته التى أطلقت الشراع الثانى إلى الصارى. بقيت طويلاً بلا حراك وأنا معجب به. من أين جاء؟ هل سيعاود الذهاب إلى رحلة كنت أتخيلها بلا عودة؟ بحار كان يقف على الجسر، أسود من جزر القمر.

تجرأت أن أسأله من أين جاء وأجابنى "آجاليجا" عندما سألته لمن كانت السفينة قال لى اسما اسأت فهمة "القبطان ذراع البحر" ربما يكون هذا الاسم هو الذى استدعى زمن القراصنة والذى أيقظ بداية خيالى وجذبنى إلى هذا القارب من كان "ذراع البحر" هذا؟ كيف يمكن رؤيته؟ إنها الأسئلة التى وددت أن أسألها للبحار لكن الرجل أدار إلىَّ ظهره وجلس على مقعده فى مؤخرة القارب فى ظل الأشرعة .

مرات كثيرة عدت فى ذلك اليوم لكى أشاهد المركب الشراعى على الرصيف مهمومًا بفكرة أنه يمكنه أن يذهب فى مد المساء. البحار كان لايزال يجلس على المقعد فى ظل الشراع الذى كان يرفرف فى مهب الريح. حوالى الثالثة بعد الظهر بدأ التيار يرتفع والبحار فرد الشراع على عارضة الصارى ثم اغلق بعناية فتحات السطح بأقفال ونزل إلى الرصيف عندما رآنى من جديد أمام القارب توقف وقال إلىَّ "الكابتن ذراع البحر سيأتى الآن".

بعد الظهر بدا لى طويلاً للغاية فى انتظاره. مكثت طويلاً جالسًا تحت أشجار الإدارة لأتجنب الشمس الحارقة تدريجيًا مع انقضاء اليوم أنشطة رجال البحر تباطأت وسرعان ما اختفى الناس فيما عدا بعض المتسولين، الذين ينامون فى ظل الأشجار أو يلتقطون بقايا السوق. مع المد كانت الريح تصفر من البحر ورأيت على البعد بين القطبين توهج الأفق.

عند الغسق عدت أمام زيتًا كانت تتحرك تقريبًا عند حافة حبالها فى الموجة. على الجسر بمثابة طريق لوح بسيط كان يصر عند استمرار الحركة .

فى ضوء المساء الذهبى فى الميناء المهمل، حيث مرت وحدها بعض النوارس مع ضجيج الريح الخفيف الذى يصفر فى المعدات وربما أيضًا بسبب هذا الانتظار الطويل فى الشمس كما فيما مضى عندما كنت أركض فى الحقول، كانت المركب قد اكتسبت شيئًا ما من السحر مع سارياتها العالية المائلة وعارضات الصارى أسيرة شبكة من الحبال وسهم الصارى الحاد مثل الحيزوم. على الجسر اللامع أعطى المقعد الفارغ الموجود أمام عجلة القضيب انطباعًا بالغربة أكبر أيضًا. لم يكن مقعد مركب كان بالأحرى مقعد مكتب من الخشب الماضر مثل المقاعد التى كنت أراها كل يوم فى شركة التأمينات والتصدير وكان هنا فى مؤخرة المركب الباهتة يفعل الرذاذ تحمل ماركات السفر عبر المحيط!

الجاذبية كانت قوية للغاية بقفزة. عبر اللوح الذى كان بمثابة معبر أمام العجلة الخشبية الكبيرة ذات القضيب، كنت مأخوذًا تمامًا بسحر المركب. فى وحدة الميناء وضوء الشمس الغاربة الذهبى، لدرجة أنى لم أسمع وصول القبطان. اقترب منى ونظر إلىَّ بفضول دون غضب وقال لى بشكل غريب ساخر وجاد معًا:

"حسنًا ياسيدى ؟ متى نرحل؟"

أتذكر جيداً الطريقة التى ألقى على بها هذا السؤال والاحمرار الذى غطى وجهى؛ لأننى لم أكن أعرف بماذا أجيبه.

ماذا أقول لكى أعتذر ؟ أتذكر بالتحديد الانطباع الذى نقله إلىَّ القبطان إذًا، جسده العريض وثيابه التى يستعملها كمركبة مزركشة بعلامات لاتمحى، كما الندب ووجهه الإنجليزى ببشرة شديدة الحمرة، قاس، جاد تكذبه عينان سوداوان تلمعان، فضلاً، عن وميض السخرية الصبيانية فى نظرته هو الذى تحدث إلى أولا وعلمت ان "ذراع البحر" كان فى الحقيقة القبطان برادمير ضابط فى البحرية الملكية، كان قد وصل إلى نهاية مغامراته الفريدة.

أعتقد أنى عرفته على الفور: سأرحل على "زيتا" ستكون هى مركبى"آرجو" التى ستقودنى عبر البحر حتى المكان الذى حلمت به فى رودريج لبحثى عن كنز بلا نهاية.

نحو رودريج ١٩١٠


https://telegram.me/maktabatbaghdad

أفتح عينىَّ وأرى البحر. ليس بحر الزمرد الذى رأيته فيما مضى فى البحيرات ولا الماء الأسود أمام مصب نهر تاماران، إنه البحر كما لم أره أبدا من قبل بحر متوحش بزرقة تصيب بالدوار البحر الذى يحمل هيكل المركب ببطء، موجة بعد موجة ملون بالرغوة يجتاز الشرر .

الوقت متأخر، الشمس أصبحت عالية فى السماء نمت بعمق حتى أنى لم أسمع المركب تبحر وتعبر الممر عندما حدث المد والجزر .

مساء أمس مشيت على الأرصفة فى وقت متأخر من الليل وأنا أشم رائحة النفط والزعفران ورائحة الفاكهة المتعفنة التى تعدم فى موقع السوق. كنت أسمع أصوات رجال البحر فى المراكب وصيحات لاعبى النرد، وكنت أشم أيضًا رائحة "العرقى" والتبغ. صعدت على متن المركب ونمت على السطح للهروب من العنبر الخانق وتراب أكياس الأرز. نظرت إلى السماء من خلال حبال الصارى ورأسى يميل على

صدرى. صارعت النوم حتى منتصف الليل وأنا أنظر إلى سماء بلا نجوم، وأستمع إلى الأصوات وصرير العربة على الرصيف وعلى البعد موسيقى الجيتار. لم أكن أرغب فى التفكير فى أحد. لور وحدها التى علمت برحيلى لكنها لم تقل شيئًا لماما لم تزرف دمعة واحدة، على العكس كانت عيناها تلمعان بضوء غير عادى. سوف نلتقى قريبًا هكذا قلت. هناك فى رودريج سيمكننا أن نبدأ حياة جديدة سيكون لدينا منزل كبير وخيول وأشجار فهل يمكنها أن تصدقنى ؟

لم تشأ أن أطمئن عليها. ترحل تذهب بعيدًا، ربما إلى الأبد. يجب أن تذهب إلى منتهى ما تبحث عنه حتى آخر العالم هذا ما أرادت أن تقوله لى عندما كانت تنظر إلى لكنى لم أستطع أن أفهمها. الآن أكتب إليها لأقول لها ماكان فى تلك الليلة نائم على سطح زيتا وسط الحبال أسمع صوت رجال البحر والجيتار الذى كان يعزف دون توقف الأغنية الخلاسية ذاتها. الصوت فى لحظة أصبح قويًا للغاية ربما كان الريح قد ارتفع أو كان المغنى قد استدار نحوى فى ظل الميناء.

طير، طير، تهيأ ولاتتجمد

هاهو الطائر مستعد للطير

اذا ربحت خطأ فأنت الطائر

سأربح النقود من أجل سفرى،

فى الذهاب وفى الإياب!

غفوت وأنا أستمع إلى كلمات الأغنية.

وعندما جاء المد والجزر رفعت زيتا أشرعتها فى صمت وانزلقت فوق الألماس الأسود نحو حصون الممر وأنا لم أكن أعرف شيئًا. نمت على الجسر بجوار القبطان برادمير ورأسى يميل على صدرى .

عندما استيقظت ونظرت حولى مبهورًا بالشمس لم يعد للأرض وجود. ذهبت إلى الخلف تمامًا، وملت على الدرابزين أنظر إلى البحر بقدر ما أستطيع وإلى الأمواج الطويلة التى تتدفق تحت الهيكل وإلى المجرة كأنها طريق يتلألأ. منذ وقت طويل وأنا أنتظر هذه اللحظة! قلبى يدق بعنف وعيناى مليئتان بالدموع .

زيتا تنحنى ببطء تحت مرور الأمواج ثم تعتدل بعيدًا عن مدى رؤيتى لا يوجد غير هذا: البحر، وديان عميقة بين الأمواج الرغوة على القممم أسمع صوت الماء الذى يعانق هيكل المركب وتمزق شفرة بالقوس. الريح بخاصة الذى يملأ الأشرعة ويجعل العتاد يصرخ. كنت أعرف جيدًا هذا الضجيج، إنه صوت الريح فى فروع الأشجار الضخمة فى بوكان ضجيج البحر الذى يرتفع والذى ينتشر حتى حقول القصب لكنها المرة الأولى التى أسمعه فيها على هذا النحو وحده بدون عوائق حر من ناحية إلى أخرى من العالم.

الأشرعة جميلة مليئة بالريح. زيتا تبحر على القرب والقماش الأبيض يتموج وهو يقرقع من أعلى

إلى أسفل. فى المقدمة توجد ثلاثة أذرع رفيعة مثل جناحى عصفور البحر هى التى تقود المركب نحو الأفق. أحيانًا بعد عاصفة من رياح الغرب قماش الأشرعة يشد ثانية فى حاشية شديدة تطن مثل طلقة مدفع. كل ضجيج البرح يدوخنى والضوء يعمينى. توجد زرقة البحر بشكل خاص هذه الزرقة العميقة والمظلمة القوية المليئة بالشرر. الريح يصنع دوامة ويسكرنى وأشعر بطعم الرذاذ المالح عندما يغطى الموج المد والجزر.

كل الرجال على السطح. إنهم بحَّارة هنود من جزر القمر لايوجد ركاب آخرون على الميناء. جميعا نشعر بالنشوة ذاتها بأول يوم فى البحر. حتى برادمير من المؤكد أنه يشعر بذلك. يقف على السطح بالقرب من قائد الدفة ساقاه متباعدتان لمقاومة الترنح. لعدة ساعات لم يتحرك لم يغادر البحر بعينيه رغم مابى من رغبة لا أجرؤ على طرح أسئلة. ينبغى أن انتظر مستحيل عمل شىء غير النظر إلى البحر وسماع ضجيج الرياح للاشىء فى العالم لا أريد أن أنزل إلى العنبر. الشمس تحرق الجسر وتحرق ماء البحر المعتم.

أذهب لأجلس بعيدًا فوق السطح عند حافة ذراع الشراع الذى يهتز. الأمواج ترفع مؤخرة المركب ثم تتركها تهبط بعمق. طريق بلا نهاية يتسع نحو الأفق إلى الوراء. لم تعد توجد أرض فى أى مكان لاتوجد غير المياه العميقة الممتلئة بالضوء، والسماء حيث تبدو السحب ساكنة وخفيفة يكسوها الأفق بالدخان .

أين نذهب؟ هذا ما أريد أن أسأله لبرادمير. أمس لم يقل شيئًا ظل صامتًا كما لو كان يفكر أو كأنه لم يكن يريد أن يقول: إلى آجاليجا، وهذا يتوقف على الرياح. هكذا قال لى قائد الدفة رجل عجوز لونه كالصلصال عيناه مشرقتان تنظران إليك دون أن تطرفا الرياح جنوبية ـ جنوبية شرقية الآن مستمرة دون هبات وسوف تتجه إلى الشمال. الشمس عند مؤخرة زيتا ضوؤها يبدو كأنه يملأ الأشرعة.

سكرة بداية اليوم لم تتراجع. البحارة السود والهنود ظلوا واقفين على السطح بالقرب من الصارى الأمامى متشبثين بالحبال. الآن يجلس برادمير على مقعده خلف قائد الدفة ويستمر فى النظر أمامه نحو الأفق كما لو كان ينتظر حقًا شيئًا مايظهر. لاتوجد غير الأمواج تندفع نحونا مثل بهائم منتصبة الرأس عرفها ذو شرر ثم ترتطم بهيكل المركب وتنزلق تحتها. عند عودتى أراها تهرب تميزها بالكاد شفرة الوتد نحو الجانب الآخر من العالم .

أفكارى تصطدم بداخلى حسب إيقاع الأمواج أعتقد أنى لم أعد الشخص نفسه، ولن أكون أبدًا الشخص نفسه. أصبح البحر يفرقنى عن ماما ولور وعن فورست سايد، وعن كل ماكنته.

فى أى يوم نحن؟ يخيل إلىَّ أنى عشت هنا دائمًا فى مؤخرة زيتا، أنظر من فوق الدرابزين على امتداد البحر أستمع إلى تنفسه يخيل إلىّ أن كل ماعشته منذ طردنا من بوكان إلى حى الغابة إلى الكلية الملكية ثم

فى مكاتب شركة التأمينات والتصدير، كل هذا لم يكن غير حلم ويكفى أن أفتح عينىَّ على البحر لكى يمحى ذلك.

فى ضجيج الأمواج والرياح أسمع صوتًا يتردد فى أعماقى دون توقف: البحر! البحر! وهذا الصوت يغطى على كل الكلام الآخر وكل الأفكار. الريح الذى يدفعنا نحو الأفق يصنع دوامة أحيانًا ويجعل المركب تتأرجح. أسمع طلقات الأشرعة وصفير المعدات وهذه أيضًا كلمات تحملنى وتبعدنى. الأرض التى عشت فيها كل هذا الوقت أين هى الآن؟ أصبحت صغيرة للغاية مثل طوف ضائع بينما زيتا تتقدم تحت ضغط الريح والضوء. تنحرف فى مكان ما على الجانب الآخر للافق خيط رفيع من الطين الضائع فى الزرقة الشاسعة .

أنا مشغول تمامًا بالنظر إلى البحر والسماء وكل حفرة ضوء بين الأمواج وشفاه المجرة التى تبتعد أسمع بمزيد من الاهتمام ضجيج الماء على صدر المركب وضجيج الريح ويأتى لم ألحظ إلا أفراد الطاقم وهم يأكلون. برادمير هو الذى يجىء نحوى. ينظر إلىَّ دائمًا بنظرة السخرية فى عينيه الصغيرتين السوداوين.

"ماذا بعد ياسيدى؟ دوار البحر هو الذى يقطع شهيتك؟ " قالها بالإنجليزية. نهضت من فورى لأبين له أنى لست مريضًا .

" كلا ياسيدى "

"إذًا هيا لتأكل" إنه تقريبًا أمر.

نزلنا إلى العنبر عن طريق السلم. فى جوف المركب الحرارة خانقة والهواء معبأ بروائح المطبخ والسلع رغم الطاقات المفتوحة يسود الظلام، المركب من الداخل ليس إلا عنبرًا واحدًا كبيرًا حيث يشغل الجزء الرئيسى بصناديق وبالات السلع وتشغل الخلفية بالفراش الأرضى حيث ينام البحَّارة. تحت السطح فى المقدمة الطباخ الصينى مشغول بتوزيع حصص الأرز بالكارى، الذى طبخه على موقد قديم بالكحول وصب الشاى من غلاية كبيرة من القصدير.

برادمير يجلس القرفصاء على الطريقة الهندية ظهره يميل على عارضة وأنا أفعل مثله. هنا فى عمق العنبر تتدحرج المركب بشكل مرعب. الطباخ يعطينا أطباقًا مطلية بالمينا مليئة بالأرز بعضًا من الشاى الساخن .

نحن نأكل دون أن نتكلم. فى الغسق أتبين البحَّارة الهنود جاثمين هم أيضًا وهم يشربون الشاى. برادمير يأكل بسرعة وهو يستخدم الملعقة المنبعجة مثل عصا وهو يدفع الأرز فى فمه. الأرز زيتى مشبع بصلصة السمك لكن الكارى حام لدرجة الشعور بالمذاق بالكاد. الشاى يحرق شفتى وحلقى لكنه يروى العطش بعد الأرز المتبل .

عندما انتهى برادمير وقف ووضع الطبق والكوب على الأرض بالقرب من الصينى. عند صعود السلم من جديد نحو السطح، أخذ يفتش فى جيب سترته وأخرج منه سيجارتين غريبتين مصنوعتين من أوراق التبغ التى لاتزال خضراء ملفوفة حول نفسها تناولت إحدى السجارتين وأشعلتها بولاعة القبطان. صعدنا السلم واحدًا بعد الآخر وأصبحنا من جديد فوق السطح فى مهب الريح.

بعد بقائى للحظات فى العنبر خطف الضوء بصرى بقوة حتى امتلأت عيناى بالدموع، أتحسس تقريبًا وأنا منحن تحت ذراع الشراع عدت إلى مكانى فى المؤخرة وجلست قرب حقيبتى أما برادمير فقد استدار ليجلس فى مقعده المشدود إلى الجسر ونظر بعيدًا دون أن يتحدث إلى قائد الدفة وهو يدخن سيجارته .

رائحة التبغ طيبة ولذيذة لكنها تقززنى وهذا لايروقنى مع زرقة البحر النقية تمامًا وزرقة السماء وضوضاء الرياح أطفأت السيجارة فوق الجسر لكنى لا أجرؤ على إلقائها فى البحر لايمكننى أن أتقبل هذا التلوث هذا الجسم الغريب يطفو فوق هذه المياه الجميلة المنسابة والحية .

زيتا ليست تلوثًا. كم عبرت هذا البحر وبحار أخرى أيضًا فيما وراء مدغشقر وحتى سيشيل أو نحو الجنوب حتى سان بول. المحيط نقاها جعلها مثل طيور البحر الكبيرة التى تحوم فى الرياح.

الشمس تهبط ببطء فى السماء تضىء الجانب الآخر من الأشرعة الآن. أرى ظل الأشرعة على البحر الذى يكبر من ساعة لأخرى فى آخر الظهيرة فقد الريح أنفاسه أنه نسيم خفيف يكاد يستند على الأشرعة الضخمة تلمس وتدور الأمواج وتصيب سطح البحر بقشعريرة وكأنه جسد إنسان. معظم البحَّارة نزلوا إلى العنبر يشربون الشاى ويتحدثون. البعض ينام على فراش الأرض لكى يستعدوا لإبحار الليل .

القبطان برادمير ظل فى مقعده خلف قائد الدفة يتحدثان بالكاد بضع كلمات غير واضحة يدخنان سجائر التبغ الأخضر دون ملل بحيث تصل إلىّ الرائحة فى بعض الأحيان عندما تكون هناك زوبعة أشعر بعينى تحترقان ربما أكون قد أصبت بالحمى؟ جلد وجهى ورقبتى وذراعى وظهرى كله يحترق حرارة الشمس. أثناء كل هذه الساعات علمت على جسدى طوال اليوم حرقت الشمس الأشرعة والجسر والبحر أيضًا دون أن آخذ حذرى. أضاءت بأشعتها قمة الأمواج وهى ترسم أقواس قزح فى الرذاذ.

الآن من البحر يأتى الضوء من أعمق أعماق لونه. السماء صافية بلا لون تقريبًا وأنظر إلى امتداد زرقة البحر وفراغ السماء حتى الدوار .

هذا ماحلمت به دائمًا. يخيل إلىّ أن حياتى توقفت منذ فترة طويلة فى مقدمة البارجة التى كانت تنجرف على بحيرة مورن عندما تفحص دونيس العمق

بحثًا عن سمكة بالخطاف كل هذا الذى كنت أعتقد أنه تبدد ونسى الضجيج، التطلع من البحر المفتون بهويته كل هذا يدور بداخلى ويعود فوق زيتا التى تتقدم.

ببطء تهبط الشمس نحو الأفق تضىء قمم الأمواج وتفتح وديانا من الظل وكما ينخفض الضوء ويتلون بلون الذهب تأخذ تحركات البحر فى التباطؤ لم يعد الريح يطلق عواصفه. الأشرعة أصبحت فارغة ومعلقة بين عارضات الصوارى. فجأة أصبحت الحرارة شديدة ورطبة. كل الرجال فوق السطح فى مقدمة المركب أو جالسون حول البوابات يدخنون والبعض ممددون على جذوعهم وهم عراة فوق السطح. عيونهم نصف مغلقة فى طريقهم إلى الحلم ربما تحت تأثير الكانجا. الجو هادئ الآن والبحر يجعد أمواجه البطيئة فى مواجهة هيكل المركب اتخذ لونًا صارخًا لايخرج منه الضوء مطلقًا. أسمع الأصوات بتميز ضحكات البحّارة الذين يلعبون النرد فى مقدمة المركب وحديث قائد الدفة الأسود الممل والذى يتحدث إلى القبطان دون أن ينظر إليه .

كل هذا غريب شبيه بحلم مبتور منذ زمن طويل مولود من بريق البحر عندما تنزلق البارجة قريبًا من مورن تحت فراغ السماء عديم اللون. أفكر فى المكان الذى أذهب إليه وقلبى يدق بسرعة هائلة. البحر طريق أملس للعثور على الأسرار والمجهول. الذهب فى الضوء حولى مختف تحت مرآة البحر أفكر فيما

ينتظرنى فى الطرف الآخر من هذه الرحلة وكأنها أرض ذهبت إليها بالفعل ذات مرة وسوف أفقدها. المركب تنزلق فوق مرآة الذاكرة لكن هل أستطيع أن أفهم عندما أصل؟ هنا فوق سطح زيتا التى تتقدم بهدوء فى ضوء الشفق المتراخى وفكرة المستقبل تصيبنى بالدوار أغمض عينَّى لكى لا أرى إبهار السماء وجدار البحر غير المتصدع.

اليوم التالى فى الميناء

رغم ترددى كان علىّ أن أمضى الليل أسفل العنبر. القبطان برادمير لا يريد أحدًا فوق السطح أثناء الليل. أنام على الأرضية ذاتها (مراتب البحَّارة لاتبعث على الثقة) ورأسى يميل على غطائى الملفوف المبروم أتشبث بمقبض صندوقى بسبب التمايل الذى لايكف. القبطان برادمير ينام فى نوع من المخدع المبنى فى هياكل المركب بين عارضين عملاقين من خشب الساج المربع تقريبًا واللذان يدعمان الجسر. وركب حتى ستارًا مؤقتًا يسمح له بالانعزال لكن يجعله يختنق لأنه فى الصباح الباكر رأيت أنه أزاح الستار عن وجهه .

ليلة مرهقة بسبب التمايل بداية ولكن أيضًا بسبب الاختلاط، رجال يشخرون ويسعلون يتكلمون ذهابًا وإيابًا دون انقطاع فى العنبر ذى الفتحات لاستنشاق قليل من الهواء المنعش أو للتبول أسفل الجسر تحت الريح. الغالبية أجانب من جزر القمر

وصوماليون يتكلمون لغة خشنة أو هنود من مالابار ذوو جلد داكن ونظرة حزينة. إذا كنت لم أنم لحظة فى تلك الليلة فبسبب هؤلاء الرجال أيضًا. فى ظلمة العنبر الخانقة المثقوب بالكاد بوميض المصباح المرتعش مع تأوهات الهيكل المتأرجح بالأمواج شعرت تدريجيًا باضطراب عبثى لايقاوم. من بين هؤلاء الرجال لايوجد متمردون من هؤلاء القراصنة المشهورين فى شرق إفريقيا الذين تحدثوا عنهم كثيرًا فى صحف الرحلات التى كنت أطالعها مع لور ربما يكونون قد عزموا على قتلنا القبطان برادمير وأنا وأفراد الطاقم الذين لم يكونوا شركاء فى اختطاف المركب ربما يكونون قد اعتقدوا أنى أحمل نقودًا وأشياء ثمينة فى هذا الصندوق القديم الذى وضعت فيه أوراق أبى. بالتأكيد كان علىّ أن أفتحه أمامهم لكى يروا أنه لايحتوى إلا على أوراق قديمة وخرائط وقماش وجهاز قياس لكن هل فكروا إذًا أنه يوجد جيب سرى ملىء بقطع الذهب؟ بينما تتدحرج المركب ببطء شعرت فى كتفى العارى بالجذع المعدنى الحار وبقيت مفتوح العينين لكى أراقب ظلام العنبر. أى فارق مع هذه الليلة الأولى فوق سطح زيتا عندما ظهرت المركب فى منامى واستيقظت فجأة فى الصباح مبهورًا بالبحر الشاسع.

أين نذهب؟ بعد أن بلغنا خط الشمال منذ التحرك لم يعد هناك شك الآن أننا ذاهبون إلى اجاليجا إنه لشعب هذه الجزيرة البعيدة يحمل

القبطان برادمير الجزء الأكبر من حمولته الغريبة بالات النسيج، لفات من سلك الحديد، براميل نفط صناديق صابون، أكياس من الأرز والدقيق والفول والعدس ثم كل أنواع الأوانى والأطباق المطلية بالمينا والمغلفة فى الشباك. كل هذا سيباع للصينيين الذين يفتحون متاجر من أجل الصيَّادين والمزارعين .

وجود هذه الأدوات ورائحة السلع تطمئننى هل هى شحنة للقراصنة؟ زيتا متجر عائم وفكرة التمرد تبدو لى فجأة مثيرة للضحك .

لكنى لا أنام بسبب ذلك. الآن الرجال سكتوا لكن الحشرات هى ألتى بدأت، أسمع ركض الصراصير الضخمة التى تطير أحيانًا عبر العنبر وهى ترتج بين ركضها وطيرانها أسمع ضوضاء البعوض الحادة بالقرب من أذنى أمضى فى مواجهتها هى أيضًا، مغطى الذراع والوجه بقميصى.

غير قادر على النوم أذهب بدورى حتى السلم وأخرجت رأسى عن طريق الطاقات المفتوحة. فى الخارج، الليل جميل، الريح بدأ يصفر ويضرب الأشرعة المفرودة بنسبة ثلاثة أرباع إنه ريح بارد قادم من الجنوب يدفع المركب. بعد حرارة العنبر الخانقة أصابنى الريح برجفة لكنها رائعة سأكسر أوامر القبطان برادمير مزودًا بغطاء الحصان من أيام بوكان أقف على السطح وأمشى نحو القوس فى الخلف، قائد الدفة الأسود واثنان من البحَّارة يصحبانه

يدخنون الكانجا أجلس على القوس تمامًا تحت أجنحة الأشرعة وأنظر إلى السماء والبحر لايوجد قمر ومع هذا تراقب عيناى المتسعتان كل موجة وماء الليل الملون وبقع الرغوة. ضوء النجوم هو الذى يضىء البحر. لم أر النجوم مطلقًا على هذا النحو حتى فيما مضى فى حديقة بوكان عندما كنا نسير مع والدنا على "ممر النجوم" لم تكن جميلة هكذا. على الأرض السماء أكلتها الأشجار والتلال وعتمها هذا الرذاذ الدقيق مثل رائحة كريهة تخرج من الجداول وحقول العشب وأفواه الآبار. السماء بعيدة نراها كما من خلال نافذة ولكن هنا فى وسط البحر لاحدود لليل .

لايوجد شىء بينى وبين السماء أنام على المركب رأسى يميل على الفتحة المغلقة، وأراقب النجوم بكل ما أوتى من قوة كما لو كنت أراها للمرة الأولى. السماء تهوى بين الصارين والكواكب تدور تتوقف لحظة ثم تسقط من جديد. لم أكن أعرفها بعد. هنا النجوم لامعة تمامًا حتى الأضعف والتى تبدو لى جديدة. هناك" أوريون" على يسار المركب ونحو الشرق ربما يكون "العقرب" أو " لوى آنتاريس" التى أراها بوضوح وأنا أستدير فى مؤخرة المركب بالقرب من الأفق الذى لايمكننى إلا أن أخفض عينىَّ لكى أتابعها فى تأرجحها البطىء هى النجوم التى ترسم صليب الجنوب. أتذكر صوت أبى عندما كان يرشدنا عبر الحديقة المظلمة ويطلب منا التعرف عليه ضعيفًا وعابرًا فوق خط التلال .

أنظر إلى هذا الصليب من النجوم وهذا يبعدنى أيضًا أكثر؛ لأنه ينتمى حقًا لسماء بوكان لا أستطيع غض بصرى عنه خوفًا من أن أفقده إلى الأبد .

هكذا نمت فى تلك الليلة قبل الفجر بقليل عيناى مفتوحتان على صليب الجنوب ملفوف فى الغطاء، الوجه والشعر مدفوعان بهبوب الرياح وأنا أسمع صفعات الرياح فى الأشرعة وضوضاء البحر التى تطقطق فى صدر المركب.

يوم آخر فى البحر

استيقظ منذ الفجر وأنظر إلى البحر الذى لايكاد يتحرك، من مكانى فى المؤخرة بالقرب من قائد الدفة الأسود. قائد الدفة من جزر القمر له وجه أسود جدًا حبشى لكن بعينين خضراوين زاهيتين. هو الوحيد الذى يتكلم حقًا مع القبطان برادمير وميزتى كمسافر دافع للأجر تعطينى الأولوية فى إمكانية الجلوس بالقرب منه والاستماع إليه وهو يتكلم. إنه يتكلم ببطء ويختار كلماته بفرنسية نقية جدًا ذات لكنة خلاسية تقريبًا يقول إنه كان فيما مضى فى مدرسة "آباء مورونى" وكان عليه أن يصبح كاهنًا. ذات يوم ترك كل شىء بدون سبب حقيقى ليصبح بحَّارًا. له الآن ثلاثون عامًا يبحر، يعرف كل ميناء من مدغشقر حتى الساحل الإفريقى ومن زنزبار حتى شاجوس. يتحدث عن الجزر وعن سيشيل وعن رودريج وأيضًا عن الأكثر بعدًا خوان دى نوفا، فاركهار

آلدابرا. أمامًا يحبها أكثر فهى سان براندون التى لاتنتمى إلا إلى سلاحف البحر والعصافير. أمس تركت مشهد الأمواج التى تتقدم وتتجدد فى المكان ذاته وجلست على السطح بالقرب من قائد الدفة وسمعته يتحدث إلى القبطان برادمير. التحدث أمام برادمير هو مايجب أن أقول ذلك إن القبطان بلغة إنجليزية جيدة يستطيع أن يظل ساكنًا على مدى ساعات جالسًا على مقعد كاتب المحكمة يدخن سجائره الصغيرة الخضراء أثناء حديث قائد الدفة دون أن يجيب بشىء آخر غير همهمة الموج المقبولة نوع من "الهمهمة" التى لاتعنى إلا التذكرة بأنه دائمًا هنا. قصص مروعة عن البحر يحكيها قائد الدفة بصوته البطىء والغنائى ونظرته الخضراء التى تمسح الأفق قصص الموانئ والعواصف والصيد والفتيات قصص بلا هدف وبلا نهاية مثل حياته الخاصة .

أحب عندما يتحدث عن سان براندون لأنه يتكلم عنها كما عن الجنة. إنه المكان الذى يفضله ويعود إليه دون انقطاع بالفكر وبالحلم. عرف الكثير من الجزر والكثير من الموانئ لكن هنا تعيده طرق البحر". فى يوم من الأيام سأعود إلى هناك لأموت هناك الماء أيضًا أزرق وأيضًا شفاف مثل النافورة الأكثر نقاء. فى البحيرة هى شفافة، شفافة لدرجة تنزلق عليها فى زورقك دون أن تراها كما لو كنت تطير فوق الأعماق حول البحيرة توجد جزر كثيرة عشرة، على ما أعتقد ولكنى لا أعرف أسماءها. عندما ذهبت إلى سان

براندون كنت فى السابعة عشرة كنت ما زلت طفلاً كنت أهرب من الحلقة الدراسية حتى أننى ظننت أنى وصلت إلى الجنة والآن ما زلت أعتقد أن هنا هى جنة الأرض. عندما لم يكن يعرف الناس الخطيئة أعطيت الجزر الأسماء التى أردتها: كانت هناك جزيرة حدوة الحصان وأخرى الملقاط وأخرى الملك ولا أدرى لماذا. جئت فى مركب صيد من مورونى، كان الرجال. قد جاءوا هنا ليقتلوا للصيد مثل الحيوانات الجارحة فى البحيرة كانت توجد كل الأسماك البديعة كانت تعوم ببطء حول زورقنا دون خوف وسلاحف البحر التى كانت تجىء لترانا كما لم يوجد موت فى الدنيا. عصافير البحر كانت تطير حولنا بالآلاف.. كانت تحط على سطح المركب وعلى عوارض الصارى للنظر إلينا.. لأنى أعتقد أنها لم تكن قد رأت رجالاً أبدًا قبلنا.. فبدأنا فى قتلها "قائد الدفة يتكلم عيناه الخضراوان مليئتان بالضوء وجهه يتطلع نحو البحر كما لو كان لايزال يرى كل هذا. لا أستطيع أن أمنع نفسى من متابعة نظراته فيما وراء الأفق حتى الجزر المرجانية؛ حيث كل شىء جديد مثل أولى أيام العالم القبطان برادمير يسحب من سيجارته ويقول "هاهوم هوم "مثل شخص لايمل من القول ـ خلفنا اثنان من البحَّارة السود أحدهما مستمع دون أن يفهم حقًا. قائد الدفة يتحدث عن البحيرة التى لن يراها مرة أخرى إلا فى يوم وفاته. يتحدث عن الجزر؛ حيث يبنى الصيادون أكواخًا من المرجان وقت تخزين السلاحف والأسماك. يتحدث عن العاصفة التى تأتى

كل صيف رهيبة بحيث يغطى البحر الجزر تمامًا وتجتاح كل أثر للحياة البرية. كل مرة يمحو البحر كل شىء ولهذا تبقى الجزر جديدة دائمًا. لكن ماء البحيرة يظل جميلاً نقيًا هنا حيث تعيش أجمل أسماك الدنيا وشعب السلاحف .

صوت قائد الدفة ناعم عندما يتحدث عن سان براندون. يبدو لى لكى أسمعه فأنا على هذه المركب التى تتقدم وسط البحر.

البحر أعد لى هذا السر، هذا الكنز، أتلقى هذا الضوء الذى يومض، أرغب فى لون الأعماق هذا وهذه السماء وهذا الأفق بلا حدود، وهذه الأيام وهذه الليالى التى لانهاية لها يجب أن أعرف أكثر أن أتلقى المزيد. قائد الدفة لايزال يتحدث عن طاولة الكاب وخليج انطونجيل والزوارق العربية التى تتجول على طول الساحل الإفريقى وقراصنة سوقوترا وعدن ما حبه هو جرس صوته الغنائى ووجهه الأسود حيث تلمع عيناه وخياله الطويل المنتصب أمام عجلة القضيب بينما يقود مركبنا نحو المجهول، وهذا يختلط بضجيج الريح فى الأشرعة وفى الرذاذ؛ حيث يضىء قوس قزح كلما دفع الفاصل موجة .

كل مساء عند زوال النهار أكون فى مؤخرة المركب وأتطلع إلى المجرة التى تضىء، إنها اللحظة التى أفضلها غير قائد الدفة وبحَّار يراقب البحر. فأفكر فى الأرض وفى ماما ولور البعيدين جدًا فى وحدتهما

بحى فورست. أرى نظرة لور القاتمة عندما كنت أحدثها عن الكنز والحلى والأحجار الكريمة التى يخفيها القرصان المجهول هل كانت تسمعنى حقًا؟ وجهها كان منبسطًا ومغلقًا وفى أعماق عينيها كان يلمع لهب شديد لم أكن أفهمه، هذا اللهب هو الذى أريد أن أراه الآن فى نظرة البحر اللانهائية. أنا فى حاجة إلى لور أريد أن أتذكرها كل يوم؛ لأنى أعلم أننى بدونها لن أستطيع أن أجد ما أبحث عنه لم تقل شيئًا عندما افترقنا لم تكن حزينة ولا سعيدة لكن عندما نظرت إلىَّ على رصيف محطة كورمبيب رأيت مرة أخرى هذا اللهب فى عينيها ثم استدارت وذهبت قبل أن يتحرك القطار رأيتها تسير وسط الحشد على طريق "فورست سايد"،حيث تنتظر ماما التى لم تكن تعرف شيئًا بعد .

هى لور التى أريد أن أتذكرها كل لحظة فى حياتى. من أجلها أنا على هذا المركب الذى يتقدم بعيدًا جدًا فوق البحر. يجب أن أهزم القدر الذى طردنا من منزلنا والذى دمر كل شىء وأدى إلى موت والدنا عندما رحلت إلى زيتا خيل إلىَّ أنى حطمت شيئًا وبددت دائرة، إذًا عندما أعود مجددًا كل هذا سيتغير ويتجدد.

أفكر فى هذا ونشوة الضوء فى داخلى. الشمس تمس الأفق برفق لكن فوق البحر الليل لايحمل أى قلق. على العكس توجد نعومة تهل على هذا العالم حيث إننا الأحياء وجدنا على سطح الماء السماء تنام

فى لونها الأرجوانى البحر المظلم تمامًا فى أوج الشمس هو حاليًا سلس وخفيف مثل دخان بنفسجى يمتزج بسحب الأفق ويحجب الشمس .

أسمع صوت قائد الدفة الغنائى الذى يتكلم ربما مع نفسه وهو يقف أمام القضيب وبجانبه مقعد القبطان برادمير خاليًا، لأنها الساعة التى ينسحب فيها إلى كهفه لينام أو لكى يكتب فى ضوء الغسق الأفقى، خيال قائد الدفة الطويل يجرد بها الأشرعة ويبدو غير واقعى مثل ضوضاء كلماته الغنائية التى ألاحظها دون أن أفهمها. الليل يهبط وأفكر فى خيال باليـنوروس كما ينبغى أن تراها إينيه أو أيضًا فى تيفيس على المركب آرجو حيث لم أنس العبارات حين عمل عند هبوط الليل على طمأنة رفاق الرحلة:" تيتان دخل فى الأمواج نظيفًا لتأكيد العلامة السعيدة. ثم فى الليل الرياح تقدم دعمًا أفضل للأشرعة والبحر وخلال هذه الساعات الصامتة المركب تذهب بعيدًا نظرتى لم تعد تتبع مسار النجوم التى تترك السماء لتدخل فى البحر مثل أوريون الذى سقط بالفعل أو برسيه الذى رج عضب الموج. لكن دليلى هو هذا الثعبان الذى تتشابك مع حلقاته سبعة نجوم تلوح فى الأفق دائمًا ولا تختفى أبدًا". بصوت عالٍ أردد أشعار فاليريوس فلاكوس التى كنت أقرؤها فيما مضى فى مكتبة أبى وفى لحظة أيضًا أستطيع أن أثق فى حافة المركب آرجو .

فى وقت لاحق فى هدوء الغسق رجال الطاقم صعدوا على السطح. إنهم جذوع عارية فى النسيم

العليل يدخنون ويتحدثون أو ينظرون إلى البحر مثلى.

منذ اليوم الأول أتطلع للوصول إلى رودريج هدف رحلتى ومع هذا فالآن أتمنى ألاَّ تنتهى هذه الساعة أبدًا، وأن تواصل المركب زيتا مثل آرجو الانزلاق فى الماء الخفيف إلى الأبد بالقرب تمامًا من السماء مع شراعها المبهور بالشمس مثل لهب فى مواجهة الأفق فى الليل بالفعل.

ليلة فى عرض البحر أيضًا

بعد أن نمت فى العنبر فى مكانى أمام صندوقى استيقظت بفعل الحرارة الخانقة والنشاط غير المحدود للصراصير والفئران. الحشرات تهمهم فى هواء العنبر الثقيل. فالظلام يجعل تحليقها أكثر قلقًا. ينبغى النوم والوجه مغطى بمنديل أو ذيل قميص إذا لم نرغب فى تلقى واحدة من هذه الوحوش فى كامل الوجه. الفئران أكثر حذرًا لكنها أكثر خطرًا. فى الأمسية الماضية تلقى رجل عضة فى يده من أحد هذه القوارض الذى عيث فى طعامه. أصيب الجرح رغم الخرق المنقوعة فى العرق الذى استخدمه القبطان برادمير فى علاجه، والآن أسمع الرجل الذى يهذى من الحمى على فراشه. البراغيث والقمل لاتترك أية فترة راحة هى الأخرى كل صباح نجد لدغات الليل التى لاتحصى. الليلة الأولى التى أمضيتها فى العنبر كان علىَّ أن أعانى أيضًا من هجمات كتائب البق ولهذا فضلت أن أتخلى عن

المراتب التى خصصت لى قذفت بها إلى أعماق العنبر ونمت على الأرضية ذاتها ملفوفًا فى غطاء الحصان القديم الذى له الفضل أيضًا فى تخفيف عذابى من الحر وإنقاذى من رائحة العرق والماء المالح الذى يملأ هذه المنصات .

لست الوحيد الذى يتعذب من الحر السائد فى عمق العنبر واحدًا بعد الآخر يستيقظ الرجال يتحدثون ويستأنفون جزءًا لاينتهى من الحديث هنا حيث تركوه. ما الذى يمكن أن يقوموا به جيدًا؟ القبطان برادمير الذى طرحت عليه السؤال هز كتفيه وكان سعيدًا بالرد "زوجاتهم" على الرغم من أوامر القبطان أشعل البحَّارة فى مقدمة العنبر مصباحًا قديمًا بالزيت. الضوء الأحمر يميل مع ميل المركب ويضىء بطريقة غريبة الوجوه السوداء التى تلمع من العرق. من بعيد أرى بياض عيونهم اللامع وأسنانهم البيضاء ماذا يفعلون حول المصباح؟ لايلعبون بالأحاديث، لايغنون، يتكلمون الواحد بعد الآخر بصوت منخفض فى حديث طويل بأصوات كثيرة تقطعها الضحكات. من جديد يعود إلىَّ الخوف من التآمر والتمرد وإذا كانوا قد قرروا حقًا الاستيلاء على زيتا وإذا كانوا قد ألقوا بنا فى البحر، برادمير وقائد الدفة وأنا؟ مَنْ سيعرف؟ من الذى سيذهب للبحث عنهم فى الجزر البعيدة فى قناة موزمبيق أو على شاطئ أريتريا؟ أنتظر دون أن أتحرك ورأسى يتجه نحوهم أنظر بين رموشى إلى الضوء الخافق حيث تحترق تمامًا الصراصير الحمراء والبعوض .

بعد ذلك كما فى المساء السابق ودون أن أحدث ضجيجًا صعدت السلم فى اتجاه فتحة السقف؛ حيث يصفر ريح البحر ملفوفًا فى غطائى أسير حافى القدمين على السطح وأنا أشعر ببهجة الليل وانتعاش الجو.

الليل كم هو جميل على البحر كما فى مركز الكون عندما تنزلق المركب دون ضجيج تقريبًا على ظهر الأمواج ذلك يعطى الإحساس بالطيران أكثر من الإبحار كما لو أن الريح ثابت يدعم الأشرعة ويحول مركبه إلى طائر عملاق بأجنحة ممتدة.

فى تلك الليلة أيضًا أستلقى على السطح تمامًا فى مقدمة المركب فى مواجهة الفتحة المغلقة محميًا بسور الدرابزين أسمع اهتزاز حبال الأشرعة يخترق رأسى وتجمد البحر المستمر يفتح. لور كانت تحب موسيقى البحر هذه وهذا المزيج للصوت الحاد واصطدام الأمواج الشديد بصدر المركب.

من أجلها استمعت إلى ذلك لكى أرسله لها حيث هى حتى منزل حى الغابة المظلم؛ حيث تظل مستيقظة هى الأخرى، أعلم هذا .

أفكر أيضًا فى نظرتها قبل عدم الابتعاد وعدم السير بسرعة فى اتجاه الطريق على امتداد خط السكة الحديد لا أستطيع أن أنسى هذا اللهب الذى يلمع فى عينيها عندما افترقنا ذلك اللهيب من العنف والغضب. لذلك دهشت لدرجة أنى لم أعرف ماذا

أفعل ثم صعدت إلى القطار دون تفكير. الآن على سطح زيتا التى تتقدم نحو مصير أجهله أتذكر تلك النظرة وأشعر بتمزق المغادرة.

ومع ذلك كان لابد من الرحيل، فلا يمكن أن يكون هناك أمل آخر، مازلت أفكر فى بوكان فى كل مكان يمكن إنقاذه، المنزل ذو السطح سماوى اللون، الأشجار، الوادى وريح البحر الذى يضطرب ليلاً، يثير فى ظل مانانافا آهات العبيد الكستنائيين، وطيران القش ذو الذيل قبل الفجر. هذا مالا أريد أن أكف عن رؤيته حتى من الجانب الآخر من البحار، حين تكشف لى مخابئ القرصان المجهول كنوزها .

المركب تنزلق على الأمواج خفيفة، هوائية تحت أضواء النجوم. أين الثعبان ذو المصابيح السبعة الذى تحدث عنه تيفيس لبحَّارة آرجو؟ هل هو إيريداتوس الذى يرتفع فى الشرق أمام شمس سيريوس أم هو التنين الممتد نحو الشمال والذى يحمل على رأسه جوهرة ايتامين؟ لكن لا، أراه فجأة بوضوح تحت النجم القطبى إنه جسد شاريوه خفيف ودقيق يخفق إلى الأبد فى مكانه فى السماء.

نحن أيضًا نتبع علامته صائغين وسط زوبعة النجوم. السماء تختار هذا الريح اللانهائى الذى يضخم أشرعتنا .

الآن أفهم إلى أين أنا ذاهب وهذا أوصلنى إلى ضرورة أن أقف لتهدئة دقات قلبى. أذهب نحو

الفضاء المجهول أنزلق وسط السماء نحو نهاية لا أعلمها.

ما زلت أفكر فى القشتين بالذيل اللتين كانتا تدوران وهما تحدثان ضوضاء حشرجة الموت فوق الوادى المظلم هربًا من العاصفة. عندما أغلق عينىّ أراهما كما كانتا فوق الصوارى.

قبل الفجر بقليل، غلبنى النوم بينما زيتا تتجه دون توقف نحو أجاليجا. كل الرجال ينامون حاليًا. قائد الدفة الأسود مستيقظ وحده، نظرته التى لاترمش ثابتة مستقيمة فى الليل. هو لاينام أبدًا أحيانًا فى بداية مابعد الظهيرة عندما تحترق الشمس فوق السطح يهبط ليستلقى فى العنبر، ويدخن دون أن يتكلم، عيناه مفتوحتان فى الغسق وهو ينظر إلى الألواح السوداء فوقه.

يوم نحو آجاليجا

منذ كم من الوقت ونحن نبحر؟ خمسة أيام ستة أيام؟بينما أنظر إلى داخل جزعى فى غسق العنبر الخانق السؤال يفرض نفسه بداخلى مع قلق مريب. أيًا كان؟ لماذا أريد أن أعرف؟ لكنى بذلت جهودًا كبيرة لكى أتذكر تاريخ رحيلى لمحاولة حساب الأيام فى عرض البحر إنه وقت طويل جدًا، أيام بلا عدد ومع هذا يبدو لى كل هذا أيضًا عابرًا للغاية إنه يوم واحد بلا نهاية بدأته عندما صعدت إلى زيتا يوم شبيه بالبحر حيث تتغير السماء أحيانًا، تغطى وتظلم حيث

يستبدل ضوء النجوم بضوء الشمس، لكن حيث لايكف الـريح عن الـصـفـيـر، ولا تـكف الأمـواج عن الـتـقـدم ولايكف الأفق عن تدوير المركب.

كلما مضت الرحلة يصبح القبطان برادمير أكثر ودًا معى. هـذا الـصـبـاح عـلـمـنـى أن أحـدد الـنـقـطـة بمساعدة آلة السدس وطريقة تحديد خط الطول وخط الـعــرض. الـيــوم ١٢ درجــة ٣٨ جـنـوبـا و٥٤ درجة ٣٠ شـرقًا وحساب الحالة التى قمنا بها توفر الرد على سؤالى عن الوقت؛ لأن هذا يعنى أننا على بعد يومين من الإبحار للجزيرة وعلى بعد دقائق قليلة جدًا من الشرق بسبب الرياح التجارية التى أدت بنا إلى الانحراف خلال الليل .فلما قضى النقطة رتب القبطان برادمير بعناية آلة السدس فى الكهف. أظهرت له جهاز قياس الزوايا فنظر إليه بفضول حتى أنه قال على ما أعتقد: "فيما بحق الجحيم سيفيدك هذا؟ " أجبته متهربًا لم أستطع أن أقول له إن والدى اشـتـراه وقـتـمـا كـان يـسـتـعـد للاسـتـيـلاء عـلـى كـنـوز القرصان المجهول! صعد القبطان مرة أخرى على السطح، وذهب للجلوس من جديد على مقعده خلف قائد الدفة فلما كنت قريبًا منه أعطانى للمرة الثانية واحدة من سجائره الرهيبة التى لم أستطع أن أرفضها وتركتها تنطفئ وحدها فى الريح.

قـال لى:"هل تـعـرف مـلـكـة الجـزر؟ سـألـنـى بالإنجليزية وكررت " ملكة الجزر ؟" نعم ياسيدى

اجاليجا سميت هكذا لأنها الأكثر صحة والأكثر خصوبة فى المحيط الهندى "اعتقدت أنه سيقول أكثر لكنه صمت، جلس ببساطة مربعًا فى مقعده وردد بلهجة حالمة "ملكة الجزر .." قائد الدفة هز كتفيه، قال بالفرنسية "جزيرة الفئران هكذا ينبغى بالأحرى تسميتها ثم بدأ يحكى كيف أعلن الإنجليز الحرب على الفئران بسبب الوباء، الذى انتشر من جزيرة إلى أخرى "فيما مضى لم تكن توجد فئران على أجاليجا. كانت تشبه أيضًا جنة صغيرة على الأقل، مثل سان براندون لأن الفئران حيوانات من الشيطان، ولم يكن منها فى الجنة. وذات يوم وصلت مركب فى الجزيرة قادمة من الأرض الكبرى لم يكن أحد يعرف اسمها مركب قديمة لم يكن يعرفها أحد. غرقت أمام الجزيرة وأنقذت صناديق الشحن لكن داخل الصناديق كانت توجد فئران. عندما فتحت الصناديق انتشرت فى الجزيرة وولدت الصغار وأصبحت أكثر لدرجة أن كل شىء أصبح لهم. أكلوا كل مئونة اجاليجا، الذرة، البيض، الأرز. كانوا كثيرين لدرجة أن الناس لم يكونوا يستطيعون النوم الفئران كانت تقضم حتى جوز الهند على الشجر وكانت تأكل حتى بيض طيور البحر حاولت فى البداية مع القطط لكن الفئران تكاثرت وقتلت القطط وأكلتها بالتأكيد فحاولوا بالفخاخ لكن الفئران ذكية لم تقع فيها ثم توصل الإنجليز لفكرة جلبوا بمركب كلابًا وثعالب أرضية هكذا تسمى ووعدوا بإعطاء روبية مقابل كل فأر. الأطفال هم

الذين تسلقوا أشجار جوز الهند كانوا يهزون سعف النخيل لإسقاط الفئران، وكانت الثعالب الأرضية تقتلها. قيل لى أن سكان أجاليجا كانوا يقتلون كل عام أكثر من أربعين ألف فأر ولايزال يوجد بعضها، إنها كثيرة بصفة خاصة فى شمال الجزيرة هذا هو كل شىء، ولهذا فإن ملكة الجزر فعلت خيرًا بتسميتها جزيرة الفئران".

القبطان برادمير يضحك بشكل مدو ربما لأنها المرة الأولى التى تحكى فيها قائد الدفة تلك القصة ثم يعاود برادمير التدخين فى مقعده المكتبى وعيناه تطويهما شمس الظهيرة .

عندما يذهب قائد الدفة الأسود ليتمدد على فرشته فى العنبر، أشار برادمير إلى عجلة القيادة .

"لك ياسيدى"

قال " سيدى "على الطريقة الخلاسية. لست فى حاجة إلى أن يكررها الآن أنا الذى يمسك بالعجلة الكبيرة يداى مثبتتان على المقابض المستهلكة أشعر بالأمواج الثقيلة على الدفة والريح الذى يدفع الجناح الكبير إنها المرة الأولى التى أقود فيها مركبًا.

فى لحظة عاصفة غطت زيتا شراعًا مشدودًا تقطع وأنا أسمع صدع الهيكل تحت الضغط فى حين تحول الأفق أمام روق المركب. أما المركب فظلت هكذا لحظة طويلة فى توازن على قمة الموجة ولم أتمكن مطلقًا من التنفس ثم فجأة غريزيًا وضعت القضيب

على يسار المركب لتفادى الريح. ببطء تعافت المركب فى سحابة من الرذاذ، على سطح المركب صاح البحَّارة"

"آيو!"

لكن القبطان برادمير ظل جالسًا دون أن يقول شيئًا، ضاقت عيناه وسيجارته الخالدة الخضراء فى جانب من شفتيه. هذا الرجل سيكون قادرًا على الغرق مع مركبه دون أن يترك مقعده .

الآن أنا على حذر. أراقب الريح والأمواج وعندما يبدوان ضاغطين بشدة أمتثل وأنا أدير عجلة القيادة أعتقد أننى لم أشعر قط أننى قوى هكذا وحر أيضًا أقف على السطح المحترق وأصابع القدم متباعدة لأمسك بشكل أفضل، أشعر بحركة الماء القوية على هيكل المركب وعلى الدفة أشعر باهتزازات الأمواج التى تضرب مقدم المركب وضربات الريح فى الأشرعة. لم أعرف أبدًا شيئًا من هذا، ذلك يمحى كل شىء يمحى الأرض والزمن أنا فى المستقبل الخالص الذى يحيط بى، المستقبل هو البحر والريح والسماء والضوء.

طويلاً خلال ساعات ربما ظللت واقفًا أمام عجلة القيادة وسط دوامات الريح والمياه. الشمس تحرق ظهرى ورقبتى، هبطت على طول الجانب الأيسر من جسدى إنها تمس بالفعل الأفق بالتقريب وتلقى غبارها النارى على البحر. أنا متآلف تمامًا مع انزلاق

المركب بحيث أحدد كل فراغ هواء وكل خواء الأمواج.

قائد الدفة بالقرب منى ينظر إلى البحر هو أيضًا دون أن يتكلم فهمت أنه يريد أن يمسك من جديد عجلة القيادة جعلت سعادتى أيضًا تستمر قليلاً لكى أشعر بانزلاق المركب على منحنى موجة تتردد ثم تعاود سيرها مدفوعة بالريح الذى يزن على مركز الجناح. عندما نكون أدنى مستوى من الموج اتخذ خطوة جانبًا دون أن أترك عجلة القيادة، إنها يد قائد الدفة القوية التى تقبض على عجلة القيادة فيمسكها بقوة عندما لايكون على القضيب فإن هذا الرجل يكون أكثر صمتًا من القبطان. لكن ما أن تلمس يداه عجلة القيادة فإن تغيرًا غريبًا يطرأ عليه كما لو كان شخصًا آخر أكبر وأقوى. وجهه النحيف المحترق بالشمس مثل نحت من البازلت يأخذ تعبيرًا حادًا ونشطًا عيناه الخضراوان تبرقان تصبحان متحركتين وكل وجهه يعبر عن سعادة أستطيع أن أفهمها فى الوقت الحالى.

عندئذ يتكلم بصوته الغنائى فى مونولوج لانهاية له يذهب فى مهب الريح. عما يتكلم؟ أجلس على السطح الآن إلى يسار قائد الدفة بينما القبطان برادمير يستمر فى التدخين على مقعده، ليس له ولا لى ما يتحدث قائد الدفة. له نفسه مثل آخرين يغنون أو يصفرون.

يتحدث أيضًا عن سان براندون حيث النساء لايحق لهن الذهاب. يقول: " ذات يوم رغبت فتاة فى

الذهاب إلى سان براندون فتاة سوداء من ماهية كبيرة وجميلة لاتتعدى السادسة عشرة على ما أعتقد. ولما كانت تعلم أن هذا ممنوع طلبت من خطيبها وهو رجل كان يعمل على مركب صيد قائلة له: إذا سمحت أصحبنى! هو فى البداية لم يشأ لكنها قالت له: مما تخاف لن يعرف بالأمر أحد سأذهب متنكرة فى زى صبى. وستقول: إنى أخوك الصغير، هذا كل مافى الأمر. فأنتهى إلى الموافقة، وتنكرت فى هيئة رجل ارتدت بنطلونًا مستعملاً وقميصًا واسعًا وقصت شعرها، ولما كانت كبيرة ورفيعة تعامل معها الصيادون الآخرون على أنها صبى فرحلت معهم على المركب نحو سان براندون. طوال الرحلة لم يحدث شىء الريح كان لطيفًا كالنفس، والسماء كانت زرقاء صافية والمركب وصلت إلى سان براندون فى أسبوع واحد. لم يعلم أحد أن امرأة كانت على سطح المركب إلا خطيبها بالتأكيد. لكن أحيانًا فى المساء كان يتحدث إليها بصوت منخفض. كان يقول لها: إذا عرف القبطان بذلك سيغضب ويطردنى قالت له كيف سيعرف؟

"دخلت المركب إذًا فى البحيرة، هنا حيث كما الجنة، والرجال بدءوا فى صيد السلاحف الكبيرة، التى كانت لطيفة لدرجة أنها تركت نفسها للصيد دون أن تبحث عن الهرب. حتى الآن لم يكن قد حدث شىء أيضًا لكن عندما أبحر الصيادون إلى إحدى الجزر لقضاء الليل، ارتفع الريح وأصبح البحر مخيفًا.

الأمواج مرت فوق الشعاب وتكسرت فى البحيرة وطوال الليل كانت هناك عاصفة رهيبة وغطى البحر صخور الجزر. الرجال تركوا حظائرهم ولاذوا بالأشجار فأخذ الجميع يصلون للعذراء والقديسين لحمايتهم وأبدى القبطان وهو يرى مركبه تسقط على الشاطئ والأمواج تحوله إلى فتات، وظهرت موجة أعلى من الأخريات، جرت نحو الجزر مثل حيوان متوحش وعندما وصلت قلعت صخرة كان الرجال يلوذون بها. وفجأة عاد الهدوء وبدأت الشمس تشرق كما لو لم تكن هناك عاصفة قط. فسمعنا صوتًا يبكى ويقول: آيو، آيو، أخى الصغير! كان الصياد الشاب الذى رأى الموجة وهى تحمل خطيبته لكن لما كان قد عصى وهو يصحب امرأة فى الجزر خاف من عقاب القبطان وأخذ يبكى وهو يقول "آيو، أخى الصغير!

عندما انتهى قائد الدفة من الكلام، أخذ الضوء لونه الذهبى على سطح الماء، والسماء القريبة من الأفق كانت شاحبة وفارغة. هبط الليل بالفعل ليلة أخرى. لكن الشفق يدوم طويلا على البحر وأرى النهار يختفى ببطء شديد. هل هنا العالم نفسه الذى عرفته؟ يبدو لى أننى دخلت عالمًا آخر ونحن نعبر الأفق. إنه عالم يشبه عالم طفولتى فى بوكان؛ حيث يسود ضجيج البحر كما لو أن زيتا كانت تبحر بعيدًا على الطريق الذى يلغى الزمن.

بينما النهار يتلاشى تدريجيًا تركت نفسى مرة أخرى أذهب إلى الحلم. أشعر بحرارة الشمس على

رقبتى وعلى كتفى. أشعر أيضًا بريح المساء اللطيف الذى يذهب أسرع من مركبنا. الجميع يلتزمون الصمت. كل مساء مثل لغز غامض يراقبه كل واحد منهم. لا أحد يتكلم. نصغى إلى ضجيج الموجات فى صدر المركب واهتزازات الأشرعة والأحبال الخرساء. مثل كل ليلة بحَّارة جزر القمر يركعون على السطح فى مقدم المركب ليتلوا صلاتهم فى اتجاه الشمال. أصواتهم تأتى إلىّ كهمهمات صماء ممتزجة بالريح وبالبحر. لم يكن أكثر من هذا المساء، انزلاق الهيكل السريع وتأرجحه البطىء فوق هذا البحر الشفاف والشبيه بالسماء. لم أشعر عند هذه النقطة بجمال هذه الصلاة التى لاتتوجه إلى أى مكان وتضيع فى اللاحدود. أفكر كم أحب أن تكونى هنا يا لور بجانبى أنت التى تحبين كثيرًا الغناء، الذى يتردد فى تلال فورست سايد، وأن تستمعى هنا إلى هذه الصلاة وهذه الارتعاشة بينما تتأرجح المركب على طريقة طائر البحر الكبير بجناحيه المبهرين. أحب أن أصحبك معى مثل صياد سان براندون، أنا أيضًا أستطيع أن أقول إنك "أخى الصغير"! .

أعلم أن لور ستشعر بما أشعر به عند الاستماع إلى صلاة بحارة جزر القمر عند غياب الشمس. ولن تكون فى حاجة إلى الكلام لكن فى الوقت نفسه الذى أفكر فيه فيها أشعر بهذا الوخز فى القلب. أفهم أننى الآن على العكس أقترب منها. لور فى بوكان من جديد فى الحديقة الشاسعة الممتلئة بالنباتات المتسلقة

والأشجار بالقرب من المنزل أو بالأحرى تمشى على الطريق الضيقة لحقول القصب لم تترك أبدًا المكان الذى أحبته فى نهاية رحلتى يوجد البحر، الذى يتدفق على شاطئ تاماران الأسود. ورجوع الأمواج إلى مصب الأنهار لكى أعود إلى هناك. رحلت لكنى لن أعود كما كنت سأعود كشخص مجهول، هذا الجذع القديم الذى يحتوى على الأوراق التى تركها أبى سيكون إذًا مليئًا بالذهب وبمجوهرات القرصان، إنه كنز كولكوند أو فدية أو رنج زيب. سأعود متشربًا برائحة البحر محترقًا بالشمس قويًا، متمرسًا مثل جندى لاستعادة ضيعتنا الضائعة إنى أحلم بهذا فى الغسق الساكن .

واحدًا بعد الآخر، نزل البحَّارة إلى العنبر ليناموا فى الحرارة المشعة فى الهيكل الساخن من الشمس طوال اليوم نزلت معهم تمددت على الفرشة. رأسى يميل على صندوقى أسمع ضجيج الطرف اللانهائى الذى يبدأ من هنا حيث قطعه بزوغ النهار.

الأحـــــد

نحن فى آجاليجا بعد خمسة أيام من العبور.

شاطئ الجزر التوأم كان ينبغى أن يرى فى وقت مبكر جدًا من هذا الصباح مع شروق الشمس. نمت بعمق وحدى فى عمق العنبر رأسى يميل على الأرضية، غير مدرك للضجيج على سطح المركب. مياه الخليج الهادئة هى التى أيقظتنى لأنى اعتدت كثيرًا اهتزاز المركب المستمر بحيث أقلقنى هذا السكون.

أذهب فورًا إلى سطح المركب حافى القدمين دون أن أكلف نفسى عناء ارتداء قميصى. أمامنا الرقعة الرمادية الخضراء المنبسطة تمتد مزينة برغوة الشعاب بالنسبة لنا نحن الذين لم نشاهد منذ أيام غير امتداد زرقة البحر وهى تنضم إلى زرقة السماء الشاسعة، هذه الأرض حتى وهى تبدو أيضًا مسطحة وجرداء مدهشة. كل رجال الطاقم مالوا على الدرابزين وعلى عجلة القيادة ينظرون بلهفة إلى الجزيرتين.

القبطان برادمير أصدر أمره بالجذب والمركب انحرفت عدة أميال من الساحل دون أن تقترب. عندما سألت قائد الدفة لماذا أجاب فقط "يجب انتظار اللحظة". القبطان برادمير الواقف بجوار مقعده هو الذى شرح لى: يجب انتظار التيار حتى لانخاطر بدفع التيار فى مواجهة الحاجز المرجانى. عندما نكون على مقربة بما فيه الكفاية من الممر نستطيع إسقاط المرساة ووضع الزورق فى البحر للذهاب إلى الساحل المد لا يأتى إلا بعد الظهر عندما تنخفض الشمس. فى غضون ذلك يجب علينا الصبر والاكتفاء بالنظر إلى الشاطئ القريب للغاية صعب المنال .

حماس البحَّارة فتر مرة أخرى. الآن يجلسون على السطح فى ظل الشراع الذى يخفق فى الريح الضعيف لكى يلعبوا ويدخنوا. على الرغم من قرب الساحل فإن المياه زرقاء داكنة. متكئًا على الدرابزين

فى المؤخرة أرى ظلال أسماك القرش الخضراء الكبيرة وهى تمر.

طيور البحر تجىء مع المد. وطيور النورس وزبد الماء وطيور النوء التى تدور فتضمنا بصرخاتها. إنها تتضور جوعًا وتعتبرنا واحدًا من قوارب الصيد بالجزر وتطالب بصرخات مدوية بحقها. عندما تدرك خطاها تبتعد الطيور وتعود إلى مأوى الشعاب المرجانية. اثنان أو ثلاثة فقط من طيور النوء واصلت فى خط دوائر كبيرة فوقنا، ثم اتجهت نحو البحر وحلقت على ارتفاع منخفض فوق الأمواج. بعد كل هذه الأيام السابقة التى قضيت فى البحر المهجور فإن مشهد طيران طيور النوء ملأنى بالسرور.

حوالى نهاية بعد الظهيرة نهض القبطان برادمير من مقعده وأعطى أوامر لقائد الدفة الذى رددها بينما رفع الرجال الأشرعة الكبيرة وقف قائد الدفة عند الحاجز على أطراف أصابعه لكى يرى أفضل سوف نبلغ الشاطئ ببطء تحت ضغط الريح الخفيف من المد المتصاعد تقترب زيتا من الحاجز.

الآن نرى بوضوح الموجات الطويلة تسحق الحاجز المرجانى ونسمع الهدير المستمر.

عندما لم تعد المركب إلا على بعد عدة أقدام من الشعاب المرجانية، وجهت عجلة القيادة يمينًا نحو الممر. أمر القبطان بزرع المرساة. الرئيسية تسقط أولا فى البحر على امتداد سلسلتها القوية ثم يرمى

البحَّارة ثلاثة مرساة أصغر حجمًا، مرساة الفرقاطة فى الميناء والميمنة والمؤخرة. عندما سألته عن سبب هذه الاحتياطات الكثيرة حكى لى القبطان فى كلمات قليلة عن غرق ثلاث ساريات مركب شراعى حمولة مائة وخمسين طنًا اسمها كاليناد فى عام ١٩٠١ كان قد زرع المرساة هنا بالتحديد فى مواجهة الممر ثم نزل الجميع على الأرض حتى القبطان تاركًا على المركب نوتيين بدون خبرة. بعد ساعات قليلة اشتد المد لكن فى هذا اليوم بقوة غير عادية والتيار الذى اندفع نحو الممر الوحيد كان شديدًا بحيث قطع سلسلة المرساة على الشاطئ كان الناس قد شاهدوا المركب تقترب عاليًا جدًا فوق الدرابزين؛ حيث تكسر البكر كما لو كانَ سيطير ثم وقع مرة واحدة على الشعاب المرجانية وبينما هو يتراجع دفعته موجة نحو عمق البحر، وعثر فى اليوم التالى على قطع من المرساة وقطع من الأخشاب وبعض بالات البضائع ولكن لم يعثر مطلقًا على النوتيين .

وهنا أعطى القبطان أمرًا بإحضار كل الأشرعة ووضع الزورق فى البحر. نظرت إلى المياه المظلمة ـ هناك أكثر من عشرة أقدام فى العمق ـ وارتعدت وأنا أفكر فى ظل أسماك القرش الخضراء التى تنزلق من هنا والتى تنتظر ربما غرقًا آخر.

ما أن أصبح الزورق فى الماء، انزلق القبطان على حبل طويل بخفة لايمكننى أن أشك فيها، ومعه أربعة من البحَّارة. أمنيًا سيتم القيام برحلتين وسأكون فى

الثانية. متكئًا على الدرابزين مع البحَّارة الآخرين أنظر إلى الزورق الذى يتقدم ناحية مدخل الممر. جاثم على غارب موجات عالية يدخل الزورق فى القناة الضيقة بين الشعاب السوداء. فى لحظة اختفى فى غور موجة ثم ظهر مرة أخرى من الناحية الأخرى من الجدار فى مياه البحيرة الهادئة. هنا جرى نحو السد حيث ينتظر سكان الجزيرة .

على سطح زيتا نفد صبرنا. الشمس منخفضة عندما عاد الزورق تحييه صيحات فرح البحَّارة. هذه المرة جاء دورى كما حدد قائد الدفة انزلق بطول الحبل حتى الزورق ويصعد أربعة بحَّارة آخرين إلى السطح. نجدف دون رؤية الممر أنه قائد الدفة الذى يتصدى واقفًا لكى يقود أفضل. هدير الأمواج يحذرنا من أن الحاجز قريب. فى الواقع وفجأة أشعر بزورقنا يرفع بموجة سريعة وفوق قمة الموجة نعبر القناة بين الشعاب. ها نحن بالفعل على الجانب الآخر، فى البحيرة على بعد أقدام من حاجز الأمواج المرجانى الطويل فى المكان، الذى تموت فيه الأمواج قريبًا جداً من شاطئ الرمال جعلنا قائد الدفة. ترسو وربط الزورق. قفز البحَّارة على الحاجز وهم يصيحون واختفوا وسط حشد من الناس.

أنزل بدورى على الشاطئ، توجد كثرة من النساء والأطفال وصيادين سود وهنود أيضًا. الجميع ينظرون إلىّ بفضول فيما عدا القبطان برادمير الذى يأتى عندما تكون لديه بضائع لهؤلاء الناس، لا يرون دائمًا

أشخاصًا من البيض ثم مع شعرى الطويل ولحيتى ووجهى وذراعى المحترقتين من الشمس وملابسى المتسخة وقدمى الحافيتين أصبح أبيض بشعًا! الأطفال بصفة خاصة يختبروننى يضحكون علنًا. على الشاطئ توجد كلاب وبعض الماعز السوداء والنحيفة وشباب يهرول بحثًا عن الملح .

الشمس ستغيب. السماء تضىء باللون الأصفر فوق أشجار جوز الهند خلف الجزر. أين سأنام؟ أستعد لإيجاد ركن على الشاطئ بين الزوارق عندما يمنحنى القبطان برادمير فرصة مصاحبته حتى الفندق. دهشتى لكلمة "فندق" أضحكته فى الواقع، فإن الفندق هو بيت قديم من الخشب صاحبته امرأة نشطة مزيجًا من السوداء والهندية، تؤجر غرفًا لقلة من المسافرين الذين يغامرون فى آجاليجا. ويبدو أنها استقبلت رئيس محكمة موريشيوس خلال زيارته الوحيدة فى عام ١٩٠١ أو عام ١٩٠٢! للعشاء، قدمت لنا السيدة كابوريا بالكارى أو البهار الهندى ممتازة، خاصة بعد طعام زيتا الصينى. القبطان برادمير يتمتع بقريحة، فسأل مضيفتنا عن سكان الجزيرة وحدثنى عن خوان دى نوفا أول رحالة اكتشف آجاليجا، وعن مستعمرة فرنسية وعن شخص يدعى أوجوست لودوك الذى نظم إنتاج جوز الهند، المورد الوحيد لهذه الجزر اليوم. الآن الجزر المجاورة تتيح أيضًا الأخشاب النادرة والأكاجو وخشب الصندل وخشب الأبنوس، تحدث عن سيكال، المدير الاستعمارى الذى أسس

المستشفى ورفع اقتصاد الجزيرة فى مطلع هذا القرن. عزمت على استغلال وقت المرسى لزيارة هذه الغابات التى تبدو الأجمل فى المحيط الهندى. أخبرنى برادمير أنه يجب تحميل مائة برميل من نفط جوز الهند.

انتهى الطعام سأتمدد على فراشى فى الغرفة الصغيرة فى نهاية البيت. رغم التعب وجدت صعوبة فى الخلود إلى النوم بعد كل هذه الليالى فى العنبر الخانق أقلقنى هدوء هذه الغرفة، وشعرت رغمًا عنى بحركة الأمواج التى توقظنى أيضًا. فتحت المصاريع لأتنفس هواء الليل فى الخارج رائحة الأرض ثقيلة وحقل الضفادع ينظم إيقاع الليل.

كما تعجلت بالفعل البحث عن صحراء البحر وضجيج الأمواج ضد الحاجز والريح المهتز فى الأشرعة والشعور بانخفاض معدل الهواء والماء وطاقة الفراغ والاستماع إلى موسيقى الغياب. أجلس على المقعد القديم المحطم أمام النافذة المفتوحة، أتنفس رائحة الحديقة، أسمع صوت برادمير وضحكته وضحكة المضيفة. يبدوان فى لهو... أيا كان الأمر أعتقد أننى استغرقت فى النوم هكذا، الجبهة على إطار النافذة.

صباح الإثنين

أسير عبر جزيرة الجنوب حيث توجد القرية . ملتصقة الواحدة بالأخرى جزرًا شقيقة. تشكل

أجاليجا، لايحق لها أن تتجاوز منطقة النهر الأسود ومع هذا يبدو ذلك كبيرًا جدًا بعد هذه الأيام على زيتا حيث النشاط الوحيد تمثل فى الذهاب من العنبرإلى السطح ومن المؤخرة إلى القوس. أسير عبر مزارع جوز الهند والنخيل المصطف على مدى البصر أسير ببطء حافى القدمين فى الأرض الرملية التى قوضتها مماشى سرطان الأرض. إنه الصمت أيضًا الذى حيرنى. هنا لم نعد نسمع ضجيج البحر. فقط يداعب الريح سعف النخيل على الرغم من الصباح الباكر (عندما غادرت الفندق وكان الجميع لايزالون نائمين) كانت الحرارة قد أصبحت شديدة، ولايوجد أحد فى الممرات المستقيمة. ولو لم تكن هناك علاقة إنسانية فى هذا التنظيم لاعتقدت بأنى على جزيرة مهجورة.

لكنى أخطأت القول بأنه لايوجد أحد هنا. منذ أن دخلت فى المزارع تبعتنى عيون قلقة. إنها سرطانات الأرض التى تلمحنى على طول الطريق تقف أحيانًا وهى تلوح بمخالبها المتوعدة. فى لحظة واحدة منعتنى حتى من المرور مرارًا. كان علىَّ أن أقوم بالتفاف كبير .

أخيرًا أصل من الناحية الأخرى للمزارع فى الجنوب. مياه البحيرة الهادئة تفصلنى عن الجزيرة الأخت الأقل ثراء من هذه. على الشاطئ توجد مقصورة وصياد عجوز يصلح شباكه بالقرب من زورقه الجاف. رفع رأسه لينظر إلىّ ثم يعود إلى عمله. بشرته السوداء تلمع فى ضوء الشمس.

أقرر العودة إلى القرية بمحاذاة الساحل عن طريق شاطئ الرمل الأبيض الذى يحيط بأنحاء الجزيرة تقريبًا. هنا أشعر بنسمة البحر، ولكنى لم أعد أستفيد بجوز الهند الشمس تحرق بقوة أكثر بحيث يجب أن أخلع قميصى لأغطى الرأس والكتفين، عندما أصل إلى أقصى الجزيرة لا أستطيع الانتظار مطلقًا. أخلع كل ملابسى وأخوض فى ماء البحيرة النقى. أسبح بمتعة نحو الحاجز المرجانى حتى أجد طبقات المياه الباردة وبحيث يكون هدير الأمواج قريبًا جدًا. وهكذا أعود نحو الشاطئ ببطء شديد أنجرف تقريبًا دون حركة. عيناى مفتوحتان تحت الماء أشاهد الأسماك من كل الألوان وهى تفر أمامى وأراقب أيضًا ظل أسماك القرش. أشعر بتدفق المياه الباردة التى تأتى من القناة والتى تدفع الأسماك وقطع الأعشاب البحرية

عندما أكون على الشاطئ أرتدى ملابسى دون أن اتجفف وأسير حافى القدمين فوق الرمل الحارق. بعيدًا ألتقى بفريق من الأطفال السود الذين يذهبون لصيد الأخطبوط. هم فى العمر الذى كنا فيه دونيس وأنا عندما كنا نتجول ناحية النهر الأسود. ينظرون باستغراب إلى هذا الذى يرتدى ملابس مبللة بماء البحر وشعره ولحيته المليئة بالملح. ربما اعتبرونى غريقًا؟ عندما أقترب منهم فروا وذهبوا ليختفوا فى ظل شجرة جوز الهند .

قبل الدخول إلى القرية أهز ملابسى وأمشط شعرى حتى لا أحدث انطباعًا سيئًا للغاية. على

الجانب الآخر من الشعاب المرجانية أرى مركب برادمير ذات الصاريين على سد المرجان الطويل براميل النفط اصطفت فى انتظار وضعها على المركب. مع الزورق البحَّارة يذهبون ويجيئون. يتبقى أيضًا خمسون برميلاً لتحميلها.

عند العودة إلى الفندق تناولت الإفطار مع القبطان برادمير مزاجه جيد هذا الصباح. أخبرنى أن حمولة النفط ستنتهى بعد الظهر، وأننا سنرحل غدًا صباحًا منذ الفجر لكى لا ننتظر المد والجزر سننام على الشاطئ ثم لدهشتى الكبرى تحدث معى عن عائلتى، عن أبى الذى عرفه فيما مضى فى بورلوى.

"عرفت الألم الذى أصابه، كل متاعبه وديونه، كل هذا محزن للغاية. كنتم فى النهر الأسود أليس كذلك؟ "

"فى بوكان "

"نعم هو هذا خلف تاماران العقارية. ذهبت إليكم منذ فترة طويلة قبل مولدك بوقت طويل كان ذلك فى وجود جدك كان بيتًا جميلاً أبيض اللون بحديقة رائعة كان والدك قد تزوج لتوه وأتذكر والدتك امرأة شابة ذات شعر أسود خلاب وعينين جميلتين والدك كان مفتونًا بها تمامًا، أقام حفل زفاف رومانسيًا للغاية". بعد فترة صمت أضاف "أية خسارة فى انتهاء كل هذا على هذا النحو، السعادة لاتدوم". نظر إلى الناحية

الأخرى من الشرفة وإلى الحديقة الصغيرة؛ حيث يوجد خنزير أسود محاط بالفناء يلتقط طعامه "نعم خسارة.."

لكنه لم يقل أكثر من ذلك. كما لو كان يأسف لكشف السر، نهض القبطان ووضع قبعته وخرج من البيت، سمعته يتحدث فى الخارج مع المضيفة ثم يظهر من جديد:

"هذا المساء ياسيدى الزورق سيقوم برحلته الأخيرة فى الخامسة قبل المد. كن على السد فى هذه الساعة" إنه أمر أكثر منه نصيحة".

أنا إذًا على السد فى الساعة المحددة بعد يوم حافل على الجزيرة الجنوبية، من المخيم حتى النقطة الشرقية ومن المستشفى حتى المقبرة. أنا على أحر من الجمر حتى أكون من جديد على زيتا والإبحار إلى رودريج .

فى الزورق الذى يبتعد يخيل إلىَّ أن الجميع يشعرون بذلك أيضًا، هذه الرغبة فى أعالى البحار. هذه المرة القبطان نفسه هو الذى يتصدى للزورق وأنا فى المقدمة أرى وصول القضيب والبكرات الطويلة التى تهبط وهى ترفع جدارًا متداعيًا. قلبى يخفق اضطرابًا عندما اتجه مقدم الزورق ناحية الموج الذى تكسر. أصبت بالصم بسبب ضجيج الأمواج وصيحات العصافير التى تحلق "هيا ـ هوه " يصيح القبطان عندما تنحسر الموجة وتحت دفع المجاديف الثمانية

يندفع الزورق فى المضيق الضيق بين الشعاب. قفز فوق الموجة القادمة. لم تسقط قطرة ماء واحدة فى الزورق الآن ننزلق فوق الأزرق العميق نحو خيال زيتا الأسود.

فى وقت لاحق على متن المركب بينما يجلس الرجال فى العنبر لكى يلعبوا أو يناموا أتطلع إلى الليل. فوق الجزيرة أضواء تلمع تحدد مكان المخيم ثم تهمد الأرض وتختفى، لم يعد يبقى غير العدم والليل وضجيج الأمواج .

مثل كل مساء تقريبًا منذ بداية هذه الرحلة وأنا أنام على سطح السفينة ملفوفًا فى غطاء الحصان القديم أتطلع إلى النجوم. ريح البحر الذى يصفر فى المعدات يعلن عن المد والجزر، أشعر بالبكرات الأولى تحت جسم المركب تضرب هيكل المركب سلاسل المرساة تصر وتئن فى السماء النجوم تلمع فى سطوع ثابت، أنظر إليها باهتمام أبحث عنها جميعًا هذا المساء كما لو كانت ستقول لى برسوماتها أسرار قدرى. العقرب والجوزاء وخيال "العربة الصغيرة" الخفيف. بالقرب من الأفق المركب آرجو بشراعها الدقيق ومؤخرتها الطويلة و"الكلب الصغير". وخاصة هذه الليلة وكل مايجعلنى أتذكر الليالى الجميلة فى بوكان ونجوم الثريا السبعة التى جعلنا والدنا نحفظ أسماءها عن ظهر قلب، ونرددها مع لور مثل كلمات صيغة سحرية: السيون اليكتر، مايس، أطلس،

تايجييت ميروب... والأخيرة التى نسميها بعد تردد صغيرة جدًا لدرجة أننا لم نكن متأكدين من رؤيتها: بلييون ـ أحب أن أقول أسماءهم اليوم أيضًا بصوت منخفض فى وحدة الليل ذلك كما لو كنت أعلم أنها تظهر هناك فى سماء بوكان بتمزق سحابة.

فى عرض البحر نحو ماهيه

الريح تحول أثناء الليل. الآن يصفر من جديد نحو الشمال جاعلاً أية ملاحة عند العودة مستحيلة القبطان اختار هروب الريح بدلاً من التسليم بالانتظار فى آجاليجا. قائد الدفة هو الذى أخبرنى بذلك دون انفعال. هل سنذهب يومًا إلى رودريج؟ هذا يتوقف على استمرار العاصفة. بفضلها لسنا آجاليجا فى خمسة أيام لكن الآن علينا أن ننتظر أن تتركنا نعود .

أنا الوحيد فقط المشغول بخط السير. البحَّارة أنفسهم مستمرون فى العيش وفى اللعب وكأن لاشىء يستحق الاهتمام. هل هو طعم المغامرة؟ لا ليس هذا أنهم لاينتمون إلى أحد وليسوا من أى أرض هذا هو كل شىء. عالمهم هو سطح زيتا والعنبر الخانق، حيث ينامون الليل. أنظر إلى هذه الوجوه الجامدة التى حرقتها الشمس والريح مثل حصى صقلها البحر. على غرار ليلة المغادرة أشعر بهذا القلق الصامت غير العاقل. هؤلاء الرجال ينتمون لوجود آخر وزمن آخر حتى القبضان برادمير وقائد الدفة معهم ومن جانبهم هم أيضًا غير مبالين بالمكان وبالرغبات وبكل

مايشغلنى. وجوههم أيضًا مسطحة وعيونهم فى صلابة البحر المعدنية.

الريح تدفعنا نحو الشمال فى الوقت الحالى وكل الأشرعة منتفخة وصدر المركب يشق البحر المظلم. ساعة بعد ساعة نتقدم ويومًا بعد يوم. أنا علىّ أن أخضع لذلك قبول نظام العناصر. كل يوم عندما تكون الشمس فى ذروتها يهبط قائد الدفة إلى عمق العنبر لكى يستريح دون أن يغلق عينيه وأنا الذى يمسك بالدفة.

ربما بهذه الطريقة سأتعلم ألاَّ أطرح أسئلة. وهل تسأل البحر؟ هل تحاسب الأفق؟ الريح وحده هو الحقيقة التى تطاردنا والموجة التى تنزلق ،وعندما يهبط الليل فإن النجوم الثابتة هى التى ترشدنا.

اليوم يتحدث إلىَّ القبطان مع ذلك. يقول لى إنه ينوى بيع حمولته من النفط فى سيشيل حيث كان يعرف السيد مورى. هذا السيد مورى هو الذى سيهتم بتحميلها فى الشحنات المتجهة إلى إنجلترا. القبطان برادمير يتحدث إلى عن هذا بشىء من اللامبالاة وهو يدخن سيجاره الأخضر من التبغ جالسًا فى مقعده المشدود إلى الجسر .ثم فى حين لا أتوقع ذلك يتحدث إلىّ من جديد عن أبى. سمع عن تجاربه وعن مشروعاته الكهربائية فى الجزيرة. وكان يعرف أيضًا المنازعات التى صدمته فى السابق بأخيه والتى تسببت فى خرابه تحدث إلىّ عن هذا دون انفعال

ولاتعليق عن العم لودوفيك قال فقط"رجل حاد"، قاس هذا هو كل شىء. هنا فوق هذا البحر شديد الزرقة وبصوت القبطان الرتيب تبدو لى هذه الأحداث بعيدة وتكاد تكون غريبة. ولهذا أنا حقًا على سطح زيتا كالمعلق بين السماء والبحر: ليس من أجل النسيان ـ فماذا يمكن أن ننسى؟ لكن لاعادة الذاكرة المنعدمة وغير الضارة ولكى ينزلق هذا ويمر مثل انعكاس الضوء.

بعد هذه الكلمات القليلة عن أبى وبوكان، ظل القبطان صامتًا مكتوف اليدين يغلق عينيه وهو يدخن ويمكننى الاعتقاد بأنه نصف نائم لكنه يستدير نحوى فجأة وبصوته المختنق الذى يسيطر على ضجيج الريح والبحر بالكاد:

"هل أنت ابن وحيد؟ "

"سيدى" ؟

كرر سؤاله دون أن يرفع صوته" أسالك إذا كنت ابنًا وحيدًا، اليس لك إخوة ؟ "

"لى أخت ياسيدى "

"ما اسمها ؟ "

"لور "

بدا أنه يفكر ثم:

"هل هى جميلة؟ "

لم ينتظر إجابتى وواصل لنفسه:

"لابد أنها مثل والدتك جميلة وأفضل من ذلك شجاعة مع الذكاء".

أصابنى هذا بما يشبه الدوار هنا على متن هذه المركب البعيدة تمامًا عن مجتمع بورلوى وكوربيب البعيدين تمامًا! اعتقدت طويلاً جدًا أننا عشنا لور وأنا فى عالم آخر غير معروف لأثرياء شارع روايال وحق مارس كما لو كان فى المنزل المتداعى فى ناحية الغابة وكما فى وادى بوكان المتوحش كنا لانزال غير مرئيين. فجأة جعل ذلك قلبى يدق أسرع من الغضب أو من الخجل، وأحسست بوجهى يزداد حمرة.

لكن أين أنا إذًا؟ على سطح زيتا عربة قديمة تحمل براميل من النفط مليئة بالفئران والحشرات ضائعة فوق البحر بين اجاليجا وماهيه. من يهتم بى وباحمرارى؟ من يرى ملابسى الملطخة بدهون العنبر ووجهى المحترق بأشعة الشمس وشعرى المشوش بالملح من يرى أنى حافى القدمين منذ أيام؟ أتطلع إلى رأس القرصان العجوز القبطان برادمير إلى خديه بلون النبيذ وعينيه الصغيرتين المغلقتين بدخان سيجارته كريهة الرائحة وأمامه قائد الدفة الأسود وأيضًا خيال البحَّارة الهنود وبحَّارة جزر القمر البعض يجلس القرفصاء على السطح وهم يدخنون الكاندجا والبعض الآخر يلعبون أو يحلمون ولا أعود أشعر بالخجل.

القبطان نسى بالفعل كل ذلك قال لى:

"هل تحب أن تسافر معى ياسيدى؟ لقد هرمت وأنا بحاجة الى آخر".

نظرت إليه مفاجأة :

"لديك قائد الدفة؟ "

"هو ؟ كهل هو الآخر. كل مرة أرسو فيها أتساءل إذا كان سيعود"

عرض القبطان برادمير دوى للحظة فى داخلى تخيلت ماذا ستكون حياتى فوق سطح زيتا بالقرب من مقعد برادمير وأجاليجا وسيشيل وآميرونت أورودريج وديبجو جارسيا وبيروس بانهوس. وأحيانًا حتى فاركهار أو حتى كوموريس وربما حتى الجنوب ناحية ترومولان. البحر بلا نهاية أطول من طريق السفر أطول من الحياة. هل من أجل ذلك تركت لور وحطمت آخر رابطة كانت تربطنى ببوكان؟ إذًا اقتراح برادمير بدا لى هزليًا ومضحكًا حتى لا أسبب له ألمًا قلت له:

"لا أستطيع ياسيدى يجب أن أذهب إلى رودريج"

فتح عينيه:

"أعلم سمعت عن هذا أيضًا عن هذا الوهم"

"أى وهم ياسيدى ؟ "

"حسنًا ذلك الوهم، هذا الكنز يقال إن والدك عمل كثيرًا فى هذا الموضوع"

قال "عمل" بسخرية أم أنا الذى غضبت ؟

"من قال هذا؟".

"كل شىء يعرف ياسيدى لكن لن نتكلم عن هذا بعد فالأمر لايستحق العناء"

"هل تريد أن تقول إنك لاتعتقد فى وجود هذا الكنز؟ "

هز رأسه.

"لا أعتقد إلا فى هذا الجزء من العالم ـ يشير بحركة دائرية إلى الأفق ـ توجد ثروة أخرى غير التى نزعها الرجال من الأرض والبحر ثمنًا لحياة أشباههم".

للحظة شعرت برغبة فى التحدث معه عن خرائط القرصان وعن الأوراق التى جمعها أبى والتى أعدت نقلها وحملتها معى فى صندوقى كل هذا ساعدنى وواسانى فى ألم ووحدة فورست سايد لكن ما الفائدة؟ لن يفهم، لقد نسى ماقاله لى وترك نفسه لاهتزازات المركب مغلق العينين .

أنا أيضًا أتطلع إلى البحر المتلألئ حتى لا أفكر فى كل هذا أشعر فى كل جسدى بحركة المركب البطيئة والتى تتحرك وهى تعبر الأمواج مثل حصان يقفز فوق حاجز.

أقول أيضًا :

"شكرًا على هذا العرض ياسيدى سوف أفكر فيه"

فتح عينيه ربما لم يعد يعرف عما أتكلم تمتم":

" آهوم. بالتأكيد ... طبيعى".

انتهى الأمر. لم نعد نتكلم عن هذا.

فى الأيام التالية بدا أن القبطان برادمير غير طريقته معى. عندما هبط قائد الدفة إلى عمق العنبر لم يدعونى القبضان إلى الدفة. هو الذى جلس إلى عجلة القيادة أمام المقعد ذى الهيئة الغريبة، والمهجور من جانب شاغله الشرعى عندما تعب من القيادة استدعى بحَّارًا بالصدفة وترك له المكان.

الأمر سيان عندى. هنا البحر جميل لدرجة أن أحدًا لا يستطيع أن يفكرطويلاً فى غيره. ربما لأننا نصبح مثل الماء والسماء ملساء دون فكر. كل يوم يشبه الآخر كل ليلة تتكرر فى السماء العارية الشمس حارقة ورسومات الكواكب جامدة. الريح لا تتغير يصفر فى الشمال وتطارد المركب.

الصداقة تتعقد بين الرجال وتتحطم لا أحد فى حاجة إلى أحد. على السطح لأنه منذ تحميل براميل النفط وأنا لم أعد أتحمل الانغلاق فى العنبر ـ تعرفت إلى بحَّار رودريجى أسود رياضى وطفولى اسمه كازيمير، لايتحدث إلا باللغة الكريولية وبلهجة إنجليزية تعلمها فى ماليزيا. بفضل هاتين اللغتين أخبرنى أنه قام عدة مرات بالعبور نحو أوروبا وأنه يعرف فرنسا وإنجلترا لكنه لايتباهى بذلك. سألته عن رودريج وطلبت منه أسماء المعابر والجزر الصغيرة

والخلجان الصغيرة وهل يعرف جبل يسمى "كومندور"؟ ذكر لى أسماء الجبال الرئيسية باتات وليمون والرياح الأربعة وبيتون حدثنى عن "مانانف" سود الجبال رجال متوحشون لايجيئون أبدًا إلى الشاطئ .

على الجسر وبسبب الحرارة يجلس البحَّارة الآخرون حتى الليل رغم تحذير القبطان لاينامون يتمددون وعيونهم مفتوحة يتحدثون بصوت منخفض يدخنون ويلعبون النرد .

ذات مساء تمامًا قبل الوصول إلى ماهيه وقعت مشاجرة.. رجل من جزر القمر مسلم تعرض لمضايقات هندى مخمور لسبب غير مفهوم. أمسك أحدهما الآخر من ملابسه وتدحرجا فوق السطح ابتعد الآخرون مكونين دائرة مثلما يحدث فى مصارعة الديكة. القمرى صغير ونحيف انهزم بسرعة لكن الهندى المخمور تمامًا بحيث سقط إلى جانبه ولم يعد قادرًا على النهوض. الرجال شاهدوا المعركة دون أن يقولوا شيئًا . أسمع تنفس المتحاربين الأجش وصوت الضربات الخرقاء وآهاتهما ثم يخرج القبطان من العنبر ويشاهد المعركة للحظة ويعطى أمرًا كازيمير العملاق الطيب هو الذى يفرقهما يأخذهما فى الوقت نفسه من الحزام ويرفعهما كما لم يكونا غير بالتين صغيرتين من القماش ويضع كل منهما فى ركن من السطح. وهكذا امتثل الجميع.

فى مساء اليوم التالى أصبحنا على مرأى من الجزر أطلق البحَّارة صرخات حادة عندما لمحوا

الأرض خطًا مرئيًا بالكاد شبيه بسحابة سوداء تحت السماء . بعد قليل تظهر الجبال العالية " إنها ماهيه" قالها كازيمير وضحك من السعادة" هنا جزيرة بلات وهنا فريجات" كلما اقتربت المركب ظهرت جزر أخرى أحيانًا بعيدة لدرجة أن مرور موجة يحجبها عن عيوننا. الجزيرة الرئيسية تكبر أمامنا. وسرعان ما تجيء النوارس الأولى التى تحلق وهى تصيح. توجد أيضًا فرقاطات أجمل الطيور التى رأيتها على الإطلاق سوداء لامعة بأجنحتها الضخمة الممتدة وذيولها الطويلة المتشعبة التى تطفو خلفها. تنزلق فى الريح فوقنا وتحيا كالظلال تطقطق الأكياس الحمراء تحت منقارها.

وهكذا فى كل مرة نصل إلى أرض جديدة. تجىء الطيور لتشاهد عن قرب هؤلاء الغربان ماذا يحمل هؤلاء الرجال؟ أى خطر للموت؟ أو ربما طعام وأسماك وكاليمار أو حتى بعض الحيتان المعلقة فى أجنحة المركب؟

جزيرة ماهيه أمامنا على بعد ميلين تقريبًا أتبين فى ظل الغسق الساخن صخر الساحل الأبيض والخلجان والشواطئ الرملية والأشجار نصعد إلى الساحل الشرقى لتظل فى الريح حتى الطرف الزائد فى الشمال. مرورًا بالقرب من الجزيرتين الصغيرتين اللتين ذكر لى كازيمير اسميهما "كونسيسيون وتيريز وضحك لأنهما من الأسماء النسائية. أمامنا قمتاهما اللتان فى الشمس أيضًا .

بعد الجزر الصغيرة الريح ضعف أصبح نسيمًا خفيفًا والبحر فى لون الزمرد. نحن قريبون جدًا من روابط الحاجز المرجانى المهدب بالرغوة. أكواخ القرى ظهرت شبيهة باللعب وسط أشجار جوز الهند. كازيمير يعد القرى على مسمع منى: الظل الجميل. الوادى الجميل، جلاسيس. هبط الليل وخفت الحرارة بعد كل هذا الريح عندما وصلنا أمام الممر فى الناحية الأخرى من الجزيرة كانت أضواء بور فيكتوريا تلمع بالفعل فى المرفأ وفى مكان آمن بالجزر أصدر القبطان برادمير أمره بجذب الأشرعة وإرساء المرساة وقد استعد البحَّارة لوضع الزورق فى البحر. كانوا متعجلين لكى يكونوا على الأرض قررت أن أنام على السطح ملفوفًا بغطائى القديم فى المكان الذى أحبه حيث يمكننى أن أرى النجوم فى السماء .

أنا وحدى مع قائد الدفة الأسود وأحد القمريين الصامت. أحب هذه الوحدة وهذا الهدوء. الليل ناعم وعميق والأرض قريبة وغير مرئية تتدخل مثل سحابة كحلم، أسمع صوت الأمواج وهى تضرب الهيكل وصوت سلسلة المرساة الرتيب حيث تدور المركب حولها فى اتجاه ثم فى الاتجاه الآخر .

أتذكر لور وماما البعيدتين الآن تمامًا فى الطرف الآخر من البحر. هل هو الليل نفسه يغطيهما، الليل نفسه بدون ضجيج؟ أهبط إلى العنبر محاولا أن أكتب رسالة يمكننى أن أرسلها غدًا من بور فيكتوريا. فى

توهج الليل أحاول أن أكتب لكن الحرارة خانقة ورائحة النفط وصراخ الحشرات. جسدى ووجهى يقطران عرقًا الكلمات لا تأتى ماذا يمكننى أن أكتب؟ لور حذرتنى عندما رحلت: لا تكتب غير رسالة واحدة لكى تقول: أنا عائد وإلا فلا داعى. هى هذه، كل شىء أولا شىء. خوفًا من ألا تحصل على كل شىء اختارت اللاشىء هذا هو كبرياؤها .

بما أنى لا أستطيع أن أكتب لها لكى أقول لها من بعيد كم أن كل شىء جميل، هنا تحت سماء الليل انسياقا مع التيار فوق ماء الخليج السلس، فى هذه المركب المهجورة فماذا إذًا أكتب؟ أعدت المقلمة والورق إلى صندوق الأمتعة الذى أغلقه بالمفتاح وأصعد من جديد إلى السطح لكى أتنفس. قائد الدفة الأسود والقمرى يجلسان بالقرب من فتحة السطح يدخنان ويتحدثان بهدوء. فى وقت لاحق استلقى قائد الدفة على السطح ملفوفًا فى علم يشبه الكفن وقد فتح عينيه كم عدد السنوات التى لم ينم فيها؟

بورفيكتوريا


https://telegram.me/maktabatbaghdad

أبحث عن مركب يحملنى إلى فريجات. الفضول أكثر من المصلحة الحقيقية هو الذى يدفعنى للذهاب إلى هذه الجزيرة؛ حيث اعتقد أبى فيما مضى التعرف على رسم الخريطة الذى يظهر فى الأوراق المتعلقة بكنز القرصان فى الحقيقة فإن خطة فريجات هى التى سمحت له بمعرفة أن خريطة القرصان. كانت موجهة بالخطأ من الشرق إلى الغرب، وكان ينبغى قلبها إلى الدرجة ٤٥ للحصول على توجهها الصحيح.

صياد أسود وافق على أن يصحبنى إلى هناك، ثلاث أو أربع ساعات فى البحر حسب قوة الريح. رحلنا على الفور بعد أن اشتريت من الرجل الصينى بسكويتًا وجوز الهند لإرواء العطش. الصياد لم يطرح على أى سؤال. لم يحمل كمئونة سوى زجاجة مياه قديمة. رفع الشراع المائل على عارضته وثبته على القضيب الطويل كما يفعل الصيادون الهنود.

ما أن عبرنا الممر، دخلنا من جديد فى مهب الريح وفى أثره الزورق الذى يميل فوق البحر المظلم. سنكون فى فريجات بعد ثلاث ساعات.

الشمس عالية فى السماء تعلن عن الظهيرة فى مقدمة الزورق أجلس على مقعد بلا ظهر أنظر إلى البحر وحشد من التلال المظلمة التى تبتعد. نذهب ناحية الشرق على الأفق الممتد مثل خيط، أرى الجزر الأخرى والجبال الزرقاء وغير الحقيقية ولا طائر واحد يصحبنا. الصياد يقف فى الخلف يستند على القضيب الطويل.

حوالى الساعة الثالثة فى الواقع نحن أمام شعاب فريجات المرجانية. الجزيرة صغيرة بلا ارتفاعات محاطة برمال وأشجار جوز الهند وبعض أكواخ الصيادين. نعبر الممر ونبلغ الشاطئ عند حاجز الأمواج المرجانى حيث يجلس ثلاثة أو أربعة صيادين أطفال يستحمون ويجرون عراة على الشاطئ. عند الانسحاب يتوارون فى النباتات، يوجد بيت من الخشب ذو شرفة فى حالة سيئة وزراعة فانيليا. الصياد قال لى إنه بيت السيد سافى إنه فى الحقيقة اسم العائلة التى تملك بعص الخطط التى نقلها أبى وتملك الجزيرة لكنهم يعيشون فى ماهيه.

أسير على الشاطئ محاطًا بأطفال سود يضحكون ويصيحون بى مندهشين من رؤية شخص غريب. أتخذ الطريق الذى يمتد على طول ممتلكات سافى، وأعبر الجزيرة بكامل عرضها فى الناحية الأخرى، لا يوجد شاطئ ولا مرسى. فقط خلجان صغيرة صخرية. الجزيرة ضيقة، أيام العاصفة تغطيها بالضباب.

عندما عدت إلى السد مرت ساعة تقريبًا. لا يوجد مكان للنوم هنا وليست لدىّ أدنى رغبة فى التاخير. عندما رآنى الصياد عائدًا فك الحبل ورفع عارضة الصارى المائل بطول العمود. الزورق ينزلق فى الاتساع. أمواج المد المرتفع تغطى السد وتمر بين سيقان الأطفال الذين يضحكون. يأتون بحركات ويسبحون فى المياه الشفافة.

فى مذكراته يقول أبى إنه استبعد إمكانية أن يكون كنز القرصان فى فريجات بسبب صغر حجم الجزيرة وندرة الماء والخشب والموارد. بالنسبة لما تمكنت من رؤيته هو على حق فلا توجد هنا أية نقطة لمعالم مستديمة لا شىء يمكن أن يفيد فى وضع خطة قراصنة البحّار الذين كانوا يجوبون المحيط الهندى فى عام ١٧٣٠ لم يتمكنوا من المجىء إلى هنا ما كانوا ليجدوا ما أرادوا هذا النوع من الغموض الطبيعى الذى ذهب مع قدرهم والذى كان يمثل تحديًا فى بعض الأحيان

ومع هذا بينما يبتعد الزورق عن فريجات متجهًا نحو الغرب مدفوعًا بالريح شعرت بنوع من الأسف. ماء البحيرة النقى والأطفال العراة الذين يجرون على الشاطئ وهذا البيت القديم من الخشب والمهجور وسط الفانيليا ذكرنى ذلك بأيام بوكان. إنه عالم بدون غموض. ولهذا شعرت بهذا الأسف.

ماذا سأجد فى رودريج؟ وإذا كان الأمر كذلك وإذا لم يكن هناك أى شىء أيضًا غير الرمال

والأشجار؟ البحر يتلالأ لأن فى أشعة الشمس المائلة والنائمة. فى المؤخرة الصياد يقف دائمًا مستندًا إلى قضيب وجهه المظلم لا يعبر عن شىء ولا عن نفاد صبر ولا عن ضيق. ينظر فقط الى الخيال الذى يكبر أمامنا. حراس بورفيكتوريا غارقون فى الليل.

ميناء فيكتوريا مرة أخرى. من على سطح زيتا أرى ذهاب وإياب الزوارق التى تنقل النفط. الهواء حار وثقيل بدون صفير. الضوء الذى يشع على مرآة البحر يفتتننى، يغرقنى فى حالة من الحلم أسمع أصوات الميناء البعيدة أحيانًا يمر طائر فى السماء صرخته تجعلنى أقفز. بدأت أكتب رسالة للور لكن هل سأوجهها لها؟ أحب أن تأتى أفضل الآن لأقرأها لها من فوق كتفى. أجلس القرفصاء على السطح القميص مفتوح والشعر مجعد والذقن طويل وأبيض كالملح كأنه منفى: هذا ما أنا بصدد كتابته لها. تحدثت معها أيضًا عن براديمير وعن قائد الدفة الذى لا ينام أبدًا وعن كازيمير.

الساعات تمر دون أن تترك آثارًا. تمددت على السطح فى ظل عمود الشراع. ووضعت فى الصندوق المقلمة والورقة، التى لم أتمكن من الكتابة فيها غير بضعة أسطر. فى وقت لاحق فإن حرارة الشمس على رمشى هى التى أيقظتنى. السماء ما زالت زرقاء والطائر نفسه الذى يدور وهو يصيح. أستعيد الورقة وأكتب بآلية الأبيات التى وردت على ذاكرتى أثناء نومى.

أواصل الرسالة من حيث توقفت لكن هل أكتب حقًا للور؟ فى صمت المرسى الساخن وسط الشر والانعكاسات. وأمامى الساحل الرمادى وظلال التلال العالية الزرقاء هى أسماء أخرى ترد إلىّ لماذا بددت كل شىء ؟ من أجل أى وهم ؟ هذا الكنز الذى أتبعه منذ سنوات طويلة فى الحلم هل يوجد حقًا؟ هل هو فى كهفه حقًا؟ مجوهرات وأحجار كريمة فى انتظار أن تعكس ضوء النهار؟ هل توجد هذه القوة التى تخفيها التى ستقلب الزمن وتلغى البؤس والخراب وموت أبى فى بيت فورست سايد المدمر؟ لكن ربما أكون الوحيد الذى يملك مفتاح هذا السر والآن اقترب. هناك فى نهاية طريقى توجد رودريج حيث كل شىء يرتب فى نهاية المطاف. حلم أبى القديم الذى قاد أبحاثه وراود كل طفولتى سأتمكن فى النهاية من تحقيقه.

أنا الوحيد الذى يمكنه أن يحققه. إنها إرادة أبى وليست إرادتى، لأنه لن يترك أبدًا أرض فورست سايد. هذا هو ما أريد كتابته الآن لكن ليس لإرساله إلى لور. عندما رحلت كان ذلك من أجل إيقاف الحلم حتى تبدأ الحياة سأذهب إلى نهاية هذه الرحلة، أعلم أنه يجب أن أجد شيئًا ما.

هذا ما أردت أن أقوله للور عندما افترقنا لكنها فهمته فى نظرتى، استدارت وتركتنى حرًا فى الرحيل.

منذ زمن طويل وأنا أنتظر هذه الرحلة يبدو لى أنى لم أكف أبدًا عن التفكير فيها. كان ذلك فى صوت الريح عندما صعد البحر حتى المصب فى تاماران وفى الموج الذى كان يجرى على مساحات القصب الخضراء وفى صوت ماء الريح عبر قمم الأشجار السامقة أتذكر السماء المتحدة فوق البرج ومنحدره الحاد نحو الأفق فى الغسق. فى المساء يصبح البحر بنفسجى اللون مليئًا بالانعكاسات. الآن المساء اجتاح مرسى بورفكتوريا ويخيل إلىّ أنى قريب جدًا من المكان الذى تلتقى فيه السماء من الأرض. أليست هذه هى العلامة التى تبعتها المركب آرجو فى سباقها نحو اللانهائى.

عندما هبط الليل، بحار الحراسة يخرج من العنبر حيث نام طوال فترة بعد الظهر عاريًا فى الحر اللافح. ارتدى فقط سترة وجسده يلمع من العرق جلس القرفصاء فى مواجهة كوة ترس وتبول طويلاً فى البحر ثم جلس بجانبى ظهره مستند إلى الصارى وهو يدخن فى الغسق وجهه المحترق مضاء بغرابة ببياض عينيه. نظل طويلاً جنبًا إلى جنب دون أن نقول شيئًا.

يوم الجمعة كما أعتقد

القبطان براديمير كان على حق فى ألاَّ يبحث عن مقاومة ريح الجنوب. حالمًا فرغت البضائع فى الفجر، عبرت زيتا الممر. وأمام الجزر الصغيرة وجدت ريح الغرب التى تسمح لنا بالعودة مخففة من الحمولة كل

أشرعتها منتفخة تجرى زيتا بسرعة عالية مائلة نوعًا ما مثل مشبك حقيقى. البحر المظلم يرتج بموجات عميقة تجىء من الشرق ربما من عاصفة بعيدة على سواحل مالابار. القبطان أغلق الفتحات الأمامية والرجال الذين لا يشتركون فى المناورة نزلوا إلى عمق العنبر. أنا، تمكنت من البقاء على السطح فى المؤخرة ربما ببساطة لأنى مهدت طريقى. القبطان براديمير لايبدو أنه قلق من الموج الذى يجتاح سطح المركب حتى قدمى مقعده. قائد الدفة مفتوح الساقين يمسك بعجله القيادة بينما تضيع كلماته فى الريح وهدير البحر.

أثناء منتصف اليوم تمرق المركب وتميل تحت الريح، تسيل بالرغوة. أذناى مليئتان بضوضاء العناصر التى تنفذ إلى جسدى وترتج فى أعماقى. لم أعد أستطيع أن أفكر فى شىء آخر. أنظر إلى القبطان القابض على ذراعى مقعده، وجهه أحمر من الريح والشمس ، ويخيل إلىّ أن فى تعبيره شيئا ما غير معروف، من العنف والعته يقلق مثل الجنون زيتًا أليست فى حد مقاومتها؟ الموجات الغزيرة التى تضربها من الجانب تجعلها تميل بشكل خطير ورغم ضوضاء البحر أسمع صوت قرقعة هيكل المركب. الرجال لجئوا إلى الخلف لتجنب جذب البحر. أيضًا ينظرون أمامهم مباشرة فى اتجاه مقدم المركب بالنظرة الثاقبة نفسها جميعًا ننتظر شيئًا ما، دون أن نعرف ما هو، كما لو أن حركة تحول نظرتنا للحظة يمكن أن نقول قاتلة.

بقينا طويلاً هكذا، لساعات متشبثين بالحبال، والدرابزين ننظر إلى صدر المركب الغارق فى البحر المظلم نسمع تكسر الأمواج والريح. ضربات البحر على الدفة قوية لدرجة أن قائد الدفة يعانى من الإمساك بعجلة القيادة، فوق ذراعيه عروقه متورمة ووجهه مشدود، يتألم تقريبًا فوق الأشرعة السحب الضبابية ترتفع تدخن يضيئها قوس قزح، مرات كثيرة أفكر فى الوقوف لكى أسأل القبطان لماذا نذهب هكذا، بكل الشراع. لكن تعبير وجهه القاسى هو الذى منعنى وأيضًا الخوف من السقوط.

فجأة دون سبب يعطى براديمير أمره بجذب الأشرعة الثلاثية وأشرعة الصارى، وبقية الأشرعة. ولإتاحة الفرصة للمناورة وضع قائد الدفة القضيب فى يسار المركب، وتستقيم المركب الأشرعة طوقت وصفقت مثل الرايات. كل شىء عاد إلى وضعه الطبيعى عندما استأنفت زيتا مسارها سارت ببطء ولم تعد تميل - صوت الأشرعة الرائع يتبعه الصفير فى عتاد السفينة.

ومع هذا لم يتحرك براديمير، وجهه أحمر دائمًا ونظرته غير مباشرة. الآن ذهب قائد الدفة إلى العنبر لكى يستريح، عيناه مفتوحتان دون أن يرمش على السقف الأسود. أنه الرودريجى كازيمير الذى يمسك بعجلة القيادة وأسمع صوته يغنى عندما يتحدث إلى

القبطان. على سطح المركب واصل البحّارة مبارياتهم وثرثرتهم كأن شيئًا لم يكن. لكن هل حدث حقًا شيء ما؟ ببساطة جنون هذه السماء الزرقاء وهذا البحر الذى يصيب بالدوار وهذه الريح التى تملأ الآذان وهذه الوحدة وهذا العنف.

زيتا تتقدم بيسر تفرملها الأمواج نوعًا ما تحت شمس الظهر الحارقة. السطح جاف بالفعل مغطى بشرر الملح الأفق ثابت وقاطع والبحر متوحش. فى داخلى الأفكار والذكريات تعود، وألاحظ أنى أتكلم وحدى. لكن من الذى يأخذ جذره من هذا؟ ألسنا جميعًا متشابهين، مولعين بالبحر وبرادمير وقائد الدفة الأسود وكازيمير وكل الآخرين؟ من الذى يستمع إلينا ونحن نتكلم ؟

فى داخلى الذكريات تعود وسر الكنز فى نهاية هذا الطريق. لكن البحر يلغى الزمن. هذه الأمواج من أى زمن تجىء؟ أليست هى من مائتى عام عندما فر إيفيرى إلى سواحل الهند مع غنيمته الأسطورية عندما طفا على هذا البحر فسطاط ميسون الأبيض حاملا كتابة بحروف من الذهب برو ديبو والحرية:

الريح لاتصاب بالعجز والبحر لاعمر له، الشمس والسماء خالدان .

أتطلع على البعد إلى كل رأس زبد. يخيل إلىَّ أنى أعرف الآن ما أنا قادم للبحث عنه. يخيل إلىّ أنى أرى بداخلى شخصًا سيحصل على حلم.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

القديس براندون


https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعد تلك الأيام وتلك الأسابيع دون رؤية شىء آخر غير زرقة البحر والسماء والسحب التى تضفى ظلها على الأمواج والبحار الذى يقبع فى المقدمة يراقب ويخمن أكثر مما يلمح الخط الرمادى لأرض ماء واسم يذهب ويجىء على السطح "القديس براندون!.. القديس براندون! " ويبدو الأمر كما لو أننا لم نسمع أبدًا عن شىء بهذه الأهمية فى حياتنا. الجميع يميلون على الدرابزين بحثًا عن الرؤية. خلف عجلة القيادة قائد الدفة ثنى عينيه ووجهه مشدود وقلق."سنكون هناك قبل الليل" هكذا قال برادمير صوته ملىء بنفاد صبر صبيانى.

"هل هو حقًا القديس براندون ؟ "

سؤالى فاجأه. أجاب باقتضاب:

"ماذا تريد أن يكون؟ لاتوجد أرض أخرى على الأقل بعد أربعمائة ميل غير تروملان خلفنا ونازاريت مجموعة صخور بورد ماء فى الشمال الغربى. أضاف مباشرة "نعم" إنه حقًا القديس براندون "قائد الدفة

بصفة خاصة هو الذى ينظر إلى الجزر وأتذكر ماقصه الماء فى لون السماء؛ حيث أجمل الأسماك فى العالم والسلاحف شعوب طيور البحر. الجزر التى لاتذهب إليها النساء وأسطورة تلك التى جرفتها العاصفة.

لكن قائد الدفة لايتكلم. يوجه المركب فى اتجاه الخط الذى لايزال مظلمًا والذى يظهر فى الجنوب الشرقى. يريد أن يصل إلى هناك قبل الليل ويعبر الممر جميعًا ننظر فى الاتجاه نفسه بنفاد صبر .

الشمس تلمس الأفق عندما ندخل فى مياه الأرخبيل. فجأة أصبحت الأعماق واضحة. الريح انحسر ضوء الشمس أكثر لطفًا وأكثر انتشارًا. الجزر تبتعد أمام مقدم المركب إنها كثيرة أيضًا مثل قطيع من الحيتان. فى الواقع هى جزيرة وحيدة كبيرة دائرية حلقة تظهر فيها بعض الجزر المرجانية الصغيرة بغير نباتات. هل هنا الجنة التى تكلم عنها القمرى؟ لكن بقدر ما ندخل فى الشعاب نستشعر ما هو غريب هنا سلام وبطء لم أستشعره فى أى مكان آخر، يأتيان من شفافية الماء ونقاء السماء والصمت.

قائد الدفة يوجه زيتا تمامًا نحو المزالق الأولى. العمق قريب جدًا بعلامة الشعاب المرجانية والطحالب بلون نيروزى رغم ظلام الليل. ننزلق بين الشعاب السوداء حيث يطلق البحر من وقت لآخر قذائف من البخار. الجزر النادرة مازالت بعيدة مثل حيوانات

بحرية نائمة لكن فجأة لاحظت أننا وسط الأرخبيل دون أن نتنبه، نحن فى وسط جزيرة مرجانية.

القبطان برادمير يستند هو الآخر إلى الدرابزين. ينظر إلى الأعماق القريبة جدًا لدرجة تبين كل محارة وكل فرع مرجان. ضوء الشمس الذى ينطفئ فيما وراء الجزر لايمكنه أن يسرق وضوح البحر نحن جميعًا صامتون حتى لاتكسر السحر. اسمع برادمير وهو يهمهم لنفسه. يقول بالإنجليزية "أرض البحر" مدينة البحر.

على البعد يسمع بالكاد هدير البحر فوق النسيم. لايكفى أبدًا كما فيما مضى بالقرب من تاماران ضجيج عناء أبدى.

الليل يهبط على الجزيرة المرجانية. إنه الليل الأكثر نعومة الذى عرفته. بعد حرق الشمس والريح الليل هنا هو مكافأة محملة بالنجوم، التى تخرق السماء الأرجوانية. البحَّارة خلعوا ملابسهم وغاصوا واحدًا بعد الآخر وسبحوا دون ضوضاء فى المياه الخفيفة.

فعلت مثلهم، سبحت طويلا فى المياه الناعمة للغاية حتى أنى شعرت بالكاد أنها كبرد يحيط بى. مياه البحيرة تغسلنى وتطهرنى من أية رغبة.من أى قلق لفترة طويلة انزلق فوق المساحة الملساء كمرآة حتى تصل إلى أصوات البحَّارة التى تصيب بالصمم مختلطة بأصوات الطيور. كل شىء قريب منى أرى شكل الجزيرة المظلم الذى يسميه قائد الدفة "اللؤلؤة"

وبعيدًا شيئًا ما تحيط بها الطيور مثل حوت، إنها جزيرة فريجات. غدًا سأذهب إلى شواطئها وستكون المياه أجمل أيضًا الأضواء التى تتلألأ عبر فتحات زيتا ترشدنى بينما أسبح. عندما أتسلق الحبل ذا العقدة المربوط بروق المركب، جعلنى النسيم أرتجف.

فى تلك الليلة لم ينم أحد فى الحقيقة. على السطح تكلم الرجال ودخنوا طوال الليل وقائد الدفة ظل جالسًا فى المؤخرة ينظر إلى انعكاسات النجوم على مياه الجزيرة. حتى القبطان ظل متيقظًا وهو جالس على مقعده من مكانى بالقرب من الصارى أرى جمرة سيجارته تضىء من وقت لآخر. ريح البحر يحمل كلمات البحارة ويخلطها بزبد الأمواج فوق النسيم. هنا السماء شاسعة ونقية كما لو لم يكن هناك أراض أخرى فى العالم وأن كل شىء سوف يبدأ.

أنام قليلاً ورأسى على ذراعى وعندما أستيقظ يكون الفجر. الضوء شفاف يشبه مياه البحيرة فى لون الزرقة السماوية واللؤلؤ، منذ بوكان لم أر صباحًا بهذا الجمال. زبد البحر تصاعد شبيهًا بضوضاء ضوء النهار. وأنا أنظر حولى أرى أن معظم البحَّارة لا يزالون ينامون كما لو أن النعاس غلبهم وهم ينامون على السطح أو جالسون عند الدرابزين. برادمير لم يعد على مقعده. ربما يكون بصدد الكتابة فى قبوة قائد الدفة الأسود وحده واقفًا فى المكان ذاته فى المؤخرة. يشاهد شروق الشمس. أقترب منه لكى

أتحدث إليه لكنه هو الذى يقول :

"هل يوجد مكان أكثر جمالاً فى العالم؟ "

صوته أجش صوت رجل مضطرب بالعاطفة.

"عندما جئت هنا للمرة الأولى. كنت ما أزال طفلاً. الآن أنا رجل عجوز لكن هنا لاشىء تغير. يمكننى أن أعتقد أن ذلك كان بالأمس"

"لماذا جاء القبطان إلى هنا ؟ "

نظر إلىّ كما لو أن السؤال لم يكن له معنى.

"لكن ذلك من أجلك! كان يريد أن ترى القديس براندون إنها هدية قدمها لك"

هز كتفيه ولم يقل أكثر من ذلك. يعلم بلا شك أنى لم أقبل البقاء على ظهر زيتا ولهذا لم يعد يهمه أمرى تمامًا. وغرق فى شروق الشمس التى على الجزيرة المرجانية الشاسعة وفى الضوء الذى يبدو منفجرًا من الماء ويصعد نحو السماء الخالية من السحب. الطيور تقطع السماء تفيق وتمر بالقرب من الماء حيث تنزلق ظلالها تصيح بصوت عال فى الريح نقاط فضية صغيرة جدًا تمور. تدور وتتلاقى وتصيح وتقوقئ بقوة شديدة توقظ الرجال على السطح الذين يبدءون فى الكلام بدورهم.

فى وقت لاحق فهمت لماذا توقف برادمير عند القديس براندون. الزورق وضع فى البحر مع ستة من أفراد الطاقم. القبطان على رأسى القضيب وقائد

الدفة واقف فى المقدمة والرمح فى يده. الزورق ينزلق دون ضجة على ماء البحيرة نحو "لؤلؤة". وأنا أميل إلى مقدمة الزورق بالقرب من قائد الدفة ألمح سريعًا بقع السلاحف السوداء بالقرب من الشاطئ. نقترب منها فى صمت عندما يصل الزورق فوقها تلمحنا لكن الوقت يكون قد فات. بلفتة سريعة قائد الدفة يطلق الرمح الذى يخترق مطقطقًا درقة السلاحف وتتدفق الدماء على الفور مع صرخة وحشية الرجال يسبحون بقوة والزورق يتجه نحو شاطئ الجزيرة يحمل السلحفاة عندما اقترب الزورق من الشاطئ قفز اثنان من البحَّارة فى الماء حملا السلحفاة وطرحاها على الشاطئ.

كنا بالفعل قد عدنا إلى البحيرة حيث تنتظر السلاحف الأخرى دون خشية. عدة مرات تخترق حربة قائد الدفة درقة السلاحف. على شاطئ الرمل الأبيض تتدفق الدماء فى الجداول تعكر البحر. يجب أن يتم ذلك بسرعة قبل أن تجذب رائحة الدم أسماك القرش التى تطارد السلاحف فى المياه الضحلة. على الشاطئ الأبيض تخلد السلاحف إلى الموت. كانت عشر سلاحف بضربة من سيف قطع الأشجار مزقها البحَّارة ونقلوا على الرمل قطع اللحم وضعت القطع فى الزورق لكى يتم تدخينها على متن المركب لأنه لايوجد خشب فى الجزر. هنا الأرض قاحلة مكان تأتى إليه الكائنات البحرية لكى تموت.

عندما انتهى الجزار من عمله ركب الجميع فى الزورق وأيديهم مخضبة بالدم. أسمع صرخات الطيور

الحادة التى تنهش درقات السلاحف. الضوء أعمى أشعر بدوار أتعجل الفرار من هذه الجزيرة وهذه البحيرة المليئة بالدم. بقية اليوم على سطح زيتا يعمل الرجال حول الوعاء الذى تشوى فيه قطع اللحم. لكنى لا أستطيع أن أنسى ماحدث وفى هذا المساء رفضت تناول الطعام. فى صباح الغد عند الفجر غادرت زيتا الجزيرة المرجانية ولن يبقى شئٌ من عبورنا غير هذه الدرقات المحطمة والتى نظفت بالفعل عن طريق طيور البحر.

يوم الأحد فى البحر

منذ فترة طويلة رحلت! شهر وربما أكثر؟ أبدًا لم أظل طويلاً هكذا دون أن أرى لور وبدون ماما. عندما قلت وداعًا للور عندما حدثتها للمرة الأولى عن سفرى إلى رودريج أعطتنى نقودًا من مدخراتها لكى أنفق على رحلتى، ولكنى قرأت فى عينيها هذا البريق المظلم وهذا الضوء الغاضب الذى كان يقول: ربما لن نلتقى مرة أخرى أبدًا قالت لى وداعًا ولم تقل إلى اللقاء ولم تشأ أن تصحبنى حتى الميناء. كان لابد من كل هذه الأيام فى البحر وهذا الضوء وحرق الشمس والريح وهذه الليالى حتى أفهم. الآن أعلم أن زيتا تحملنى إلى مغامرة دون عودة. من يستطيع أن يعلم قدره؟ مكتوب هنا السر الذى ينتظرنى والذى لا أحد غيرى يجب أن يكتشفه أنه مسجل فى البحر فوق زبد الموج وفى سماء النهار وفى رسم النجوم الذى لايتبدل. كيف نفهمه؟ أفكر أيضًا فى المركب آرجو كما

كانت تذهب فوق بحر غير معروف مسترشدة بثعبان النجوم كانت هى التى لقيت مصيرها وليس الرجال الذين صعدوا عليه. ماذا جلبت الكنوز والأرض؟ ألم يكن القدر الذى كان عليها معرفته، البعض فى المعارك أو مجد الحب والبعض الآخر فى الموت؟ أفكر فى آرجو وسطح زيتا هو الآخر الذى تغير وهؤلاء البحَّارة القمريين والهنود بأجسادهم الداكنة وقائد الدفة الواقف دائمًا أمام عجلة القيادة ووجهه المغسول حيث لاترمش عيناه وحتى برادمير بعينيه المثنيتين ووجهه السكير ألم يهيموا على وجوههم منذ زمن طويل من جزيرة إلى جزيرة بحثًا عن قدرهم؟

هل هذا هو انعكاس الشمس على مرايا الأمواج المتحركة التى شوشت عقلى؟ يبدو لى أنى خارج الزمن فى عالم آخر مختلف تمامًا بعيدًا جدًا عن كل ماعرفته، وأنى لن أتمكن أبدًا من استرداد ما تركته لهذا أشعر بالدوار وبهذا الغثيان. أنا خائف من تبديد ما كنته بلا أمل فى العودة. كل ساعة وكل يوم يمر مثل موج البحر الذى يجرى نحو صدر المركب ويرفع قليلاً الهيكل ثم يختفى فى المجرة. كل موجة تبعدنى عن الزمن الذى أحبه وعن صوت ماما وعن حضور لور.

القبطان برادمير جاء ناحيتى هذا الصباح فى مؤخرة المركب"غدًا أو بعد غد سنكون فى رودريج"

كررت:

"غدًا أو بعد غد ؟"

"غدًا إذا استمر الريح"

هكذا تنتهى الرحلة لهذا. ولا شك كل شىء يبدو لى مختلفًا.

الرجال انتهوا من تقديم اللحوم. بالنسبة إلىَّ اكتفيت بالأرز الحار فإن هذا اللحم يصيبنى بالرعب. كل مساء منذ عدة أيام أشعر بالحمى ملفوف فى غطائى أرتجف فى قاع العنبر رغم الحرارة الخانقة ماذا أفعل إذا تخلى عنى جسدى؟ فى الصندوق وجدت قارورة الكينا التى اشتريتها قبل الرحيل؟ وبلعت برشامة بلعابى.

هبط الليل دون أن أدرى.

متأخرًا أثناء الليل استيقظت وجسدى يتصبب عرقًا. إلى جوارى يجلس القرفصاء وظهره يتكئ على الهيكل رجل بوجه أسود يتلألأ ضوء العجز بشكل غريب أستند على كوعى، وتعرفت على قائد الدفة بعينيه الثاقبتين بصوته الرخيم تحدث إلىَّ ولكنى لم أفهم جيدًا معنى كلامه. أسمع أنه يطرح على أسئلة عن الكنز الذى سأبحث عنه فى رودريج كيف علم بذلك؟ هو ولاشك القبطان برادمير الذى قال له يسأل وأنا لا أجيبه لكن هذا لايوقفه ينتظر ثم يلقى بسؤال آخر وسؤال آخر أيضًا. فى النهاية كف هذا عن اهتمامه. وأخذ يتحدث عن القديس براندون حيث يجىء ليموت كما يقول. أتخيل جسده الممدد وسط قذائف السلاحف أغفو مهتزًا على صوت كلماته.

الجزيرة تظهر على خط الأفق تخرج من البحر في سماء المساء الصفراء بجبالها العالية الزرقاء فوق المياه المظلمة ربما تكون طيور البحر هي التي نبهتني في البداية وهي تصيح فوقنا .

أذهب إلى المؤخرة لكي أرى أفضل. الأشرعة المنتفخة بفعل رياح الغرب تجعل صدر المركب يجري بعد الموج. المركب تسقط في التجاويف ثم ترتفع. الأفق واضح جدًا وضيق. الجزيرة تصعد وتهبط خلف الأمواج وقمم الجبال تبدو مولودة في قاع المحيط .

أبدًا لم تقدم لي أي أرض هذا الانطباع إنها تشبه قمم الضلوع الثلاثة. أكثر ارتفاعًا أيضًا وهو مايشكل جدارًا لايمكن اختراقه كازيمير إلى جانبي في المقدمة سعيد أنه أخبرني عن الجبال وقال لي أسماءها .

الشمس مختفية خلف الجزيرة الآن. الجبال العالية تلتصق بعنف بالسماء الشاحبة.

القبطان خفض الأشرعة. الرجال صعدوا إلى الصواري لكي يأخذوا الأرز. نذهب بسرعة الأمواج نحو الجزيرة المظلمة الأشرعة المثلثة تلمع في ضوء الشفق مثل أجنحة طيور البحر. أشعر بالعاطفة تكبر في داخلي بينما تقترب المركب من الساحل. بشيء ما يتحقق، الحرية، سعادة البحر. الآن يجب البحث عن ملجأ والتحدث والاستجواب والاتصال بالأرض.

الليل يهبط ببطء شديد. الآن نحن فى ظل الجبال العالية حوالى الساعة السابعة نعبر الممر نحو المصباح الأحمر المضاء فى نهاية الرصيف. المركب تحاذى الأرصفة الصخرية أسمع صوت بحَّار يستطلع الميمنة ويصيح على الأرقام "سبعة عشر سبعة عشر ستة عشر خمسة عشر خمسة عشر.."

فى نهاية القناة يبدأ رصيف الحجر .

أسمع المرساة تسقط فى الماء وتفك السلسلة. زيتا رأسية على طول الرصيف، دون انتظار العربة الرجال يقفزون على الأرض يتحدثون بصخب للحشد الذى ينتظر. أقف على السطح للمرة الأولى منذ أيام وربما شهور أرتدى ملابسى وحذائى. صندوقى جاهز تحت قدمى زيتا تغادر بداية من غد بعد.الظهر عندما يتم الانتهاء من تبادل السلع.

قلت وداعًا للقبطان برادمير. صافحنى ومن الواضح أنه لايعرف ماذا يقول أنا الذى تمنيت له حظًا سعيدًا. قائد الدفة كان فى العنبر لابد أنه ممدد، عيناه الثابتتان تنظران إلى السقف الأسود .

على الرصيف هبوب الرياح تجعلنى أتعثر بسبب وزن الصندوق على كتفى. استدرت ونظرت مرة أخرى إلى زيتا فى مواجهة السماء الشاحبة مع هوائياتها المنحدرة وشبكة حبالها. يجب علىَّ ربما أن أعود على أعقابى، أصعد مرة أخرى إلى الشاطئ بعد أربعة أيام سأكون فى بورلوى أستقل القطار وأسير تحت المطر

الخفيف نحو منزل "فورست سايد" وأسمع صوت ماما وألتقى بلور .

ينتظرنى أحد الرجال على الرصيف. تعرفت فى وميض الفانوس على ظل كازيمير الرياضى، تناول صندوقى وسار معى، أشار إلىّ بالفندق الوحيد فى الجزيرة بالقرب من مقر الحكومة. فندق يديره صينى ويبدو أننا يمكن أن نأكل فيه أيضًا سرت خلفه أثناء الليل عبر شوارع بورماثوران الضيقة. أنا فى رودريج.

رودريج شرم الإنجليز ١٩١١


https://telegram.me/maktabatbaghdad

في هذا الصباح من شتاء عام ١٩١١ (أغسطس على ما أعتقد أو بداية سبتمبر) أصل فوق الأعمدة التى تهيمن على "شرم الإنجليز" حيث يكتمل كل بحثى.

منذ أسابيع وشهور طفت برودريج من الجنوب حيث يفتح الممر الآخر أمام جزيرة جومبرانى، حتى اختلاط الحمم البركانية السوداء فى خليج ملجاش، فى الشمال مرورًا بجبال وسط الجزيرة العالية فى مانج وباتات وجبل بون دييه. إنها الملاحظات المكتوبة فى كتاب بانجريه التى أرشدتنى." فى غرب الميناء الكبير كما كتب فى عام ١٧٦١ لم نعد نجد ماء كافيًا يحمل زورقنا أو حتى ماء متصل بأعالى البحر الهائج تمامًا لكى يحمل مركبًا هشًا إلى هذا الحد. السيد دى بانجريه أرسل إذن الزوارق عن الطريق الذى جلبها، مع أمر بالانضمام إلينا فى اليوم التالى فى غرز الأحجار الجيرية الكبيرة..."وفى مواضع أخرى: "جبال الممرات الأربعة عمودية وبما أنه لاتوجد هنا

نقطة شعاب مرجانية تقريبًا وأن الساحل معرض مباشرة للريح فإن البحر يضرب بقوة الساحل الذى لايوجد فيه غير النهور والمخاطرة لعبور هذا الممر".

أقرأ فى ضوء شمعتى المرتجف فى غرفة فندق بورما توران عن علاقة بانجريه التى تذكرنى بالخطاب الشهير الذى كتبه بحَّار عجوز مسجون فى سجن الباستيل، وكان قد وضع أبى على درب الكنز "على ساحل الجزيرة الغربى فى مكان يرتطم فيه البحر بالشاطئ يوجد نهر. اتبع النهر ستجد نبعًا، فى مواجهة النبع شجرة تمر هندى. بعد ثمانية عشر قدمًا من شجرة التمر هندى تبدأ السدود التى تخفى كنزًا ضخمًا" .

فى وقت مبكر جدًا من هذا الصباح مشيت بطول الساحل بنوع من التسرع المحموم. عبرت جسر جينز الذى يرسم حدود بور ماتوران. بعيدًا شيئًا ما اجتزت معبر نهر بامبو، أمام المقبرة الصغيرة. بداية من هنا لاتوجد منازل على الإطلاق والطريق على امتداد الساحل يضيق على اليمين أسلك الطريق الذى يصعد نحو مبانى "السلكى واللاسلكى" شركة التلغراف الإنجليزية أعلى حافة فينوس.

تجاوزت مبانى البرق، ربما خشية مقابلة واحد من هؤلاء الإنجليز الذين يخيفون إلى حد ما الناس فى رودريج.

قلبى يدق، أذهب حتى قمة التل، إنه هنا حقًا أنا متأكد الآن من ذلك وأن بانجريه جاء عام ١٧٦١ لكى

يراقب عبور كوكب الزهرة قبل علماء الفلك الذين رافقوا الفريق نيات عام١٨٧٤ والذين أطلقوا اسمه على حافة فينوس.

رياح الشرق القوية جعلتنى أترنح على سطح المنحدر، أرى الموجات القصيرة القادمة من المحيط تعبر الممر. تمامًا تحتى مبانى "السلكى واللاسلكى" أكواخ خشبية طويلة رمادية اللون ومصفحة بمعدن مجلفن محزق مثل سفينة ركاب. فى أعلى قليلاً بين الشجيرات ألمح بيت المدير الأبيض وشرفته التى فتحت ستائرها. فى هذه الساعة مكاتب البرق مازالت مغلقة. فقط رجل أسود يجلس على ممشى سقيفة يدخن دون أن ينظر إلىّ.

واصلت عبر الأدغال. سرعان ماوصلت إلى حافة المنحدر واكتشفت القرية الكبيرة. فهمت للوهلة الأولى أننى وجدت أخيرًا المكان الذى كنت أبحث عنه.

شرم الإنجليز يطل بالعرض على البحر على كل جانب من مصب نهر روزو.

من هنا حيث أنا أرى امتداد الوادى حتى الجبال أتبين كل شجيرة وكل شجرة وكل حجر، لايوجد أحد فى الوادى ولا منزل واحد ولا أثر لإنسان، فقط الأحجار والرمل وخيط رفيع من ماء النهر وخصلات من النباتات الصحراوية نظرتى تتبع مسار الجدول حتى أسفل الوادى؛ حيث ترتفع الجبال العالية المظلمة أفكر للحظة فى أخدود مانانافا. عندما توقفت مع

دونيس كما على عتبة أرض محرمة ترصد: صرخة برد القش ذى الذيل.

هنا لاتوجد طيور فى السماء، فقط الغيوم التى ترتفع عن سطح البحر فى الشمال وتختفى فى الجبال وهى تجعل ظلالها تجرى أسفل الوادى .

أظل لفترة طويلة واقفًا فى أعلى المنحدر فى الريح القوية. أبحث عن ممر لكى أهبط هنا حيث أنا مستحيل الصخر عمودى فوق مصب النهر أتسلق أعلى التل وأنا أمر من خلال الأشجار المتشابكة الريح تهب من خلال أوراق الشجر وهو يصدر صوتًا يزيد أيضًا من الشعور بالوحدة فى هذا المكان.

قبل الوصول بقليل إلى قمة التل وجدت ممرًا أنه انهيار أرضى يهبط حتى الوادى .

الآن أسير فى وادى نهر روزو دون أن أعلم أين أنا ذاهب، المنظر من هنا الوادى يبدو شاسعًا ومحدودًا على البعد بالتلال السوداء والجبال العالية، ريح الشمال التى تدخل عن طريق مصب النهر يحمل هدير البحر، ويرفع دوامات صغيرة من الرمل شبيهة بالرماد والتى جعلتنى أعتقد للحظة فى وصول الرجال على ظهور الخيل لكن هنا الصمت غريب بسبب كل هذا الضوء.

فى الناحية الأخرى من تلال رأس فينوس الحياة الصاخبة فى بور ماتوران السوق وذهاب ومجىء الزوارق فى خليج لاسكار. وهنا كل شىء صامت كما فوق جزيرة صحراوية ماذا سأجد هنا؟ من ينتظرنى؟

حتى نهاية اليوم أسير أسفل الوادى بالصدفة أريد أن أفهم أين أنا أريد أن أفهم لماذا جئت إلى هنا ما الذى أقلقنى ودعانى للحذر على رمال شواطئ النهر الجافة بفضل غصن رسمت خريطة الوادى: مدخل الشرم مدعم من الشرق والغرب بصخور بازلتية كبيرة مسار نهر روزو يصعد فى خط مستقيم تقريبًا نحو الجنوب، ثم يتقوس قبل الدخول فى الممر بين الجبال. لست فى حاجة إلى المقارنة بخريطة القرصان كما ظهرت فى وثائق أبى أنا تمامًا على موقع الكنز نفسه.

مرة أخرى أشعر بحالة سكر ودوار. هنا كثير من الصمت! فقط مرور الريح فى الصخور والأدغال يحمل هدير البحر البعيد على الأرصفة لكنه ضجيج العالم بدون رجال. السحب تجرى فى السماء المبهرة وتدخن وتختفى وراء التلال، لم أعد أستطيع أن احتفظ بالسر لنفسى، أريد أن أصرخ بكل قواى لكى يسمعنى الجميع فيما وراء هذه التلال وأبعد حتى من هذه الجزيرة فى الناحية الأخرى من البحر حتى"ناحية فورست" وأن يخترق صراخى الجدران ويذهب حتى قلب لور.

هل صرخت حقًا؟ لا أعرف فحياتى أصبحت شبيهة بهذه الأحلام من حيث الرغبة وتحقيقها ليس إلا شيئًا واحدًا. أركض أسفل الوادى، وأقفز فوق الصخور السوداء وفوق الجداول وأركض أسرع مما أستطيع خلال الأدغال وسط أشجار التمر هندى

المحترقة من الشمس لا أدرى أين أنا ذاهب أركض كما لو كنت وقعت. أسمع ضجيج الريح فى أذنى ثم أسقط على الأرض الرمادية وعلى الحجارة المدببة دون حتى أن أشعر بالألم خارج التنفس وجسدى يتصبب عرقًا بقيت طويلاً نائمًا على الأرض رأسى متحول نحو السحب التى تفر دائمًا نحو الجنوب.

الآن أعرف أين أنا وجدت المكان الذى كنت أبحث عنه بعد هذه الشهور من التيه، أشعر بسلام وحماسة جديدة. الأيام التى تلت اكتشافى لشرم الإنجليز أعددت أبحاثى. من عند جيريمى بيرام فى شارع دوجلاس اشتريت المواد الضرورية: معول، مجرفة، حبل، مصباح عواصف، قماش شراع، صابونة ومؤن استكملت عدة سلاح الاستكشاف مع واحدة من تلك القبعات الكبيرة من الألياف التى يرتديها "المناف" هنا وسود الجبال. بالنسبة لبقية الأشياء قررت أن بعض الملابس التى أملكها وغطاء الحصان القديم كافية أودعت المبلغ البسيط المتبقى لى فى بنك بركليز الذى يديره رجل إنجليزى مفيد له وجه منقبض سعد بملاحظته أننى جئت إلى رودريج لأعمال، واقترح على بما أنه ممثل شركة بريد إلياس ملاك الاحتفاظ ببريدى.

عندما تتم كل استعداداتى أذهب مثل كل ظهيرة عند الصينى لآكل أرزًا وسمكًا. يعلم أنى راحل، فجأة لرؤيتى على مائدتى بعد الوجبة لايسألنى أسئلة حول مغادرتى مثل معظم الناس، الذين قابلتهم فى رودريج

يعتقد أنى ذاهب لغسل الأنهار الجبلية بحثًا عن الذهب. أنا حريص جدًا على تكذيب الشائعات. قبل بضعة أيام، عندما انتهيت من تناول غذائى فى هذه القاعة ذاتها، طلب اثنان من الرجال التحدث إلىّ، اثنان من رودريج. فى الحال فتحا أمامى محفظة جلدية صغيرة وقذفا على المائدة قليلاً من الأرض السوداء مختلطة بقطع لامعة." هل هذا ذهب ياسيدى؟ "عرفت على الفور بفضل دروس أبى كبريتور الحديد والنحاس الذى خدع الكثير من المنقبين والذى يسمى لهذا "ذهب الساذج" كان الرجلان ينظران إلىّ بقلق فى ضوء مصباح النفط. لم أشأ أن أخيب ظنهما بقسوة أكثر" لا، هذا ليس بذهب لكن هذا ينبئ ربما بأنكما ستجدانه "نصحتهما أيضًا بشراء زجاجة مياه لذيذة لتجنب مخاطر الأخطاء، ذهبا نصف راضيين مع المحفظة الجلدية. هكذا على ما أعتقد اكتسبت سمعة منقب.

بعد الغذاء صعدت إلى عربة الحصان التى استأجرتها للرحلة. الحوذى عجوز أسود مرح حمل صندوقى والمواد التى اشتريتها. صعدت إلى جواره وانطلقنا عبر شوارع بورماتوران الفارغة، نحو شرم الإنجليز. سرنا بجانب شارع هتشتز وبيت بوجيه ثم صعدنا إلى شارع باركليز حتى بيت الحاكم. ذهبنا بعد ذلك نحو الغرب أمام المعبد والمستودع عبر ميدان رافو. أطفال سود يركضون للحظة خلف العربة ثم يجهدون فيعودون. ليسبحوا فى مياه الميناء. عبرنا

جسر الخشب على نهر لاسكار. بسبب الشمس ضغطت قبعتى الكبيرة على رأسى ولم أستطع أن أمنع نفسى من التفكير فى بريق ضحكة لور إذا تمكنت من رؤيتى على هذا الحال: اهتز فى هذه العربة مع الحوذى العجوز الأسود الذى يصيح فى البغل ليجعله يتقدم.

عندما نصل إلى قمة التل على حافة فينوس أمام مبانى التلغراف، الحوذى ينزل الصندوق والأوانى الأخرى، وكذلك أكياس الجوت التى تحتوى على مؤنى. ثم بعد أن حصل على حقه وهو يتمنى لى حظًا سعيدًا (دائمًا هى أسطورة الباحث عن الذهب) وبقيت وحدى على حافة المنحدر مع كل حمولتى فى صمت الريح الضوضائى، مع الانطباع الغريب من أنى نزلت على شاطئ جزيرة صحراوية.

الشمس تهبط نحو تلال الغرب والظل يمتد بالفعل إلى أسفل وادى روزو يكبر الأشجار ويشحذ قمم أوراق الشجر. الآن أشعر بوحدة غامضة أخشى أن أهبط إلى أسفل هذا الوادى كما لو كان منطقة محرمة بقيت بلا حراك على حافة المنحدر أنظر إلى المشهد كما اكتشفته أول مرة.

أنه الريح القوى الذى يحددنى. وضعت علامة عند منتصف طريق منحدر جلاسى منصة من الحجارة يمكنها أن تحمينى من برد الليل ومن المطر. هذا المكان هو الذى اخترت أن أثبت فيه مخيمى الأول وأنزلت الصندوق الثقيل من فوق كتفى. رغم الوقت

المتأخر الشمس حارقة على المنحدر وأصل إلى المنصة متصببًا عرقًا. علىّ أن أستريح وقتًا طويلاً قبل أن أعود لأبحث عن المواد: المعول والمجرفة وأكياس المؤن والغطاء الذى يصلح كخيمة لى .

المنصة مماثلة تمامًا لشرفة متكئة على كتل ضخمة من الحمم المنبعجة فوق الفراغ. البناء بالتأكيد قديم جدًا لأن فروع الأشجار الكبيرة نمت على المنصة وابتعدت جذورها حتى عن جدران الحمم. بعيدًا جدًا فى منبع الوادى، ألمح منصات أخرى مماثلة جنبًا إلى جنب التل. من الذى بنى هذه الشرفات؟ أفكر فى البحَّارة القدامى وصائدى الحيتان الأمريكية الذين يدخنون الأسماك. لكن لايمكن أن أمنع نفسى من تخيل ممر القرصان هنا الذى جئت للبحث عنه. هو ربما الذى بنى هذه المقار بعد أن راقب جيدًا أعمال "البناء" التى كان قد قرر أن يخفى فيها كنزه. من جديد أشعر فى داخلى كما الدوار حمى. بينما أذهب وأجىء على منحدر التل حاملا ممتلكاتى فجأة أسفل الوادى بين الأشجار اليابسة وخيال الشجيرات يبدو لى رؤيتها هنا ظلال تمشى مسرعة تأتى من البحر تحمل الحقائب الثقيلة والقمم وهى تتجه نحو ظل تلال الغرب.

قلبى يدق بقوة ووجهى يقطر عرقًا. لابد من الاستلقاء على الأرض فى أعلى المنحدر، وأنظر إلى سماء الشفق الصفراء لكى أهدئ انفعالى.

الليل يهبط بسرعة، أستعجل تثبيت خيمتى قبل أن يصبح كل شىء مظلمًا فى سرير النهر، أجد أفرع

شجر تركها الفيضان وخشب صغير لإشعال النار الفروع الكبيرة تفيد فى صناعة هيكل مؤقت أثبت عليه قماش الشراع . أدعم كل شىء ببعض الحجارة الضخمة. عندما تم تثبيت كل شىء أصابنى التعب فلم أعد أفكر فى إشعال نار، ورضيت بأكل بعض من بسكويت البحر وأنا جالس على المنصة. الليل هبط فجأة أغرق الوادى تحتى ويمحو البحر والجبال، إنها ليلة باردة وجامدة بدون ضجيج لا لزوم له مع ريح فقط يصفر فى الأدغال وقرقعة الحجارة التى تتراجع بعد حريق اليوم، على البعد هدير الأمواج على الأرصفة.

رغم التعب ورغم البرد الذى يجعلنى أحشرج فأنا سعيد بوجودى هنا فى هذا المكان الذى حلمت به طويلاً دون حتى معرفة إذا كان موجوداً. فى أعماقى أشعر بقشعريرة مستمرة وأنتظر، عيناى مفتوحتان تماماً أراقب الليل ببطء. النجوم تتحول نحو الغرب وتهبط نحو الأفق غير المرئى. الريح القوى يهز القماش خلفى كما لو أننى لم أنته من رحلتى. غداً سأكون هنا وأرى عبور الظلال. شىء ما ينتظرنى شخص ما. لكى أجده جئت حتى هنا وتركت ماما ولور.

يجب أن أكون مستعداً لما سيظهر فى هذا الوادى فى نهاية العالم. سقطت نائماً وأنا جالس فى مدخل خيمتى ظهرى إلى حجر وعيناى مفتوحتان على السماء السوداء .

منذ وقت طويل وأنا فى هذا الوادى. كم يوماً كم شهراً؟ كان علىّ أن أمسك بنتيجة مثل رورينسون

كروزو ونحت شقوق على قطعة من الخشب. فى هذا الوادى الفريد ضعت كما فى اتساع البحر. الأيام تتبع الليالى كل يوم جديد يمحو الذى سبقه. ولهذا أخذ ملاحظات على الكراسات التى اشتريتها من الرجل الصينى فى بورما توران لكى يبقى أثر من الزمن الذى يمر.

ماذا يبقى؟ إنها حركات تتكرر بينما أركض كل يوم أسفل الوادى بحثًا عن نقاط معالمها. أستيقظ قبل النهار للتمتع بالساعات الصحوة. فى الفجر الوادى غاية فى الجمال. فى أول ضوء من النهار كتل الحمم والصخور البركانية تتلألأ بالورود. الشجيرات وأشجار جوز الهند مازالت مظلمة ومخدرة من برودة الليل. الريح يصفر بالكاد وفيما وراء خط جوز الهند المنتظم ألمح البحر الجامد فى زرقة داكنة بدون انعكاسات يحتفظ بصخبه. إنها اللحظة التى أحبها أكثر عندما يكون كل شىء معلقًا مثل الانتظار. السماء دائمًا نقية جدًا وفارغة حيث تمر الدفعات الأولى من الطيور البحرية، والمجانين والزوارق التى تعبر شرم الإنجليز وتتجه ناحية الجزر فى الشمال.

هذه هى الكائنات الحية التى أراها هنا منذ أن وصلت باستثناء بعض سرطانات حفر الأرض الصغيرة التى تجرى على الطين. عندما تحلق الطيور فوق الوادى أعرف أن هذا هو نهاية اليوم. يبدو لى أنى أعرف كلا منها، وأنها أيضًا تعرفنى وهذه النملة السوداء المثيرة للسخرية التى تزحف أسفل الوادى .

كل صباح أستأنف الاستكشافات مع الخرائط التى رسمتها أمس الأول. أذهب من معلم إلى آخر وأنا أقيس الوادى بمساعدة قياس الزوايا الخاص بى ثم أعود وأنا أرسم قوسًا دائريًا أكبر وأكبر لاختبار كل فدان من الأرض. سرعان ماتشرق الشمس تشعل شرارة الضوء على الصخور الحادة وترسم الظلال. تحت شمس الظهيرة يغير الوادى مظهره. هو الآن مكان صعب للغاية متنفس ملىء بالمسامير والشوك. الحرارة ترتفع بسبب ارتداد الشمس رغم الرياح العاتية. أشعر على وجهى بحريق فرن وأنا أترنح أسفل الوادى عيناى مليئتان بالدموع .

يجب أن أتوقف وأنتظر. أذهب حتى النهر لكى أشرب بعض الماء فى راحة يدى. أجلس فى ظل شجرة تمر هندى وظهرى إلى الجذور التى جردتها الفيضانات. أنتظر دون حراك ودون التفكير فى شىء بينما تدور الشمس حول الشجر وتبدأ سقوطها فى اتجاه التلال السوداء.

فى أحيان أخرى أعتقد أنى أرى هذه الظلال وهذه الصور الظلية الهاربة، فى أعلى التلال. أسير على قاع النهر عيناى تشتعلان لكن الظلال تتلاشى تعود إلى مخابئها وتندمج مع جذوع أشجار التمر هندى السوداء. هذه هى الساعة التى أخشاها بالذات، عندما يسقط الصمت والضوء على رأسى ويكون الريح مثل سكين ساخنة .

أظل فى ظل شجرة التمر هندى العجوز بالقرب من النهر. هى التى أراها أولا عندما أستيقظ فى أعلى فوق النتوء. ذهبت نحوها، وفكرت ربما فى خطاب الكنز الذى ذكر شجرة التمر هندى هذه بالقرب من النبع لكن خيل إلىَّ إذًا أنها السيد الحقيقى لهذا الوادى. ليست كبيرة جدًا ومع هذا عندما نكون فى حمى فروعها وفى ظلها نشعر بسلام عميق. الآن أعرف جيدًا جذعها المعقد الذى سوده الزمن، والشمس والجفاف وفروعها الملتوية التى تحمل الورق فى التضاريس الدقيقة والخفيفة والفنية على الأرض وحولها القرون الطويلة المذهبة المنتفخة البذور. كل يوم أجىء إلى هنا مع دفاترى وأقلامى وأمتص البذور الحمضية وأنا أفكر فى خطط جديدة بعيدًا عن الحرارة القاسية التى تسيطر على خيمتى .

أحاول تحديد الخطوط المتوازية والنقاط الخمس التى استخدمت كمعايير فى خريطة القرصان. النقاط كانت بالتأكيد هى قمم الجبال التى تشاهد عند مدخل الشرم. فى المساء قبل الليل ذهبت حتى مصب النهر ورأيت قمم الجبال التى لا تزال مضاءة بأشعة الشمس، وشعرت من جديد بهذا الانفعال كما لو أن شيئا ما سوف يظهر.

على الورق أخط دون توقف الخطوط ذاتها وأحدد الصعود إلى جانب التل الشرقى بحثًا عن علامات المراسى التى تركها القرصان. إذا كان قد جاء حقًا إلى هنا، كما يبدو ذلك واضحًا تمامًا فمن

المستحيل أن يكون البحَّار لم يترك هذه العلامات على صخور المنحدر أو على بعض الحجارة القائم. المنحدر الأملس أكثر جدوى فى هذا الجانب لكن القمة تتراجع كلما تسلقت. مايرى عن بعد بدا لى جدارًا متينًا وهو عبارة عن سلسلة من الخطوات توجهنى. بعد قليل أصبحت بعيدًا عن السفح الآخر الذى أجد صعوبة فى تمييز البقعة البيضاء للشراع التى تفيدنى كمأوى. أسفل الوادى صحراء رمادية وخضراء منقطة بكتل سوداء حيث اختفى قاع النهر. فى مدخل الوادى أرى المنحدر الأعلى لرأسى فينوس. أنا هنا وحدى بينما الرجال قريبون. ربما يكون ذلك هو ما يقلقنى أكثر: يمكننى أن أموت هنا لن يلاحظ ذلك أحد. ربما يجد صائد سمك الأخطبوط يومًا بقايا أشلائى وهو قادم. أو أن كل شىء سيحمله الماء والريح مختلطًا بالحجارة. الأشجار المحترقة.

أنظر باهتمام إلى التل الغربى فى مواجهتى. هل هو وهم ؟ أرى حرفًا كبيرًا منحوتًا فى الصخرة، فوق رأس فينوس بقليل فى ضوء الغسق المائل يظهر بوضوح مثل كسر فى الجبل بيد عملاقة. بعيدًا فى قمة رأسى جبل يوجد برج من الحجارة نصف مدمر لمكان رأيته وأنا أثبت خيمتى تحته تمامًا .

اكتشاف هاتين العلامتين يقلقنى. دون انتظار أهبط منحدر التل وأعبر الوادى عدوًا، لكى أصل قبل الليل. عبرت ممر نهر روزو المائى وأنا أستنشق الماء النقى ثم أصعد التل الغربى عن طريق الجدار الذى استخدمته أول مرة.

بعد أن وصلت إلى أعلى المنحدر أخذت أبحث دون جدوى عن رسم حرف M أنه شاحب أمامى. أهداب الصخرة التى كانت تشكل أرجل حرف متباعدة وفى المركز يوجد نوع من الهضبة، حيث تتشابك شجيرات تنمو بفعل الريح. بينما أتقدم، منحنيًا لتجنب الرياح أسمع أحجارًا تنهار بين النباتات والتكعيبات أعتقد أنى رأيت أشكالاً بنية تهرب. إنها ماعز برية ربما تكون قد هربت من قطيع المناف .

أخيرًا أصل أمام البرج. فى أعلى الصخرة. التى تطل على الوادى وهو بعد فى الظل. كيف لم أره منذ وصولى؟ إنه برج منهار على جانب، مكون من كتل كبيرة من البازلت متراصة دون ملاط. من ناحية يوجد بقايا باب أو فتحة ضيقة. أنفذ إلى داخل الجزء المدمر وأنا القرفصاء لأحتمى من الرياح. من الفتحة أرى البحر. فى الشفق لانهاية له مشرب بزرقة عميقة يحجبه فى الأفق ضباب رمادى يدمجه بالسماء.

من أعلى الصخرة يحتضن البحر من مرسى بورماتوران حتى الطرف الشرقى من الجزيرة. فهمت إذًا أن هذا البرج بنى بسرعة وهو ليس هنا إلا لمراقبة البحر والتنبيه بوصول الأعداء. من الذى شيد هذا الراصد؟ لايمكن أن تكون هيئة البحرية البريطانية، التى لم تكن تخشى شيئًا على الإطلاق عن طريق البحر وهى سيدة طريق الهند. فضلاً عن ذلك لا البحرية الإنجليزية ولا ملك فرنسا كانا فى حاجة إلى بناء غير مستقر كهذا ومنعزل هكذا. بانجريه لم

يتحدث عن هذا البناء فى سرد رحلته بناء على الملاحظة الاولى من عبور فينوس عام ١٧٦١.ومع ذلك أتذكر الآن أول مخيم إنجليزى فى رأس فينوس عام ١٨١٠ فى موقع مرصد المستقبل هنا حيث أنا بالتحديد. تقويم موريشيوس المقروء فى مكتبة كارنيجى تحدث عن بطارية مدفعية بنيت داخل الحلق بمراقبة البحر. بينما يهبط الليل أخذ ذهنى يعمل بنوع من السرعة العصبية كما هو الحال فى هذه الأحلام التى تؤدى إلى النوم. بالنسبة لى قرأت بصوت مرتفع العبارات التى قرأتها دومًا فى رسالة ناجييون دى ليستانج المكتوبة بيد طويلة ومتكئة على ورقة ممزقة.

"ملاحظة أولى تناول حجرPGT

ليتخذ الدرجةVC وتوجيهه نحو الجنوب الشمالى.

ومن النبع الشرقى أجعل من زاوية كأنها عضو

العلامة على شاطئ النبع

اذهب إلى اليسار

إلى هنا كل علامة Bnshe

هنا أقرك فى اتجاه الممر وعليه ستجد ما تفكر فيه.

ابحث: S

اجعل × ـ ١ do m من القطر فى اتجاه قمة القائد.

أنا فى هذا الوقت جالس على أطلال راصد قمة القائد بينما يغطى الظل الوادى. لم أعد أشعر بالتعب ولا بضربات الريح الباردة. ولا بالوحدة ها أنا أكتشف أولى علامات القرصان المجهول.

الأيام التى تلت اكتشاف قمة القائد طفت أسفل الوادى وأنا أعانى من حمى تصل أحيانًا إلى الهذيان. أتذكر (برغم أن هذا يدعو إلى الاضطراب والهرب كحلم) تلك الأيام الحارقة تحت شمس إبريل فى حقبة الأعاصير الكبرى أتذكرها كما السقوط فى هوة عمودية ومثل احتراق الهواء عندما يرفع صدرى حملا من الألم. من العجز حتى الغسق أتبع سير الشمس فى السماء وتلال الشرق الفريدة حتى الجبال التى تسيطر على مركز الجزيرة. أذهب على طريقة الشمس فى قوس دائرى القياس على كتفى أقيس زوايا حدادات الأرض التى هى نقاط علامتى. أرى ظل الأشجار ينسحب ببطء ويرتمى على الأرض حرارة الشمس تحرقنى من خلال ملابسى وتستمر فى حرقى طوال الليالى، تمنعنى من النوم وتختلط بالبرد الذى يخرج من الأرض. فى بعض الأمسيات أكون مجهداً من المشى حتى أنى أنام هنا؛ حيث يأخذنى الليل بين كتلتين من الحمم وأنام حتى الصباح عندما يوقظنى الجوع والعطش.

ذات ليلة استيقظت فى منتصف الوادى شعرت فى داخلى بتنفس البحر. على وجهى وفى عينى لاتزال فيما مضى. النجوم تملأ السماء وأشاهدها

مأخوذًا بهذا الجنون. أتحدث بصوت مرتفع جدًا أقول أرى أرسم أنه هنا أراه خريطة القرصان المجهول ليست إلا رسم صليب الجنوب وتوابعه "جميلات الليل" على رقعة الوادى الشاسعة أرى صخور الحمم تلمع. إنها مضاءة مثل النجوم فى الظل الترابى. أسير تجاهها العينان متسعتان وأشعر على وجهى جمر أضوائها العطش والجوع والوحدة دوامات فى داخلى أسرع وأسرع أسمع صوتًا يتحدث مع تغير حدة صوت والدى. هذا يطمئننى فى البداية ثم يجعلنى أرتجف لأنى ألاحظ أننى المتحدث حتى لا أسقط أجلس على الأرض بالقرب من شجرة التمر هندى الضخمة التى تحمينى فى ذلك اليوم. الرجفة تواصل أمواجها على جسدى أشعر بداخلى برد الأرض والفضاء. كم من الوقت بقيت هنا؟ عندما فتحت عينىَّ رأيت فى البداية ورق شجرة التمر هندى فوقى وبقع الشمس تتخلل الأوراق. أنام بين الجذور بجانبى طفل وفتاة بوجوه داكنة يرتديان خرقًا مثل المناف. الفتاة لديها خرقة فى يديها تعصرها لكى تسقط قطرات من الماء على شفتى.

الماء ينسكب فى فمى على لسانى المنتفخ. كل شربة ماء أشربها تؤلمنى. الطفل يبتعد ثم يعود حاملاً خرقة مبللة بماء النهر. أشرب أيضًا كل قطرة ماء توقظ جسدى وتوقظ ألمًا لكنه جيد.

الفتاة تتحدث إلى الطفل بلهجة أفهمها بصعوبة. أنا وحدى مع المنافية الشابة. عندما أقوم بجهد لكى

أنهض تساعدنى على الجلوس. أريد أن أخاطبها لكن لسانى لايزال يرفض الحركة. الشمس عالية بالفعل فى السماء أشعر بالحرارة التى ترتفع فى الوادى. فيما وراء ظل شجرة التمر هندى العجوز يبدو المشهد مذهلاً وقاسيًا. عند فكرة ضرورة عبور هذه المنطقة من الضوء أشعر بالغثيان .

الطفل يعود. يحمل فى يده كعكة توابل قدمها لى بحركة رسمية للغاية منحتنى رغبة فى الضحك. أتناول ببطء الكعكة وفى فمى كان الفلفل الأسود طيبًا. قسمت مابقى من الكعكة وأعطيته للفتاة والصبى. لكنهما رفضا .

"أين تقيم؟ "

لم أتحدث باللغة الهايتية لكن الفتاة المانافية بدت أنها فهمت. تشير إلى الجبال العالية فى عمق الوادى. قالت أعتقد: هنا ـ أعلى".

إنها منافية حقيقية صامتة وحذرة. منذ جلست وتكلمت تراجعت واستعدت للرحيل. الطفل ابتعد هو الآخر نظر إلىَّ خلسة. فجأة ذهبا. أردت أن أناديهما وأبقيهما. إنهما من البشر الأوائل الذين أراهم منذ شهور لكن بماذا أسميهما؟ ذهبا دون توقف ودون أن يستديرا يقفزان من حجر إلى حجر ويختفيان فى الغابات. رأيتهما للحظة بعد ذلك على سفح تل قريب مثل الماعز يختفيان فى عمق الوادى إنهما هما اللذان أنقذانى.

بقيت فى ظل شجرة التمر هندى حتى المساء دون أن أتحرك تقريبًا. نمل أسود كبير يجرى بطول الجذور بلا كلل ودون جدوى. نحو نهاية اليوم أسمع صيحات طيور البحر التى تعبر السماء فوق شرم الإنجليز. الصراصير ترقص بحذر الرجل العجوز، بدأت السير فى الطريق عبر الوادى، ووصلت إلى معسكرى غدًا سأذهب إلى بور ماتوران لكى أنتظر أول مركب تتحرك ربما تكون زيتا!

كان هناك فى تلك الأيام ببور ماتوران بعيدًا عن شرم الإنجليز تلك الأيام فى المستشفى - الطبيب الرئيسى كمال بودو الذى قال لى فقط هذه الكلمات: كان من الممكن أن تموت بالتعريض. "التعريض - كلمة احتفظت بها فى نفسى ويخيل إلىَّ أن أحدًا غيرى لايستطيع تفسير مافهمته أفضل فى تلك الليلة قبل أن يعطينى أطفال المناف شربة الماء. سيكون فشلاً ذريعًا منزل بوكان وحياتنا بأكملها ستضيع بالنسبة للور ولى.

لذلك فى هذا الصباح قبل ضوء النهار تركت مفترق بورماتوران وعدت نحو شرم الإنجليز. لست فى حاجة إلى لهجة الكاريول هذه المرة: كل محتوياتى ظلت فى خيمتى مغطاة بقماش الشراع وفوقها بعض الحجارة.

قررت أيضًا أن أصحب رجلا لمساعدتى فى أبحاثى. فى بورماتوران تكلموا معى عن مزرعة كاستيل خلف مبانى السلكية واللاسلكية حيث سأجد بالتأكيد أحدًا.

أصل أمام شرم الإنجليز عند شروق الشمس. فى انتعاشة الصباح ورائحة البحر كل شىء يبدو لى جديدًا ومتغيرًا. السماء فوق تلال الشرق فى لون وردى ساحر والبحر يلمع مثل الزمرد. فى ضوء الفجر تكتسى الأشجار والتكعيبات أشكالا غير معروفة.

كيف استطعت أن أنسى بهذه السرعة هذا الجمال؟ المجد الذى أشعر به اليوم لايشبه مطلقًا الحمى، التى أصابتنى بالجنون، وجعلتنى أجرى عبر الوادى. الآن أفهم ما جئت بحثًا عنه: إنها قوة أكبر من قوتى، ذكرى بدأت قبل مولدى. للمرة الأولى منذ شهور يخيل إلّى أن لور أصبحت قريبة وأن المسافة التى تفصل بيننا لم تعد تحسب .

أفكر فيها سجينة منزل فورست سايد، وأنظر إلى مشهد الفجر لكى أبعث إليها بهذا الجمال وهذا السلام. أتذكر اللعبة التى كنا نلعبها أحيانًا فى سقيفة منزل بوكان: كل منا فى ركن من المخزن المظلم ونسخة قديمة من جريدة لندن المصورة المفتوحة أمامنا كنا نجتهد فى إرسال صور أو كلمات بالفكر. لور تكسب أيضًا هذه اللعبة كما عرفت كيف تكسب فيما مضى! بعثت إليها بكل هذا: الخط النقى من التلال المقطوعة فى مواجهة السماء الوردية والبحر الزمردى والريح وطيران عصافير البحر البطىء والتى تجىء من خليج لاسكار وتتجه نحو الشمس المشرقة.

قرابة الظهر وقد صعدت إلى "قمة القائد" فى برج "فيجى كورسير" المدمر اكتشفت الوادى الصغير

فى عمق الوادى لم يتمكن من الظهور لى بسبب انهيار يخفى المدخل. فى ضوء الذروة ألمح بوضوح الجرح الغائر الذى أصاب جانب تل الشرق.

علمته بعناية بإزاء أشجار الوادى. ثم سأتحدث مع المزارع بالقرب من مبانى البرق. مزرعته كما رأيتها عند عودتى عن طريق بورماتوران مأوى محفوف بالمخاطر ضد الريح والمطر نصف مدفونة فى أراض غارقة. عند اقترابى ارتفعت كتلة سوداء وهى تدمدم خنزير نصف متوحش. ثم كلب أنيابه إلى الأمام. أتذكر دروس دونيس فيما مضى فى الحقول: عصا وحجر لافائدة لهما. كان لابد من حجرين الذى نلقيه والذى يهدد. الكلب يتراجع لكنه يدافع عن باب المنزل.

"السيد كاستيل؟ "

ظهر رجل جذعه عار يرتدى سراويل صياد أسود ضخم وقوى له وجه مميز أبعد كلبه ودعانى للدخول.

داخل المزرعة مظلم مدخنة. الأثاث الوحيد طاولة وكرسيان فى داخل الغرفة الوحيدة امرأة ترتدى ثوبًا ذابلاً تقدم بالطهى إلى جوارها فتاة صغيرة ناصعة الجسد.

السيد كاستيل دعانى للجلوس ظل هو واقفًا يستمع إلىّ بأدب بينما أشرح له ما أريد. أيد برأسه. سيجىء لمساعدتى من وقت إلى آخر وابنه بالتبنى فريتز سيحضر لى الطعام كل يوم. لايسألنى لماذا ستحفر الارض لايسأل أى سؤال .

ما بعد الظهيرة هذه قررت الاستمرار فى أبحاثى فى الجنوب أكثر نحو أعالى الوادى. بعيدًا عن ملجأ شجرة التمر هندى؛ حيث أجلس فى خيمتى وأصعد طريق نهر روزو. النهر ينعطف على القاع الرملى مكدرًا تعرجًا وجزرًا وخطًا رفيعًا ليس إلا المشهد الخارجى لتيار مائى تحت الأرض. على مستوى أعلى النهر ليس إلا جدول يتدفق على فراش من الحصى الأسود فى منتصف الحلوق. أنا بالفعل قريب جدًا من سفوح الجبال النباتات متفرقة أكثر مليئة بالشوك والسنط ودائما التكعيبات ذات أوراق بشفرات سيف .

الصمت مطبق هنا وأسير وأنا أحدث أقل ضوضاء ممكنة. عند سفح الجبال الجدول ينقسم إلى مصادر كثيرة فى وديان حجرية وحمم بركانية. فجأة السماء تغطى والمطر يهطل. القطرات كبيرة وباردة بعيدًا تحت الوادى تمامًا أرى البحر محجبًا بالعاصفة فى ملجأ شجرة التمر هندى أرى المطر يتقدم على الوادى الضيق.

ثم أراها: إنها الفتاة الشابة التى ساعدتنى فى ذلك اليوم عندما كنت أهذى من العطش والتعب. لها وجه طفولى لكنها كبيرة ونحيلة ترتدى تنورة قصيرة على طريقة نساء مناف وقميصًا فى حالة يرثى لها شعرها طويل ومجعد مثل شعر الهنديات تتقدم بطول الوادى خافضة الرأس بسبب المطر تتجه نحو شجرتى أعلم أنها لم ترنى بعد وأخشى من اللحظة التى ستلمحنى فيها هل ستصيح من الخوف وتهرب؟ تسير

دون ضوضاء بحركات حيوانات سلسة تتوقف لتنظر من ناحية شجرة التمر هندى وترانى بعد لحظة يظهر وجهها الجميل المنبسط نوعًا من القلق تطل بلا حراك فى توازن على ساق واحدة تتكئ على رمحها الطويل ملابسها ملتصقة بجسدها بفعل ماء المطر وشعرها الطويل الأسود جعل لون بشرتها النحاسى أكثر إشراقًا.

"صباح الخير! "

أقول هذا أولا لتبديد قلق الصمت الذى يسيطر هنا. خطوت خطوة نحوها. لاتتحرك تنظر إلى فقط مياه المطر تسيل على جبينها وعلى خديها وعلى طول شعرها أراها تمسك فى يدها اليسرى قلادة من الكروم.

"هل ذهبت إلى الصيد؟"

صوتى يرن بشكل غريب هل تفهم ما أقول؟ تذهب حتى شجرة التمر الهندى وتجلس على جذر عند ملجأ المطر. وجهها يظل متجهًا نحو الجبل .

"هل تسكنين فى الجبل؟"

قالت نعم برأسها وقالت بصوتها الغنائى: "هل صحيح أنك تبحث عن الذهب ؟"

أنا مندهش أقل من السؤال وأكثر من اللغة. تتكلم الفرنسية بدون لهجة تقريبًا.

"قالوا لك ذلك؟ نعم أبحث عن الذهب هذا صحيح"

"هل وجدته ؟ "

صحت

" لا لم أجده بعد"

"وهل تعتقد حقًا أنه يوجد ذهب هنا ؟"

سؤالها يسلينى :

"لماذا لاتعتقدين ذلك؟"

نظرت إلى وجهها الأملس دون خوف مثل وجه طفل.

"كل الناس فقراء للغاية هنا"

مازالت تدير رأسها نحو جبل ليمون الذى اختفى فى سحابة المطر. بعد لحظة شاهدنا المطر يسقط دون أن نقول شيئًا. أرى ملابسها مبللة وساقيها النحيلتين وقدميها العاريتين المثبتتين تمامًا على سطح الأرض.

"ما اسمك"

سألت عن ذلك رغمًا عنى تقريبًا ربما للاحتفاظ قليلا بهذه الفتاة الغريبة التى ستختفى قريبًا فى الجبل نظرت إلى بعينيها القاتمتين العميقتين كما لو كانت تفكر فى شىء آخر قالت فى النهاية.

"اسمى أوما"

نهضت أخذت الخطاف الذى تتشابك فيه الأسماك وحربتها وذهبت مشت بسرعة بامتداد

الجدول فى المطر الذى بدأ يضعف. أرى خيالها الخفيف يقفز من حجر إلى حجر مثل طفل ثم تختفى وسط الغابات. كل هذا مر بسرعة كبيرة لدرجة أنى اعتقدت خطأ أنى لم أتخيل هذا الظهور وهذه الفتاة الشابة المتوحشة والجميلة التى أنقذت حياتى. الصمت أسكرنى المطر توقف تمامًا وأشرقت الشمس بقوة فى السماء الزرقاء. فى الضوء بدت الجبال عالية جدًا وبعيدة المنال. عبثًا أتقصى سفوح الجبال من ناحية جبل ليمون. الفتاة الشابة اختفت اختلطت بجدران الحجر الأسود أين تعيش فى أى قرية من قرى ماناف؟ أفكر فى اسمها الغريب اسم هندى أضفت إلى مقطعيه صدى اسم يزعجنى. أخيرًا هبطت من جديد وأنا أجرى ناحية مخيمى فى قاع الوادى تحت شجرة التمر هندى العتيقة.

فى ظل الشجرة أمضى نهاية اليوم فى دراسة خرائط الوادى، وأسجل بالقلم الأحمر النقاط التى لاينبغى التدقيق فيها. عندما أذهب للعثور عليها على أرض الواقع ليس بعيدًا عن النقطة الثانية أميز بوضوح علامة على حجر منزل: أربعة ثقوب عادية محددة بمربع أتذكر على الفور صيغة رسالة القرصان المجهول:" ابحثوا!! " قلبى يدق أسرع عندما أستدير ناحية المشرق وألمح تحديدًا شكل قمة قائد الحراسة فى خط القطر الشمالى الجنوبى.

فى وقت لاحق من ذلك اليوم اكتشف أول علامة للمنحدر على التل الشرقى.

أثناء البحث عن إقامة الخط الشرقى ـ الغربى الذى يقطع نهر روزو على حدود القفص القديم وجدت علامة.

أسير وفى يدى البوصلة وظهرى للشمس أخترق منحدرًا أعتقد أنه فراش رافد قديم. أصل إلى هاوية الشرق الحادة فى هذا الموضع إنه جدار من البازلت عمودى تقريبًا انهار جزئيًا على أحد الجانبين بالقرب من القمة، أرى العلامة .

"الرسم! الرسم! "

أكرر ذلك بصوت منخفض، أبحث عن طريق لكى أصل إلى أعلى المنحدر. الأحجار تنهار تحت قدمى أتشبث بالشجيرات فى الصعود، أصل بالقرب من القمة، أجد صعوبة فى العثور على الصخرة التى تحمل العلامة. أنظر إلى أسفل، كانت العلامة واضحة بشكلها المثلث المتساوى الأضلاع المقلوب، الذى كان لهيئة المراسى البحرية فى زمن القراصنة. فى البحث عن هذه العلامة أشعر بدمى يضرب فى صدغى من الممكن أن يكون ذلك لأنى كنت ضحية للوهم؟ على جميع الصخور أرى علامات على شكل زاوية نتيجة لكسور قديمة. مرات عدة مرات على حافة المنحدر وأنزلق فوق الحصى.

فى أسفل الوادى جاء الشاب فرتيز كاستيل يحمل إلىَّ وجبتى، توقف عند سفح المنحدر وهو ينظر. اتجاه نظرته هو الذى أظهر لى خطئى. قطع البازلت تتشابه جميعًا وتلك التى خدمتنى فى العلاقة

كانت هى الأعلى أنا متأكد من ذلك. أتسلق أعلى وأصل فى الواقع إلى مستوى ثان يتزامن مع حد الغطاء النباتى هنا أمامى على صخرة كبيرة سوداء يضىء مثلث المرساة رائعًا محفورًا فى الصخرة الصلبة مع انتظام يمكنه وحده الحصول على يد مسلحة بأزميل. مرتجفًا من الانفعال أقترب من الحجر وألمسه بأطراف أصابعى. البازلت ساخن من الضوء ناعم وسلس مثل الجسد، وأشعر تحت أصابعى بحافة المثلث المقطوعة والمقلوبة هكذا:

يجب بالضرورة أن أجد العلامة ذاتها على الجانب الآخر من الوادى وفقًا لخط الشرق ـ الغرب ـ السفح الآخر بعيد، حتى بمنظار لن أستطيع أن أراه أعمدة الغرب أصبحت فى الظل، وأمضيت اليوم التالى فى البحث عن الحلقة الأخرى.

عندما ذهب الشاب فريتز عدت إلى أعلى بقيت طويلاً جالسًا على صخرة متفتتة أنظر إلى مدى شرم الإنجليز الذى يأخذه الليل. يخيل إلىَّ أنى للمرة الأولى لا أراه بعينى ولكن بعينى القرصان المجهول الذى جاء إلى هنا منذ مائة وخمسين عامًا والذى رسم خريطة سرة على رمل الشاطئ الرمادى ثم تركها تمحى ولم يترك إلا العلامات المحفورة على الحجر الصخرى. أتخيلها وهو ممسك بالإزميل والمطرقة لكى ينحت هذه العلامة بينما كانت الضربات تدوى حتى أسفل الوادى الصحراوى. فى سلام الشرم حيث يمر من حين إلى آخر رعد الريح السريع وزمجرة البحر

المتقطعة يمكننى أن أسمع ضربات الأزميل فوق الحجر توقظ الصدى فى التلال. هذا المساء وأنا نائم على ذات الأرض بين جذور شجرة التمر هندى العجوز ملفوفًا فى غطائى كما من قبل فوق سطح زيتا أحلم بالحياة الجديدة.

اليوم منذ الفجر وأنا فى سفح المنحدر الغربى الضوء ينير بالكاد الصخور السوداء وفى تجويف الشرم البحر له زرقة شفافة أكثر إشراقًا من السماء. مثل كل صباح أسمع صيحات طيور البحر، التى تعبر الخليج أسراب طائر الغاق والنورس والبهلول يطلقون نداءاتهم الصاخبة فى الطريق نحو خليج لاسكار. لم أكن أبدًا سعيدًا هكذا بسماعها. يبدو لى أن صيحاتها هى تحيات موجهة لى عند المرور وأنا أجيبها صائحًا أنا أيضًا. بعض الطيور تحلق فوقى طيور ضخمة الجناحين وطيور النوء السريعة تستدير بالقرب من المنحدر. ثم تنضم إلى الطيور الأخرى فوق البحر. أحسدها على خفتها والسرعة التى تطير بها فى الهواء دون لمس الأرض لذلك اجد نفسى ملتصقًا بهذا الوادى الفحل مستنفدًا أيامًا وشهورًا فى التعرف على نظرة الطيور، التى اجتاحت فى لحظة أحب أن أراها اقتسم قليلاً من جمالها طيرانها وقليلاً من حريتها.

هل هى فى حاجة إلى الذهب والثراء؟ الريح يكفيها وسماء الصباح والبحر الممتلئ بالأسماك وهذه الصخور التى تنشأ مأواها الوحيد ضد العواصف.

توجهت بواسطة الحدس نحو المنحدر الأسود حيث تبينت تجوفات منذ السفح الآخر للوادى. الرياح تدفعنى، تسكرنى بينما أتسلق مستعينًا بالأدغال فجأة تظهر الشمس فوق تلال الغرب رائعة مبهرة تضىء الومضات على البحر.

أختبر المنحدر قطعة قطعة، أشعر بحرقة الشمس التى ترتفع ببطء عند الظهر أسمع نداء إنه الفتى فريتز الذى ينتظرنى أسفل بالقرب من المخيم نزلت من جديد لأستريح. حماسة الصباح تراجعت تمامًا شعرت بالملل والضجر فى ظل شجرة التمر هندى أكلت الأرز الأبيض مع فريتز. عندما انتهى من الطعام أنتظر فى صمت عيناه تحدقان بعيدًا بهذه العادة اللامبالية التى تميز السود هنا .

أفكر فى اوما العنيفة جدًا المندفعة جدًا هل ستعود؟ كل مساء قبل غروب الشمس أسير بطول نهر روزو حتى الكثبان أبحث عن إثاره. لماذا؟ ماذا يمكننى أن أقول له؟ لكن يبدو لى أنه الوحيد الذى يفهم جئت أبحث عنه هنا.

فى تلك الليلة عندما ظهرت النجوم واحدة بعد الأخرى فى السماء فى الشمال المجر الصغير ثم الجوزاء وسيريوس فهمت فجأة خطئى: عندما حددت الخط شرق ـ غرب حاملاً العلامة العضوية استخدمت كعلامة من الشمال المغناطيسى تشير إليه بوصلتى. القرصان الذى رسم خططه وسجل نقاطه

بعلامة على الصخور لم يستخدم البوصلة من المؤكد أنها كانت نجمة الشمال التى أفادته فى التحديد وبالنسبة إلى هذا الاتجاه حدد عمودية الشرق ـ غرب. الفارق بين الشمال المغناطيسى ونجم الشمال كان ٣٦٥٧ وهذا يعنى اختلاف بحوالى مائة قدم عند قاع المنحدر يعنى على الجزء الآخر من الصخرة التى تشكل أول سفح من قمة القائد .

أنا متأثر تمامًا بهذا الاكتشاف الذى لا أستطيع أن أصمم على الانتظار حتى الغد مسلح بفانوس العاصفة حافى القدمين أسير حتى المنحدر. الريح يصفر بعنف حاملاً سحب الضباب فى حماية جذور شجرة التمر هندى العجوز. لم أسمع العاصفة لكن هنا كانت مذهله لى تصفر فى أذنى وترنح وميض الفانوس.

أنا الآن عند سفح المنحدر الأسود أبحث عن ممر. الجدار حاد لدرجة أنى يجب أن أمسك بالفانوس بين أسنانى لكى أصعد وهكذا أصل حتى حافة نصف مرتفعة وأبدأ فى البحث عن العلامة بطول المنحدر الذى ينهار. مضاء بالفانوس جدار البازلت يتخذ شكلاً غريبًا جهنميًا كل تجويف كل صدع يجعلنى أرتجف، وهكذا جبت بأنحاء الحافة حتى الوادى الصغير الذى يفصل هذا من منحدر رأس الجبل الذى يطل على البحر، ذهلت من هبوب الرياح الباردة نتيجة لهدير البحر القريب جدًا والمياه التى تتدفق على وجهى بينما أستعد للنزول مستنفدًا لمحت صخرة ضخمة فوقى، وأدركت أن العلامة يجب أن

تكون هنا أنا متأكد. إنها الصخرة الوحيدة المرئية من أية نقطة فى الوادى لكى أصل إليها يجب أن أستدير وأن أتبع مسارًا متفتتًا عندما وصلت فى النهاية أمام الصخرة وقائد العاصفة بين أسنانى رأيت المرساة أنها منقوشة بوضوح تام حتى يمكننى أن أراها بدون المصباح أطرافها حادة تحت أصابعى كما لو كانت منحوتة بالأمس. الحجر الأسود بارد وزلق المثلث مرسوم الرأس إلى أعلى على عكس مرساة القرب. يبدو أن عينا غامضة فوق الصخرة تنظر من الناحية الأخرى للزمن تتأمل دائمًا الجانب الآخر من الوادى دون هوادة كل يوم وكل ليلة. قشعريرة تعبر جسدى لقد دخلت فى سر قوى للغاية أقوى منى بكثير إلى أين سوف يقودنى؟

بعد ذلك عشت فى نوع من حلم اليقظة، حيث كان يختلط صوت لور وصوت ماما على شرفة بوكان برسالة القرصان المجهول. وصورة أوما العابرة المنزلقة بين الشجيرات، نحو قمة الوادى. الوحدة تشتد على فيما عدا الفتى فريتز كاستيل لا أرى أحدًا حتى هو لم يأت بانتظام أيضًا .أمس (أو أول أمس لم أعد أعرف) وضع وعاء الأرز على حجر أمام المخيم ثم ذهب متسلقًا التل الغربى دون أن يرد على نداءاتى كما لو أنى جعلته يخاف.

عند الفجر ذهبت مثل كل صباح إلى مصب النهر أخذت صندوق معداتى الخاصة مع ماكينة الحلاقة وصابونة وفرشاة شعر وكذلك فوطة التنشيف واضعًا

المرآة على حجر بدأت بحلاقة لحيتى ثم قصصت شعرى الذى كان يسقط على كتفى. فى المرآة نظرت إلى وجهى الشاحب الذى سودته أشعة الشمس وعينى المتوهجتين من الحمى؟ أنفى الرقيق والمقوس كما هو حال كل ذكور المستنقع مبرزًا أيضًا التعبير المفقود والعائلى تقريبًا وأعتقد تمامًا أنه من كثرة السير على خطاه بدأت أشبه القرصان المجهول الذى سكن هذه الأماكن.

أحب تمامًا أن أكون هنا عند مصب نهر روزو، هنا حيث تبدأ الكثبان الرملية على الشاطئ؛ حيث نسمع البحر قريبًا جدًا وتنفسه البطىء بينما تدخل الرياح بهبوب وسط الشجيرات والبوص وتصر سعف النخل هنا عند الفجر، الضوء ناعم جدًا هادئ جدًا والماء مصقل كمرآة - بعد أن انتهيت من الحلاقة والاغتسال وغسل ملابسى وبينما أستعد للعودة إلى الخيمة رأيت أوما واقفة أمام النهر حربتها فى يدها وتنظر إلىَّ دون ضيق مع شىء من السخرية فى نظرتها كنت أمل دائما بلقائها هنا على الشاطئ عند المد والجزر عند عودتها من الصيد ولهذا دهشت وبقيت بلا حراك مع ملابسى المبللة التى تقطر عند قدمى.

فى ضوء النهر الذى يبدأ بالقرب من المياه، مازالت جميلة جدًا فستانها من القماش وقميصها الملىء بماء البحر ووجهها النحاسى اللون بلون الحمم يبرق من الملح هى هكذا واقفة ساق ممدودة وجسدها

يميل على فخذها الأيسر وتمسك بيدها اليمنى، رمح البوص من خشب الأبنوس ويدها اليسرى تستند على كتفها اليمنى تتدثر فى ملابسها المبللة كتمثال أثرى ظللت أنظر إليها دون أن أجرؤ على الكلام وأفكر رغمًا عنى فى نادا الجميلة جدًا والغامضة كما بدت فيما مضى فى صور الجرائد القديمة فى ظلمة مخزن منزلنا. تقدمت خطوة إلى الأمام ولدى شعور بكسر السحر. أوما استدارت وذهبت بخطوات واسعة على طول مجرى النهر.

"انتظرى! " صرخت بذلك دون تفكير وأنا أركض خلفها.

أوما توقفت ونظرت إلىَّ. فى عينيها قرأت القلق وعدم الثقة أردت أن أتحدث لكى أبقيها لكن منذ وقت طويل وأنا لم أتحدث إلى روح تحيا فالكلمات تنقصنى، أردت أن أتحدث إليها عن الآثار التى بحثت عنها على الشاطئ فى المساء قبل المد والجزر. لكنها هى التى تحدثنى. طلبت منى بصوتها الغنائى الساخر: "هل وجدت أخيرًا الذهب ؟ "

هززت رأسى وضحكت جلست على عقبيها إلى الخلف قليلاً على قمة أحد الكثبان الرملية. لكى تجلس وضعت تنورتها بين ساقيها بحركة لم أر أية امرأة تقوم بها واعتمدت على الحربة.

"وأنت هل اصطدت شيئًا؟"

هزت رأسها بدورها.

" هل تعودين إلى دياركم فى الجبل ؟"

نظرت إلى السماء

"لايزال الوقت مبكرًا، سأحاول مرة أخرى ناحية الحافة"

"هل أستطيع أن آتى معك؟"

وقفت دون أن تجيب ثم استدارت نحوى:

"تعال"

غادرت دون انتظارى. مشت بسرعة فى الرمل بطريقة حيوانية والرمح الطويل على كتفها.

ألقيت بحزمة الملابس المبللة فى الرمل دون أن أقلق من الريح الذى يخاطر بحملها. ركضت وراء أوما لحقت بها بالقرب من البحر تمشى على طول الأمواج التى تتكسر وعيناها محدقتان نحو الاتساع. الريح لصق ثوبها المبلل على جسدها الرقيق فى السماء التى مازالت فى رمادية الصباح. تمر طيورى المرافقة وهى تصرخ وتحدث ضجيجها المصرصر.

"هل تحبين الطيور البحرية؟"

تتوقف وذراعها مرفوعة ناحيتها. وجهها يلمع فى الضوء.

قالت:

"إنها جميلة ! "

عند الصخور فى نهاية الشاطئ تقفز الفتاة برشاقة دون جهد حافية القدمين على الحواف

الحادة. تذهب حتى الحافة أمام المياه العميقة قاسية الزرقة عندما وصلت بالقرب منها أشارت إلىّ بالتوقف. ظلها الطويل المائل على البحر والحربة المرفوعة ترصد الأعماق بالقرب من الشعاب المرجانية. تبقى وقتًا طويلاً هكذا دون حركة تمامًا ثم فجأة تقفز إلى الأمام وتختفى فى الماء. أنظر على السطح أبحث عن اضطراب، عن دوامة، عن ظل. لما لم أعرف مطلقًا أين أنظر على بعد أمتار منى ظهرت الفتاة لاهثة، سبحت ببطء نحوى ألقت على الصخور سمكة خارقة خرجت من الماء مع الحربة وجهها شاحب من البرد قالت:

"توجد واحدة أخرى هناك"

أخذت الحربة وبدورى قفزت بكامل ملابسى فى البحر.

تحت الماء أرى العمق مضطربًا ورقائق الطحالب التى تبرق. ضجيج الأمواج على الشعاب المرجانية يحدث صريرًا حادًا. أسبح تحت الماء نحو الشعاب المرجانية. الحربة ملتصقة بجلدى درت مرتين حول الشعاب المرجانية دون أن أرى شيئًا عندما عدت إلى السطح مالت أو ما نحوى وهى تصرخ: هناك، وهناك.

غطست تحت الماء أرى ظلها الأسود الذى ينزلق قريبًا من العمق. فى سحابة من الرمال تخرج السمكة العجوزمن مخبئها وتمر ببطء أمامى وحدى تقريبًا، تنبثق الحربة من يدى و تقتحم السمكة. الدم يحدث

سحابة فى الماء حولى. أصعد من جديد على الفور إلى السطح. أو ما تسبح بجانبى، تصعد قبلى على الصخرة. هى التى أمسكت بالحربة، ثم قتلت السمكة وهى تلقى بى على الصخرة السوداء. من شدة اللهاث جلست مرتجفًا من البرد أو ما جذبتنى من ذراعى.

"تعال، يجب أن تمشى!"

وهى ممسكة بالسمكتين من خياشيمهما، أخذت تقفز من صخرة الى صخرة نحو الشاطئ فى الكثبان الرملية، أخذت تبحث عن عارشة لتخيط السمكتين، الآن نسير معًا نحو مجرى نهر روزو فى المكان الذى يكون فيه النهر بركة عميقة فى لون السماء تضع السمكتين على الضفة وتغطس فى المياه العذبة تحرك الرأس والجسد مثل حيوان يستحم عند حافة النهر أشبه بطائر كبير مبلل وهذا يجعلها تضحك. ألقى بنفسى فى الماء بدورى وأنا أرفع حزمًا كبيرة وتمضى وقتًا طويلاً ونحن نرش بعضنا بالماء ونحن نضحك. عندما نخرج من الماء أدهش من عدم الشعور بالبرد. الشمس أصبحت عالية والكثبان الرملية بالقرب من المصب باتت حارقة. ملابسنا المبللة تلتصق بجسدنا. وهى راكعة فى الرمال أخذت أوما تعصر تنورتها وقميصها من أعلى إلى أسفل رافعة فخذًا بعد الآخر. بشرتها النحاسية اللون تلمع فى الشمس وقطرات الماء تنساب من بين شعرها المتثاقل على امتداد خديها وعلى رقبتها. الريح يصفر من العواصف يجعل ماء النهر يرتجف، لم نعد نتحدث هنا أمام هذا النهر تحت ضوء الشمس القاسية ونحن

نسمع ضجيج الريح الحزين فى البوص وضجيج البحر. نحن وجدنا على الأرض آخر السكان ربما قادمين من مكان ما مجتمعين بصدفة غرق مركب لم أتصور أبدًا أن هذا يمكن أن يحدث لى وأنه يمكننى أن أشعر بشىء كهذا إنها قوة تولد بداخلى وتنتشر فى أنحاء جسمى رغبة احتراق. بقينا جالسين طويلاً فى الرمل فى انتظار أن تجف ملابسنا. أوما لم تعد تتحرك هى الأخرى تجلس على كعبيها ـ كما تعرف ـ فعل ذلك على طريقة المناف ذراعيها الطويلتين المطويتين حول ساقيها ووجهها المتجه نحو البحر. الضوء يلمع فوق شعرها المعقود أرى جانب وجهها النقى وجبهتها اليمنى وبروز أنفها وشفتيها. ملابسها ترفرف فى مهب الريح يبدو لى أنه الآن لا شىء آخر يكتسب أهمية. أوما هى التى قررت أن تغادر نهضت فجأة دون أن تعتمد على الأرض والتقطت السمكتين وهى جالسة القرفصاء على حافة النهر أعدتهما بطريقة لم أرها مطلقًا من قبل برأس حربتها قسمت بطن السمكتين، ونزعت الأحشاء غسلت الداخل بالرمل وشطفتهما فى ماء النهر تخلصت من المخلفات بعيدًا لجيش السرطانات الذى ينتظر.

فعلت كل هذا بسرعة وفى صمت ثم محت الآثار عند حافة النهر بالماء. عندما سألتها لماذا تتصرف هكذا أجابت: "نحن ـ المناف ـ محترفون"

بعد ذلك وجدت ملابسى جافة تقريبًا مغطاة بالرمال البيضاء، مشيت خلفها حتى المخيم عندما

وصلت إليه وضعت السمكتين اللتين كنت أحملهما بالحربة على حجر مسطح وقالت:

" إنهما لك"

عندما اعترضت لكى أعيدهما لها قالت:

"أنت جائع سأطهو لك الطعام لكى تأكل"

التقطت على عجل أغصانًا جافة مع بعض البوص الأخضر، وصنعت نوعًا من الشبكة التى تثبتها فوق الفروع. أعطيتها ولاعتى لكنها هزت رأسها، أعدت نباتًا جافًا وجثمت بظهرها للريح دون أن تتوقف حتى تركت الحجارة الساخنة تمطر شررًا. فى أغوار الموقد بدأ النبات يدخن أخذته أوما فى يديها بعناية وتألمت ببطء. عندما تفجر اللهب وضعت النبات تحت الفروع الجافة بعدها زفرت النار. أوما نهضت وجهها يضىء بفرح طفولى. على شبكة البوص الأخضر شويت السمكة وأحسست بالفعل بالرائحة الشهية. أوما على حق: أموت من الجوع .

عندما نضجت السمكة وضعت أوما الشبكة على الأرض. فى المقابل حرقت أصابعنا ونحن نأخذ قطعًا من اللحم. أعتقد تمامًا أننى لن آكل أبدًا شيئًا أفضل من هذه السمكة المشوية بدون ملح على شبكة البوص الأخضر .

بعد أن انتهينا من الطعام نهضت أوما أطفأت النار بعناية وهى تغطيها بالرمل الأسود، ثم تناولت السمكة الأخرى التى أسكنتها الأرض لتحميها من

الشمس. دون أن تقول كلمة ودون أن تنظر إلىَّ ذهبت. الريح رسمت شكل جسدها فى ثيابها المغسولة بمياه البحر وبالشمس. على وجهها يسطع الضوء لكن عينيها عبارة عن بقعتى ظل فهمت أنها لايجب أن تتكلم فهمت أننى يجب أن أبقى فهذا جزء من لعبتها.. من اللعبة التى تلعبها معى.

مرنة وسريعة مثل حيوان انزلقت بين الشجيرات تقفز من صخرة إلى صخرة أسفل الوادى. تقف إلى جوار شجرة التمر هندى العجوز، أراها لحظة أخرى تتسلق جانب التل مثل عنزة برية لاتستدير ولاتتوقف تسير نحو الجبل فى اتجاه جبل لوبان وتختفى فى الظل الذى يغطى السفوح الغربية، أسمع قلبى يدق أفكارى تتحرك ببطء. الوحدة تعود فى شرم الإنجليز أكثر رعبًا. أجلس بالقرب من خيمتى مواجهًا لغروب الشمس أشاهد الظلال التى تتقدم لذلك قادتنى تلك الأيام بعيدًا جدًا فى حلمى. ما أبحث عنه يبدو لى كل يوم أكثر وأكثر. بقوة تملؤنى بالسعادة منذ شروق الشمس، حتى الليل، أسير عبر الوادى باحثًا عن نقاط العلامة والمؤشرات. الضوء المبهر الذى يسبق أمطار الشتاء وصيحات طيور البحر وهبوب رياح الشمال ـ الغربى تخلق بداخلى نوعًا من السكر.

أحيانًا بين كتل البازلت فى منتصف طريق جليدى على ضفاف نهر روزو ألمح ظلاً خفيًا سريعًا لدرجة أنى لست متأكدًا على الإطلاق من أنى رأيته حقيقة. أوما وهى تهبط من جبلها لمحتنى وهى مختفية خلف

صخرة أو فى بساتين التكعيبات. فى بعض الأحيان تجىء بصحبة صبى صغير رائع الجمال تقول إنه أخ غير شقيق وأنه أبكم. يظل إلى جانبها دون أن تجرؤ على الاقتراب، له سحنة متوحشة وقاسية فى الوقت نفسه يدعى "سيرى" وكما تقول أوما أنه لقب أعطته له أمه لأنه يشبه مبعوثًا من الله.

أوما حملت إلىّ لكى آكل طعامًا غريبًا ملفوفًا فى ورق العقعق وكعك الأرز وأخطبوط مجفف ونبات غذائى وكعك الفلفل. وضعت الطعام على حجر مسطح أمام خيمتى كقربان. حدثتها عن اكتشافاتى وهو ماجعلها تضحك. على كراسة سجلت العلامات التى وجدتها على مدى الأيام. تحب كثيرًا أن أقرأها لها بصوت مرتفع: حجارة مسجل عليها قلب وخاتمان وهلال قمرى وحجر مسجل عليه حر ف m حسب ترقوات سليمان وحجر مسجل عليه صليب رأس ثعبان ورأس امرأة، ثلاث ضربات خواتم على هيئة مثلث حجر مسجل عليه مقعد أو حرف يكشف عن رسالة القرصان. صخرة مقطعة. صخرة منحوتة من السقف. حجر مزين بدائرة كبيرة. حجر يرسم ظله كلبًا. حجر مسجل عليه حرف Z وخاتمان. حجر مسجل عليه "كلب تركى" (كلب متسلق) بدون طرف أرجل) صخور تحمل خطًا مختومًا يشير إلى جنوب الجنوب الغربى. صخرة مكسورة ومحترقة.

أوما تريد أن ترى أيضًا العلامات التى نقلتها حمم بأشكال غريبة، زجاج بركانى، أحجار تحمل

حفريات. أوما أخذتها بين يديها ونظرت إليها بعناية كما لو كانت سحرية. أحيانًا تجلب لى أدوات غريبة وجدتها ذات يوم جلبت لى حجرًا فى لون الحديد ناعمًا وثقيلاً إنه نيزك، ولمس يدى لهذا الجسم الساقط من السماء منذ آلاف السنين ربما جعلنى أرتجف كما السر.

كل يوم تقريبا والآن أوما تجىء إلى شرم الإنجليز تنتظر فى ظل شجرة أعلى الوادى بينما أقيس المسافات وأيضًا عندما أحفر حفر البئر، لأنها تخشى أن تجذب الضوضاء ناس الحى. مرات عدة جاء الفتى فريتز والمزارع بيجيه لرؤيتى وساعدانى فى حفر ثقوب بالقرب من مصب النهر. فى تلك الأيام لم تكن أوما تظهر لكنى أعلم أنها فى مكان ما حولنا مختفية وراء الأشجار فى زاوية حيث لايلاحظ أحد لون جلدها.

مع فريتز وضعت أوتادًا. بوصى أعددته لهذا الغرض ويجب أن تزرع فى كل مائة خطوة لرسم الخطوط المستقيمة أذهب بعد ذلك إلى أعلى الوادى بين العلامات التى تعرفت عليها والأحجار المختومة ذات زوايا حادة، أكوام من الحصى مرتبة فى مثلث، وما إلى ذلك وأحدد تمديد الخطوط باستخدام جهاز القياس لتسجيلها داخل ميناء الحرف الأول (موقد القرصان) الشمس حارقة تجعل الحجارة السوداء تبرق. من وقت إلى آخر صحت فى الفتى فريتز لكى يتبعنى ويزرع تحت قدمى وتدًا جديدًا. محدقًا عينى أستطيع أن أرى كل الخطوط التى تتلاقى على مجرى

نهر روزو وتظهر العقد؛ حيث أستطيع أن أحفر حفر البئر.

مع فريتز فيما بعد حفرنا حفرًا بالقرب من التل الغربى عند سفح قمة القائد. الأرض صلبة وجافة وعلى الفور معاولنا تصطدم بالصخرة البازلتية. كل مرة أبدأ فى حفر بئر جديدة يزداد نفاد صبرى. هل سنجد فى النهاية علامة، أثرًا لمرور القرصان ربما بداية "النباتات" ؟ فيما يتعلق بالكنز ذات صباح بينما فريتز وأنا نحفر عند سفح التل فى التربة الرملية فجأة شعرت تحت معولى تتدحرج كرة خفيفة أعتقدت أننى أخذتها فى جنونى على أنها جمجمة لبحّار مدفون فى هذا المكان. الكرة تتدحرج على الرمل وفجأة أخرجت أرجلها ومخالبها. أنه سلطعون أرض ضخم فاجأته فى نومه. الفتى فريتز أسرع منى طعنه بضربة مجرفة، كان سعيدًا للغاية قطع عمله لكى يذهب بحثًا عن ماء فى الوعاء وبعد أن أشعل النار أعد حساء من السلطعون!.

فى المساء عندما تلاشى الضوء وأصبح الوادى صامتًا وهادئًا عرفت أن أوما ليست هنا أشعر بنظرتها التى تلمحنى من أعلى التلال. أحيانا أناديها وأصيح وأسمع الصدى الذى يردد اسمها حتى عمق الوادى "أو ـ ما ! "نظرتها هى فى الوقت نفسه قريبة وبعيدة كنظرة طائر يطير ولا تلمح ظله إلا عندما يغمر الشمس. حتى لو بقيت طويلاً دون أن أراها بسبب فريتز كاستل أو بيجيه (لأن ولا امرأة منافية تظهر

أبدًا لسكان الناحية) فأنى أحب أن أشعر بنظرتها علىّ وعلى الوادى.

ربما يكون كل هذا يخصها أن تكون مثل ناسها سيدة الوادى الحقيقية. هل تعتقد فقط فى الكنز الذى أبحث عنه؟ أحيانًا عندما لا يكون ضوء النهار مؤكدًا تمامًا بعد اعتقادى أنى أراها تسير وسط كتل الحمم البركانية برفقة "سيرى" وتنحنى لتفحص الحجارة كما لو كانت تتبع أثرًا غير مرئى. أو تسير بطول النهر حتى المصب على الشاطئ، حيث يضرب البحر تقف أمام الماء الشفاف تنظر نحو الأفق فيما وراء الشعاب المرجانية. أقترب منها، أتطلع أيضًا إلى البحر وجهها متوتر حزين تقريبًا .

"فيما تفكرين يا أوما ؟ "

تقفز، تستدير ناحيتى بوجهها وعيناها مليئتان بالحزن قالت:

"لا أفكر فى شىء، لا أفكر إلا فى أشياء مستحيلة"

"ما المستحيل؟"

لكنها لم ترد. ضوء الشمس يجىء بعد ذلك ويزداد تمامًا. أوما لاتتحرك فى الريح البارد مع ماء النهر الذى يجرى بين قدميها يدفع شفة الموجة. أوما تهز رأسها كما لو كانت تريد أن تدفع ضيفًا تتناول يدى وتجذبنى نحو البحر.

"هيا سنصطاد الأخطبوط "

تتناول الحربة الطويلة التى كانت قد وضعتها فى الكثبان الرملية وسط البوص الآخر. نتجه ناحية الشرق هنا حيث لايزال الساحل فى الظلام. قاع نهر روزو ينحنى خلف الكثبان الرملية، ويظهر قريبًا جدًا من المنحدر الأسود. توجد كتل من البوص حتى حافة البحر. عندما اقتربنا أسراب من الطيور الصغيرة ذات اللون الفضى تهرب وهى تصرخ: "ويت ! وييت! "

"هنا يختبئ الأخطبوط. الماء أكثر سخونة"

تسير نحو البوص ثم فجأة تخلع قميصها وتنورتها. جسدها يلمع فى ضوء الشمس طويل ورقيق لونه نحاسى داكن تتقدم فى البحر فوق الصخور وتختفى تحت الماء. ذراعها تطفو لحظة مسلحة بحربة طويلة ثم لايوجد غير سطح البحر والأمواج القصيرة. بعد لحظات تنفتح المياه وتخرج أوما كما دخلت وهى تنزلق. تجىء إلىّ على الشاطئ تجر الأخطبوط الذى ينزف مدادًا وتخرجه تنظر إلىَّ لايبدو عليها الضيق لكنه الجمال المتوحش ببساطة.

"هيا! "

لا أتردد أخلع ملابسى بدورى وأغطس فى الماء البارد. فجأة أتذكر ما فقدته منذ عدة سنوات البحر فى تاماران عندما سبحنا أنا ودونيس عاريين عبر الأمواج إنه شعور بالحرية والسعادة. أسبح تحت الماء قريبًا جدًا من العمق مفتوح العينين .

بالقرب من الصخور ألمح أوما التى تبحث بحربتها فى الشقوق وسحابة من المداد تصعد. نسبح معًا إلى السطح. أوما تلقى الأخطبوط الثانى على الشاطئ بعد أن تخرجه تعطينى الحربة. ابتسامتها تضىء وجهها فنفسها أجش. أغطس بدورى نحو الصخور. أخطئ أول أخطبوط وأطعن الثانى فوق القاع الرملى فى الوقت الذى قفزت فيه إلى الخلف وهى تطلق مدادها.

معًا نسبح فى مياه البحيرة الصافية. عندما كنا قريبين جدًا من حاجز الأرصفة الصخرية أوما غطست أمامى واختفت بسرعة لدرجة أنى لم أستطع أن ألحق بها. ظهرت لحظة فى وقت لاحق وأخطبوط عجوز فى سن رمحها. لكنها أعادت السمكة التى لاتزال حية وألقت بها بعيدًا نحو الشاطئ. أشارت إلىَّ بعدم الكلام . تناولت يدى ومعًا ترك كل منا نفسه ينساب تحت الماء. بعدها رأيت ظلاً متوعدًا يروح ويجىء أمامنا: قرش يدور - مرتين أو ثلاث مرات، ثم يبتعد على آخر نفس صعدنا من جديد إلى السطح. أسبح نحو الشاطئ بينما لاتزال أوما تغطس. عندما أصل إلى الشاطئ أرى أنها تمسك من جديد بالسمكة. بالقرب منى تجرى على الرمل الأبيض. جسدها يلمع فى الشمس مثل البازلت، تحركات دقيقة وسريعة جمعت الأخطبوط والعجوز ودفنا الجميع فى الرمل بالقرب من تلال الرمال.

"هيا سنذهب لنتجفف"

ألقى بنفسى على الرمل. راكعة تأخذ رملاً جافًا فى يديها وترش جسدها من أعلى إلى أسفل .

" ضع رملاً أيضًا على جسدى "

أتناول الرمل الخفيف فى يدى وأتركه يسيل فوق ذراعيها وفوق ظهرها وفوق صدرها. الآن. تشبه تمامًا عصفورين مرشوشين بالدقيق وهو ماجعلنا نضحك.

"عندما يسقط الرمل نكون قد تجففنا" هكذا قالت أوما. بقينا على تل الرمال بالقرب من البوص نرتدى الرمل الأبيض .لايوجد غير ضجيج الريح فى البوص وسطح البحر الذى يرتفع، لا أحد غير السرطانات التى تخرج واحدًا بعد الآخر من حفرها مخالبها مرفوعة. فى السماء الشمس أصبحت فى أوجها، تحرق وسط هذه الوحدة. أنظر إلى الرمل الذى يجف على ذراع وظهر أوما الذى يسقط على الجداول الصغيرة كاشفا ذراع وظهر أوما والذى يسقط على الجداول الصغيرة كاشفا الجسد اللامع الرغبة تزداد داخلى بعنف حارقة كما الشمس على جلدى عندما طبعت شفتى على جلد أوما ارتجفت لكنها لم تبتعد ذراعاها الطويلتان المعقودتان حول ساقيها تميل برأسها على ركبتيها وهى تتطلع بعيدًا. شفتاى تنزلان على امتداد عنقها وعلى جلدها الناعم واللامع حيث ينزلق الرمل كمطر فضى. جسدى يضطرب الآن وأوما ترفع رأسها تنظر إلىّ فى قلق:

"هل أنت بردان؟"

"نعم ..لا " لا أعرف تمامًا ما يحدث لى، أرتجف بعصبية، تنفسى صعب.

" ماذا بك ؟ "

أوما تقف فجأة بحركات سريعة ترتدى ثيابها تساعدنى على وضع ملابسى كما لو كنت مريضًا.

" تعال استرح فى الظل هيا!"

هل هى الحمى التعب؟ رأسى يدور بصعوبة أتبع أوما عبر البوص. تسير باستقامة تامة وهى تحمل الأخطبوط على حافة حربتها، كرايات صغيرة وتمسك السمك من خياشيمه. عندما وصلنا إلى الخيمة تمددت تحت المظلة وأغلقت عينى، أوما بقت بالخارج. تعد النار لكى تطهو السمك. تطهى أيضا فى الفحم أرغفة من الخبز الذى أحضرته هذا الصباح. عندما أعدت الوجبة أحضرتها لى تحت المظلة ونظرت إلى وأنا آكل دون أن تتناول شيئًا. لحم السمك المشوى رائع أكلت بأصبعى بسرعة وشربت الماء العذب الذى جلبته أوما من أعلى النهر. فى الوقت الحالى أشعر بتحسن ملفوفًا فى غطائى رغم الحر أتطلع إلى أوما إلى جانب وجهها المتوجه إلى الخارج كما لو كانت تراقب. فى وقت لاحق بدأ المطر فى السقوط خفيف فى البداية ثم بقطرات كبيرة. الريح يهز قماش الشراع فوقنا ويصر فروع شجرة التمر هندى. عندما ينخفض ضوء النهار تحدثنى الفتاة عن نفسها، عن طفولتها. تتكلم وهى مترددة بصوتها الغنائى بنبرات صمت طويلة بينما ضجيج الريح والمطر فوق المظلة يختلط بكلماتها. "أبى منافى، من كبار رودريج لكنه رحل من هنا ليبحر على مركب بريطانية هندية مركب كبير كان

يذهب حتى كالكوتا. وفى الهند ألتقى بأمى تزوج بها وأحضرها إلى هنا لأن عائلتها لم تكن ترغب فى هذا الزواج كان يكبرها سنًا ومات بالحمى خلال رحلة عندما كنت فى الثامنة من عمرى فوضعتنى عند"الأخوات" فى موريشيوس بقريتى. لم يكن لديها مال كافٍ لتربينى.. وأعتقد أيضًا أنها كانت تريد أن تتزوج وكانت تخشى أن أسبب لها ضيقًا.. فى الدير أحببت كثيرًا الأم المديرة وأحبتنى كثيرًا أيضًا عندما كان عليها أن تعود إلى فرنسا، وكانت أمى قد تخلت عنى صحبتى معها إلى بوردو ثم بالقرب من باريس درست وعملت بالدير. أعتقد أن"الأم" كانت تريد أن أصبح راهبة ولهذا أخذتنى. لكن عندما بلغت الثالثة عشرة مرضت وأعتقد الجميع أنى سأموت؛ لأنى كنت مصابة بالسل الرئوى.. فكتبت أمى من موريشيوس وقالت إنها ترغب فى عودتى والعيش معها. فى البداية لم أكن أرغب، بكيت واعتقدت أن ذلك كان لأنى لم أرغب فى ترك "الأم" فى الدير لكن كان هذا لخوفى من العثور على أمى الحقيقية وفقر الجزيرة فى الجبال "أم" الدير كانت تبكى هى الأخرى؛ لأنها كانت تحبنى كثيرًا ثم كانت تأمل فى أن أصبح راهبة أنا أيضًا ولما لم تكن أمى مسيحية احتفظت بدين الهند ولهذا كانت " أم " الدير تعلم أنى سأتحول من الحياة الدينية. ثم رحلت مع هذا، قمت برحلة طويلة وحدى على المركب عبر قناة السويس والبحر الأحمر. عندما وصلت إلى موريشيوس وجدت أمى ولم أكن

أتذكرها على الإطلاق، وكنت مندهشة لرؤيتها صغيرة إلى هذا الحد ملفوفة فى حجابها، إلى جوارها صبى صغير قالت لى إنه "سيرى" مبعوث الله على الأرض..."

توقفت عن الكلام. الليل قريب الآن. فى الخارج الوادى اكتسى بالظلام، المطر توقف لكنا نسمع الماء يقطر على المظلة عندما هز الريح فروع شجرة التمر هندى العجوز .

" فى البداية كان من الصعب الحياة هنا لأنى لم أكن أعرف شيئًا عن الحياة عند المناف. لم أكن أعرف ماذا أفعل لم أكن قادرة على الركض ولا الصيد ولا إشعال نار، ولم أكن أعرف حتى أن أسبح. ولم أكن أستطيع أن أتكلم لأن أحدًا لايتكلم الفرنسية وأمى لم تكن تتكلم غير لهجتى "البوجبورى" و "الكرييول" . كان هذا رهيبًا وكنت قد بلغت عامى الرابع عشر وكنت كطفلة. فى البداية كان الجيران يسخرون منى وكانوا يقولون إن أمى كان من الأفضل أن تتركنى عند الطبقة الوسطى. وأنا كنت أريد تمامًا أن أذهب لكنى لم أكن أعرف أين أذهب. لم يكن يمكننى أن أعود مرة أخرى إلى فرنسا؛ لأنى كنت منافية ولم يكن أحد يريدنى. ثم أنى كنت أحب كثيرًا أخى الصغير "سيرى" كان لطيفًا جدًا وبريئًا للغاية، وأعتقد أن أمى كانت على حق فى قولها كان مبعوث الله... وهكذا بدأت أتعلم كل ما كنت أجهله. تعلمت أن أركض حافية القدمين فوق الصخور وأصطياد الجديان فى السباق وإشعال النار والسباحة

والغطس لصيد الأسماك. تعلمت أن أكون منافية وأعيش مثل المخاطرين وأنا أختفى فى الجبل. لكنى أحببت كثيرًا أن أكون هنا معهم لأنهم لايكذبون أبدًا ولا يؤذون أحدًا. أناس الساحل فى بورماتوران يشبهون الناس فى موريشيوس يكذبون ويخدعون ولهذا نبقى مختفين فى الجبال ....".

الآن يسود الظلام الدامس والبرد يحط على الوادى ونحن ننام أحدنا فى مواجهة الآخر، أشعر بحرارة جسد أوما فى جسدى ساقينا متشابكتين. نعم كما لو كنا الكائنين البشريين الوحيدين تمامًا الأحياء على الأرض. وادى شرم الإنجليز ضائع ينجرف إلى الوراء فى رياح البحر الباردة .

لم أعد أشعر بالقلق الآن لم أعد أسشعر أى تسرع، أى خشية . أوما هى الأخرى نسيت أنه يجب عليها الفرار دون توقف والاختفاء كما فى وقت سابق فى البوص خلعت ملابسها وساعدتنى على خلع ملابسى أيضًا جسدها ناعم ودافئ، ولا يزال مغطى بالرمل فى بعض الأماكن تضحك وهى تمسح بقع الرمل على ظهرى وعلى صدرى ثم أصبحنا أحدنا فى الآخر دون أن أتمكن من الفهم. وجهها يميل إلى الوراء أسمع أنفاسها وأشعر بدقات قلبها، وحرارتها بداخلى كبيرة أقوى من كل هذه الأيام الحارقة على البحر وفى الوادى. وكما ننزلق كما نطير فى السماء المظلمة وسط النجوم دون تفكير صامتين ونحن نسمع ضوضاء أنفاسنا المتوحدة مثل تنفس النيام. نظل

ملتصقين أحدنا فى الآخر حتى لا نشعر ببرد الحجارة.

أخيرًا وجدت الوادى الصغير الذى كان فيما مضى نبعًا قد جف اليوم. هو الذى لمحته فى أول أيام وصولى إلى شرم الإنجليز والذى تصورت طويلاً إنه بعيد عن مجرى النهر لكى يظهر على خريطة القرصان.

لكن تدريجيًا وأنا أزرع أسس تمديد الخطوط المستقيمة للمعايير الأولى. دفعت ناحية شرق الوادى. ذات صباح بينما أجوب وحدى أعماق شرم الإنجليز بالقرب من علامة المرساة غربيًا قررت استكشاف طول الخط الذى يتجه من المرساة ناحية الحجر المسجل عليه أربع نقاط والذى وجدته على سفح المنحدر الأول شرقًا، وأن وثيقة القرصان تشير إلى"أبحث عنى"

لما لم توجد علامات اخرى غير نهايات البوص المزروع على فترات غير منتظمة أتقدم ببطء فى أسفل الوادى. قبل الظهر بقليل أصل إلى قمة المنحدر الغربى بعد أن أكون قد قطعت اكثر من ألف قدم فرنسى. لما أصل أعلى المنحدر ألمح فى الوقت نفسه تصدع الوادى الصغير والمعلم الذى يشير إليه. إنها كتلة من البازلت من ستة أقدام ارتفاعًا تقريبًا مزروعة فى أرض التل المغبرة بطريقة مرئية من أسفل الوادى من المصب القديم. إنها فريدة فى مساحتها سقطت من البازلت الذى يخيم فوق المنحدر. أنا على يقين من أنها نقلت إلى هنا عن طريق رجال ربما بتدحرج على

جذوع مستديرة وثبتت على طريقة صخور الكهنة. على جوانبها لاتزال واضحة الفتحات التى تسمح بمرور السلاسل. لكن الذى لفت نظرى هو العلامة التى تحملها الصخرة فى أعلى تمامًا فى الوسط أخدود مستقيم سمك أصبع قرابة ست بوصات طويلة منحوتة فى الحجر عن طريق إزميل. هذا الأخدود يوجد تمامًا فى امتداد الخط الذى تابعته من أول الطوق الشرقى ويشير إلى فتحته الوادى الصغير.

القلب يدق وأنا أقترب وأرى الوادى الصغير لأول مرة، إنه ممر متآكل يخترق سمك المنحدر ويصل وهو يضيق حتى شرم الإنجليز. أنقاض من الحجر تعوق مدخله ولهذا لم تتح لى حتى الآن فكرة استكشافه. يُرى من الوادى مدخل الوادى الصغير المندمج مع تصدعات المنحدر الأخرى ومن فوق قمة التل يوجد الوادى الصغير كما رأيته أول مرة شبيهًا بانهيار أرضى بدون عمق.

لايوجد غير طريق واحد يمكنه أن يقودنى إليه أنه الخط الذى تابعته والذى يبدأ من المرساة غربًا ويخترق مجرى نهر روزو عند النقطة ٩٥ (فى التقاطع الدقيق للخط الشمالى ـ الجنوبى) مرورًا بمركز الحجر المسجل عليه أربعة أختام (النقطة فى وثيقة القرصان)، والتى قادتنى حتى كتلة البازلت حيث تندمج مع أثر الحوض الصغير المنحوت بإزميل القرصان .

أنا فى غبطة من هذا الاكتشاف ولابد لى من الجلوس لاستعادة أنفاسى. الريح البارد يحمل تذكرى بنفسى. بسرعة نزلت إلى منحدر الوادى الصغير حتى أسفله أنا الآن فى نوع من الحدوات المفتوحة على شكل حدوة الحصان بعرض قرابة خمسة وعشرين قدمًا فرنسية حيث يهبط الممر حتى الحطام الذى لايغلق المدخل بطول مائة قدم .

إنه هنا ـ بلا أدنى شك ـ يكمن مفتاح اللغز. إنه هنا فى مكان ما تحت قدمى ينبغى العثور على القبوة يعنى علامة بحرية كانت منحوتة فى مقدمة المراكب ـ حيث أخفى القرصان المجهول ثروته الطائلة لكى يضعها فى مأمن من الإنجليز وجشع رجال موطنه أى مخبأ أفضل كان يمكنه أن يجده من هذا الصدع الطبيعى فى سمك المنحدر غير المرئى من البحر ومن الوادى ومغلق بحاجز الطمى الطبيعى ورواسب السيل الجارف؟ لا أستطيع انتظار مساعدة سأذهب حتى المخيم وأعود بكل ما أنا فى حاجة إليه: المعول المجرفة، آلة سبر الأعماق الحديد الطويلة، حبل، زاد من الماء صالح للشرب. حتى المساء دون توقف وأنا أجس وأحفر قاع الوادى الصغير فى المكان الذى أقصده والذى أعتقد أنه مزراب كتلة البازلت .

نحو نهاية اليوم عندما بدأ الظلام يسود قاع الوادى الصغير المثقاب يدخل بشكل غير مباشر فى الأرض كاشفًا عن مدخل مخبأ نصف مردوم بالأرض.

هذه الأرض هى الأخرى بلون فاتح أكثر نتيجة لوضعها بهدف سد هذا الكهف .

أساعد نفسى بيدى لكى أنقل كتل البازلت وأوسع الفتحة. قلبى يدق فى صدغى وقد نقعت ملابسى فى العرق. الحفرة اتسعت، وأظهرت تجويفًا قديمًا محصنًا بحجارة جافة على شكل نصف دائرة. سرعان مادخلت فى الكهف حتى خصرى. ليس لدى مساحة كافية لإدخال المعول وكان علىَّ أن أحفر بيدى لإبعاد الكتل وأنا أضغط على المثقاب كما على رافعة ثم يرن المعدن على الحجر، لا أستطيع أن أذهب بعيدًا وصلت إلى الجزء السفلى: المخبأ فارغ.

إنه الليل بعد. السماء فارغة فوق الوادى الصغير الذى يظلم ببطء. لكن الهواء ساخن لدرجة خيل إلىَّ أن الشمس مازلت حارقة على جدران الحجر على وجهى وعلى يدى وداخل جسدى. أجلس فى قاع الوادى الصغير أمام المخبأ الفارغ أتجرع كل الماء الباقى فى الإناء ماء ساخن وبلا طعم لايتوصل إلى ارتوائى .

للمرة الأولى من وقت طويل أفكر فى لور وخيل إلى إنى أخرج من حلمى. ماذا ستظن بى لو كانت ترانى هكذا مغطى بالتراب فى عمق هذا الخندق يدى ملطختين بالدماء من شدة الحفر؟ ستنظر إلى بنظراتها المظلمة واللامعة وسأشعر بالخجل. الآن أنا مجهد جدًا حتى أتحرك حتى أفكر حتى أشعر بأى شىء كان. أنتظر الليل بعطش، برغبة وأتمدد فى

المكان حيث أنا أسفل الوادى الصغير رأسى مستند إلى أحد الحجارة السوداء التى نزعتها من الأرض فوقى بين جدران الحجر العالية السماء سوداء. أرى النجوم، إنها قطع من الكواكب المحطمة، لايمكننى معرفة أسمائها على الإطلاق.

فى الصباح عندما خرجت من الوادى الصغير رأيت خيال أوما جالسة بالقرب من المخيم فى ظل شجرة وهى تنتظرنى، بجوارها "سيرى" الذى يرانى قادمًا دون أن يتحرك.

أقترب من الفتاة، أجلس إلى جوارها فى الظل وجهها داكن لكن عينيها تلمعان بقوة تقول لى :

"لايوجد ماء على الإطلاق فى الوادى الصغير النافورة جفت"

قالت "النافورة بدلا من النبع على طريقة الكريول قالت هذا بهدوء كما لو كان الماء هو الذى كنت أبحث عنه فى الوادى الصغير .

ضوء الصباح يلمع فوق الأحجار وفى أوراق الشجر. أوما ذهبت لجلب الماء من النهر فى وعاء وهى الآن تعد عصيدة الدقيق على طريقة النساء الهنديات "الكير". عندما طهيت العصيدة قدمتها إلىَّ فى صحن من المينا. هى نفسها تغترف بأصابعها من الوعاء ذاته.

بصوتها الهادئ والغنائى حدثتنى أيضًا عن طفولتها فى فرنسا فى دير الراهبات وعن حياتها

عندما عادت لتعيش مع أمها عند المناف. أحب الطريقة التى تحدثنى بها. أحاول أن أتخيلها، اليوم الذى أبحرت فيه على المركب الكبير ترتدى زيها الأسود زائغة العينين فى الضوء .

حدثتها أنا أيضًا عن طفولتى فى بوكان عن لور وعن دروس ماما تحت الشرفة فى المساء وعن مغامراتى مع دونيس. عندما حدثتها عن رحلتنا فى الزورق فى مورن لمعت عيناها.

"أريد الذهاب حقًا إلى البحر أنا أيضًا".

نهضت وأخذت تتطلع إلى البحيرة.

"فى الناحية الأخرى توجد جزر كثيرة، جزر تعيش فيها طيور البحر. خذنى إلى هناك لكى أصطاد.

أحب عندما تلمع عيناها هكذا. وتقرر الأمر سنذهب إلى الجزر، جزيرة السفهاء فى بالاديرو ربما حتى فى الجنوب ناحية جومبرانى، سأذهب إلى بور ماتوران لاستئجار زورق.

على مدى يومين وليلتين العاصفة تصفر. أعيش مدسوسًا فى خيمتى لا آكل غير البسكويت المملح دون أن أخرج تقريبًا ثم فى صباح اليوم الثالث توقفت الريح. السماء زرقاء صافية بدون سحب. على الشاطئ أجد أوما واقفة كما لو أنها لم تتحرك طوال هذا الوقت. عندما رأتنى قالت لى:

"آمل أن يأتى الصياد بالزورق اليوم"

بعد ساعة واحدة فى الحقيقة رسا الزورق على الشاطئ مع توفير الماء وعلبة من البسكويت، أبحرنا. أوما فى المقدمة وحربتها فى يدها تتطلع الى سطح البحيرة.

فى خليج لاسكار أنزلنا الصياد ووعدت بإعادة الزورق إليه فى اليوم التالى نبتعد والشراع موجه للريح الشرقية. جبال رودريج العالية تنتصب خلفنا شاحبة دائمًا فى ضوء الصباح، وجه أوما مضىء من السعادة. تظهر لى ليمون وبيتون وبيلاكيتير. عندما عبرنا الممر دفعت الموجة الزاخرة الزورق والرذاذ غطانا لكن بعيدًا نوعًا ما نحن من جديد فى البحيرة فى محمية الشعب المرجانية ومع هذا المياه داكنة اجتازت ظلالا غامضة.

أمام المقدمة ظهرت جزيرة، إنها جزيرة السفهاء حتى قبل أن نلمحها سمعنا ضجيج طيور البحر فى دوران مستمر عادى يملأ السماء والبحر .

الطيور رأتنا أنها تطير فوق الزورق. كفيات بطريق فرقاطات سوداء والمجانين العملاقة تنبح فى دوامة.

الجزيرة لم تعد الأعلى بعد خمسين ياردة يمين الزورق. على جانب البحيرة شريط من الرمل وناحية العرض صخور تتكسر فوقها أمواج المحيط. أوما اقتربت منى عند الحاجز وقالت بصوت منخفض بالقرب من أذنى :

"هذا جميل! ..."

لم أر مطلقًا هذا الكم من الطيور. إنها بالآلاف فوق صخور جوانو البيضاء ترقص وتطير وتحط وضجيج أجنحتها يهدر مثل البحر. الأمواج، تتكسر على الأرصفة وتغطى الصخور بشلال مبهر لكن المجانين ليست خائفة تنشر أجنحتها القوية وترتفع فى الريح فوق الماء الذى يمر ثم تسقط فوق الصخور تحليق متقارب يمر فوقنا بصياح يدور حول زورقنا يجعل السماء سوداء ويحلق ضد الريح بأجنحة ضخمة ممتدة رءوس سوداء وعيون قاسية تتحول ناحية الغرباء المكروهين لديها، إنها الآن أكثر عددًا صرخاتها الهائجة تصم أذاننا بعضها يهاجمنا يعض مؤخرة الزورق ونحن علينا أن نحمى أنفسنا. أوما خائفة تلتصق بى تسد أذنيها بيديها :

"لنذهب من هنا! لنذهب من هنا! "

وضعت الحاجز فى يمين الزورق عاد يرفرف فى الريح مرة أخرى وهو يقرقع، المجانين فهموا، ابتعدوا ارتفعوا واستمروا فى مراقبتنا وهم يدورون فوق صخور الجزيرة، واصل شعب الطيور فى القفز من فوق موجات الرذاذ .

أوما وأنا مازلنا مضطربين من الخوف نهرب تحت الريح وبعد فترة طويلة تركنا حرث الجزيرة وسمعنا صرخات الطيور الحادة وطنين أجنحتها. على بعد ميل واحد من جزيرة السفهاء وجدنا جزيرة

أخرى صغيرة على الحاجز المرجانى فى الشمال تتكسر أمواج المحيط فوق الصخور بصوت رعدى هنا لاتوجد طيور تقريبًا فيما عدا بعض الكفيات تحلق فوق الشاطئ.

ما أن بلغنا الشاطئ حتى خلعت أوما ملابسها وغطست أرى جسدها الداكن يلمع تحت الماء ثم اختفت. عدة مرات تظهر لكى تتنفس وحربتها مرفوعة نحو السماء.

بدورى خلعت ملابسى وغطست. أسبح مفتوح العينين بالقرب من القاع. فى الشعاب المرجانية توجد آلاف الأسماك لا أعرف حتى أسماءها ذات لون فضى مخططة بالأصفر والأحمر. المياه ناعمة وأنا أنزلق قريبًا من الشعاب المرجانية دون جهد. عبثًا أبحث عن أوما.

عندما عدت إلى الشاطئ تمددت على الرمل وسمعت ضجيج الأمواج خلفى. الكفيات تحوم فى الريح. يوجد كذلك بعض المجانين الذين يجيئون من جزيرتهم ليشاهدونى وأنا أصرخ .

بعد فترة طويلة بعد أن أجف الرمل الأبيض على جسدى خرجت أوما من الماء أمامى جسدها يلمع فى الضوء كما المعدن الأسود حول خصرها تضع كرمة مضفرة علقت فيها فريستها أربع سمكات آلة، حرافة، فمان متحجران. زرعت الحربة على الشاطئ والمثقاب إلى أعلى، فكت حزامها ووضعت السمك فى حفرة

رمل غطتها بطحالب رطبة ثم جلست على الشاطئ ورشت جسدها بالرمل.

إلى جوارها أسمع أنفاسها لاتزال أجشة من التعب. على جلدها الداكن يلمع الرمل كما بودرة الذنب، لانتكلم ننظر إلى ماء البحيرة ونحن نسمع ضجيج البحر القوى خلفنا كما لو كنا هنا منذ أيام وأيام وقد نسينا كل شىء فى العالم. على البعد جبال رودريج العالية تغير ببطء لونها، تجويف الشرم أصبح فى الظل. المد مرتفع. البحيرة ممتلئة، ناعمة لها زرقة عميقة صدر الزورق يحط تقريبًا على الشاطئ مع مقدمه المقوس الذى يشبه طائر بحر.

فى وقت لاحق عندما نزلت الشمس أكلنا. أوما تقف، الرمل ينزلق على جسدها على شكل مطر خفيف، تجمع الأعشاب الجافة وقطع الخشب التى قذفها المد، بولاعتى أضرمت النار فى الأغصان. عندما اشتعل اللهب أضاء وجه أوما بفرح وحشى جذبنى نحوها أوما تصنع شبكة ببعض الأغصان الندية وتعد الأسماك. ثم تخنق النار بحفنة من الرمل وتضع الشبكة على الجمر. رائحة الأسماك المشوية ملأتنا بالسعادة وعلى الفور أكلنا وقد حرقت أصابعنا من التسرع.

بعض طيور البحر جاءت وقد جذبتها النفايات رسمت دوائر كبيرة فى مواجهة الشمس ثم حطت على الشاطئ قبل الأكل نظرت إلينا وقد مالت رءوسنا بجانب.

" إنها أكثر شراسة الآن وقد عرفتنا"

المجانين لاتحط على الرمل إنها تغوص فى اتجاه القطع وتأخذها وهى طائرة مخلفة سحبًا من الغبار. توجد أيضًا سرطانات تخرج من حفرها وتبدو شرسة وجبانة فى الوقت نفسه.

"يوجد كثير من الناس"! قالت أوما وهى تضحك.

عندما انتهينا من الطعام علقت أوما ملابسنا فى الحربة ونمنا فى الرمل الملتهب فى ظل هذه المظلة المرتجلة. دفنا أنفسنا فى الرمل أحدنا بجانب الآخر. ربما تكون أوما قد نامت. هكذا بينما أنظر إلى وجهها مغلق العينين وجبهتها الجميلة الناعمة؛ حيث يتحرك شعرها فى الريح عندما تتنفس ينزلق الرمل على صدرها ويضىء كتفها فى الضوء كما الحجر. من أسفل أصابعها زريت جلدها. لكن أوما لاتتحرك، تتنفس ببطء رأسها يميل على ذراعها المطوية بينما يحمل الريح الرمل فى سيل صغير على جسدها المترامى - أمامى أرى السماء فارغة وورودريج فى ضباب على صفحة البحيرة. طيور البحر تطير فوقنا، إنها تحط على الشاطئ على بعد خطوات منا لم تعد خائفة أصبحت صديقة لنا أعتقد أن هذا اليوم لانهاية له مثل البحر.

ومع هذا جاء المساء وأسير على الشاطئ محاطًا بالطيور التى تحلق وهى تطلق صيحات آمنة. تأخر الوقت جدًا للتفكير فى العودة إلى رودريج. المد هبط

جرد لوحات المرجان فى البحيرة. سوف نغامر بالسقوط أو بتحطيم الزورق. أوما تجىء لتلحق بى عند غيض الجزيرة.

ارتدينا ملابسنا بسبب الريح، طيور البحر تتبعنا وهى تطير وتحط فوق الصخور أمامنا وهى تطلق صيحات غريبة. هنا البحر حر. ترى الأمواج التى تتكسر فى بداية رحلتها .

عندما جلست بجانب أوما أحاطتنى بذراعيها ومالت برأسها على كتفى. أحسست رائحتها ودفئها. الريح الذى يصفر هو ريح غسقى يحمل الظل. أوما ترتعش فى مواجهتى. هذا الريح هو الذى يزعجها ويزعج الطيور أيضًا، ويجعلها تخرج من مخابئها العالية فى السماء وهى تصيح نحو آخر شعاع للشمس فوق البحر.

الليل يهبط بسرعة وقد اختفى الأفق ولم يعد الزبد يلمع. عدنا من الناحية الأخرى للجزيرة تحت الريح. أوما تعد فراشًا لليل. تنشر أعشابًا جافة على الرمال، أعلى الشاطئ فتدثر فى ثيابنا حتى لانشعر بالبلل. الطيور كفت عن طيرانها المحموم حطت على الشاطئ ليس بعيدًا عنا وسمعنا فى الظل مناجاتها واصطكاك مناقيرها. وأنا ملتصق بأوما أحس رائحة جسدها وشعرها وأشعر بطعم الملح على جسدها وفوق شفتيها .

ثم أشعر بتنفسها يهدأ وأبقى بلا حراك، عيناى مفتوحتان على الليل أسمع تحطم الأمواج التى تصعد

وراءنا أكثر قربًا. النجوم كثيرة جدًا وجميلة أيضًا مثلما كنت نائمًا على سطح زيتا. أمامى بالقرب من بقع جبال رودريج السوداء توجد اوريون وجميلات الليل وتمامًا فى الذروة بالقرب من المجرة كما فيما مضى أبحث عن حبات نجوم الثريا السبعة اللامعة كما فيما مضى أحاول أن ألمح النجمة السابعة بلييون وعند حافة المجرة الأكبر الكور. أسفل فى اليسار تعرفت على صليب الجنوب وأرى السفينة الضخمة آرجو تظهر ببطء كما لو كانت قد أبحرت حقًا فى البحر الأسود، أردت أن أسمع صوت أوما ولكنى لم أجرؤ على إيقاظها أشعر فى مواجهتى بحركة صدرها الذى يتنفس ببطء، وهذا يمتزج بهدير البحر الإيقاعى. بعد هذا اليوم الطويل للغاية الكامل الضوء نكون فى ليلة مظلمة وبطيئة تخترقنا وتحولنا. ولهذا نحن هنا لكى نحيا هذا اليوم وهذه الليلة بعيدًا عن الناس الآخرين عند مدخل أعالى البحار بين الطيور.

هل نمنا حقًا؟ لم أعد أدرى. أنا بلا حراك طويلا تحت تصفير الريح أسمع ضربات الأمواج الرهيبة فى القاعدة المرجانية والنجوم فى حركة بطيئة حتى الفجر.

فى الصباح أوما تحتمى بتجاويف جسدى تنام رغم الشمس التى تبهر رموشها. الرمل المرطب بالندى عالق ببشرتها الداكنة يتدفق فى جداول صغيرة على امتداد رقبتها ويختلط بفوضى ثيابها. أمامى ماء البحيرة اخضر وقد تركت الطيور الشاطئ استعادت

دورتها وأجنحتها ممدودة فى الريح بعيون ثاقبة تراقب قاع البحار. أرى جبال رودريج وبيتون وبيلاكتير والألماس المعزول على الشاطئ واضح ونقى. توجد زوارق تنزلق بشراعها المنتفخ. فى لحظات قليلة يجب أن تضع ملابسنا المليئة بالرمل ونصعد إلى الزورق وسوف يوجه الريح الشراع. أوما جلست نصف نائمة فى المقدمة قابعة فى قاع الزورق. تركنا جزيرتنا وسوف نذهب، نتجه ناحية رودريج بينما طيور البحر لا تصحبنا.



الإثنين ١٠ أغسطس (١٩١٤)


https://telegram.me/maktabatbaghdad

أعد الأيام. هذا الصباح وحدى فى قاع شرم الإنجليز. قبل عدة أشهر بدأت مقتديًا بنموذج روبنسون كروزو لكن لم يكن معى أخشاب لانقرها وقد كانت علامات سجلتها على أغلفة كراساتى المدرسية. هكذا توصلت إلى هذا التاريخ غير العادى بالنسبة إلىَّ بما أنه يحدد لى أنه قد مرت الآن أربعة أعوام بالضبط على وصولى إلى رودريج. هذا الاكتشاف قهرنى تمامًا بحيث لم أعد قادرًا على البقاء فى المكان. بسرعة أرتدى حذائى المترب حافى القدمين لأنى لا أملك جوارب منذ وقت طويل. من صندوق السفر أخرجت السترة الرمادية التى تذكرنى بأيامى فى مكاتب دبليو دبليو بوت لويس الغربية، أزرر قميصى حتى الطوق ليس من المستحيل العثور على رباط عنق، رباطى كنت قد استخدمته فى ربط أجزاء الشراع الذى حولته إلى مظلة فى إحدى ليالى العاصفة. بدون قبعة. الشعر والذقن طويلان مثل غريق، الوجه محترق من الشمس، أرتدى هذه السترة

البرجوازية وهذه الأحذية الطويلة القديمة كنت أضحوكة لشباب رومبار ستريت فى بورلويس. لكن هنا فى رودريج الأمر أقل صعوبة ومررت دون أن يرانى أحد تقريبًا .

مكاتب السلكية واللاسلكية مازالت فارغة فى هذه الساعة. فقط موظف هندى ينظر إلىَّ بلا مبالاة حتى عندما سألته بأدب جم سؤالى غير المعقول .

"عفوًا ياسيدى، فى أى يو م نحن ؟"

بدا وكأنه يفكر دون أن يتحرك من مكانه على درج السلم قال : "الإثنين "

زاد إصرارى:

" لكن أى تاريخ ؟"

بعد فترة صمت أخرى أعلن :

الإثنين ١٠ أغسطس (١٩١٤)

بينما أهبط طول الطريق ناحية البحر أشعر بنوع من الدوار. منذ وقت طويل وأنا أعيش فى هذا الوادى المتفرد فى صحبة شبح القرصان المجهول! وحدى مع ظل أوما التى كانت تختفى أحيانًا لوقت طويل لدرجة أنى لم أعد أعرف إذا كانت موجودة حقًا. منذ فترة طويلة وأنا بعيد عن بيتى وعمن أحبهم. ذكرى لور وماما تعتصر قلبى كما لو كان هاجسًا. السماء الزرقاء تبهرنى والبحر يبدو محترقًا. يبدو لى أننى قادم من عالم آخر من زمن آخر.

عندما وصلت إلى بورماتوران أصبحت فجأة وسط الحشد إنهم صيادون يعودون إلى مأواهم في خليج لاسكار، أو مزارعون جبليون يجيئون للتسوق، أطفال سود يجرون بجوارى وهم يضحكون ثم يختفون عندما أنظر إليهم. من كثرة العيش فى موقعه أعتقد أنى أصبحت أشبه قليلا القرصان. قرصان رهيب بدون مركب يخرج مغبرًا تمامًا وخشنًا من مخبئه.

عبرت مربع بورتالى وأصبحت فى وسط المدينة فى شارع باركليز. فى البنك بينما أسحب آخر مدخراتى (وأشترى بسكويتًا بحريًا وسجائر وزيتًا وقهوة ورأس حربة لصيد الأخطبوط) أسمع أول شائعة لهذه الحرب التى يبدو أن العالم يندفع إليها بشكل محموم. نسخة حديثة من جريدة موريشيوس على جدار البنك تنشر الأخبار القادمة من أوروبا بالبرق: إعلان الحرب من النمسا على صربيا بعد هجوم سراييفو والتعبئة فى فرنسا وفى روسيا التحضير للحرب فى إنجلترا. هذه الأخبار قديمة من عشرة أيام سابقة!.

تجولت لفترة طويلة فى شوارع هذه المدينة حيث لا أحد يبدو على مايرام بحيال الدمار الذى يهدد العالم. الحشد يتجمع أمام المتاجر فى شارع دونكان عند الصينيين فى شارع دوجلاس على طريق رصيف المرفأ. فى لحظة أفكر فى الذهاب للحديث مع الدكتور كمال بودو فى العيادة لكنى خجلت من ملابسى التى يرثى لها ومن شعرى الطويل للغاية .

فى مكاتب شركة إلياس لامالك ، رسالة تنتظرنى تعرفت على خطها الجميل المائل على المظروف لكنى لا أجرؤ على قراءتها على الفور. يوجد أناس كثيرون فى مكتب البريد أمسكت بالرسالة بيدى وأنا أسير فى شوارع بورماتوران طوال الوقت وأنا أتسوق فقط عندما عدت إلى شرم الإنجليز أجلس فى خيمتى تحت شجرة التمر هندى العجوز. استطعت أن أفتح الخطاب، على المظروف قرأت تاريخ الإرسال ٦ يوليو ١٩١٤ لم يمض على الخطاب غير شهر واحد.

الرسالة مكتوبة على ورقة هندية خفيفة ناعمة ومبهمة ولم أفهم شيئًا غير القرقعة التى تحدثها بين أصابعى. اعتقدت أن هذه الأوراق تبددت فور انتقالنا من بوكان أين وجدتها لور؟ أفكر فى أنها احتفظت بها كل هذا الوقت كما لو أنها احتجزتها لكى تكتب لى. رؤية خطها المائل الأنيق أزعجنى لدرجة أنى لم أستطع القراءة للحظة ثم قرأت كلماتها بصوت خفيض لنفسى:

عزيزى على

كما ترى لا أدرى كيف أبدأ، كنت قد أقسمت ألا أكتب لك إلا لأقول كلمة واحدة: عدا ،مع هذا أكتب لك دون أن أعرف ماذا أقول لك. سأخبرك أولا ببعض الأخبار التى كما نتصورها ليست معروفة منذ رحيلك. كل شىء هنا أصبح أكثر حزنًا، ماما أوقفت

كل نشاطها، لاتريد حتى أن نذهب إلى المدينة لمحاولة تدبير أمورنا. أنا التى ذهبت عده مرات فى محاولة لاستدرار شفقة دائنينا. يوجد شخص إنجليزى يدعى السيد نوت (هو اسم لايخترع) يهددنا بالاستيلاء على قطع الأثاث الثلاث المتبقية فى فورست سايد. نجحت فى إيقافه وأنا أعده، لكن إلى متى؟ كفانا من هذا، ماما ضعيفة للغاية لاتزال تتحدث عن اللجوء لفرنسا لكن الأخبار التى تتوارد تتحدث جميعًا عن الحرب. نعم كل شىء قاتم فى الوقت الراهن لم يعد ثمة مستقبل .

قلبى ينقبض وأنا أقرأ هذه السطور. أين هو صوت لور، هى التى لم تكن تشكو أبدًا والتى كانت ترفض ماكانت تسمية "الأنين"؟ القلق الذى أشعر به ليس من الحرب التى تهدد العالم، إنه بالأحرى الفراغ الذى نشأ بينى وبين من أحبهم والذى يفصلنى عنهم بما لايمكن إصلاحه. أقرأ دومًا السطر الأخير حيث يبدو لى للحظة خاطفة أنى أتعرف من جديد على صوت لور وسخريتها: " لا أكف عن التفكير فى الوقت الذى كنا فيه سعداء فى بوكان فى الأيام التى لم تكن تنتهى. أتمنى لك أينما تكون أيامًا جميلة أيضًا وسعادة فى غياب الكنز"

وقعت فقط بالحرف "لـ" بدون صيغة وداع. لم تكن تحب مطلقًا المصافحة باليد ولا الأحضان. ماذا يبقى لى منها، بين يدى فى هذه الورقة الهندية القديمة؟

طويت الرسالة بعناية ورتبتها مع أوراقى فى الصندوق بالقرب من المقلمة، فى الخارج ضوء الظهيرة يبرق، يجعل الأحجار تلمع أسفل الوادى ويدعم أوراق الشجيرات الريح يحمل ضجيج المد الذى يصعد، البراغيث ترقص فى مدخل الخيمة، ربما تشعر بالعاصفة؟ يخيل إلىّ إنى مازلت أسمع صوت لور الذى يتوجه إلىَّ من الناحية الأخرى للبحر والذى يطلب منى المساعدة. رغم ضجيج البحر والريح، الصمت يطبق فى كل مكان هنا والوحدة تخطف البصر فى الضوء .

أسير عشوائيًا عبر الوادى ومازلت أرتدى سترتى الرمادية الكبيرة جدًا بالنسبة إلىَّ، والقدمان الملتصقان بحذائى الطويل الذى جف جلده أسير على الآثار التى أعرفها بطول خطوط خريطة القرصان وبداياته مسدس كبير سداسى الشكل ينتهى بستة رءوس وهو ليس إلا نجم خاتم سليمان والذى يرد على المثلثين المقلوبين للطوق.

أعبر عدة مرات شرم الإنجليز بنظرة متخبطة على الأرض، أسمع وقع خطواتى المترددة، أرى كل حجر عرفته كل دغل وفوق الكثبان الرملية عند مصب نهر روزو آثار خطاى التى لم تمحها أى أمطار، أرفع رأسى وأرى فى أسفل الوادى الجبال الزرقاء صعبة المنال كما لو كنت أريد أن أتذكر شيئًا ما بعيدًا ومنسيا عن وادى مانانا فا الكبير المظلم ربما هنا حيث كان يبزغ الليل.

لم أعد أستطيع الانتظار هذا المساء عندما تهبط الشمس فوق التلال أعلى رأس فينوس أسير حتى مدخل الوادى الصغير. مع الحمى أتسلق الكتل التى تسد المدخل وأحفر بضربات المعول فى جدران الوادى فى مخاطرة أن أدفن تحت الانهيار. لا أريد أن أفكر مطلقًا فى حساباتى فى المعالم. أسمع دقات قلبى فى الضجيج القاسى لتنفسى المجهد وهدير أهداب الأرض والحجر الذى ينهار. هذا يخفف عنى ويحررنى من قلقى.

مع الغضب ألقى بكتل الصخر التى تزن مائة كتاب على البازلت أسفل الوادى الصغير وأشم رائحة الملح الصخرى الذى يسبح فى الهواء الساخن. أنا فى حالة سكر. أعتقد سكر من الوحدة، سكر من الصمت ولهذا أجعل الأحجار تتشظى وأتكلم وحدى وأقول: "هنا! هنا ! ... هناك! أيضًا هناك!..."

أسفل الوادى الصغير اصطدمت بمجموعة من أحجار البازلت ضخمة وقديمة لدرجة لا أستطيع بها أن أشك فى أنها تدحرجت من أعلى التلال السوداء كان لابد من عدد كبير من الرجال لكى يثبتوها، لكنى لا أستطيع أن أقرر انتظار وصول سود المزارع، رابو وادريان ميركور أو فريتز كاستيل. فى جهد كبير وبعد حفر حفرة تحت أول حجر من البازلت توصلت إلى سحب الرأس بمعولى وضغطت على المقبض كما على أداة رفع الكتلة تتحرك قليلاً أسمع الأرض تسقط فى

تجويف عميق لكن مقبض المعول كسر وأسقط بعنف على الجدار الصخرى.

أظل لفترة طويلة نصف صريع. عندما أعود إلى نفسى أشعر بالسائل الساخن الذى يتدفق فى شعرى وعلى خدى إنه دمى. أنا ضعيف جدًا حتى أقف وأظل ملقى أسفل الوادى الصغير متوكئًا على كوع ممسكًا بمنديلى الملتصق بقفاى لكى يمنع الدم من التدفق .

قليلاً قبل الليل استيقظت من غفلتى بضجيج عند مدخل الوادى الصغير. فى هذيانى أتناول مقبض المعول لكى أدافع عن نفسى فى حالة ما إذا كان كلب متوحش أو ربما جرز جائع ثم توقفت على خيال "سيرى" النحيف الداكن فى ضوء السماء المتوهج يسير أعلى الوادى الصغير وعندما ناديته هبط بطول الجليد .

نظرات خائفة لكنه ساعدنى على الوقوف والسير حتى مدخل الوادى الصغير. جرحت وضعفت لكن أنا الذى قلت له كما الحيوان مفزع: "تعال هيا تعال! " نسير معا أسفل الوادى فى اتجاه المخيم. أوما تنتظرنى. تجلب ماء فى الوعاء وتضع ماء فى كف يدها تغسل جرحى حيث التصق الدم بشعرى. قالت "

"هل تحب حقًا الذهب؟"

حدثتها عن المخبأ الذى وجدته تحت حجر البازلت وعن علامات تشير إلى هذه الحجارة وهذا الوادى الصغير لكنى متحمس ومرتبك ويجب أن

تصدق أنى مجنون. بالنسبة إليها الكنز لايهم تذدرى الذهب مثل كل المناف .

الرأس محاط بمنديلى الملطخ بالدم أتناول الوجبة التى أحضرتها لى، سمك مجفف وكير. بعد الغداء جلست إلى جوارى وبقينا طويلاً دون أن تقول شيئًا أمام السماء الصافية التى تسبق الليل. طيور البحر تعبر شرم الإنجليز فى جماعات فى اتجاه مأواها الآن لم أعد أستشعر بنفاد الصبر ولا بالغضب.

أوما تميل برأسها على كتفى مثل الأوقات الأولى التى تعرفنا فيها. أشم رائحة جسدها وشعرها .

أحدثها عن الذى أحبه، حقول بوكان، الضروع الثلاثة، وادى مانانافا المظلم الخطير حيث يحلق دائمًا القش ذو الذيل. تستمع دون أن تتحرك تفكر فى شىء آخر. أشعر أن جسدها لايستسلم أبدًا. عندما أريد أن أطمئن عليها أن أربت عليها تبتعد تضع ذراعيها حول ساقيها الطويلتين كما كانت تفعل عندما تكون وحدها.

"ماذا بك ؟ هل أنت غاضبة ؟"

لا تجيب. نسير معًا حتى الكثبان الرملية فى الليل الذى يبزغ، الجو صحو للغاية خفيف جدًا فى بداية السيف السماء نقية تبدأ فى الترصع بالنجوم. "سيرى" بقى جالسًا بالقرب من المخيم دون حركة ومستقيم مثل كلب حراسة.

"أحكى أيضًا عندما كنت طفلاً "

أتكلم ببطء وأنا أدخن سيجارًا، أشم رائحة عسل التبغ الإنجليزى، أتكلم عن كل هذا: عن بيتنا عن ماما التى كانت تقرأ الدروس تحت الشرفة عن لور التى كانت تذهب لتختفى فى شجرتها شجرة الخير والشر عن وادينا الصغير. أوما تقاطعنى لتسألنى عن ماما عن لور بوجه خاص تسألنى عنها عن زينتها عما كانت تحبه واعتقدت أنها غيورة. اهتمام كبير من هذه الفتاة المتوحشة بفتاة برجوازية يسلينى. أعتقد إنه ما فى لحظة واحدة لم أفهم إذًا ماذا كان يدور بداخلها ما الذى جعلها تضطرب وأصبحت فى حالة ضعف. فى الظلمة أتبين بالكاد خيالها جالسة إلى جوارى فى الكثبان الرملية عندما أردت أن أقف لأعود إلى المخيم أمسكتنى من ذراعى .

"ابق أيضًا بعض الوقت حدثنى أيضًا عن هناك"

تريد أن أحدثها أيضًا عن مانانافا عن حقول القصب حيث كنا نعدو مع دونيس ثم الوادى الصغير الذى كان يفتح فى الغابة الغامضة والطير البطىء للعصافير ذات البياض المبهر.

ثم حدثتنى عن نفسها، عن رحلتها فى فرنسا وعن السماء المظلمة تمامًا والمنخفضة كثيرًا حتى يقال إن الضوء سوف ينطفئ إلى الأبد وعن الصلاة الكنيسة الصغيرة وعن الأغانى التى كانت تحبها حدثتنى عن هارى وعن جوفندا الذى يكبر وسط

الأبقار هناك فى بلد أمه. ذات يوم صنع "سيرى" نايا من بوصة واخذ يلعب وحده تمامًا فى الجبل وهكذا فهمت أمه أنه كان مبعوث الرب.

إنه هو عندما عادت لتعيش عند المناف الذى علمها الإمساك بالجديان فى السباق، هو الذى قادها أول مرة إلى البحر لكى تصطاد السرطانات والأخطبوط. تحدثت أيضًا عن سوخا وسيرى ثنائى طير الضوء الذى يعرف الكلام والذى يغنى للرب فى بلاد فرانداثان قالت إنه الثنائى الذى رأيته فيما مضى أمام مدخل مانانافا.

فى وقت لاحق عدنا إلى المخيم، لم نتكلم أبدًا هكذا بهدوء بصوت منخفض دون أن نرى بعضنا البعض فى مأمن من الشجرة الكبيرة. كما لو أن الزمن لا وجود له على الإطلاق ولا شىء آخر فى العالم غير هذه الشجرة وهذه الأحجار. عندما ذهبنا بعيدًا فى الليل تمددت على الأرض لكى أنام أمام مدخل الخيمة رأسى مستندًا إلى ذراعى أنتظر أوما حتى تتبعنى لكنها ظلت ساكنة فى مكانها تنظر إلى سيرى الجالس فوق حجر على انفراد وخيالها المضاء بالسماء شبيه بخيال حراس الليل.

عندما تشرق الشمس فى السماء فوق الجبال أكون تحت الخيمة جالسًا القرفصاء أمام الصندوق الذى أستخدمه كمكتب وأرسم خريطة جديدة لشرم الإنجليز وأخط كل الخطوط التى تجمع المعالم والكشف تدريجيًا عن نوع من العنكبوت تكون النقاط

الست من الحبل هذه النجمة الكبيرة ذات المثلثين المقلوبين إلى الشرق والغرب فقد كانت هى الرسم الأول.

لم أعد أفكر فى الحرب اليوم يبدو لى أن كل شىء جديد ونقى وأنا أرفع رأسى فجأة. لمحت سيرى الذى ينظر إلىّ، لم أتعرف عليه فورًا فى البداية اعتقدت أنه واحد من أطفال مزرعة رابو نزل بصحبة والده للصيد. نظراته هى التى عرفتها متوحشة قلق لكنها أيضًا عزبة وبراقة وتتجه مباشرة نحوى دون أن تتحول. أترك هنا أوراقى وأسير نحوه دون تسرع حتى لا أخيفه. عندما أصبحت على بعد عشر خطوات منه استدار الصبى وابتعد، ذهب دون تسرع قفزًا فوق الصخور واستدار لينتظرنى .

"سيرى! تعال! ... " صحت لأنى أعلم أنه لايستطيع أن يسمعنى لكنه يستمر فى الابتعاد متجها أسفل الوادى فتبعته على الطريق دون أن أبحث عن الإمساك به. سيرى يقفز بخفة فوق الصخور السوداء وأرى خياله الدقيق الذى يبدو راقصًا أمامى ثم يختفى بين الأدغال. أعتقد أنى فقدته لكنه هنا فى ظل شجرة أو فى حفرة صخرية، لم أره إلا عندما عاد يمشى.

على مدى ساعات تبعت سيرى عبر الجبل. نحن فى أعلى فوق تلال على أجنحة جبال جرداء. تحتى أرى المنحدرات الصخرية وبقع الشجيرات المظلمة

والشجيرات الشائكة. هنا كل شىء عار ومعدنى. السماء ذات زرقة جميلة والسحب تجىء من الشرق عدوًا فوق البحر تعبر الوادى وهى تلقى بظل سريع . تستمر فى الصعود. أحيانًا لا أرى حتى مرشدى وعندما لمحته بعيدًا أمامى وهو يرقص بسرعة وخفة لست متأكدًا من أنى لم أر معزة وكلبًا متوحشًا.

فى لحظة توقفت لأنظر إلى البحر على البعد كما لو لم أره على الإطلاق: شاسع لامع وقاس فى ضوء الشمس يجتازه هامش طويل من النسيم الصامت .

الريح يصفر فى هبوب باردة ويتسبب فى دموع بعينى، أبقى جالسًا على حجر لكى أستعيد أنفاسى. عندما استأنفت السير خفت من فقدان سيرى. مثنى العينين أبحث عنه فى أعلى الجبل على سفوح الوديان المظلمة. بينما أنا على وشك التخلى عن وجوده أراه محاطًا بأطفال آخرين مع قطيع من الماعز فى الجانب الآخر من الجبل. أنادى لكن صدى صوتى يجعل الأطفال يهربون ويختفون مع الماعز وسط الشجيرات والأحجار .

أرى هنا أثر خطى الرجال: أنواع من دوائر حجر جاف شبيهة بتلك التى وجدتها عندما وصلت أول مرة إلى شرم الإنجليز. ألاحظ أيضًا دروبًا عبر الجبل تلاحظ بالكاد ولكنى أستطيع أن ألمحها؛ لأن الحياة المتوحشة التى أحياها منذ أربع سنوات فى شرم الإنجليز علمتنى تحديد موقع مرور الرجال. وأنا

أستعد للنزول من الناحية الأخرى للجبل للبحث عن الأطفال أرى أوما فجأة تجىء نحوى ودون أن تلفظ بكلمة أخذتنى من يدى وقادتنى إلى أعلى المنحدر هنا حيث تشكل الأرض نوعًا من المنزلق المائل .

فى الناحية الأخرى من الوهاد على المنحدر الحاد بطول سيل جاف أرى أكواخًا من الحجارة والفروع وعدد قليل من الحقول تحميها الرياح بالجدران الحجرية. كلاب تشم رائحتنا وتنبح. إنها قرية المناف .

" لا يجب أن تذهب بعيدًا ـ هكذا قالت أوما ـ إذا جاء غريب يضطر المنافيون إلى الذهاب أبعد فى الجبل ".

نسير بطول المنحدر حتى الجانب الشمالى من الجبل. نحن فى مواجهة الريح أسفل البحر لانهاية له مظلم مرصع بالخراف. ناحية الشرق صفحة مياه البحيرة الفيروزية .

" الليل نرى أضواء المدينة " تقول أوما. تشير إلى البحر:" ومن هنا نستطيع أن نرى السفن قادمة.

"كم هو جميل! قلت ذلك بصوت يكاد يكون منخفضًا. أوما جالسة على عقبيها كما فعلت وهى تحيط بذراعيها ركبتيها. وجهها الداكن يستدير ناحية البحر والريح تهز شعرها. تستدير ناحية الغرب من ناحية التلال .

"يجب أن تهبط من جديد سيحل الظلام قريبًا "

لكننا بقينا جالسين بلا حراك فى هبوب الريح دون أن تتمكن من الانفصال عن البحر مثل طيور على أهبة التحليق عاليًا جدًا فى السماء. أوما لاتتحدث معى لكن يبدو لى أنى أشعر بكل مايدور بداخلها: رغبتها، يأسها. لاتقول ذلك على الإطلاق لكن لهذا تحب دومًا أن تذهب حتى الشاطئ تغوص فى البحر وتسبح ناحية حربتها الطويلة المسلحة وتنظر إلى رجال الساحل وهى مختفية وراء الصخور .

"هل تريدين الذهاب معى ؟"

نبرة صوتى أو بالأحرى سؤالى جعلها تقفز. نظرت إلىَّ بغضب لامعة العينين .

" ذهاب؟ إلى أين ؟ ماذا يريد منى ؟"

أبحث عن كلمات لأهدئها لكنها قالت بعنف:

"جدى كان عبدًا مع كل السود العبيد فى مورن. مات عندما سحقت ساقيه فى طاحونة القصب؛ لأنه كان قد لحق بأناس ساكالافو فى الغابة. فجاء أبى ليعيش هنا فى رودريج وأصبح نوتيًا لكى يسافر. أمى ولدت فى البنغال وأمها كانت موسيقية، كانت تغنى لشوفندا. أنا أين يمكننى أن أذهب؟ فى فرنسا فى دير؟ أو فى بورلويس لخدمة الذين قتلوا جدى، الذين اشترونا وباعونا كما العبيد ؟"

يدها باردة كما لو كانت مصابة بالحمى. فجأة وقفت أوما سارت نحو المنحدر فى الغرب هنا حيث

تتفرق الطرق هنا حيث انتظرتنى فى التو. وجهها هادئ من جديد لكن عينيها ما زالتا تلمعان من الغضب.

" يجب أن تذهب الآن لايجب أن تبقى هنا "

أردت أن أسألها لترينى بيتها لكنها كانت قد ذهبت دون أن تتلفت، هبطت فى اتجاه الوادى المظلم حيث أكواخ المناف . أسمع اصوات أطفال وكلاب تنبح. الظل يجىء بسرعة .

أهبط بطول السفوح وأعدو خلال الشجيرات الشائكة والتكعيبات، لم أعد أرى البحر ولا الأفق لاشىء غير ظل الجبال التى تكبر فى السماء. عندما أصل إلى وادى شرم الإنجليز كان الليل يهبط والمطر قد سقط ببطء تحت شجرتى فى مأمن من خيمتى أبقى منكمشًا بلا حراك، أشعر بالبرد والوحدة أفكر إذًا فى ضجيج الدمار الذى يكبر كل يوم، ويقصف مثل هدير عاصفة هذا الضجيج الذى يسود الآن الأرض جميعًا ولا يستطيع أحد أن ينساه. فى هذه الليلة بالتحديد قررت أن أذهب للحرب.

التقوا هذا الصباح فى مدخل الوادى الصغير أدريان ماركور من كبار السود يتمتع بقوة رباع وكان فيما مضى "الرجل القوى" فى مزارع كوبرابجوان دى نوفا، وإرنست رابو ،وسيلستان بروسبير والفتى فريتز كاستيل. عندما علموا أنى اكتشفت المخبأ جاءوا على الفور توقفت كل أعمالهم وكل منهم جاء بمجرفة وجزء من حبل. أيًا من كان سيرانا نعبر هكذا فى وادى شرم الإنجليز، هم بمعاولهم وقبعاتهم القش الكبيرة وأنا على رأسهم بلحيتى وشعرى الطويلين وثيابى الممزقة والرأس لاتزال مضمدة بمنديل كان سيعتقد أنه حفل تنكرى تقليدا لعودة رجال القرصان العائدين لاستعادة كنزهم! .

جو الصباح المنعش يشجعنا وبدأنا نحفر حول كتل البازلت أسفل الوادى الصغير. الأرض هشة على السطح ثم تصبح قاسية كما الصخرة كلما حفرنا. فى المقابل ضربنا ضربات قوية بالمعول فى حين أن آخرين يعملون على مسح المساحة الأكبر من الوادى الصغير وهكذا جاءتنى فكرة أن هذه الحجارة وهذه الأرض

المنهارة هى مدخل الوادى الصغير. أتخذت كمزلاج طبيعى يؤمن جريان الماء فى سطح النهر القديم، إنها فى الواقع لوازم رفع الأنقاض عندما حفر رجال القرصان المخابئ أسفل الوادى الصغير من جديد أشعر بهذا الانطباع الغريب بأن الوادى الصغير بأكمله هو نتاج خلق إنسانى ابتداء من خطأ بسيط فى المنحدر البازلتى الذى حفر ونقب حتى اتخذ مظهرًا لهذا الحلق الذى أعادت تشكيله مياه الأمطار منذ مايقرب من مائتى عام إنه انطباع غريب يكاد يكون مخيفًا مثل ذلك الذى ينبغى أن يشعر به الباحثون الذين يكتشفون مقابر مصر القديمة فى صمت وعلى ضوء الصحراء اللاإنسانية .

عند الظهر قاعدة أكبر كتلة من البازلت قوضت لدرجة أن دفعة بسيطة ستكون كافية لسقوط الصخرة اسفل الوادى الصغير، معا ندفع من الجانب نفسه الصخرة التى تتدحرج بضعة أمتار محدثة سيلا من الغبار والحصى. أمامنا تمامًا فى النقطة التى أشار إليها الأخدود المحفور على الحجر الدائم أعلى المنحدر توجد فجوة متقعرة مازالت مختفية بالغبار الذى يتطاير فى الهواء. دون مزيد من الانتظار، وضعت نفسى مسطح البطن ومررت جسدى فى الفتحة. كان لابد من ثوان كثيرة حتى تعتاد عيناى الظلام" ماذا هناك؟ ماذا هناك؟ " أسمع خلفى أصوات السود وقد نفد صبرهم، بعد وقت طويل جدًا تراجعت وأخرجت رأسى من الحفرة وأنا أشعر بنوع

من الدوار والدم يرتطم بعنف فى أصداغى وأوردة عنقى. من الواضح تمامًا أن هذا المخبأ الثانى فارغ هو الآخر .

بضربة معول وسعت الفتحة تدريجيًا، كشفنا نوعًا من البئر غارقة حتى قاع منحدر "كول ـ دى ـ ساك" قاع البئر تشكله الصخرة ذاتها بلون الصدأ التى تناوبت فى أسفل الوادى الصغير مع حواف البازلت. الفتى فريتز ينزل فى البئر حيث يختفى بأكمله ويصعد من جديد يهز رأسه :

"لايوجد شىء"

ماركور يهز كتفيه بازدراء

" إنه ينبوع الماعز "

هل هو حقًا واحد من مشارب الماشية القدامى؟ لكن لماذا يتسبب فى كثير من التعب بينما نهر روزو على بعد خطوتين؟ الرجال يخرجون مع معاولهم وحبالهم، أسمع ضحكاتهم تتطفئ عندما يصلون إلى مدخل الوادى الصغير، وحده الفتى فريتز يبقى إلى جانبى واقفًا أمام المخبأ المنفتح كما لو كان ينتظر تعليماتى، إنه مستعد لاستئناف العمل، ووضع معايير جديدة فى حفر ثقوب عميقة جديدة. ربما ترك نفسه يؤخذ بالحمى نفسها مثلى تلك التى تنسينا كل شىء. العالم والناس بحثا عن سراب وعن وميض ضوء .

"لم يعد شىء نفعله هنا" أحدثه بصوت منخفض كما لو كنت أتحدث إلى نفسى. ينظر إلىَّ بعينيه اللامعتين دون أن يفهم.

"كل المخابئ فارغة"

نخرج بدورنا من إطار الوادى الصغير المتأجج. فى الجزء العلوى من سطح أملس، أتأمل فى امتداد هذا الوادى والكتل الخضراء المظلمة من شجر التمر هندى والتكعيبات والأشكال الرافعة من الصخور البازلتية وخاصة هذا الخط الدقيق من الماء بلون السماء الذى يتعرج نحو الأهوار والكثبان الرملية. أشجار النخيل وجوز الهند تكون شاشة متحركة أمام البحر وعندما يصفر الريح أسمع ضجيج القواطع وتنفس نائم.

أين نبحث الآن؟ هناك بالقرب من الكثبان الرملية فى المستنقع؛ حيث كان يضرب البحر فيما مضى؟ فى هذه الكهوف على الجانب الآخر من النهر عند سفح برج راصد القائد المدمر؟ أو هناك فى أعلى بعيدًا جدًا فى جبال المناف المتوحشة عند ينابيع نهر روزو هناك حيث تعيش قطعان الماعز فى الشقوق المختفية فى شجيرات الشوك؟ يبدو الآن أن كل خطوط خطتى تتلاشى، وأن العلامات المسجلة على الأحجار ليست سوى آثار عاصفة ولسعة برق وتحول ريح اليأس يجتاحنى ويضعفنى، لدى الرغبة فى أن اقول لفريتز :

" انتهى الأمر، لم يعد شىء نجده هنا هيا بنا"

الفتى ينظر إلىَّ بإصرار كبير عيناه تلمعان بشدة لدرجة لا أجرؤ معها على إبلاغه بيأسى. بأقصى قوة

أستطيعها أسير أسفل الوادى نحو مخيمى تحت شجرة التمر هندى وأقول:

"سوف نقوم بأبحاث هناك ناحية الغرب، يجب أن نستطلع وأن نضع معالم. سوف ترى ستنتهى بالإيجاد سنبحث فى كل مكان فى الناحية الأخرى ثم أيضًا فى أعلى الوادى، لن نترك بوصة واحدة من الأرض دون بحث سوف نجد! "

هل يصدق ماأقوله ؟ يبدو مطمئناً من كلماتى يقول : " نعم ياسيدى سوف نجد إذا لم يكن المناف قد وجدوا قبلنا!

فكرة كنز القرصان فى أيدى المناف تجعله يضحك لكنه يضيف وقد أصبح جادًا فجأة :

"إذا كان المناف قد وجدوا الذهب سيلقونه فى البحر! "

وإذا كان ماقالة حق؟

القلق الذى أشعر به الآن منذ أسابيع وهذه الضوضاء التى تهدر فيما وراء البحار مثل ضجيج العاصفة، ولا أستطيع أن أنسى لا النهار ولا الليل وهأنذا ألمحهما اليوم فى كل عنفوانهما .

أغادر مبكرًا إلى بورماتوران على أمل رسالة جديدة من لور. أصل عبر الشجيرات والتكعيبات أمام نباتات كركة السلكى واللاسلكى عند نقطة فينوس وأرى مجموعة من الرجال أمام بيت البرق. أهالى

رودريج ينتظرون أمام الشرفة، البعض ينافس وهو واقف والبعض الآخر يجلس فى الظل على درج السلم النظرة غائبة وتدخين سيجارة واحدة .

فى جنونى أيام تمضى أسفل الوادى للعثور على مخبأ القرصان الثانى. لم أعد أفكر حقًا فى خطورة الوضع فى أوروبا. ومع هذا فى اليوم السابق وأنا أمر أمام عمارة "لامالالاك وشركاه" قرأت مع الجمع البيان المعلق بجوار الباب القادم من بور لويس على مركب البريد. البيان يتحدث عن التعبئة العامة للحرب التى بدأت هناك فى أوروبا. إنجلترا أعلنت الحر ب على ألمانيا جنبًا إلى جنب مع فرنسا. لورد كيتشنر دعا جميع المتطوعين فى المستعمرات والمتلكات فى كندا وأستراليا وفى آسيا أيضًا وفى الهند وإفريقيا. قرأت البيان ثم عدت إلى شرم الإنجليز ربما على أمل العثور على أوما والتحدث إليها فى هذا الشأن لكنها لم تأت ومن ثم ضوضاء النبأ أسفل الوادى الصغير جعلتها تخاف.

ولما كنت أتقدم ناحية بناية البرق لم يهتم بى أحد. رغم ملابسى الممزقة وشعرى الطويل جدًا تعرفت على ماكور ورابو وبعيدًا بعض الشىء على العملاق كازيمير وبحار زيتا هو أيضًا تعرف على وأضاء وجهه، أشرقت عيناه من الاطمئنان وشرح لى أنهم ينتظرون هنا التعليمات للمشاركة. لهذا لايوجد هنا غير الرجال، النساء لا يحببن الحرب .

كازيمير يحدثنى عن الحرب والسفن البحرية حيث يأمل أن يأخذوه عملاقًا فقيرًا طيب ! يتحدث

بالفعل عن معارك سيشارك فيها فى تلك البلاد التى لايعرفها ضد عدو يجهل اسمه ثم ظهر رجل هندى موظف بالبرق فى الشرفة. بدأ فى قراءة قائمة أسماء تلك التى سوف ترسل إلى مكاتب الاستقدام فى بورلويس. يقرأ الأسماء ببطء شديد فى الصمت الذى يركز الآن على الأماكن بصوته الجهورى الأخنب حيث اللكنة الإنجليزية تشوه المقاطع .

"هيرميت، كورنتان ، لاتور، سيفليت، لامى، رافغو ..." يقرأ هذه الأسماء وهبوب الريح تحملك وتفرق فى البراح بين التكعيبات والصخور السوداء هذه الأسماء ذات الصدى الغريب بالفعل كأسماء الموتى وشعرت فجأة بالرغبة فى الهرب والعودة إلى مدينتى حيث لا أحد يمكنه أن يجدنى. أختفى دون أن أترك آثارًا فى عالم أوما بين البوص والكثبان الرملية .الصوت البطىء يسرد الأسماء وأنا أرتجف، لم أشعر مطلقًا بهذا من قبل كما لو كان الصوت سينطق اسمى بين هذه الأسماء كأنه كان ينبغى أن يقول اسمى بين أسماء هؤلاء الرجال الذين سيتركون عالمهم لكى يحاربوا أعداءنا .

"بورتاليس ، هاوويه ، سيلين ، بيجيه هيتشن، كاستور ، بشيت ، سيمون ..."

يمكننى أن أذهب مرة أخرى أفكر فى الوادى الصغير فى الخطوط التى تتلاقى عند أسفل الوادى وتضىء نقاط العلامة كمعالم، أفكر فى كل ما عشته منذ شهور وسنوات، هذا الجمال المليء بالضوء

ضوضاء البحر والطيور الحرة. أفكر فى أوما فى بشرتها فى يديها الناعمتين وجسدها المعدنى الأسود الذى ينزلق تحت ماء البحيرة. يمكننى أن أذهب لايزال هناك وقت بعيد عن هذا الجنون عندما يضحك الرجال ويفرحون فى كل مرة ينطق الهندى باسمهم. يمكننى أن أذهب بحثًا عن مكان أنسى فيه ذلك حيث لن أسمع مطلقًا ضجيج الحرب فى ضجيج البحر والريح. لكن الصوت الرخيم سيستمر فى نطق الأسماء، هذه الأسماء غير الحقيقية بالفعل، أسماء رجال من هنا سيموتون هناك من أجل عالم يجهلونه.

"ڤرنى، لابوت، جيريمياه، روزين، ميديسيس، جوليكور، فيكتورين، إيمبوللا، راميللا، إيلك، أردو، جرونكور، سالو مون، رافين، روستتى، بيررين، بيرين كاديه، آزى، سوند يرييون ، كازيمير ..."

عندما نطق الهندى اسمه انتصب العملاق وقفز بقدمين متلاحقتين وهو يصرخ. وجهه يعبر عن ارتياح ساذج يمكننا أن نعتقد معه أنه فاز برهان، أو تلقى نبأ سارًا ومع هذا فإنه اسم موته الذى سمعه فى الحال .

ربما بسبب ذلك لم أهرب إلى شرم الإنجليز بحثًا عن مكان يمكننى فيه أن أنسى الحرب. أعتقد أنه بسببه، بسبب سعادته فى الوقت الذى سمع فيه اسمه.

عندما انتهى الهندى من قراءة أسماء قائمته ظل للحظة ساكنًا مع الورقة التى تهتز من هبوب الرياح وطلب بالإنجليزية :

"هل يوجد متطوعون آخرون؟ "

وعلى الرغم منى تقريبًا أصعد الدرج الحديدى حتى الشرفة وأعطيه اسمى لكى يضيفه إلى القائمة بعد قليل أعطى كازيمير إشارة الفرح. الآن معظم أهل رودريج يرقصون فى المكان ويغنون. عندما هبطت الدرج أحاط بى البعض وشدوا على يدى .

الفرح امتد على الطريق بطول البحر حتى بورماتوران وعبرنا شوارع المدينة فى الضوضاء والحشد للوصول الى المستشفى حيث يجرى الفحص الطبى. حقيقة الفحص إجراء شكلى لايستمر غير دقيقة أو دقيقتين. بالدور ندخل عراة الصدر فى مكتب شديد الحرارة حيث يوجد كمال بودو يحيط به اثنان من الممرضين يفحصان لفترة وجيزة المتطوعين ويعطيانهم خارطة طريق مطبوعة. انتظر أن يطرح على أسئلة لكنه ينظر فقط إلى أسنانى وعينى يسلمنى الخارطة وفى لحظة ذهابى يقول فقط بصوته الرقيق والخطير بينما وجهه الهندى لايعبر عن شىء" أنت أيضًا تذهب لكسر الأنابيب؟ ثم ينادى على التالى دون انتظار إجابتى. على الورقة أقرأ موعد مغادرتى ١٠ ديسمبر ١٩١٤ اسم السفينة لايوجد لكن وجهة الرحلة مسجلة بورسموث، قضى الأمر، لقد ارتبطت لن ألقى حتى لور وماما قبل الذهاب إلى أوروبا طالما أن الرحيل سيتم من ناحية سيشيل.

كل يوم أعود مع ذلك إلى الوادى الصغير كما لو كنت سأجد فى النهاية ما أبحث عنه. لا أستطيع أن

أبتعد عن هذا الثقب فى جنبات الوادى بغير عشب بغير شجر دون شىء يتحرك أو يحيا مع الضوء فقط الذى يشع على منحدرات الجبل الصدئة وصخور البازلت. فى الصباح قبل أن تحرق الشمس بشدة وفى غسق المساء أسير حتى النهاية " كال - دى - ساك" وأنظر إلى الثقوب التى اكتشفتها عند سفح المنحدر أستلقى على الأرض، أمرر أصابعى على فوهة البئر على الحائط الأملس بفعل المياه القديمة وأحلم من كافة الجوانب أسفل الوادى الصغير معلم بضربات المعول القوية والأرض مثقوبة بفوهات بدأ الغبار يملؤها بالفعل. عندما يصرخ الريح القوى داخل الوادى الصغير يمر فى هبات عارمة أعلى المنحدر انهيارات ثلجية صغيرة من الأرض السوداء تتدفق داخل هذه الثقوب تجعل الحصى يدوى داخل المخابئ. كم من الوقت ينبغى حتى تغلق الطبيعة بئر القرصان الذى أعلنت عنه فى وضح النهار؟ أفكر فى كل من سيجيئون بعدى. بعد عشر سنوات ربما بعد مائة عام ومن أجلهم قررت إذًا أن أسد المخابئ من جديد. فى الوادى أجد أحجارًا ضخمة مسطحة أحضرتها بعناء كبير حتى حلق البئر. حصى أخرى أصغر جمعت فى المكان استخدمتها فى ملء الثغرات وساعدتنى كمجرفة ألقى شيئًا من الأرض الحمراء فوقها وأدك بضربات قوية من المجرفة. الفتى فريتز كاستل يساعدنى فى هذا العمل دون أن يفهم لكنه لايطرح أسئلة أبدًا. كل هذا لم يكن بالنسبة إليه منذ البداية غير سلسلة من الطقوس غير المفهومة والمخيفة بعض الشىء.

عندما انتهى كل شىء نظرت بارتياح إلى التل الذى يخفى مخبئى القرصان أسفل الوادى الصغير يبدو لى أنه بإتمام هذا العمل أقدمت بخطوة جديدة نحو سعيى وأنى أصبحت على نحو ما شريكًا لهذا الرجل الغامض الذى سرت منذ وقت طويل على خطاه..

إنه المساء بخاصة الذى أحب أن أبقى خلاله فى الوادى الصغير. عندما تقترب الشمس من خط تلال الغرب الخشنة بالقرب من قمة القائد، يصل الضوء حتى نهاية ممر الحجر تقريبًا يضىء بطريقة غريبة أهداب الحجر، ينير بلق الصخر البركانى، أظل جالسًا هنا عند مدخل الوادى الصغير .

أنظر إلى الظل وهو يتقدم عبرالوادى الصامت أشاهد كل التفاصيل وكل حركة فى بلد الحجارة والمعاول هذا. أنتظر وصول طيور البحر صديقاتى التى تهجر كل سماء سواحل الجنوب وجزيرة بيرو وجومبرانى، وتطير نحو ملاذها فى الشمال هناك حيث البحر ينكسر، البحر فوق الحاجز المرجانى.

لماذا يفعلون ذلك؟ أى أمر سرى يقودهم كل مساء على طول هذا الطريق فوق البحيرة؟ كما أنتظر طيور البحر أنتظر أيضًا أوما، انتظر رؤيتها وهى تسير على مجرى النهر رقيقة وداكنة تحمل الأخطبوط فى نهاية حربتها أو سلسلة من الأسماك .

أحيانًا تأتى تزرع حربتها فى الرمل بالقرب من الكثبان الرملية كما لو كانت هى الإشارة كى أجىء

لرؤيتها. عندما قلت لها أنى عثرت على مخبأ القرصان الثانى، وأنه كان فارغًا انطلقت ضاحكة "إذًا لايوجد ذهب على الإطلاق لم يعد يوجد شىء هنا!" كنت غاضبًا فى البداية لكن ضحكتها معدية وسرعان ما ضحكت معها. هى على حق.

عندما أدركنا ان البئر كانت فارغة كان لابد وأن تكون رءوسنا مضحكة! أوما وأنا ركضنا نحو الكثبان الرملية عبرنا البوص بينما تطير أسراب الطيور الفضية أمامنا وهى تصرخ. نخلع ملابسنا بسرعة ونغطس معًا فى مياه البحيرة الشفافة واللطيفة لدرجة أننا نشعر بها بمجرد دخول أجسادنا فى العنصر الآخر. ننزلق تحت الماء بالقرب من المرجان طويلا دون أن نستعيد أنفاسنا. أوما لاتبحث حتى عن صيد الأسماك تلهو فقط بملاحقتها تحت الماء ومطاردة الأسماك الحمراء العجوز فى أركانها المظلمة لم نكن أبدًا سعداء هكذا منذ أن علمنا أن مخابئ الكنز فارغة! ذات مساء بينما ننظر إلى النجوم الساطعة فوق الجبال قالت:

"لماذا تبحث عن الذهب هنا ؟"

أردت أن أحدثها عن بيتنا فى بوكان عن حديقتنا الشاسعة عن كل ما فقدناه بما أنى أبحث عن هذا لكنى لم أعرف أن أقول لها ذلك وأضافت بصوت هامس كما لو كانت تكلم نفسها: "الذهب لايساوى شيئًا، لايجب أن نخاف منه، أنه مثل العقارب التى لاتلدغ إلا من يخاف "

تقول ذلك ببساطة دون تكلف ولكن بقسوة كشخص واثق تقول أيضًا:

"أنتم العالم الكبير تعتقدون أن الذهب هو الشىء الأقوى والمرغوب فيه أكثر ولهذا تشعلون الحرب. الناس يموتون فى كل مكان من أجل الحصول على الذهب"

هذه الكلمات جعلت قلبى يدق؛ لأنى أفكر فى التزامن للحظة واحدة وددت أن أقول كل شىء لأوما لكن حلقى ينقبض، لم يعد يتبقى لى غير أيام معدودات أعيشها هنا بالقرب منها فى هذا الوادى البعيد جدًا عن الدنيا، كيف أتحدث عن الحرب مع أوما؟ بالنسبة إليها هذا هو الشر أعتقد أنها لن تغفر لى ذلك وأنها ستهرب على الفور .

لا أستطيع أن أتحدث معه. أتناول يدها فى يدى أشد عليها بقوة حتى أشعر تمامًا بحرارتها، أتنفس تنفسها على شفتيها. الليل لطيف ليلة صيف والريح يكف عندما يكون البحر فى المد، النجوم كثيرة وجميلة كل شىء مفعم بالسلام والبهجة لأول مرة أعتقد أننى أستمتع بالوقت الذى يمر بدون نفاد صبر ولا رغبة ولكن بحزن وأنا أفكر فى أن لاشىء من كل هذا يمكنه أن يعود وأن ذلك سيدمر. أحيانًا كثيرة أكون على وشك الاعتراف لأوما بأننا لن نتلاقى أبدا لكن ضحكتها وتنفسها ورائحة جسدها وطعم الملح على جلدها هو الذى يوقفنى كيف أزعج هذا السلام؟ لا

أستطيع أن أمسك بما سوف ينكسر ولكن يمكننى أن أعتقد أيضًا فى المعجزة.

كل صباح مثل معظم أهالى رودريج أكون أمام مبنى البرق بحثًا عن أخبار جديدة .

الأخبار القادمة من أوروبا يتم عرضها تحت الشرفة بالقرب من باب البرق. من يعرفون القراءة يترجمون بلغة الكرييول للآخرين. فى الشجار تمكنت من قراءة بعض السطور: الأمر يتعلق بجيوش الفرنسيين والهيج وفرق لانجل الفرنسية. ولارزاك وعن المعارك فى بلجيكا والتهديدات على نهر الراين والجبهة على الواز بالقرب من ديانون وفى الأردان بالقرب من موس أعرف هذه الأسماء لأنى درستها فى الكلية لكن ماذا يعنى بالنسبة إلى معظم أهالى رودريج؟ هل يفكرون فى هذه الأسماء كما فى أنواع الجزر حيث يؤرجح الريح أشجار جوز الهند والنخيل وحيث يسمعون كما هنا ضجيج البحر المتواصل على الأرصفة؟ أشعر بالغضب ونفاد الصبر؛ لأنى أعلم أنه فى وقت قصير بضعة أسابيع، ربما سأكون هناك على ضفاف هذه الأنهار المجهولة فى هذه الحرب التى تجتاح كل الأسماء .

هذا الصباح عندما جاء الفتى فريتز كاستل فعلت شيئًا يشبه الوصية. مزودًا بجهاز قياس الزوايا حسبت لآخر مرة خط شرق ـ غرب الذى يمر بالضبط من خلال علامتى المرساة على ضفاف الوادى وأكملت

الموقع الذى يلتقى فيه هذا الخط بالمدار الشمالى ـ الجنوبى كما تشير إليه البوصلة مع الاختلاف الطفيف الذى يتسبب فيه اتجاه نجم الشمال عند نقطة التقاء هذين الخطين أى فى مركز وادى نهر روزو عند حدود أرض المستنقع الذى يشكل لسانًا من الأرض بين ذراعى النهر جلبت حجرًا ثقيلاً من البازلت يتخذ شكل حد لجلب هذا الحجر، كان لابد من جعله ينزلق بمساعدة الفتى الأسود على طريق البوص والفروع الضخمة المرتبة على مجرى النهر. ربطت حبلا بالحد وسحبنا ودفعنا بالتناوب ونقلنا إلى الطرف الآخر من الوادى على مسافة أكثر من ميل حتى النقطة التى سجلتها على خرائطى مرتفعة قليلاً على كومة من الأرض ناتئة فى المصب وتوجد محاطة بمياه المد المرتفع.

كل هذا العمل شغلنا طوال اليوم تقريبًا. فريتز كاستيل ساعدنى دون أن يطرح علىَّ أسئلة ثم عاد إلى بيته .

الشمس منخفضة فى السماء. عندما استعنت بإزميل بارد وبحصاة ضخمة تستخدم كمطرقة. بدأت أخط رسالتى للمستقبل على رأس الحد رسمت أخدودًا طويلاً من ثلاث بوصات يتطابق مع الخط الذى ربط بين الجهات شرق ـ غرب على جانب الحد من الناحية الجنوبية سجلت النقاط الرئيسية للمعلم الذى يربط معالم القرصان. يوجد حرف M الذى يمثل ذروة قمة القائدو: : المختومة على الصخرة

والأخدود الذى يحدد الوادى الصغير والنقطة التى تشير إلى الحجر الأكثر فى الشمال عند مدخل المصب. على الجانب الشمالى، من الحد سجلت عن طريق خمس كلمات المعالم الرئيسية الخمسة للقرصان: لو شارلو، لو بيلاكتير، تل الرياح الأربعة والتى تشكل أول محاذاة جنوب ـ جنوب ـ الشرق، والقائد، وبيتون اللذان يشكلان محاذاة ثابتة متباينة قليلاً.

كنت أريد أن أحفر أيضًا مثلثات لحرق القرصان المسجلة فى الدائرة التى تمر عبر الحلقات والحجر الأكبر فى الشمال؛ حيث يكون هذا الحد كما أدرك هو المركز. لكن مساحة الحجر متفاوتة جدًا لكى تسمح بالتسجيل بأزميلى الحاد برسم دقيق للغاية، سعدت بالتسجيل على قاعدة الحد بحروف كبيرة حروفى الأولى AL وفى أسفل التاريخ بالأرقام الرومانية

mcmxIv	XII	X
١٠	١٢	١٩١٤

بعد ظهر هذا اليوم الأخير ـ بلا شك ـ الذى أقضيه هنا فى شرم الإنجليز أردت التمتع بحرارة عز الصيف لكى أسبح طويلا فى البحيرة. خلعت ملابسى فى البوص أمام الشاطئ المهجور هنا حيث كنا نذهب مع أوما. اليوم كل شىء يبدو لى أيضًا أكثر صمتًا وبعدًا وهجرانًا. لم تعد توجد أسراب الطيور الفضية

التى كانت تتدفق وهى تطلق صرخات حادة. لم تعد توجد طيور بحر فى السماء. لاتوجد غير سرطانات الجنود الفارين إلى وحل المستنقع مخالبها المتجهة نحو السماء أسبح طويلاً فى المياه اللطيفة للغاية التى تمس خفيفًا المرجان الذى يكشفه البحر بعينين مفتوحتين على آخرهما تحت الماء أرى أسماك الأعماق وصناديق أمتعة وضفائر بلون اللؤلؤ وأسماك رائعة زعانفها ظهرية سامة مثل معدات سفينة. قريبًا جدًا من الشعاب المرجانية طاردت سمكة عجوز تتوقف لتنظر إلىّ قبل أن تهرب ليس معى حربة ولكنى وددت أن تكون معى واحدة، وأعتقد أنى لن يكون لى قلب لاستعمالها ضد واحدة من هذه المخلوقات الصامتة وأن أرى دماءها تحمر الماء! على الشاطئ فى الكثبان الرملية غطيت بالرمال وانتظرت أن تميل الشمس على الماء الذى يسكب على جلدى فى جداول صغيرة مثلما كنت هنا مع أوما.

نظرت إلى البحر طويلا أنتظر. أنتظر ربما تظهر أوما على الشاطئ عند الغروب وحربتها الأبنوس فى يدها تحمل الأخطبوط كأنها غنائم. الظلال تملأ الوادى عندما أسير فى اتجاه المخيم. بقلق برغبة أتطلع إلى الجبال العالية الزرقاء وفى عمق الوادى كما لو كنت أرى اليوم فى نهاية المطاف ظهور شكل إنسانى فى بلد الحجارة هذا. هل ناديت:" أوما ـ آه"؟ ربما لكن بصوت ضعيف جدًا إذًا مخنوق جدًا بحيث لم يوقظ أى صدى لماذا ليست هنا الآن أكثر من أى

مساء؟ جالسًا على حجرى الأملس تحت شجرة التمر هندى العجوز أدخن وأنا أنظر إلى الليل الذى يدخل فى جوف شرم الإنجليز. أفكر فى أوما كما كانت تستمع عندما كنت أحدثها عن بوكان أفكر فى وجهها المختفى فى شعرها فى طعم الملح على كتفها. وهكذا كانت تعرف كل شىء، كانت تعرف سرى وعندما كانت بالقرب منى فى المساء الأخير كانت تقول لى وداعاً. لهذا كانت تخفى وجهها وكان صوتها قاسيًا ومريرًا عندما كانت تحدثنى عن الذهب عندما قالت"أنتم العالم الكبير" لأنى لم أفهم أشعر الآن بالغضب منها ومن نفسى. أسير محمومًا فى الوادى ثم أعود لأجلس تحت الشجرة الكبيرة حيث الليل قد بدأ بالفعل أكوم الأوراق بين يدى والخرائط. لاشىء من كل هذا يعنينى! الآن أعلم أن أوما لن تأتى أبدًا. أصبحت مثل الآخرين مثل رجال الساحل الذين يراقبهم المناف عن بعد فى انتظار خروجهم من الممر .

فى هذا الغسق الخفاق أركض عبر الوادى أتسلق أعالى التلال هربًا من تلك النظرة التى توجه من كل الجهات فى آن واحد، أتعثر على الحصى أتشبث بكتل البازلت أسمع الأرض تنهار تحت قدمى حتى أسفل فى الوادى على البعد فى مواجهة السماء الصفراء الجبال سوداء ومصمتة دون أى ضوء دون نار. أين يعيش المناف؟ على بيتون وعلى ليمون فى الشرق أو على باليكتار فوق بورماتوران؟ لكنهم لايكونون أبدًا لليلتين فى المكان ذاته. ينامون فى رماد نيرانهم الحار

الذى يختنق عند الغسق مثل السود العبيد فى جبال موريشيوس فوق المورن فيما مضى. أريد أن أصعد أعلى حتى سفوح الجبال لكن الليل يهبط وأصطدم بالصخور، تتمزق ملابسى ويداى. أنادى أوما مرة أخرى بكل قواى الآن: " أو - ما" وصرختى تتردد فى الليل فى الوديان محدثة دويًا غريبًا مثل صرخة حيوان يخيفنى أنا نفسى. لذلك أبقى نصف نائم عند منحدر جلاسى وأنتظر عودة الصمت فى الوادى ولهذا كل شىء سلس ونقى غير مرئى فى الليل ولا أريد أن أفكر مطلقًا فيما سيكون غدًا. أريد أن أكون وكأن شيئًا لم يكن.



إيبر، شتاء ١٩١٥

غفوة، خريف ١٩١٦

لم نعد حديثى التنصر لا البعض ولا البعض الآخر. جميعنا نلنا نصيبنا من البؤس، تعرضنا للأخطار جميعًا الكنديون الفرنسيون من لواء المشاه الثالث عشر، المستعمرون الهنود من الفرقة السابعة والعشرين والثامنة والعشرين عرفنا شتاء منطقة الفلاندر عندما جمدت البيرة فى البراميل والمعارك فى الثلج والضباب والدخان السام والقصف المستمر والحرائق فى الملاجئ كثير من الرجال لقوا حتفهم لم نعد نعرف الخوف أصبحنا لامبالين كأننا فى حلم نحن الناجين..

منذ شهور على ضفاف النهر نقلب الأرض والطين يومًا بعد يوم دون أن ندرك مانفعله دون الحاجة حتى إلى معرفته. منذ فترة طويلة ونحن فى هذه الأرض نسمع هدير المدافع وصوت غربان الموت، لم نعد نعرف شيئًا عن الوقت . هل توجد أيام، أسابيع، شهور؟ لكن يوجد الواحد نفسه الذى يعود دون توقف يفاجئنا ونحن نائمون فى الأرض الباردة ضعفاء من جراء الجوع متعبون اليوم الواحد نفسه

الذى يدور ببطء مع الشمس الشاحبة خلف الغيوم. إنه اليوم نفسه الذى استجبنا فيه لدعوة اللورد كتشنر لوقت طويل، منذ الآن لم نعد نعرف متى بدأ كل هذا حتى لو كانت هناك بداية. الإبحار على مدرعة على قصر من الصلب فى ضباب بورماوس ثم القطار عبر الشمال وقوافل الخيول والرجال الذين يسيرون تحت المطر على طول الطريق الحديدى نحو "إبير"، هل عشت كل هذا ؟ متى كان ذلك ؟ منذ شهور، سنين ؟ من كانوا معى على طريق شتاء فلاندر، ريمى من كيبيك هاللوكو من الأرض الجديدة بيرران، رونووار، سيمون بينما أجهل الأصل من مرة كانوا هناك فى ربيع ١٩١٥ لتولى المسئولية من قوة الحملة المتضررة من معارك الباسيه ... الآن لانعرف أحدًا نحرث أرض الطين ونحفر الخنادق ونتقدم زاحفين نحو النهر والمرساة يومًا بعد يوم مترًا بمتر مثل العقارب المذعورة نحو التلال المظلمة المطلة على هذا الوادى أحيانًا فى صمت هذه الحقول الفارغة الثقيل نسمع ونحن ننتفض طرقعة رشاش وانفجار بعيد وراء خط من الأشجار .

عندما نتحدث فبصوت منخفض.. كلمات تروح وتجىء وأوامر مكررة متناقضة ومشوهة وتساؤلات وأخبار عن مجهولين. فى الليل أغنية عندما يمنعنا البرد من النوم فى حفرنا نتوقف فجأة ولا أحد يفكر فى أن يطلب الاستمرار. الصمت يؤذينا. المياه ناقصة رغم المطر. يلتهمنا القمل والبراغيث نتغطى بقشرة

من طين مختلطة بالتراب والدم. أفكر فى الأيام الأولى عندما أظهرنا فخرنا بزينا البيج الناصع لمتطوعى ما وراء البحار وقبعاتنا من اللباد فى شوارع لندن وسط جنود المشاة ذوى الملابس الحمراء وكتائب القنابل اليدوية ورماة الفرقة السابعة والعشرين والفرقة الثامنة والعشرين من جيش الهنود يرتدون جلابيبهم ويضعون عمائمهم البيضاء العالية فى الهواء البارد وتحت شمس ديسمبر. أفكر فى العيد فى حى سان بول فى أيام العام الجديد تلك التى لم تكن تنتهى والمواكب فى الحدائق المغطاة بالجليد وانتشاء الأيام الأخيرة والابحار السعيد على أرصفة واترلو والفجر فى الضباب فوق جسر المدرعة الضخمة. الرجال فى أرديتهم الكاكى يغطيهم الضباب هؤلاء المتطوعون القادمون من أركان الدنيا الأربعة مفعمون بالأمل يشاهدون فى الأفق خط السواحل الفرنسية المظلم .

كل هذا بعيد جدًا الآن لم نعد متأكدين حتى من وجوده حيًا حقيقية. التعب والجوع والحمى شوهوا ذاكرتنا واستهلكوا سجل ذكرياتنا لماذا نحن هنا اليوم؟ مدفونون فى هذه الخنادق.. الوجه أسود من الدخان والملابس رثة جمدها الطين الجاف منذ شهور فى رائحة المراحيض والموت.

الموت اصبح مألوفًا وغير مبال. تدريجيًا مزق صفوف من عرفتهم فى الأيام الأولى عندما نقلنا فى العربات المدرعة إلى محطة بوف ـ حشد ضخم قابلته فى اللحظات الأولى بين الألواح التى أغلقت النوافذ

والسير تحت المطر نحو وادى إيزير المنتشر على طول الطرق المقسمة والمتحدة والمنفصلة من جديد. فرقة مورلان الخامسة وفرقة سنو السابعة والعشرين وفرقة بولفان الثامنة والعشرين وفرقة الدرسون الكندية الأولى وقدامى محاربى أكتوبر الذين سننضم إليهم مع الجيش الإقليمى وقوة الاستطلاع. نفكر إذًا فى الموت أيضًا لكن فى موت مجيد كنا نتحدث عنه فيما بيننا مساء فى إقامتنا المؤقتة: ضابط من الإسكتلنديين كان قد شن هجومًا على رأس رحاله مسلحًا بسيف ضد الرشاشات الألمانية. على قناه كومين كان الرجال ينتظرون أمر الهجوم بفارغ الصبر وبنشوة وهم يسمعون صوت المدافع الذى يدوى ليل نهار كما لو كان رعدًا تحت الأرض. عندما جاء الأمر وعندما علمنا أن قوات الجنرال دوجلاس هيج كانت قد بدأت مسيرتها نحو بروج انفجرت فرحة عارمة صاح الجنود "هوراه(*)" مرحى! وهم يقذفون بقبعاتهم فى الهواء وفكرت فى رجال رودريج الذين كانوا ينتظرون أمام مبنى البرق. انضم إلينا جنود سلاح الفرسان الفرنسى عند شاطئ نهر ليس. فى ضوء غسق الشتاء بدا زيهم الأزرق غير واقعى شبيه بحلى الطيور.

بدأنا إذًا مسيرتنا الطويلة نحو الشمال الغربى ونحن نصعد قناة "إيبر" نحو غابة هوج فى اتجاه زمجرة الرعد. كل يوم نلتقى بفرق. كانوا من الفرنسيين والبلجيك الناجين من مذبحة ديكسمود

(*) صيحة استحسان وحماس.

العائدين من رامسكابيل حيث تسبب البلجيك في فيضان ضخم وهم يفتحون بوابات الهويس. ينزفون في أسمالهم وهم يروون حكايات مخيفة، الألمان الذين كانوا يطلعون دون توقف في جحافل محمومة تعوى، المعارك في الوحل بالسلاح الأبيض بالحربة والخناجر، الأجساد وهي تدخل مجرى الماء معلقة في الأسلاك الشائكة مأخوذة في البوص.

هذا ما لا أستطيع أن أكف عن سماعه. ثم حولنا حزام النار قد أغلق في الشمال في ديكسمود في سان ـ جوليان في غابة أوتولست في الجنوب على ضفاف ليس ناحية متين وفيرفيك. ثم تقدمنا في مكان صحراوي محروث بضربات حيث تنتصب الجذوع بدون فروع شجر متكلسة. نتحرك ببطء شديد كما لو أننا نزحف : في بعض الأيام في الصباح نشاهد في نهاية حقل الوادي الصغير والمزرعة مدمرة حيث نعلم أننا لن نصل إلا في المساء. التربة ثقيلة تحمل على سيقاننا وتركز على نعالنا وتجعلنا نقع في مواجهة الأرض. البعض لايقف مرة أخرى .

في الخنادق التي حفرناها قبل الفجر نزحف ونحن نسمع هدير المدافع قريب جدا الآن وقعقعة الرشاشات بعيداً خلف التلال من ناحية ايبر. الفرنسيون يقاتلون أيضًا لكننا لا نرى رجالا : فقط العلامات السوداء التي يحدثونها لتلطيخ السماء. في المساء بارنو من الأنهار الثلاثة يتحدث عن النساء يصف أجسادهن ووجوهن وشعرهن، يقول كل

هذا بصوت غريب مبحوح وحزين كما لو كانت هذه النساء التى وصفها قد ماتت جميعًا. ضحكنا فى البداية لأن هذا لم يكن منطقيًا أن تكون كل هذه النساء عاريات وسط الحرب معنا. الحرب هذه ليست قصة نساء بل على العكس تمامًا أنها أكثر اجتماعات الرجال عقمًا. ثم كل أجساد النساء هذه فى هذا الوحل فى رائحة البول والعفن مع دائرة النار هذه التى تحترق ليل نهار حولنا، هذا يجعلنا نرتجف ويملأنا بالرعب قلنا له تحترق باللغتين الإنجليزية والفرنسية إذًا: كفى اصمت أسكت كفى كلامًا عن النساء أسكت ذات مساء وكان يواصل هذيانه، رجل إنجليزى طويل القامة ضربه بقبضة يده بوحشية وكان سيرديه قتيلاً ربما لو لم يصل الضابط الملازم ثان والمسدس فى يده. فى اليوم التالى اختفى بارنو كان قد أحيل كما يقال إلى اللواء الثالث عشر مشاه ولقى حتفه خلال معارك سان جوليان .

أصبحنا إذًا غير مبالين بالموت على ما أعتقد كل يوم كل ساعة تصلنا إخباريات عن هؤلاء الموتى ضربات القذائف الصماء فى الأرض ورشقات الرشاشات وإشاعات غريبة تتوالى أصوات وقع خطوات رجال يركضون فى الوحل أوامر صادرة من الضباط، استعدادًا للقتال قبل الهجوم المضاد.

فى الثالث والعشرين من إبريل: بعد أول إطلاق للغاز فوق الخطوط الفرنسية قمنا بهجوم مضاد بأوامر من العقيد جيدز مع اللواء الثالث عشر وكتائب

اللواء الثالث الكندى. طوال اليوم نتقدم نحو الشمال الشرقى فى اتجاه غابة اوزالست. وسط السهل القنابل التى تحفر حفرًا قريبة جدًا تجبرنا على عمل مأوى لليل. على عجل نفتح حفرًا من عشرة أقدام حيث ندفن ستة أو سبعة متلاصقين مثل السرطانات. منكمشين والخوذة الفولاذية مضغوطة فوق الرأس ننتظر حتى اليوم التالى دون أن نجرؤ على التحرك تقريبًا. وراءنا نسمع المدافع البريطانية التى ترد على المدافع الألمانية. فى الصباح ونحن ننام بحيث يميل كل منا على الآخر صفير قذائف يوقظنا ونحن نقفز. الانفجار من القوة بحيث تساقطنا على الرغم من ضيق الإطار مسحوقًا بثقل رفاقى أشعر بسائل ساخن يتدفق على وجهى: دم. لقد جرحت وربما مت؟ أدفع الأجساد التى سقطت فوقى وأرى أنهم رفاقى الذين قتلوا إنها دماؤهم التى تتدفق من فوقى.

أزحف نحو حفر الرجال الأخرى أنادى الأحياء. معًا نسحب الجرحى إلى الخلف ونبحث عن مأوى لكن أين؟ نصف صحبتنا قتلوا. الملازم الثانى الذى أوقف بارنو انفصل رأسه بقذيفة. عدنا الى الخطوط الخلفية. فى الخامسة مساء مع رجال القائد سنو الإنجليزى نصعد للهجوم بوثبة لعشرة أمتار عبر الحقل الملعون. فى الخامسة والنصف بينما ضوء الشفق فى طريقه للانكسار فجأة صعدت سحابة كبيرة صفراء خضراء فى السماء على بعد خمسين مترًا أمامنا. الريح الخفيف دفعها برفق نحو الجنوب السكون انفجارات أخرى أكثر قربًا أدت إلى موتى مختلفين جدد.

قلبى توقف عن الخفقان، لرعب شلنى! صاح أحدهم: " الغاز !" إلى الوراء! ركضنا نحو الخنادق وبسرعة أعددنا أقنعة بمناديل ومعاطف ممزقة ومقاطع من القماش المنتزعة التى قطعناها بإناء الماء الضامر. السحابة تتقدم دائمًا نحونا خفيفة متوعدة بلون نحاسى فى ضوء الغسق. الرائحة العفنة دخلت بالفعل فى الرئة وجعلتنا نعطس. الرجال يعودون إلى الوراء وجوههم تعبر عن الكراهية والخوف. عندما جاء الأمر بالانسحاب إلى سان ـ جوليان بدأ الكثيرون بالفعل فى الركض فوقعوا على الأرض. أفكر فى الجرحى الذين ظلوا فى خنادقهم، على من يمر الموت الآن. أنا أيضًا ركضت عبر الحقل المحفور بالقنابل عبر الأخشاب المحترقة المنديل مبلل بالماء الطينى مشدود على وجهى.

كم ماتوا؟ كم يستطيعون الحرب أيضًا ؟ بعد مارأيناه وهذه السحابة القاتلة التى كانت تتقدم برفق نحونا صفراء ونحاسية مثل الغسق نظل محصورين فى حفرنا نراقب السماء ليل نهار دون ملل. نحسب آليًا ربما على أمل إعادة أصحاب الأسماء المتاحة من جديد والتى لاتشير إلى أحد بعينه:" سيمون، لونفون، جاراديك، شافير... وأدريان والصغير ذو الشعر الأحمر، وجوردون وكان يسمى هكذا جوردون .. وبومييه وأنطوان الذى نسيت اسم عائلته والذى كان يشتق من جولييت وليون بير وريمون ودوبوا وسانتوى ورينير..." لكن هل هى أسماء حقًا؟ هل وجدوا

بالفعل؟ كنا نظن الموت خلاف ذلك عندما جئنا لأول مرة من بعيد جداً: الموت المجيد فى وضح النهار نجمة من الدم على الصدر، لكن الموت خداع وغادر يضرب فى الخفاء ويقتلع الرجال أثناء الليل فى نومهم ودون علم الآخرين. يغرق فى الحفر فى برك الوحل أسفل الوديان يخنق تحت الأرض يجمد جسد هؤلاء الذين ينضوون فى المستوصفات تحت قماش الخيام المثقوب هؤلاء الذين شحبت وجوههم وأصيبوا بهزال فى الصدر ونخرت فيهم الدوسنتاريا والالتهاب الرئوى والتيفويد هؤلاء الذين يموتون وتتم إزالتهم وذات يوم ندرك غيابهم. أين هم؟ ربما حظيوا بإبعادهم إلى الخلف ربما فقدوا عينًا أو قطعوا ساقًا وأنهم لن يذهبوا أبدًا إلى الحرب. لكن شيئًا ما يحذرنا شيئًا ما فى ظل الغياب فى الصمت الذى يحيط بأسمائهم: لقد ماتوا.

وهكذا كما لو أن حيوانًا ما متوحشًا جاء ليلاً فى نومنا غير المستقر وقبض على البعض منا واقتادهم لكى يلتهمهم فى مخبئه هذا يسبب ألمًا حريقًا فى أعماق جسدنا لاننساه مهما فعلنا منذ الهجوم بالغاز فى ٢٤ إبريل لم نعد نتحرك ظللنا فى الخنادق هى ذاتها التى بدأنا فى حفرها منذ ستة أشهر عندما وصلنا. أمامنا إذًا المكان كان لايزال سليمًا متوهدًا بالأشجار التى أفسدها الشتاء راسخة فى حقولها مراع ملطخة بالماء ومسيجة، صفوف من أشجار التفاح وعلى البعد خيال مدينة أيبر بعمودها الحجرى

الذى ينبثق من الضباب. الآن من خلال عدسة البندقية لا أرى غير فوضى من الأرض والأشجار المحترقة. القذائف حفرت مئات الحفر ودمرت الغابات والقرى الصغيرة وبرج أجراس ايبر الذى يميل مثل فرع مكسور. إنه الصمت والعزلة اللذان تلا سقوط نيران قنابل الأسابيع الأولى. دائرة النار عمت مثل حريق هلك كل شىء وهمد بسبب نقص الوقود. إذا سمعنا بالكاد فى كل لحظة هدير البطاريات وإذا رأينا أعمدة الدخان هناك حيث أصابت قذائف الحلفاء.

هل لقى الجميع حتفهم؟ ذات ليلة اخترقت هذه الفكرة روحى بينما أجلس على صندوق حراسة فى منجى من درع البندقية. لخداع الرغبة فى التدخين أمضغ عصا من عرق السوس التى أعطاها لى جندى كندى لا أعرف حتى اسمه. الليل بارد بدون سحب ليلة شتاء من جديد أرى النجوم بعضها لا أعرفه، أنها نجوم السموات الشمالية. فى ضوء القمر الذى يبزغ الأرض التى مزقتها القذائف بدت أيضًا أكثر غرابة مهجورة. فى صمت الليل بدا العالم خاليًا من الرجال والحيوانات شبيهًا بهضبة مرتفعة ضائعة فى منطقة فقدت الحياة إلى الأبد. انطباع الموت الذى أشعر به هو أنى لا أستطيع تحمله. ذهبت إلى رفيق ينام وهو جالس مستند بظهره إلى جدار الخندق. هززته نظر إلىَّ بذهول كما لو أنه لايتذكر على الإطلاق المكان الذى كان فيه ."تعال انظر! تعال ! " جذبته حتى برج

المراقبة وأطلعته خلال فتحة البندقية على هذا المنظر الجليدى فى ضوء القمر". أنظر لايوجد أحد. كل شىء انتهى! الحرب انتهت! " أتحدث بصوت منخفض لكن نبرة صوتى ونظرتى مثيرتان للقلق لأن الجندى تراجع. يقول "أنت مجنون ! اكرر بصوت الاختناق نفسه:" لكن انظر! انظر ! أقول لك إنه لم يعد هناك أحد ماتوا جميعًا! الحرب انتهت! جنود آخرون يقتربون منزوعين من نومهم. الضابط هناك يتحدث بصوت مرتفع : ماذا يحدث ؟ " يقولون "إنه مجنون! يقول إن الحرب انتهت "ويقول آخرون": يقول أن الجميع ماتوا "الضابط نظر إلىّ كما لو كان يحاول إن يفهم. ربما سيدركون أن هذا حقيقى أن كل شىء انتهى الآن بما أن الجميع ماتوا. الضابط يبدو أنه يستمع إلى صمت الليل حولنا. ثم قال: " اذهبوا للنوم! الحرب لم تنته لدينا الكثير للقيام به غدًا!" وقال لى" اذهب للنوم أنت أيضًا، أنت مجهد"رجل آخر تولى الحراسة وغطست فى حفرة الخندق. أسمع تنفس الرجال الذين ناموا مرة أخرى، الكائنات الحية الوحيدة فى العالم مدفونة فى الأرض الممزقة.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

غفوة، صيف ١٩١٦



مثل النمل نسير عبر هذا الوادى على ضفة النهر الكبير الموحل نتبع بلا توقف الطرق ذاتها، الأخاديد نفسها، نحرث الحقول نفسها ونحن نحفر ثقوبًا لاتعد ولاتحصى دون أن نعرف إلى أين نمضى. نحفر سراديب تحت الأرض وممرات وأنفاقًا عبر الأرض الثقيلة السوداء، الأرض الرطبة التى تنزلق حولنا. لم نعد نطرح أسئلة لم تعد لدينا الرغبة فى معرفة أين نحن ولماذا نحن هنا. يومًا بعديوم منذ شهور نحرث ونحفر ونجرف الأرض على طول النهر فى مواجهة التلال. فى الأوقات الأولى عندما وصلنا على ضفاف المرساة سقطت قذائف يسارًا ويمينًا، وارتمينا على بطوننا فى الوحل وهى تستمع إلى صفير القذائف الحزين فى نهاية السباق ـ القذائف انفجرت فى الأرض فجرت الأشجار والمنازل والحرائق اشتعلت فى الليل لكن لم يكن هناك هجوم مضاد. انتظرنا، ثم بدأنا فى حفر الخنادق من جديد بينما قوافل البغال تحمل ألواح الخشب والأسمنت والصفائح للتسقيف.

فى الربيع سقط المطر رقيقًا وخفيفًا وضباب بدده ضوء الشمس ثم ظهرت أولى الطائرات تحلق تحت السحب. أوديلون وأنا نظرنا إليها مطرفى الأعين فى محاولة لمعرفة من هى. استدارت وعادت نحو الجنوب". إنهم فرنسيون" هكذا قال أوديلون فى المواجهة عند الفريتز، ليس لديهم إلا المناطيد نراها أحيانًا تصعد فى سماء الفجر مثل شرائط دود البزاق الكبير " سترى الطائرات الفرنسية سوف تفقأ عيونهم !" أوديلون هو صديقى إنه جيرسى يتحدث بلكنة مضحكة لا أفهمها دائمًا إنه صبى فى الثامنة عشرة ذو وجه ملائكى. ليست له لحية بعد والبرد يحمر جلده. نعمل جنبًا إلى جنب منذ شهور نقتسم الأركان نفسها لكى نأكل ولكى ننام. لانتخاطب أبدا فى الحقيقة إلا لكى نقول بضع كلمات وماهو ضرورى، فقط أسئلة وإجابات. التحق بالجيش بعدى ومثلما حصلت على رتبة عريف بعد معركة إيير هو الذى اخترته كمرافق. عندما أرادوا إرساله إلى جبهة فيردون طلبت أن يبقى معى. منذ أن التقيت به بدا لى أنه ينبغى على حمايته فى هذه الحرب. كما لو كنت شقيقه الأكبر .

الأيام الجميلة هنا الليالى أجمل. مع سماء عميقة مرصعة بالنجوم. فى المساء عندما ينام الجميع نستمع إلى أغانى الضفادع فى المستنقعات على ضفاف النهر. هنا رجال الطوارئ يشيدون حواجز أسلاك الحديد الشائكة وأبراج المراقبة ومنصات

المدافع الأسمنتية. أثناء الليل عندما لانرى أسلاك الحديد ولا خنادق الصرف الصحى الشبيهة بمقابر مفتوحة يمكننا أن ننسى أن هناك حرسًا بأفضل غناء الضفادع الشجى .

جثث الخيول وصلت بالقطار إلى محطة البير. كانت قد نقلت فى شاحنات على طول الطرق الموحلة حتى ضفاف المرساة. كل يوم تجلب الشاحنات جبالا من جثث الخيول الميتة وتلقى بها فى حقول الأعشاب بالقرب من النهر. نسمع وقوقة القيقان والغربان التى تلحق بالشاحنات ذات يوم سرنا بطول ضفاف المرساة لنعمل بالخنادق ونعبر حقلاً كبيرًا من القش والشوفان حيث تتمدد جثث الخيول الميتة فى الحرب. الأجساد أصبحت سوداء وكريهة الرائحة ورحلات الغربان تنتشر وهى تصرخ. لسنا معمدين جدد جميعنا رأينا الموت الرفاق الذين ألقى بهم إلى الوراء رصاص الرشاشات مطويين إلى اثنين مثل قبضة خفية هؤلاء الذين نزعت القذائف أحشاءهم أو فجرت رءوسهم. لكن عندما عبرنا هذا الحقل؛ حيث تتمدد المئات من جثث الخيول، اضطربت سيقاننا وعلا الغثيان شفاهنا.

كان ذلك بداية الحرب ولم نكن نعلم ذلك، اعتقدنا إذا أن نهاية المعارك قريبة فى كل مكان حولنا فالبلد كان خاليًا مثل هذه المقابر الجماعية؛ حيث صبت الخيول الميتة أمامنا كأنه البحر: هذه التلال،

هذه الغابات المظلمة جدًا رغم ضوء الصيف غير واقعية تقريبًا فوقها الغربان وحدها لها حق التحليق.

ماذا كان هناك؟ أعداؤنا صامتون غير مرئيين. هناك كانوا يعيشون ويتحدثون ويأكلون وينامون مثلنا ولكننا لم نكن نراهم أبدًا. أحيانًا ضجيج الرشاشات على البعد ناحية الشمال الغربى أو نحو الجنوب كان يقول لنا إنهم موجودون دائمًا أو أيضًا أزيز طائرة حاد تخترق سحابتين ولا نراها مرة أخرى أبدًا .

نعمل إذًا على تمهيد طرق. كل يوم تجلب الشاحنات كميات من الحصى تصبها فى كومة من بعيد لبعيد على ضفاف المرساة، جنود الجيش الاقليمى والجيش الجديد جاءوا معنا لبناء هذه الطرق وإعدادات خط السكة الحديد الذى عليه أن يعبر النهر حتى هازكور. لا أحد يستطيع التعرف على البلد بعد هذه الشهور القليلة. هنا حيث لم يكن هناك فى بداية الشتاء غير مراعى وحقول وغابات وبعض المزارع القديمة، الآن تقام شبكة من الطرق الحجرية وسكك حديدية مع مأوى من المعدن ومستودعات للشاحنات والطائرات والدبابات والمدافع والذخيرة وفوق كل هذا وضعت فرق التمويه لوحات تمويه بنية اللون وأقمشة تشبه المروج الجرية. عندما يصفر الريح يرفرف القماش مثل أشرعة السفينة ونسمع الموسيقى الزاعقة فى أسلاك الحديد الشائكة. المدافع القوية كانت مدفونة وسط كفر كبيرة تظهر على طريقة النمل العملاق، وسرطانات الأرض المخربة دون توقف تروح

السيارات وتجىء تحمل شحنات القذائف الـ ٣٧ والـ٤٧ من القوات البحرية ولكن أيضًا الـ ٥٨ والـ ٧٥خارج الطريق الحديدى، الرجال يحفرون الخنادق على ضفاف المرساة يبنون بالخرسانة المنصات للمدافع ويشيدون الحصون القوية فى السهول بجنوب هاردكور بالقرب من البير، وأفيلوى ومينيل هناك حيث يضيق الوادى شيدت مناظر لخداع البصر: خرب كاذبة وآبار كاذبة تضم رشاشات. بأزياء مستعملة صنعت دمى من القش تقلد جثث جنود ملقاة على الأرض. بقطع من المعدن والفروع زرعت أشجار جوفاء زائفة لإيواء نواطير وبنادق رشاشات ومدافع هاون. على الطرق والسكك الحديدية والجسور وضعت ستائر كبيرة من الألياف بلون العشب وبالات من القش مع بارجة قديمة جلبت من الفلاندر أعدت فرقة المشاة زورقًا حربيًا ينزل إلى المرساة حتى الغفوة.

الآن بعد أن حل الصيف هنا مع الأيام الطويلة نشعر بطاقة جديدة كما لو أن كل مانراه يعد هنا لم يكن غير لعبة ولن نفكر مطلقًا فى الموت. أوديلون بعد اليأس من أشهر الشتاء التى مضت فى وحل المرساة أصبح سعيدًا وواثقًا. فى المساء بعد أيام العمل على الطرق والسكك الحديدية تحدث مع الكنديين وهم يشربون القهوة قبل حظر التجول. الليالى مرصعة بالنجوم وأتذكر ليالى بوكان وسماء شرم الإنجليز للمرة الأولى منذ شهور ننغمس فى أسرار. الرجال

يتحدثون عن أسرهم وخطيباتهم وزوجاتهم وأولادهم. الصور الفوتوغرافية تتداول قصاصات قديمة متسخة ومتعفنة من الكرتون تظهر فى ضوء المصابيح المتواتر الوجوه وهى تبتسم والظلال البعيدة والهشة كما الأطياف و اوديلون وأنا لم يكن لدينا صور لكن معى فى جيب سترتى آخر رسالة تلقيتها من لور فى لندن قبل الابحار على المدرعة الحربية. قراءتها مليًا وأعدت قراءتها حتى أتمكن من سردها عن ظهر قلب مع كلماتها النصف ساخرة والحزينة إلى حد ما، كم أحببتها. حدثتنى عن مانانافا حيث سنلتقى يومًا ما عندما ينتهى كل هذا. هل تعتقد فى ذلك؟ لكن ذات مساء أثناء الليل لم أتمكن من الامتناع عن التحدث إلى اوديلون عن مانانافا عن ثنائى الكفيات البحرى اللذين يطوفان فوق الوادى الصغير عند الغسق. هل استمع الىَّ ؟ أعتقد أن النعاس غلبه.. رأسه على حقيبته فى المخبأ تحت الأرض الذى نستخدمه كثكنة عسكرية. لا يهم. أنا فى حاجة للتحدث أيضًا ليس إليه لكن لنفسى لكى يصل صوتى فيما وراء ذلك الجحيم حتى الجزيرة حيث تكون لور فى صمت الليل مفتوحة العينين تمامًا تسمع رعد المطر كما فيما مضى فى بيت بوكان .

منذ وقت طويل ونحن نعمل لتحميل هذه الخلفية ولم نعد نعتقد فى واقعية الحرب، إيبر، المسيرات القسرية فى فلاندر بعيدة جدًا. معظم رفاقى لم يعرفوا ذلك. فى البداية أعمال خداع البصر هذه

جعلتهم يضحكون هم الذين انتظروا أن يشموا رائحة البارود وأن يسمعوا دوى المدافع. الآن لم يعودوا يفهمون ينفد صبرهم "هل هذه هى الحرب؟ " هكذا يسأل أوديلون بعد يوم حافل من حفر أنفاق الخنادق والألغام. السماء فوقنا مختومة وثقيلة. العواصف تنفجر بدفقات قاسية وعندما تحل ساعة الصحيان نكون مبتلين كما لو كنا قد سقطنا فى النهر.

فى المساء فى المخبأ تحت الأرض الرجال يلعبون الورق يحلمون بصوت عالٍ فى انتظار حظر التجول. الأخبار تسرى المعارك فى فيردون ونسمع لأول مرة هذه الأسماء الغريبة التى ستعود دومًا: دوومون، وادى السيدة، فو القوى، وهذا الاسم الذى جعلنى أرتعد رغما عنى الموت رجل. جندى كندى إنجليزى حدثنا عن نفق تاثان حيث تكدس الجرحى والموتى بينما تنفجر القذائف فوقهم. يحكى عن وهج الانفجارات والدخان وضجيج هاونات ٢٧ الموجع عن كل هؤلاء الرجال الذين شوهوا واحترقوا فى هذا الوقت. هل من الممكن أن نكون فى الصيف حقًا؟ فى بعض الأمسيات فوق الخنادق غروب الشمس له جمال غير عادى سحب كثيفة قرمزية وبنفسجية معلقة فى السماء الرمادية والذهبية. الذين يموتون فى دوومون يرون هذا؟ أتخيل الحياة فى السماء عاليًا جدًا فوق الأرض كما بأجنحة طائر الكفيات. لانرى الخنادق مطلقًا ولا ثقوب القذائف، سنكون بعيدًا.

جميعًا نعرف أن المعركة قريبة.. الآن التحضيرات التى نقوم بها منذ بداية الشتاء تمت. الفرق لم تعد

تذهب ناحية القناة والقطارات لم تعد تسير تقريبًا فى المخابئ تحت القماش المشمع.. البنادق جاهزة والمدافع الرشاشة فى القاعة المستديرة فى نهاية الخنادق .

فى منتصف يونيه بدأ جنود راولينسون يصلون إنجليز، إسكتلنديين محاربين هنود. جنوب إفريقيين استراليون، فرق عائدة من الفلاندر ومن الآرتوا. لم نكن قد رأينا أبدًا هذا العدد من الرجال نزلوا من جميع الجهات وتقدموا بطول الطرق على السكك الحديدية واستوطنوا فى الخنادق التى حفرناها على امتداد كيلومترات. قيل أن الهجوم سيقع فى ٢٩ يونيه. منذ يوم ٢٤ وضعت المدافع موضع التنفيذ على طول ضفة الأنكر فى الجنوب على ضفاف الغفوة هناك حيث ترابض القوات الفرنسية، انفجارات المدافع أدت إلى رعد يصم الآذان. بعد تلك الأيام من الصمت هذا الانتظار الطويل المنكمش نشعر بالدوار والحمى فى أجسادنا ونرتعش من نفاد الصبر .

ليل نها ر المدافع تدوى وومضة حمراء تحتضن السماء حولنا فوق التلال .

هناك فى الجهة الأخرى ظلوا صامتين. لماذا لايجيبون؟ هل ذهبوا؟ كيف يقاومون هذا الطوفان من النار؟ منذ ستة أيام وست ليال ظللنا متيقظين ننظر إلى المشهد أمامنا. فى اليوم السادس، المطر بدأ يسقط مطر غزير يحول الخنادق إلى مجار من الطين المدافع تسكت لساعات طويلة كما لو أن السماء ذاتها دخلت الحرب!.

فى المخابئ ننظر إلى المطر الذى يسقط طوال النهار حتى المساء والقلق يتزايد بداخلنا كما لو أن هذا لن يتوقف أبدًا. الإنجليز يتحدثون عن الفيضانات فى الفلاندر جحافل من أصحاب الملابس الخضر يعومون فى مستنقع ليس. بالنسبة إلى الغالبية هى خيبة أمل لرؤية الهجوم وقد تأجل. تفحصوا الغيم وعندما أعلن اوديلون عند المساء أن السحب انقشعت ورأينا قطعة من المساء صاح الجميع " هوراه ـ مرحى! " ربما لم يفت الأوان بعد؟ ربما يقع الهجوم أثناء الليل؟ نراقب الظل وهو يغزو رويدًا رويدًا وادى المرساة ويغرق الغابات والتلال أمامنا. إنها ليلة غريبة تجىء، أحد لم ينم حقًا. عند الفجر بينما أنعس رأسى يميل على ركبتى، هرج ومرج الهجوم أيقظنى وأنا أقفز. أصبح الضوء كثيفًا ومبهرًا والهواء الذى يصفر فى الوادى جاف وساخن كما لم أشعر به منذ رودريج وشرم الإنجليز. بعض الضفاف لاتزال مبتلة يرتفع رذاذ خفيف ومشرق هذا ما استنتجته فى هذا الوقت والذى يدخل إلى داخلى ويجعلنى أضطرب: رائحة الصيف، الأرض والعشب .

ما أراه أيضًا بين دعامات المخبأ والبراغيث التى ترقص فى الضوء ، يدفعها الريح. ثمة سلام إذًا فكل شىء معلق ومتوقف. جميعًا نقف فى الخندق الموحل الخوذات مضغوطة. الحراب فى المدافع. نحدق من فوق المنحدر السماء صافية حيث السحب البيضاء مفعمة وخفيفة مثل الزغب. نحن مشدودون نسمع

الضجيج ضجيج الصيف العذب وماء النهر الذى يتدفق والحشرات التى تصرصر والقبرة التى تغنى. ننتظر بفارغ الصبر المؤلم فى صمت هذا السلام وعندما جاء دوى المدافع الأول فى الشمال وفى الجنوب وفى الشرق ارتجفنا. بعد قليل وخلفنا المدافع الانجليزية الثقيلة بدأت ترعب وضرباتها القوية رددت بصدى صوت دوى زلزلة الأرض من تأثير القذائف فى الناحية الأخرى من النهر. القصف رائع يبدو لنا بطريقة غير مفهومة بعد هذا النهار الممطر فى سماء نقية تمامًا مع ضوء الصيف الجميل المشرق هذا .

بعد وقت لانهائى توقف ضجيج الانفجارات. الصمت التالى ملىء بالنشوة والألم. فى السابعة والنصف تمامًا وصل أمر الهجوم من خندق إلى خندق مكررًا عن طريق الرقباء والعرفاء. عندما صحت به بدورى نظرت الى وجه اوديلون تحايلت على نظرته الأخيرة، الآن أنا فى سبيلى إلى الجرى أميل إلى الأمام أقبض بيدى على مسدسى نحو شاطئ المرساة حيث السقالات مغطاة بالجنود. أسمع طقطقة الرشاشات أمامى وورائى. أين هى رصاصات العدو؟ دون أن نتوقف عن الجرى نعبر الجسور العائمة المربوطة فى ضجيج الأحذية فوق الشرائح الخشبية ماء النهر ثقيل فى لون الدم الرجال ينزلقون فى الوحل على الضفة الأخرى ويسقطون. لايقفون أبدًا.

التلال المظلمة فوقى أشعر بتهديدها مثل نظرة ثاقبة، الدخان الأسود يصعد من كل جانب، دخان بلا

نار، دخان موت، طلقات البنادق المتفرقة تدوى حركات الرشاشات المتقطعة تخرج من الأرض بعيدًا دون أن نعرف من أين. أركض وراء مجموعة من الرجال دون أن أبحث عن الاختفاء نحو الهدف الذى تم تحديده منذ شهور: التلال المحترقة التى تفصلنا عن تيبفال. الرجال يركضون يلحقون بنا على اليمين فى حقل ضرب بالقذائف: إنهم رجال الفيلق العاشر والفيلق الثالث وفرق راولينسون. فى منتصف الحقل الشاسع والخالى الشجيرات المحترقة بفعل الغاز والقذائف تبدو شاخصة. ضجيج طلقات الرشاشات يدوى فجأة تمامًا أمامى فى نهاية الحقل. بالكاد سحابة خفيفة من الدخان الأزرق تنتقل هنا وهناك على حافة التلال المظلمة الألمان دفنوا فى حفر القذائف كانوا قد اكتسحوا الحقل ببنادقهم الآلية. سقط الرجال بالفعل محطمين دمى مقطوعة بدون شرائط يتدحرجون فى مجموعات من عشرة وعشرين. هل أعطيت الأوامر؟ لم أسمع شيئًا ولكنى ارتميت فوق الأرض أبحث بعينى عن مخبأ: حفرة قذيفة خندق كتلة تتشبث بجذع أزحف فى الحقل حولى أرى أشكالاً تزحف مثلى على غرار الدود البزاق الكبير يجفون وجوههم ببنادقهم وآخرون بلا حراك وجوههم فى الأرض الموحلة وفرقعة المدافع التى تتردد فى السماء الخالية حركات البنادق الآلية المتقطعة فى الأمام والخلف فى كل مكان تترك سحبها الزرقاء الصغيرة والشفافة تطير فى الريح الفاتر من كثرة الزحف فى الأرض اللينة

وجدت ما أبحث عنه : كتلة من الصخر تكاد تكون كبيرة مثل صوة منسية فى الحقل. عندها أنام ووجهى قريب جدًا من الحجر بحيث أستطيع أن أرى كل صدع وكل بقعة من الطحلب. أظل بلا حراك الجسد يتألم والأذنان مليئان بدوى القنابل التى لم تعد تسقط أفكر أقول بصوت مرتفع جدًا: الآن يجب أن نرسلها إليهم! أين هم الرجال الآخرون؟ هل لايزال يوجد رجال على هذه الأرض أم فقط هذه اليرقات المصابة والمثيرة للشفقة هذه اليرقات التى تزحف ثم تتوقف وتختفى فى الوحل؟ أظل طويلاً نائمًا رأسى على الحجر أسمع البنادق الآلية والقذائف حتى أصبح وجهى باردًا مثل الحجر ثم أسمع المدافع ورائى القذائف تنفجر فى التلال سحب الحرائق السوداء تصعد فى السماء الساخنة.

أسمع أوامر الهجوم التى يعلنها الجنود كما هو الحال الآن. أركض من جديد إلى الأمام مباشرة نحو حفر القذائف؛ حيث دفنت البنادق الآلية إنها هنا فى الحقيقة مثل حشرات ضخمة محترقة وأجساد الموتى الألمان تشبه ضحاياهم، الرجال يركضون فى صفوف ضيقة نحو التلال. البنادق الآلية المخبأة فى حفر أخرى اكتسحت الميدان، تقتل الرجال بالعشرات وبالعشرين. مع اثنين من الكنديين نتكور فى حفرة قذائف ممتلئة بأجساد الألمان. معًا نلقى الجثث من فوق الحافة رفاقى وجوههم شاحبة ملطخة بالوحل والدخان. ننظر إلى بعضنا البعض دون أن نقول شيئًا

ضجيج الأسلحة من كل نوع يغطى على كلماتنا وهذا يغطى حتى أفكارنا. محمى بدروع البندقية الآلية أتطلع إلى الهدف المنشود: تلال ثيبفال مازالت مظلمة جدًا وبعيدة جدًا. لن نصل إليها أبدًا.

نحو الثانية من بعد الظهر أسمع صوت الانسحاب على الفور، اندفع الكنديان خارج المخبأ، ركضا نحو النهر بسرعة كبيرة لدرجة أننى لم أتمكن من اللحاق بهما. أشعر بتنفس المدافع أمامى وأسمع هدير القذائف الثقيلة التى تمر فوقنا، ليس لدينا سوى بضع دقائق لنصل إلى المأوى الأساسى مخبأ الخنادق، السماء مليئة بالدخان وضوء الشمس الجميل للغاية هذا الصباح هو الآن متسخ ومشوه، عندما أصل فى النهاية إلى الخندق مقطوع النفس أنظر إلى هؤلاء الذين وصلوا بالفعل، أحاول أن أتعرف على نظرتهم فى وجوههم المتعبة، هذه النظرة الفارغة الغائبة، رجال نجوا من الموت، أبحث عن نظرة اوديلون وقلبى يدق بقوة فى صدرى؛ لأنى لم أتعرف عليه. جلت الجندق بسرعة حتى مخبأ الليل." أوديلون؟ أوديلون؟ " الرجال ينظرون إلى دون أن يفهموا هل يعرفون فقط من هو اوديلون؟ هناك الكثيرون الذين فقدوا. بقية اليوم كله بينما يستمر القصف آمل ضد كل منطق أنى سأراه فى نهاية المطاف. يظهر على حافة الخندق بوجهه الهادئ الطفولى وابتسامته فى المساء الضابط قام بالنداء ووضع علامة أمام الأسماء الغائبة كم عدد الذين

نقصوا عندنا؟ عشرون رجلا، ثلاثون ربما أكثر وأنا ملقى على الجسر أدخن وأنا أحتسى قهوة لاذعة وأتطلع إلى السماء المظلمة الجميلة للغاية.

فى اليوم التالى والأيام التالية جرت الشائعة بأننا هزمنا فى تييبفال كما فى أوفيلليه وفى بومون ـ هاميل. قيل أن جوفر القائد العام للقوات الفرنسية طلب من هيج أن يأخذ ثييبفال بكل ثمن وأن هيج رفض إرسال قواته الى مذبحة جديدة. هل خسرنا هذه الحرب ؟

لا أحد يتكلم. كل منهم يأكل بسرعة فى صمت ويحتسى القهوة الدافئة ويدخن دون أن ينظر إلى جاره. إنهم هؤلاء الذين لم يعودوا هم الذين يزعجون الأحياء ويقلقونهم أحيانًا، أفكر فى أوديلون كما لو كان حيًا فى نصف نومى وعندما أستيقظ أبحث عنه بعينى. ربما يكون قد جرح فى مستوصف البير وأرسل إلى إنجلترا؟ لكن فى أعماقى أعلم جيدًا أنه سقط فى مواجهة الحقل الموحل رغم كل هذه الشمس أمام خط التلال المظلم الذى لم نتمكن من الوصول إليه .

الآن كل شىء تغير. فرقتنا التى هلك معظمها خلال هجوم ثييبفال وزعت على الفيلق ١٢ والفيلق ١٣ فى جنوب وشمال البير قاتلنا تحت إمرة راولينسون فى "إعصار". كل ليلة طوابير المشاة الخفيفة تتقدم من خندق إلى آخر وهى تزحف فى صمت عبور الحقول الرطبة. ذهبنا بعيدًا داخل أراضى العدو وبدون السماء المرصعة بالنجوم الرائعة لم أكن لأعرف أننا

نذهب كل ليلة أكثر نحو الجنوب. إنها التجربة على ظهر زيتا وليالى شرم الإنجليز التى سمحت لى بالملاحظة.

قبل طلوع النهار المدافع بدأت القصف تحرق الغابات أمامنا والقرى والتلال ثم ما أن بزغ الفجر صعد الرجال للهجوم، اتخذوا وضعًا فى حفر القذائف أطلقوا المسدسات على خطوط العدو. بعد لحظة أعلن الانسحاب والجميع عاد إلى الوراء دون أن يمسهم سوء. فى ١٤ يوليو بعد الهجوم ولأول مرة سلاح الفرسان الإنجليزى تعرض للقذف فى منتصف حفر القذائف مع الفيلق الأسترالى دخلنا إلى بوزيير التى لم نكن غير كومة من الأنقاض .

الصيف يحرق يومًا بعد يوم. ننام هناك حيث يقودنا الهجوم فى أى مكان نفترش الأرض نحتمى بقطعة من القماش. لايمكننا أن نفكر على الإطلاق فى الموت. كل ليلة تحت النجوم نتقدم فى صف واحد وسط التلال. أحيانًا يلمع ضوء صاروخ نسمع فرقعة طلقات نارية بالصدفة. ليال دافئة وفارغة خالية من الحشرات والحيوانات .

فى الفاتح من سبتمبر نلحق بالجيش الخامس بقيادة القائد جوخ ومع هؤلاء الذين بقوا تحت إمرة راولينسون نتوغل أكثر فى الجنوب نحو جييومون ـ فى الليل نصعد السكك الحديدية حتى الشمال الجنوبى فى اتجاه الغابات، إنها حولنا أكثر ظلامًا وتهديدًا: غابة الترون خلفنا غابة دى لوز فى الجنوب

وأمامنا غابة يولو الرجال ينتظرون فى هدوء الليل، دون ندم. أعتقد أن أحدًا منا لايستطيع أن يمنع نفسه من الحلم بما كان هنا قبل هذه الحرب هذا الجمال غابات بولو الساكنة هذه حيث سمعنا صيحة الفزع خرير الجداول، قفزات الأرانب البرية. هذه الغابات حيث يذهب العشاق بعد الحفل الراقص والعشب لايزال دافئًا من ضوء النهار حيث تتدحرج الأجساد وتتعانق وهى تضحك. الغابات فى المساء عندما يرتفع الدخان الأزرق فى القرى الهادئة جدًا وفوق الضروب خيالات الصغيرات اللاتى يتحزمن. لا أحد منا ينام. نحتفظ بعيوننا مفتوحة على آخرها فى الليل - ربما الأخير. آذاننا تصغى بتمعن، جسدنا يلتقط أدنى اهتزاز أدنى علامة على هذه الحياة التى تبدو مختفية مع تخوف أليم ننتظر اللحظة التى يمزق فيها الليل أول القصف المدفعى من عيار ٧٥ وراءنا حتى تمطر عاصفة النار فوق الأشجار الضخمة وتشق باطن الأرض وتفتح طريق الهجوم الرهيب.

قبل الفجر بدأ المطر. رذاذ خفيف ومنعش يخترق الملابس يرطب الوجه، ويجعلنا نرتعش ثم بدون دعم من القصف تقريبًا الرجال سارعوا بهجوم الغابات الثلاث بموجات متلاحقة. خلفنا الليل يضىء بشكل خيالى من ناحية المرساة؛ حيث قام الجيش الرابع بهجوم مضلل لكن بالنسبة إلينا هى معركة صامتة قاسية غالبًا بالسلاح الأبيض الواحدة بعد الأخرى موجات المشاه تمر على الخنادق وتستولى على البنادق

الآلية وتطارد العدو حتى الغابات. أسمع طلقات نار تدوى بالقرب منا فى غابة بولو. ننام على الأرض الرطبة نطلق عشوائيًا فى اتجاه أشجار متشابكة الصواريخ المضيئة تنفجر فوق الأشجار دون ضجيج وتسقط مطرًا من الشرار. أثناء الركض نحو الغابة أتعثر فوق عقبة: جثة ألمانى مستلقية على ظهرها فى العشب لايزال يمسك فى يده بندقيته الآلية لكن خوذته تدحرجت على بعد خطوات قليلة صوت الضباط يصيح: " أوقفوا إطلاق النار!" الغابة لنا. فى كل مكان فى ضوء الفجر الرمادى أرى أجساد الألمان نائمة فى العشب تحت المطر الخفيف توجد جثث الخيول فى كل مكان فى الحقول ونعيق الغربان يتردد بحزن رغم التعب يضحك الرجال ويهمهمون، ضابطنا إنجليزى أحمر وبشوش يسعى لأن يشرح لى:" هؤلاء الأوباش لم يكونوا ينتظروننا! ...." لكنى استدرت وسمعته يكرر عبارته لآخر. أشعر بتعب فظيع جعلنى أرتبك وأصاب بالغثيان. الرجال يعسكرون فى العراء وفى المعسكرات الألمانية كل شىء كان جاهزًا لاستيقاظهم، ويبدو أن القهوة كانت لاتزال ساخنة الكنديون هم الذين يحتسونها وهم يضحكون. تمددت تحت الأشجار الكثيفة ورأسى على قشرة طازجة وأنام فى ضوء الصباح الجميل.

أمطار الشتاء الثقيلة تسقط. مياه الغفوة والمرساة تغزو الضفاف. نحن أسرى الخنادق المستولى عليها والمغروزة فى الوحل منكمشين فى المخابئ

المؤقتة. لقد نسينا بالفعل نشوة تلك المعارك التى قادتنا حتى هنا انتصرنا على جييومون ومزرعة ڤالفومون وجاتشى وفى يوم ١٥ سبتمبر مورفال وجودكور وليبوف ودفعنا الألمان على ظهورهم حتى التلال فى بابوم بترانسلوى. الآن نحن أسرى الخنادق فى الناحية الأخرى من النهر أسرى أمطار الوحل. الأيام رمادية باردة ولاشىء يحدث. أحيانا يدوى على البعد ضجيج المدافع على الغفوة فى الغابات حول لابابوم وأحيانًا فى عز الليل نستيقظ من البرق لكنه ليس وهج العاصفة. "قف!" يصيح الضباط. نعد الحقائب فى الظلمة ونرحل، الظهر مقوس فى الطين المجمد الذى يزعج نتقدم نحو الجنوب على طول الطرق الجافة بالقرب من الغفوة دون أن نرى إلى أين نحن ذاهبون إلى ماذا تشبه كل هذه الأنهار التى يتكلمون عنها كثيرًا؟ إيزير، لامارن، لاموز، لاشن، لاسكارب؟ أنهار من الطين تحت السماء المنخفضة والمياه الثقيلة التى تحمل حطام الغابات والحزم المحترقة والخيول الميتة .

بالقرب من كوميل التقينا بالفرق الفرنسية أكثر شحوبًا وأكثر ألمًا منا. وجوه بعيون غارقة وملابس ممزقة ملطخة بالوحل، البعض لم يعد معهم أحذية لكن خرقًا دامية حول الأقدام، فى القافلة ضابط ألمانى. الجنود يهينونه يسبونه بسبب الغاز الذى قتلوا به الكثيرين منا. هو فخور جدًا رغم ملابسه التى يرثى لها، فجأة دفعهم، صاح بلغة فرنسية ممتازة:"

لكن أنتم الذين استخدمتم الغاز أولا! أنتم الذين أجبرتونا على أن نتحارب على هذا النحو! أنتم !" الصمت الذى تبع ذلك مثير للإعجاب كل فرد أدار نظره والضابط عاد إلى مكانه وسط السجناء.

فيما بعد دخلنا فى قرية لم أعرف أبدًا اسم هذه القرية. فى الفجر الرمادى الشوارع مهجورة والمنازل مدمرة. تحت المطر أحذيتنا تحدث صوتًا غريبًا كما لو كنا قد وصلنا إلى نهاية العالم على حدود العدم نعسكر فى أنقاض القرية وطوال اليوم تمر القوافل وعربات نقل الصليب الأحمر. عندما توقف المطر هبت سحابة من الغبار غطت السماء. ثم بعيدًا فى الخنادق التى تكمل شوارع القرية يسمع من جديد هدير المدافع وبعيدًا جدًا سقوط القذائف .

أمام نار اللوحات الخشبية فى أركان الأنقاض كنديون وإقليميون وفرنسيون متآخون يتبادلون الأسماء. آخرون لايطلب منهم شىء ولا يقولون شيئًا يستمرون بالتجول فى الشوارع دون أن يعرفوا كيف يتوقفون إنهم مرهقون، يسمع على البعد إطلاق نار ضعيف مثل ألعاب التلاميذ النارية، نسير على غير هدى فى بلد غير معروف إلى وقت غير مفهوم إنه دائمًا اليوم نفسه الليل نفسه بلا نهاية يتحرشان بنا. منذ وقت طويل لم نتكلم منذ وقت طويل لم ننطق اسم امرأة أننا نكره الحرب فى أعمق أعماقنا.

فى كل مكان حولنا الشوارع مشتعلة والبيوت منهارة. على السكك الحديدية سلمت بأعجوبة لكن

العربات قلبت ومزقت. أجساد التصقت بالآلات مثل دمى من الخرق. فى الحقول التى تحيط بالقرية توجد جثث خيول بعيدة عن الأنظار ضخمة سوداء مثل أفيال ميتة الغربان تحوم فوق الجيف صراخها الجارح يجعل الأحياء يقفزون. تدخل إلى القرية أفواج من المساجين يرثى لهم. مستنفزين من الأمراض والجراح معهم بغال وخيول عرجاء وحمير نحيفة. الهواء مسموم: الدخان، رائحة الجثث، زفير قيو، قذيفة ألمانية أسدت نفقا من جديد حيث كان الفرنسيون قد لجئوا إليه ليناموا. رجل ضائع يبحث عن صحبته يمسك بى ويكرر :" أنا من المشاة ١١٠ من ١١٠ هل تعرف أين هم؟" فى حفرة قذيفة أسفل الكنيسة المخربة الصليب الأحمر نصب مائدة حيث الموتى والمحتضرون مكدسون البعض فوق الآخر. ننام فى خندق فريجيكور ثم فى الليلة التالية فى خندق الأبواب الحديدية. نواصل مسيرتنا فى السهل. أثناء الليل أضواء مراكز المدفعية الخافتة هى ليلنا الوحيد. سيللى ـ سيلليسال أمامنا مغطى بسحابة سوداء شبيهة بسحابة البركان. المدفع يدوى قريبًا جدًا فى الشمال فوق تلال باتاك فى الجنوب فى غابة سان ـ بيير ـ فاست. قتال الشوارع فى القرى أثناء الليل بالقنبلة اليدوية والبندقية والمسدس. المنافذ فى حالة خراب، البنادق الآلية اجتاحت النواصى وقصت الرجال. أسمع القصف أتنفس رائحة الكبريت والفوسفور فى السحب السوداء الظلال ترقص.

"حذار ! لاتطلقوا النار !.." مع رجال لا أعرفهم (فرنسيون ؟ إنجليزيون من هيج ؟) أنا منكمش فى حفرة. الطين. الماء ناقص منذ أيام. الحمى تلهب جسدى أرتج من التقيؤ الرائحة المرة تملأ حلقى أصيح رغمًا عنى: "الغاز! إنه الغاز الذى يقترب!..." يخيل إلىَّ أنى أرى الدم يتدفق دون توقف يفيض فى الثقوب وفى الحفر يدخل فى البيوت المدمرة ويغزو الحقول المحطمة فى ساعة الفجر .

يحملنى رجلان يقوداننى وهما يمسكاننى من تحت كتفى إلى مأوى الصليب الأحمر أظل نائمًا فوق الأرض لفترة طويلة لدرجة أننى أصبحت مثل حجر ملتهب ثم أصبحت فى سيارة النقل، التى ترتج وتتعرج لكى تتفادى ثقوب القنابل فى الحجر الصحى فى البير، الطبيب يشبه كمال اولو يقيس حرارتى ويجس بطنى يقول :" تيفويد" ويضيف (لكنى أعتقد أنى حلمت بذلك): " النمل هو الذى يكسب الحروب" .


https://telegram.me/maktabatbaghdad

رودريج، صيف ١٩١٨ ـ ١٩١٩

أخيرًا الحرية: البحر. بعد كل هذه السنوات الرهيبة هذه السنوات الميتة هذا ماكنت أنتظره: الوقت الذى سأكون فيه على ظهر الباخرة مع حشد من الجنود المسرحين الذين سيعودون إلى الهند وإلى إفريقيا. ننظر إلى البحر من الصباح حتى المساء بل وفى الليل عندما يضىء القمر المجرة. فى عبور قناة السويس الليالى لطيفة جدًا. نهرب من العنابر لكى ننام على السطح ألتف فى غطائى العسكرى التذكار الوحيد الذى أحمله من الجيش مع سترتى الكاكى والكيس القماش الذى أضع فيه أوراقى. منذ فترة طويلة وأنا أنام بالخارج فى الوحل وأن خشب السطح وفوقى القبة المرصعة بالنجوم تبدو لى أنها الجنة مع الجنود الآخرين نتحدث بلغة الكريول وبلغة بسيطة نغنى ونحكى قصصًا لاتنتهى. الحرب هى بالفعل أسطورة تنقل بخيال الحاكى. على السطح معى يوجد سيشيليون، وموريشيوسيون ومن جنوب إفريقيا. لكن لا أحد من رودريج لبى النداء فى الوقت نفسه معى أمام مكاتب البرق. أتذكر سعادة كازيمير عندما نودى

على اسمه. كان من الممكن أن أكون الحى الوحيد الناجى من المجزرة بفضل النمل؟

الآن أفكر فى لور. عندما يسمح بذلك سأذهب على الفور إلى القوس بالقرب من كايستان وأنظر إلى الأفق. أفكر فى وجه لور وأنا أنظر إلى زرقة البحر الداكنة وأنا انظر إلى السحب. نحن قبالة عدن ثم نعبر رأس جاردافوى إلى هذه الموانئ الكبيرة التى كانت أسماؤها فيما مضى تجعلنا نحلم لو روانا أيام بوكان: مومبازا ، زانزبار، نتحرك باتجاه خط الاستواء والهواء يحترق بالفعل الليالى جافة تلمع بالنجوم. أشاهد الأسماك الطائرة الالباتروس والدلافين. كل يوم يخيل إلىَّ أنى أرى لورا أكثر أسمع صوتها على نحو أفضل، ألمح سخرية ابتسامتها وضوء عينيها. فى بحر عمان هبت عاصفة رائعة. لاسحابة واحدة فى السماء ريح غاضبة تدفع الأمواج نحو الباخرة منحدر صخرى يتحرك ضد كباش البحر التى تصطدم بقوة. مدفوعة من الجانب تتدحرج السفينة إلى حد كبير الأمواج تكنس السطح السفلى حيث نحن. طوعًا أو كرهًا ينبغى أن نتخلى عن ملجأنا وننزل إلى فرن العنابر المقزز. البحارة يخبروننا أن هذا هو ذيل عاصفة تمر على سوكوتورا وفى الواقع فى المساء ذاته أمطار غزيرة ستسقط على السفينة وتغرق العنابر. نتناوب لنضخ فى حين أن السيول تكتسح عمق العنابر بين سيقاننا وهى تجلب القمامة والقذارة! لكن عندما يعود الهدوء إلى البحر وفى السماء فأية إنارة حولنا

اتساع زرقة البحر حيث تتقدم ببطء معنا موجات الرغوة الطويلة المهدبة .

المراسى فى موانئ مومبازا وزنزيبار والطريق المؤدى إلى تاماتاف كل هذا مر بسرعة جدًا. لم أترك مكانى أبدًا على السطح إلا احترقت الشمس بعد الظهر عند سقوط المطر .

وهكذا لم أترك البحر بعينى، رأيته وقد تغير لونه ومزاجه أحيانًا سلس بدون أمواج ممتد فى مهب الريح وأحيانًا أخرى صعب بدون أفق رمادى، المطر مزمجر وهو يطلق نحونا موجاته العاتية. أفكر من جديد فى زيتا فى الرحلة إلى شرم الإنجليز. كل هذا يبدو لى بعيدًا للغاية أوما وهى تنزلق على رمال النهر وحربتها فى يدها وجسدها ينام علىّ تحت السماء المضاءة. هنا أخيرًا بفضل البحر أستعيد الإيقاع ولون الحلم. أعلم أنه ينبغى علىَّ أن أعود إلى رودريج. ذلك فى داخلى يجب أن أذهب هل تفهم لور ذلك؟

عندما يقوم القارب الكبير بالذهاب والإياب فى ميناء بورلوى ويقترب من الرصيف والحشد والضوضاء تصعقنى الروائح مثلما فى مومبازا وفى لحظة أردت العودة على القارب الكبير، الذى سيكمل رحلته لكن فجأة فى ظل أشجار الإمداد أرى خيال لور فى اللحظة التالية ضمتنى فى ذراعيها وصحبتنى عبر الشوارع ناحية المحطة. رغم العاطفة نتكلم دون توقف كما لو كنا افترقنا بالأمس. سألتنى عن الرحلة، عن

المستشفى العسكرى حدثتنى عن الرسائل التى كتبتها لى. ثم قالت: "لكن لماذا قصوا شعرك مثل المحكوم عليه بالأشغال الشاقة؟ " هنا أستطيع أن أجيب: بسبب القمل! وهذا ما أدى إلى لحظة من الصمت. ثم عادت لتسألنى عن إنجلترا وعن فرنسا بينما نسير نحو المحطة عبر الشوارع التى لم أعرفها .

منذ كل هذه السنوات لور تغيرت وأعتقد أنها لو لم تحتفظ بهيئتها وترتدى الثوب الأبيض نفسه الذى كانت ترتديه عندما رحلت إلى رودريج ماكنت قد تعرفت عليها، فى عربة الدرجة الثانية ونحن نتجه نحو روز هيل وكاتربورن لاحظت بشرتها الشاحبة والدوائر تحت عينيها والتجاعيد المريرة على جانبى فمها. إنها مازالت جميلة بهذا الوهج فى نظرتها وهذه الحيوية القلقة التى أحبها لكن مع شىء من التعب والضعف .

قلبى ينقبض عندما نقترب من المنزل فى فورست سايد. تحت المطر الذى يبدو أنه لم يتوقف منذ سنوات مازالت أكثر ظلمة وحزنًا من أول وهلة أرى الشرفة المنهارة والأعشاب التى تغزو الحديقة الصغيرة والبلاط المكسور الذى أصلحناه بورق الزيت. لور تتابع نظرتى وتقول بصوت منخفض للغاية "نحن الآن فقراء " أمى جاءت أمامنا تتوقف على ممشى الشرفة وجهها متوتر قلق بلا ابتسامة تحمى عينيها بيدها كما لو أنها تبحث عن رؤيتنا. مع أننا لسنا إلا على بعد أمتار. فهمت أنه تقريبًا عمياء عندما

أصبحت فى مواجهتها تناولت يديها. ضمتنى إليها دون أن تقول شيئًا.

رغم الشدة وهجرة هذا المنزل هذا المساء والأيام التالية أنا سعيد كما لم أكن كذلك منذ فترة طويلة. يبدو لى أننى استعدت نفسى وعدت إلى نفسى من جديد.

ديسمبر رغم الأمطار التى تسقط كل يوم بعد الظهر على فورست سايد فإن هذا الصيف هو الأجمل والأكثر حرية الذى عرفته منذ زمن طويل بفضل المدخرات التى تلقيتها يوم التسريح ـ مع الوسام العسكرى وقرار مجلس الوزراء (وسام تميز السلوك فى الميدان) ورتبة الأمر الرسمى من الدرجة الأولى ـ نحن فى مأمن من الحاجة لبعض الوقت وأستطيع أن أجوب المنطقة كما يحلو لى. غالبًا ماتأتى لور معى ونذهب بالدراجات التى اشتريتها من بورلوى عبر حقول قصب السكر ناحية هونرييتا وناحية كانزكانتون. أو نسلك طريق ماهيبورج المكتظ بالعربات حتى نوفيل فرانس، ثم الطرق الموحلة نحو كلانى أو عبر مزارع الشاى فى غابة شيرى. فى الصباح عندما نخرج من ضباب فورست سايد تشرق الشمس على أوراق الشجر الساكنة والريح تجعل حقول القصب تموج. نتحرك دون هم ونحن نتعرج بين البرك أنا بسترتى الرسمية ولور فى ثوبها الأبيض وهى تضع قبعة كبيرة من القش. فى الحقول النساء اللاتى

يرتدين الخيش يتوقفن عن العمل لينظرن إلينا ونحن نمر على طريق كانزكانتون فى حوالى الساعة الواحدة نلتقى بالنساء العائدات من الحقول يمشين ببطء وهن يؤرجحن تنانيرهن الطويلة، معولهن متوازن على الرأس يصحن بنا بلغة الكرييول ويسخرون من لور التى تركض بثوبها المشدود بين ساقيها. ذات يوم بعد الظهر مع لور نسير فيما وراء الكانزكانتون ونعبر نهر رومبار. الطريق صعب لدرجة أننا يجب أن نتخلى عن عجليتنا ونختبئ بسرعة وسط القصب. رغم الشمس الحارقة الطريق يشبه الأماكن الغارقة فى الوحل وعلينا أن نخلع أحذيتنا كما حدث من قبل نسير حفاة الأقدام فى الطين الدافئ، طوت لور ثوبها الأبيض على طريقة السراويل الهندى.

القلب يدق وأنا ذاهب إلى الأمام فى اتجاه قمم الضروع الثلاث التى تسيطر على حقول القصب مثل النمل الأبيض الغريب. السماء الآن واضحة للغاية مليئة بسحب كثيفة لكنا لانهتم بذلك بدافع الرغبة ذاتها نسير بالسرعة التى نستطيعها عبر أوراق القصب المدببة دون أن نتوقف. الزراعة تنتهى عند نهر باباى. ثم إنها حقول الأعشاب الكثيفة حيث ترتفع أكوام من الحصى الأسود وتسميها لور مقابر الشهداء بسبب الرجال الذين لقوا حتفهم وهم يعملون بحقول القصب، ثم فى نهاية هذا السهب بين قمم الضروع الثلاث نصل أمام امتداد أراضى شاطئ البحر من فولمار حتى النهر الأسود. عندما نصبح فى العنق

تضربنا رياح البحر. سحب كثيفة تتوالى فوق البحر الريح يسكرنا بعد حرارة حقول القصب نظل لحظة دون أن نتحرك أمام المشهد الذى يقع أمامنا كما لو كان الوقت لم يمر كما لوكنا تركنا بوكان بالأمس فقط. أنظر إلى لور وجهها صعب ومغلق لكنها تتنفس بصعوبة وعندما استدارت نحوى رأيت أن عينيها تلمعان بالدموع إنها المرة الأولى التى ترى فيها مشهد طفولتنا من جديد. تجلس فى العشب وأجلس إلى جوارها ننظر دون أن نتكلم إلى هذه التلال وظلال الجداول واختلاف مستوى الأرض. دون جدوى أبحث عن منزلنا بالقرب من ضفاف نهر بوكان خلف برج تاماران. كل أثر للسكان اختفى وبدلاً من الأعلاف توجد الأراضى البور الضخمة المحترقة. لور هى التى تتكلم أولا كما لو أنها تجيب على الأسئلة التى أطرحها على نفسى .

"منزلنا لم يعد هنا العم لودفيك حلق كل شىء منذ فترة طويلة أثناء وجودك فى رودريج على ما أعتقد لم ينتظر حتى حكم القضاء"

الغضب خنق صوتى :

"لكن لماذا وكيف جرؤ ؟"

"قال إنه أراد استغلال الأراضى للقصب وأنه لم يكن فى حاجة إلى المنزل".

"أى جبن لو علمت ذلك لو كنت هنا ..."

"ماذا كنت ستفعل ؟ لم نستطع عمل شيء أخفيت كل شيء عن ماما حتى لا أكدرها أكثر. لم تكن لتتحمل الكثير من الضراوة لاختفاء منزلنا "

بعينين مشوشتين أنظر إلى الامتداد الرائع أمامى والبحر الذى يتلألأ تحت الشمس التى تقترب وظل برج تاماران الذى ينمو. من كثرة إمعان النظر فى ضفاف بوكان يبدو لى أنى أرى شيئًا ما مثل أثر بين الأشجار المتشابكة هنا حيث كان للمنزل والحديقة وبقعة الوادى الصغير الداكنة حيث نحلم، نتعلق بالشجرة القديمة. لور تتحدث أيضًا لتهدئنى صوتها هادئ وعاطفتها الآن متجاوزة .

"تعلم أن هذا لم يعد له أهمية أن يختفى المنزل. إنه بعيد جدًا الآن، إنها حياة أخرى. مايهم أن تكون قد عدت ثم إن ماما عجوز الآن ليس لها غيرنا. ماهذا منزل؟ كوخ قديم مائل حيث تمطر السماء تخترقه من كل جانب ؟ لايجب أن نأسف على مالم يعد له وجود "

لكنى بصوت أصم ملىء بالأسى :

" لا لايمكن نسيانه لن أنساه أبدًا ! "

بلا حدود أنظر إلى المشهد المذهل تحت السماء الساكنة، أمعن النظر فى كل التفاصيل فى كل نقطة ماء فى كل غابة صغيرة من أول حلوق النهر الأسود حتى تاماران. على الشاطئ توجد مداخن من ناحية النهر الأسود الكبير وجولييت. ربما يكون دونيس هنا

كما فى الماضى فى كوخ كوك العجوز ويبدو لى أنه من كثرة النظر مع هذا الضوء الذهبى الذى ينير شاطئ البحر أخمن ظلال الأطفال التى كانت لنا ونحن بصدد الركض عبر الأعشاب العالية حفاة الأقدام مخدوشة وجوهنا وملابسنا ممزقة فى هذا العالم غير المحدود نراقب فى الظلمة تحليق طيور الكفيات فوق غموض مانانافا.

نشوة العودة مرت بسرعة شديدة. فى البداية كان هناك هذا المكان فى مكاتب سكك حديد الغرب هذا المكان الذى شغلته منذ فترة طويلة واعتقدوا أنى تركته لكى أذهب الى الحرب. رائحة الغبار من جديد الحرارة الشديدة التى تمت تصفيتها من خلال المصاريع مع هرج ومرج شارع رومبار ستريت. الموظفون وغير المبالين والعملاء والبائعون والمحاسبون.... بالنسبة لكل هؤلاء لم يحدث شىء العالم. لم يتحرك ومع هذا ذات يوم من عام ١٩١٣ حكت لى لور عندما كنت فى رودريج عن تجويع الناس وتخفيف البؤس بالأعاصير واحتشدوا أمام المحطة: حشد من الهنود والسود جاءوا من المزارع ونساء الخيش بأطفالهن بين أزرعتهن جميعًا دون أن يصيحوا دون أن يحدثوا ضجيجًا تجمعوا أمام المحطة وكانوا ينتظرون وصول قطار علية القوم ذلك الذى يجلب كل يوم تكعيبات وبيض كوربيب وأصحاب بنوك ومتاجر ومزارع. انتظروهم طويلا بفارغ الصبر فى البداية ثم تدريجيًا مع مرور الوقت بمزيد من المرارة

ومزيد من اليأس. ما الذى كان سيحدث لو كان البيض وجاءوا فى ذلك اليوم؟ لكن وقد حذروا من الخطر فإن البيض لم يستقلوا القطار إلى بورلوى وظلوا فى ديارهم فى انتظار تنظيم الشرطة للأمر. تفرق الحشد بعد ذلك وربما حدث نهب لبعض المتاجر الصينية وحجارة ألقيت على نوافذ مصرف التسليف العقارى. وكل شىء قد تم علاجه. فى المكاتب يسيطر ابن عمى فردينانـد ابن العم لودوفيك. ادعى أنه لايعرفنى وتعامل معى كخادم له. تصاعد الغضب فى داخلى وإذا كنت أقاوم رغبة فى دفعه فبسبب لور التى أحبت كثيرًا أن أبقى كما فيما مضى كل لحظة حرة أخصصها للمشى على أرصفة الميناء وسط البحارة وعمال الميناء بالقرب من سوق السمك. ما أريده فوق كل شىء رؤية زيتا مرة أخرى والقبطان برادمير والربان من جزر القمر. انتظرت طويلا فى ظل أشجار الإمداد على أمل رؤية وصول قائد الدفة بمقعده الثابت على السطح. هذا بداخلى بالفعل أعلم أنى سأغادر مرة أخرى .

فى غرفتى بفورست سايد مساء أفتح الصندوق القديم الصدئ من أيام شرم الإنجليز وأتطلع إلى أوراق الكنز والخطط والرسومات والمذكرات التى كدستها والتى أرسلتها من رودريج قبل الذهاب إلى أوروبا. عندما نظرت إليها رأيت أوما جسدها الممدود إلى مسافة فى البحر تسبح حرة وحريتها الطويلة ذات الرأس الأبنوسى فى يدها.

كل يوم تنمو فى داخلى الرغبة فى العودة إلى رودريج واستعادة صمت وسلام هذا الوادى، السماء السحب، البحر الذى لاينتمى إلى أحد أريد أن أهرب من العالم الكبير من الشر والنفاق. منذ أن نشرت" السيرنيان " مقالا عن " أبطالنا فى الحرب العالمية" وفيه ذكر اسمى وحيث أشادوا بالأعمال الشجاعة الخيالية تمامًا هانحن فجأة لور وأنا على قائمة المدعوين إلى الحفلات فى بورلوى وكوربيييب وفلوريال. لو تصحبنى مرتدية ثوبها نفسه الأبيض المستعمل نتحدث ونرقص. نذهب إلى حقل مارس أو نحتسى الشاى بفلور. أفكر دون توقف فى أوما فى صيحات الطيور التى تمر كل صباح فوق الشرم. الناس هنا هم الذين يبدون لى وهمًا وغير حقيقيين. سئمت من التشريفات الكاذبة .

ذات يوم دون أن أبلغ لور تركت فى فورست سايد طقمى الرمادى الخاص بوظيفتى فى المكتب وارتديت السترة الكاكى والسراويل اللذين جئت بهما من الحرب متسخين وممزقين نتيجة الإقامة فى الخنادق وكذلك شاراتى العسكرية ونياشينى وقرار مجلس الوزراء وبعد الظهر عند إغلاق مكاتب دائمًا بهذا التذكر ذهبت لأجلس فى قاعة الشاى بفلور بعد أن شربت بعض زجاجات العرق. إنه منذ هذا اليوم توقفت دعوات المجتمع الراقى كما بفعل السحر.

لكن الضيق الذى أشعر به ورغبتى فى الهروب لايمكن للور ألا تراهما. ذات مساء انتظرتنى عند

وصول القطار فى كوربييب كما فيما مضى أمطار فورست سايد الخفيفة بللت ثوبها الأبيض وشعرها واحتمت تحت شجرة كثيفة قلت لها إنها تشبه فرجينى وهذا أضحكها نمشى معًا على الطريق الموحل مع الهنود العائدين إلى بيوتهم قبل الليل. فجأة قالت لور:

" سترحل من جديد أليس كذلك ؟"

أبحث عن إجابة تريحها لكنها تكرر:

"سترحل قريبًا أليس كذلك ؟ قل لى الحقيقة "

دون انتظار أجابت أولا لأنها كانت تعرفها استشاطت غضبًا :

"لماذا لاتقول شيئًا؟ لماذا يجب أن أعلم كل شىء من الآخرين؟"

ترددت فى قول ذلك ثم :

"تلك المرأة هناك التى تعيش معها كإنسان متوحش! وهذا الكنز الغبى الذى تتشبث بالبحث عنه!"

كيف علمت بذلك؟ من الذى حدثها عن أوما ؟

"لن نكون أبدًا كما كنا فى الماضى أبدًا لن يكون لنا مكان هنا !"

جرحتنى كلمات لور لأنى أعلم أنها حقيقية قلت لها:

"لكن لهذا ينبغى أن أرحل. لهذا يجب أن أنجح "

كيف أقول لها ذلك ؟ كانت قد استأنفت بالفعل.

تمسح الدموع التى تنهمر على خديها بجزء من ظهر يدها تمخط بطريقة طفولية. منزل فورست سايد أمامنا مظلم شبيه بباخرة سقطت من أعلى هذه التلال بعد فيضان.

هذا المساء بعد تناول العشاء مع ماما كانت لور أكثر سعادة .تحت الشرفة نتحدث عن السفر وعن الكنز بطريقة لعب قالت لور:

"عندما تجد الكنز سنلحق بك هناك ستكون لنا مزرعة سنعمل بأنفسنا مثل الرواد.

ثم تدريجيا أخذنا نحلم بصوت عالٍ كما سبق فى تسقيفة بوكان .نتحدث عن تلك المزرعة والحيوانات التى سنملكها، ذلك أن كل شىء سيعود من جديد بعيدًا عن المصرفيين والمحامين. من بين كتب والدى وجدت سيرة فرنسوالوجا وقرأت المقاطع الخاصة بالنبات والمناخ وجمال رودريج .

مأخوذة بضوضاء أصواتنا خرجت ماما من غرفتها. جاءت حتى الخارج ووجهها المضاء بفانوس العاصفة فى الشرفة يبدو لى شابًا أيضًا وجميلاً مثلما كان فى وقت بوكان. عندما كانت تشرح لنا دروس القواعد وهى تقرأ لنا مقاطع من الكتاب المقدس. تسمع كلماتنا الخرقاء ومشروعاتنا ثم تحتضننا وتضمنا إليها: " كل ذلك أحلام "

فى تلك الليلة حقيقة، منزل فورست سايد القديم المدمر هو سفينة تمخر البحر وهى تتمايل

وتطقطق فى ضوضاء المطر العذب نحو الجزيرة الجديدة.

من خلال إيجاد زيتا يبدو لى أنى استعدت الحياة والحرية بعد سنوات طويلة من المنفى. أنا فى مكانى الدائم فى المقدمة بجوار القبطان برادمير الجالس على مقعده الثابت على السطح. مر يومان بالفعل على توجهنا خلف الريح نحو الشمال الشرقى بطول خط عرض ٢٠ ـ عندما تكون الشمس عالية فى السماء ينهض برادمير من مقعده وكان فيما مضى يستدير نحوى :"هل تريد أن تحاول ياسيدى؟"

كما لو لم نكف عن الإبحار معًا طوال هذا الوقت.

أقف حافى القدمين على السطح يداى تتشبثان بعجلة القيادة، وأنا سعيد. لا أحد على السطح فقط اثنان من البحَّارة من جزر القمر رأساهما ملفوفان بغطاء أبيض. أحب أن أسمع من جديد الريح فى الصوارى وأرى القوس يصعد فى مواجهة الأمواج. يبدو لى أن زيتا تصعد نحو الأفق حتى مولد السماء .

أعتقد أنه كان الأمس عندما ذهبت للمرة الأولى إلى رودريج وأنا أقف على السطح شعرت بالسفينة تتحرك مثل حيوان المرور تحت قوس الأمواج الثقيلة طعم الملح فوق شفتى الصمت والبحر. نعم أعتقد أنى لم أترك أبدًا هذا المكان على رأس زيتا متابعًا رحلة بحرية تهدف دون توقف للتراجع وكل ماعدا ذلك لم

يكن غير حلم. حلم بذهب القرصان المجهول فى وادى شرم الإنجليز. حلم حب أوما وجسدها بلون الحمم وماء البحيرات وطيور البحر. حلم الحرب. ليالى فلاندر الباردة، أمطار المرساة والرغوة سحب الغاز ووميض القنابل .

عند غروب الشمس خلفنا وبينما أرى ظل الأشرعة على البحر، القبطان برادمير يعود إلى الرأس منتصبًا وجهه الأحمر الجامد بسبب انعكاسات الأمواج لم يتغير. إلا عندما سألته وحكى لى عن موت الربان.

"كان ذلك عام ١٩١٦ أو فى مطلع عام ١٧ ربما ...عندما وصلنا إلى آجيليجا أصيب بمرض. حمى وإسهال كان يهذى. عاوده الطبيب ،أمر بنقله إلى الحجر الصحى فقد كان هو التيفويد... كانوا خائفين من انتقال العدوى لم يعد قادرًا على الأكل ولا الشراب مات فى اليوم التالى، الطبيب لم يعد مرة أخرى... وهكذا ياسيدى استشطه غضبًا طالما أنهم لايريدوننا، ألقيت كل السلع فى البحر أمام آجاليجا وذهبنا مرة أخرى إلى الجنوب حتى سان براندون.. وهنا قال إنه يريد أن ينتهى... بعد ذلك وضعوا فى قدميه ثقلاً وألقوا به فى البحر أمام الشعاب المرجانية هنا حيث ستمائة قدم عمقا هنا حيث المياه زرقاء داكنة... عندما غاص تلونًا صلوات وقلت: صديقى الربان هأنت لديك دائمًا ليكن السلام معك وقال الآخرون آمين ... بقينا يومين أمام الجزيرة المرجانية كان الجو

صحوًا بلا سحابة واحدة والبحر هادئ للغاية..ظللنا ننظر إلى الطيور والسلاحف التى تسبح بالقرب من السفينة... اصطدنا بعض السلاحف لتدخينها ثم ذهبنا"

كان صوته مترددًا تغطيه الرياح. الرجل العجوز ينظر أمامه فيما وراء الأشرعة المنتفخة فى ضوء آخر اليوم، أصبح وجهه فجأة وجه رجل متعب لامبالٍ بالمستقبل، الآن فهمت وهمى: القصة انتهت هنا كما فى أى مكان آخر ولم يعد العالم هو نفسه. اندلعت حروب وجرائم وعنف وبسبب ذلك تراجعت الحياة .

"الآن أصبح الأمر مضحكًا لم أجد ربانًا. هو كان يعرف كل شىء عن البحر حتى عمان... كما لو أن السفينة لم تعد تعرف جيدًا إلى أين تتجه.. هذا مضحك أليس كذلك؟ كان هو السيد كان يمسك بالسفينة بين يديه ..."

ثم وبالنظر إلى البحر الجميل للغاية والمجرة المبهرة التى تتبع مسارًا فوق المياه التى لاتخترق أشعر بالقلق من جديد. أخشى من الوصول إلى رودريج. أخشى مما سأجده فيها. أين أوما؟ الرسالتان اللتان بعثت بهما إليها، الأولى من لندن قبل الرحيل إلى فلاندر والثانية من مستشفى سوسكس العسكرى ظلا بلارد هل وصلتا؟ هل يكتبون بلغة المناف ؟

ليلا لا أنزل إلى العنبر للنوم فى مخزن البالات المحفوظة على السطح أنام ملفوفًا فى غطائى رأسى على حقيبة الجندية وأنا أسمع ضربات البحر والريح

فى الأشرعة، ثم أستيقظ أذهب لأتبول من فوق الدرابزين وأعود لأجلس ولكى أنظر إلى السماء المرصعة بالنجوم. كيف هو طويل زمن البحر! كل ساعة تمر أغتسل مما ينبغى علىَّ أن أنساه وتقربنى من هيئة الربان الخالدة. أليس هو الذى ينبغى على أن ألقاه فى نهاية رحلاتى؟

اليوم الريح وقد تحول تبخر قريبًا جدًا الصوارى تميل إلى ستين درجة بينما الصدر يضرب البحر الهائج بغيوم الرغوة. الربان الجديد أسود بوجه لامبال بجانبه على الرغم من ميل السطح يجلس القبطان برادمير فى مقعده القديم المثبت على السطح ينظر إلى البحر وهو يدخن. كل محاولة من جانبى لبدء محادثة تصطدم بكلمتين يهمهم بهما دون أن ينظر إلى "نعم ياسيدى؟" "لا ياسيدى". الريح تصفر فى مواجهتنا وهى عاصفة ومعظم الرجال يهربون إلى العنبر فيما عدا تجار رودريج الذين لا يريدون ترك بالاتهم على السطح. بسرعة وضع البحَّارة قماشًا مشمعًا على البضائع وأغلقوا البوابات الأمامية. دفعت حقيبة الجندية الخاصة بى تحت القماش ورغم الشمس تغطيت بغطائى .

زيتا بذلت مجهودات كبيرة لتعقب البحر وأشعر فى داخلى بكل أنات الهيكل وآهات الصوارى. تنام على جانبها تتلقى زيتا ضربات الأمواج الشديدة الآتية نحونا ونحن ندخن. فى الساعة الثالثة الريح قوية لدرجة أنى تصورتها إعصارًا لكن السحب نادرة، فقط

غيوم شاحبة تتكتل فى السماء بطوابير ضخمة أنها ليست سماء إعصار .

زيتا لديها مشاكل فى الاحتفاظ باتجاهها برادمير هو الذى على الرأس دعامة على ساقيه القصيرتين مقطب الوجه بسبب الرذاذ. رغم قلة القماش ثقل الريح جعل السفينة تئن. كم من الوقت سيستمر ذلك؟

ثم فجأة الرياح تكون أقل عنفًا، هوائيات زيتا تسترد. الوقت حوالى الخامسة مساء وفى الضوء الجميل الدافئ تظهر ببطء فوق الأفق بحدة جبال رودريج.

على الفور أصبح الجميع على السطح مواطنو رودريج يغنون ويصيحون وكذلك أبناء جزر القمر قليلو الكلام أخذوا يتكلمون. أنا فى القوس مع الآخرين أنظر إلى هذا الخط الأزرق الخادع كالسراب والذى يجعل قلبى يخفق.

هكذا كنت أحلم بالوصول منذ فترة طويلة عندما كنت فى جحيم الحرب فى الخنادق وسط الوحل والقذارة إنه حلمى الذى أحياه بينما زيتا ترتفع مثل جراب فى مجال البحر المظلم بين بريق الرغوة فى اتجاه جبال الجزيرة الشفافة .

فى المساء مصحوبين بفرقاطات وطيور النونو نعبر جو ميرانى ثم قمة الهضبة وأصبح البحر زيتيا. على البعد تسطع أضواء المنارات. هبط الليل على

المنحدر الشمالى للجبال تبددت خشيتى الآن أسارع فى النزول السفينة تنزلق وكل القماش فى الخارج وأنظر إلى السد الذى يقترب مع مواطنى رودريج أميل على الدرابزين وحقيبتى فى يدى وعلى استعداد للقفز على الشاطئ .

عند الهبوط بينما الأطفال يصعدون إلى السطح استدرت لرؤية القبطان برادمير لكنه أعطى أوامره وأرى فقط وجهه المضاء بضوء المنارات الخافت وخياله المتسم بالتعب والوحدة دون أن يستدير نحوى نزل القبطان إلى العنبر لكى يدخن وينام وربما ليفكر فى الريان الذى لم يكن يترك أبدًا المركب أمشى فى اتجاه أضواء بورما توران وفى داخلى هذه الصورة المثيرة للقلق ولا أدرى أيضًا أنها الأخيرة التى سأحتفظ فيها ببرادمير ومركبه.

فى الفجر أصل إلى مقر إقامتى فى مرصد القائد هنا حيث لمحت للمرة الأولى منذ فترة طويلة شرم الإنجليز. هنا على مايبدو لاشىء قد تغير الوادى الكبير دائمًا أسود ووحيد أمام البحر بينما أهبط المنحدر بين شفرات الحجارة مما يجعل الأرض تنهار تحت قدمى أبحث عن التعرف على جميع هذه الأماكن التى عشت فيها، وكانت مألوفة لى. البقعة المظلمة فى الوادى على الضفة اليمنى مع شجرة التمر هندى الضخمة، كتل البازلت حيث نقشت العلامات مجرى ما ء نهر روزو الضئيل الذى يتدفق بين الشجرات حتى المستنقع وبعيدًا قمم الجبال التى

بمثابة معالم. توجد أشجار لم أعرفها وأشجار لوز وجوز الهند.

عندما أصل إلى مركز الوادى أبحث دون جدوى عن شجرة التمر هندى القديمة التى نصبت خيمتى تحتها فيما مضى والتى وفرت لنا الحماية أوما وأنا عندما كانت الليالى لطيفة فى مكان شجرتى أرى كومة من الأرض تنمو فوقها شجيرات شائكة أدركت أنها هنا مدفونة تحت الأرض هنا حيث حطمتها عاصفة ومن جذورها وجذوعها تولدت هذه الكومة الشبيهة بمقبرة. رغم الشمس التى تحرق ظهرى ورقبتى بقيت طويلاً جالسًا هنا فوق هذه الكومة وسط الأدغال بحثًا عن العثور على أثارى. هنا فى مكان شجرتى قررت بناء ملجئى .

لم أعد أعرف أحدًا فى رودريج معظم الذين معى تلبية لنداء اللورد كيتشيز. لم يعودوا. خلال سنوات الحرب حدثت مجاعة لأن المراكب لم تعد تجلب شيئًا لا أرز ولا زيت ولا أغذية معلبة بسبب الحصار. الأمراض أصابت السكان لا سيما التيفويد الذى أدى إلى موت الناس فى الجبال لنقص الأدوية. الفئران فى كل مكان الآن تجرى فى شوارع بورماتوران فى وضح النهار. كيف أصبحت أوما كيف حال شقيقها فى هذه الجبال الجرداء بدون موارد؟ كيف أصبح المناف ؟

فريتز كاستل وحده هو الذى بقى فى مزرعة معزولة بالقرب من البرق. الآن، هو فتى فى السابعة

عشرة أو الثامنة عشرة بوجه ذكى وصوت أجش بحيث أجد صعوبة فى التعرف على الطفل الذى كان يعاوننى فى وضع الأساس. الرجال الآخرون رابو وبروسبير وآدريان وماركور اختفوا مثل كازيمير ومثل كل الذين لبوا النداء. "نهاية موت" أخذ يكررها فريتز كاستل عندما نطقت أسماءهم.

بمعاونة فريتز كاستيل بنيت كوخًا من الفروع وسعف النخيل أمام مقبرة شجرة التمر هندى القديمة كم من الوقت سأبقى؟ الآن أعلم أن الأيام معدودة المال لا ينقصنى (منحة الجيش مازالت على حالها تقريبًا) لكن الوقت هو الذى سينقصنى، إنها الأيام والليالى التى سحبت منى وأضعفتنى، عرفت ذلك على الفور بمجرد أن أصبحت من جديد فى الشرم فى هذا الصمت محاطًا بقوى جدران البازلت وأنا أسمع ضجيج البحر المستمر هل يمكننى حقًا أن آمل أيضًا فى شىء من هذا المكان بعد كل مادمر العالم؟ لماذا عدت؟

طوال الأيام أبقى ساكنًا مثل كتل البازلت أسفل الوادى مثل بقايا مدينة مختفية لا أريد أن أتحرك أنا فى حاجة إلى هذا الصمت وهذا الخدر. فى الصباح عند الفجر أذهب حتى الشاطئ بين البوص أجلس هنا حيث كانت أوما فيما مضى تغطيني بالرمل لكى أجف. فى الريح أسمع البحر يزمجر على قوس الكسارات وأنتظر اللحظة التى يرتفع فيها عن طريق

عنق الممر وهو ينفث سحب الرغوة ثم أسمعه وهو يهبط من جديد وينزلق فوق أرض الزيت مكتشفًا أسرار البرك. فى المساء والصباح تحليق طيور البحر عبر الخليج يسجل حدود اليوم أفكر فى الليالى الجميلة حقًا التى كانت تجىء ببساطة شديدة فى الوادى دون خوف الليالى التى كنت أنتظر فيها أوما الليالى التى لم أكن أنتظر فيها أحدًا الليالى التى كنت أراقب فيها النجوم كل منها فى مكانه فى الكون ترسم رموزها الأبدية. الآن الليل الذى يجىء يزعجنى يقلقنى أشعر بالبرد القارس وأسمع ضجيج الحجارة، معظم الليالى أنحنى أسفل الكوخ وعيناى مفتوحتان على آخرها أرتعش دون التمكن من النوم القلق أكبر من ضرورة العودة أحيانًا إلى المدينة لكى أنام فى الحجرة الضيقة بالفندق الصينى بعد أن أحصن الباب بالطاولة والمقعد.

ماذا حدث لى؟ الأيام طويلة فى شرم الإنجليز. فى كثير من الأحيان يجىء الفتى فريتز كاستل ليجلس على جذع الشجرة أمام كوخى ندخن ونتحدث أو بالأحرى أنا الذى يتحدث عن الحرب والهجمات بالسلاح الأبيض فى الخنادق وعن أضواء القنابل. هو يستمع إلىَّ وهو يقول: " نعم ياسيدى" لا ياسيدى". بدون نفاد صبر حتى لا أحبطه أرسله لكى يحفر الآبار لكن الخرائط القديمة التى رسمتها لم يعد لها معنى بالنسبة إلىَّ. الخطوط تختلط أمام عينى والزوايا تفتح والعلامات تختلط.

عندما ذهب فريتز كاستل أذهب لكى أجلس تحت شجرة التمر هندى الضخمة عند مدخل الوادى وأنظر وأنا أدخن إلى الوادى حيث تغير الضوء تمامًا. أحيانًا أذهب إلى الوادى الصغير لكى أشعر كما فيما مضى بحرارة الضوء على وجهى وعلى صدرى. الوادى الصغير كما تركته: الصخور التى تسد المخبأ الأول علامات ضربات المعول، الشرخ الكبير على هيئة مزراب فوق البازلت الذى يميل عن سمت الرأس. عما جئت أبحث هنا؟ الآن أشعر فى كل مكان بالفراغ والهجر مثل جسد فرغ بالحمى حيث كل الذى احترق وجف ليس أكثر من قشعريرة وضعف. ومع ذلك أحب هذا الضوء فى الوادى الصغير وهذه الوحدة أحب أيضًا السماء الزرقاء تمامًا وشكل الجبال فوق الوادى ربما لهذا السبب أنا عدت.

مساء فى انسياق الشفق وأنا جالس فى الكثبان الرملية أحلم بأوما فى جسدها المعدنى بطرف من الصوان رسمت جسدها فوق كتلة من البازلت هنا حيث يبدأ البوص لكن عندما أردت أن أكتب التاريخ لاحظت أننى لم أعد أعرف فى أى يوم كان ولا الشهر، فكرت للحظة أن أركض حتى مكتب البرق كما فيما مضى لكى أسأل فى أى يوم نحن؟ لكننى أدركت على الفور أن هذا لايعنى شيئًا بالنسبة إلىَّ وأن التاريخ لم يكن له أية أهمية.

هذا الصباح منذ مشرق الشمس ذهبت إلى الجبال. فى البداية بدا لى أن الطريق معروف بين

الشجيرات والتكعيبات. لكن بسرعة انعكاس الشمس يحرقنى يشوش رؤيتى. فوقى مدى البحر أزرق وصلب يطوق الجزيرة. إذا كانت أوما هنا فى مكان ما سوف أجدها أنا فى حاجة إليها هى التى تملك مفاتيح سر الباحث عن الذهب. هذا ما اعتقدته وقلبى يدق بقوة فى صدرى بينما أتسلق جبل ليمون عبر الحطام. هل من هنا جئت أول مرة عندما تبعت ظل "سرى" العابر كما لو كنت ذاهب للقاء السماء؟ الشمس فوقى فى الذروة تشرب الظلال. لاشىء يختفى لا معلم .

الآن أنا ضائع بين الجبال محاط بحجارة وشجيرات جميعها متشابهة. القمم المحترقة تنتصب على جميع الأطراف فى مواجهه السماء المتلألئة. للمرة الأولى منذ سنوات أصيح باسمها " أو-ما! " أقف فى مواجهة الجبل الأصهب اصيح :"أو-ما ! "اسمع ضجيج الريح، ريح يحرق ويعمى، ريح الحمم والتكعيبات يوقف العقل " أو ـ ما !" أيضًا متوجهًا نحو الشمال هذه المرة نحو البحر الذى يصفر أصعد إلى قمة ليمون وأرى الجبال الأخرى التى تحيط بى. أسفل الوديان أصبح فى الظل. السماء تحجب فى الشرق" أو-ما ! "يبدو لى أنه اسمى أنا الذى أصبح به لكى أوقظ فى هذا المشهد الصحراوى صدى حياتى التى فقدتها طوال كل سنوات الدمار هذه "أوما! أو - ما! " صوتى بح بينما أهيم على هضبة عالية بحثًا دون جدوى عن أثر لمسكن وعن زريبة ماعز وعن نار، لكن الجبل خالٍ لاتوجد آثار إنسانية ولا فرع مكسور ولا

حفيف على أرض جافة أحيانًا فقط مسار مائة قدم بين حجرين.

أين جئت ؟ علىَّ أن أتجول لساعات دون أن أدرك شيئًا. عندما يهبط الليل يصيح الوقت متأخرًا جدًا للتفكير فى النزول مرة أخرى. أبحث بعينى عن ملجأ عن شق فى الصخر لأحتمى من برد الليل ومن المطر الذى يبدأ فى السقوط على جانب الجبل الذى يغرق بالفعل فى الظل أجد نوعًا من منحدر عشبى قصير وهنا أستقر فى أثناء الليل. الريح يمر فوق رأسى وهو يصفر أغفو على الفور مستنفدًا. البرد يوقظنى الليل أسود، أمامى هلال القمر يضىء بنور غير واقعى جمال القمر يوقف الزمن.

عند الشروق أتبين شيئًا فشيئًا الأشكال التى تحيط بى. ألمح إذًا بتأثر ودون أن أنتبه أننى نمت فى أنقاض مخيم قديم للمناف. بيدى حفرت الأرض الجافة اكتشفت بين الأحجار الآثار التى كنت أبحث عنها " قطع من الزجاج، علب صدئة قواقع. حاليًا أرى بوضوح دوائر الحلبة.. أسس الأكواخ. هل هذا هو كل مابقى من القرية التى كانت تسكنها أوما؟ ماذا حدث لهم؟ هل ماتوا جميعًا من الحمى والجوع بعد أن هجرهم الجميع؟ اذا كانوا قد رحلوا فإن الوقت لم يتح لهم لكى يخفوا آثارهم وكان عليهم الفرار من الموت الذى حل بهم، بقيت ساكنًا وسط هذه الأنقاض فريسة لإحباط شديد .

عندما اشتد لهيب الشمس من جديد فى السماء هبطت منحدر جبل ليمون عبر الشجيرات الشائكة. على الفور ظهرت التكعيبات وأوراق شجرة التمر هندى الداكنة. فى أسفل الوادى الطويل لنهر روزو أرى البحر الذى يسطع بقوة فى الشمس ومدى البحر الذى يقبض علينا سجناء.

الصيف الشتاء، ثم أيضًا موسم الأمطار كل هذا الوقت فى شرم الإنجليز حلمت به بلا حدود دون أن أفهم ما يحدث بداخلى. شيئًا فشيئًا استأنفت بحثى وأقيس الفجوة بين الصخور وأرسم خطوطًا جديدة فى الشبكة غير المرئية التى تغطى الوادى. على هذا العنكبوت أعيش وأتمركز .

لم أشعر أبدا أنى قريب من السر هكذا. الآن لم أعد أشعر بنفاد الصبر المحموم كما فى البداية منذ سبع أو ثمانى سنوات هكذا أكتشف فى كل يوم علامة ورمزًا، أذهب وأجىء بين ضفاف الوادى أقفز من صخرة إلى صخرة أحفر آبارًا فى كل مكان أتحرق بفارغ الصبر والعنف. لذلك لم أتمكن من سماع أوما ولم أستطع أن أراها. كنت معنيًا بمنظر الحجر أرصد حركة الظلال التى ستكشف لى سرًا جديدًا .

اليوم مضى ذلك. بداخلى لم أكن أعرف لمرة واحدة من أين تجىء؟ إيمان بكتل البازلت هذه بهذه الأرض المعذبة، إيمان بمياه النهر الرقيقة، بالكثبان الرملية.. هذا يجىء من البحر ربما، البحر الذى

يحيط بالجزيرة ويحدث ضجيجها العميق ضجيجها الذى يتنفس. كل هذا فى جسدى عرفته أخيرًا عند عودتى إلى شرم الإنجليز. إنها قوة اعتقدت أنها فقدت. ثم فى الوقت الحالى لم أعد متعجلاً. أظل ساكنًا لساعات أجلس فى الكثبان الرملية بالقرب من مصب النهر أنظر إلى البحر المتفجر وأراقب مرور الغاز وطيور النورس أو اظل فى مأمن من كوخى عندما تكون الشمس فى مكانها ظهرًا بعد أن أكون قد تناولت الغداء ببعض السرطانات المسلوقة وبعض حليب جوز الهند وأكتب على الكراسات المدرسية التى اشتريتها من الصينيين فى بورماتوران. أكتب رسائل لاوما ولور "رسائل لن تقرأنها حيث أقول أشياء لا أهمية لها السماء، شكل السحب، لون البحر، الأفكار التى تنتابنى هنا أسفل شرم الإنجليز. الليل أيضًا عندما تكون السماء باردة والقمر منتفخ يمنعنى من النوم أجلس القرفصاء أمام الباب أضىء مصباح العاصفة وأدخن وأنا أرسم خطط البحث على كراسات أخرى لأ أسجل تقدمى فيما يتعلق بالسر.

بالصدفة فى جولاتى على شاطئ الشرم أجمع الأشياء الغريبة التى يقذفها البحر، القواقع، قنافذ البحر المتحجرة وقشور الشجر. أضع هذه الأشياء الثمينة فى علب البسكويت الفارغة. من أجل لور أن أجمع هذا وأتذكر الأشياء التى جاء بها دونيس فيما مضى من رحلاته. أسفل الشرم مع الفتى فريتز كاستل نمسح الرمل وأجمع حصى بأشكال غريبة

صخر بركانى وحجر صوان. ذات صباح ونحن نحفر بدورنا بالمعول فى المكان حيث يشكل نهر روزو كوعًا ناحية الغرب تبعًا لمسار مصبه القديم على البحر استخلصنا حجرًا كبيرًا من البازلت بلون أسود توجد فى قمته سلسلة من الشقوق مفتوحة بمقص. راكعًا أمام الحجر أحاول أن أفهم. رفيقى ينظر إلىَّ بفضول وخشية: من هو هذا الإله الذى جعلناه يبزغ من رمل النهر؟

"أنظر ! مرصد! "

الفتى الأسود يتردد. ثم يركع إلى جوارى. على الحجر الأسود أبين له كل نقرة تشبه الجبال التى أمامنا أسفل الوادى: " انظر: هنا ليمون. هناك لوبان باتات. هناك مالارتيك الضخم. هنا بيلاكتير. شارلو المزدوج وهناك قمة القائد مع فيجى، كل شىء مسجل على هذا الحجر. هنا نزل من المركب فيما مضى استعان بهذا الحجر لكى يربط قاربه أنا متأكد من ذلك. إنها كل نقاط المعلم التى أفادت فى تخطيط خريطته السرية وفريتز كاستل يقف نظرته تعبر دائمًا عن الفضول نفسه الممزوج بالخشية. مما هو خائف من من؟ منى أو من الرجل الذى علم هذا الحجر منذ زمن طويل؟

من هذا اليوم لم يعد فريتز كاستيل. أليس أفضل هنا؟ فى هذه الوحدة أن أفهم بشكل أفضل أسباب وجودى هنا فى هذا الوادى المجدب؛ لذا يبدو لى أنه

لم يعد يوجد شيء يفصلنى عن هذا المجهول الذى جاء هنا منذ مايقرب من مائتى عام لكى يترك سره قبل أن يموت.

كيف جرؤت على العيش دون أخذ حذرى مما يحيط بى ولا أبحث هنا إلا عن الذهب وأهرب عندما أقترب من إيجاده؟ ضربات المرجاس فى الأرض أعمال إزالة الصخور كل هذا كان انتهاكًا للحرمات. الآن فى الوحدة والعزلة أفهم وأرى هذا الوادى بأكمله مثل مقبرة. إنه غامض وموحش إنه مكان للنفى. أتذكر كلمات أوما عندما تحدثت معى للمرة الأولى لهجتها الساخرة والجارحة فى الوقت نفسه عندما كانت تعالج جرح رأسى "هل تحب حقًا الذهب؟" وقتها لم أفهم كنت مشغولا بما اعتقدت أنه سذاجة. لم أفكر أن هناك شيئًا أتعلمه فى هذا الوادى المرير لم أتخيل أن هذه الفتاة المتوحشة والغريبة كانت تعلم السر والآن لم يعد الوقت متأخرًا جدًا؟

وحدى وسط هذه الحجارة مع سند وحيد هذه الرزم من الورق وهذه الخرائط وهذه الكراسات حيث كتبت حياتى !.

أفكر فى الوقت الذى اكتشفت فيه العالم شيئًا فشيئًا حول طفولة بوكان. أفكر فى زمن الركض فى العشب وراء هذه الطيور التى تدور دائمًا فوق مانانافا. عدت إلى التحدث مع نفسى كما فى الماضى أغنى كلمات نهر تاينيه اللازمة التى كنا نغنيها مع كوك العجوز ونحن نهتز ببطء :

وای، وایی یا أبنائی

يجب أن تعملوا لتكسبوا عيشكم ...

هذا الصوت هو من جديد فی داخلی. أنظر إلی تدفق مياه نهر روزو فی المصب عندما يتخفف الشفق من كل شیء. أنسی احتراق النهار والقلق من البحث عند سفح المنحدر والآبار التی حفرتها من أجل لاشیء عندما يهبط الليل مع رجفة حساسة تقريبًا فی البوص وضوضاء البحر اللطيفة. ألم يكن كذلك فی الماضی بالقرب من برج تاماران عندما كنت أتطلع إلی الوديان وهی تغرق الظل وأشاهد خيط الدخان من ناحية بوكان؟

أخيرًا وجدت حرية الليالی وأنا أتمدد علی الأرض بعينين مفتوحتين عندما كنت أتواصل مع مركز السماء وحدی فی الوادی أتطلع لفتح عالم النجوم وسحابة طريق البحيرة الساكنة. تعرفت علی أشكال طفولتی واحدًا تلو الآخر، عدار، الأسد، الكلب الكبير الجوزاء، الفخور الذی يحمل علی كتفيه جواهره؛ صليب الجنوب وتوابعة ودائمًا المركب أرجو التی تبحر فی الفضاء ورأسها مستدير نحو الغرب تحملها موجة الليل غير المرئية. أبقی راقدًا فی الرمل الأسود بالقرب من نهر روزو دون نوم وبلا حلم. أشعر علی وجهی بضوء النجوم اللطيف أشعر بحركة الأرض فی صمت الصيف الهادئ ، ورسومات الكواكب أساطير. أری كل طرق السماء والنقاط التی تلمع بقوة كبيرة كمعالم. أری المسارات السرية والآبار المظلمة

والمصايد أفكر فى القرصان المجهول الذى نام ربما فوق هذا الشاطئ الرملى منذ فترة طويلة ربما يكون قد عرف شجرة التمر هندى القديمة التى تندثر الآن تحت الأرض؟ ألم ينظر بشغف إلى هذه السماء التى قادته حتى الجزيرة؟ ملقى على الأرض الرطبة بعد عنف المعارك والقتلى، هنا ذاق طعم السلام والراحة محميًا من ريح البحر بأشجار جوز الهند.

عبرت الزمن فى دوار وأنا أنظر السماء المرصعة بالنجوم. القرصان المجهول هنا بالتحديد يتنفس بداخلى وبنظرته أتأمل السماء .

كيف لم أفكر فى هذا مبكرًا؟ تكوين شرم الإنجليز هو تكوين الكون، خريطة الوادى بسيطة للغاية فى كل لحظة لم تكف عن التوسع والامتلاء بالرموز والمعالم. سرعان ما أخفى عنى هذا التشابك حقيقة هذا المكان القلب يدق، أقف فى قفزة أركض نحو كوخى حيث المصباح الصغير لايزال مشتعلا. فى ضوء المصباح الخافق أبحث فى حقيبتى عن الخرائط والوثائق والحواجز. أحمل الأوراق والمصباح إلى الخارج وأجلس فى مواجهة الجنوب أقارن خرائطى برسومات القبة السماوية. فى مركز الخريطة هنا حيث وضعت فى الماضى معلمى وتقاطع خط الشمال ـ الجنوبى مع محور الأعضاء المطابق تمامًا للصليب الذى يتوهج أمامى بتوهجه السحرى إلى الشرق فوق الوادى الصغير حيث يتمثل الشكل بالضبط، العقرب يحنى جسمه وقلبه النابض هو الأحمر الذى يخفق فى المكان نفسه الذى وضعت فيه مكملا مخبأ. القرصان

المجهول. أنظر نحو الشرق أرى فوق النقاط الثلاث تشكل حرف M؟ من جدول القائد وقرينات حزام الجوزاء الثلاث اللاتى يظهرن فوق الجبال. فى الشمال فى اتجاه البحر توجد العربة الخفيفة العابرة التى تشير إلى مدخل الممر وبعيداً إلى حد ما منحنى سفينة آرجو التى ترسم شكل الخليج بحيث تعتلى مقدمتها المصب حتى حدود الشاطئ القديم. يجب أن أغلق عينى بسبب الدوار. هل أواجه هلوسة جديدة؟ لكن هذه النجوم حية أبدية والأرض تحتها تتبع قدرها. وهكذا فى السماء حيث لاخطأ غير ممكن مسجل منذ الأبد السر الذى بحثت عنه دون أن أعرف، كنت أراه منذ كنت أتطلع إلى السماء فيما مضى فى مسيرة النجوم.

أين يوجد الكنز ؟ هل هو فى العقرب، فى عدار ؟ هل هو فى المثلث الذى يربط مركز الوادى بالنقاط B.D.H التى ذكرتها منذ البداية ؟ هل هو فى مؤخرة السفينة آرجو أو فى المقدمة المميزتين بمصابيح كانوب وميابلا سيدوس التى تبرق كل يوم تحت شكل الصخرتين البازلتيتين على جانبى الخليج ؟ هل هو فى جوهرة فوملهو والنجم الفريد المتلألئ الذى يضطرب كما النظرة فوق أعالى البحر والذى يصعد إلى الذروة مثل شمس الليل ؟

هذه الليلة ظللت أرصد دون أن أنام لحظة واحدة أرتجف تماماً من وحى السماء هذا وأنا أنظر إلى كل

كوكب وكل علامة. أتذكر ليالى بوكان المرصعة بالنجوم، عندما خرجت بدون ضجة من الغرفة الساخنة لأجد برودة الحديقة، ثم كما هو الحال الآن أعتقدت أنى أشعر على جلدى رسم النجوم وعندما أتى ذلك اليوم نقلتها على الأرض أو فى رمل الوادى الصغير بحصى صغير.

جاء الصباح وأضاء السماء كما فيما مضى، نمت فى الضوء ليس بعيدًا عن التل حيث تقع شجرة التمر هندى القديمة.

منذ أن فهمت سر خريطة القرصان المجهول لم أشعر بداخلى بأى تسرع. للمرة الأولى منذ عدت من الحرب يبدو لى أن سعيى لم يعد له نفس المعنى. من قبل لم أكن أعرف ما أبحث عنه ومن أبحث عنه. كنت مأخوذًا فى فخ. اليوم تحررت من حمل أستطيع ان أعيش حرًا وأن أتنفس. من جديد كما مع أوما أستطيع أن أمشى وأسبح وأغطس فى مياه البحيرة لكى أصطاد قنافذ البحر. صنعت حربة ببوصة طويلة وقبضة من خشب الحديد. فعلت كما أظهرت لى أوما أغطس عاريًا فى ماء الفجر البارد عند ما يمر تيار المد الصاعد عبر فتحة الشعاب بمحاذاة المرجان أبحث عن الأسماك. الأفواه المرصوفة، العجائز، السيدات المريضات، أحيانًا أرى مرور ظل سمكة قرش أزرق وأظل بلا حراك دون أن أفارق الهواء وأنا أستدير للمواجهة. الآن يمكننى أن أسبح أبعد من أوما

وأكثر سرعة أعرف كيف أشوى الأسماك على الشاطئ على صوان من البوص الأخضر، بالقرب من كوخى زرعت ذرة وفاصوليا وبطاطا مسكرة وكرنبًا وضعت فى وعاء من الحديد شجرة باباز صغيرة أعطاها لى فريتز كاستل .

فى بورماتوران الناس يسألون مدير بنك باركليز فى يوم جئت لأسحب نقودًا قال لى:

"حسنًا ؟ هل تجىء كثيرًا إلى المدينة ؟ هل يعنى ذلك أنك فقدت الأمل فى العثور على كنزك ؟"

نظرت إليه ضاحكًا وأجبت بثقة:

"على العكس ياسيدى هذا يعنى أنى وجدته"

ذهبت دون انتظار أسئلة أخرى.

فى الواقع أذهب كل يوم تقريبًا إلى السد على أمل رؤية زيتا. منذ شهور ولم تلمس رودريج. نقل البضائع والركاب تقوم به الفرقاطة. باخرة تابعة للشركة البريطانية الهندية للمراكب البخارية الذى يمثلها العم لودفيك فى بور لوى. هذا المركب هو الذى يحمل البريد والرسائل التى ترسلها لى لور منذ أسابيع كثيرة وفيها تحدثنى عن مرض ماما. آخر رسالة للور المؤرخة بالثانى من إبريل ١٩٢١ عاجلة جدًا: انتظر تحت مظلة الرصيف محاطًا بصخب البحَّارة وعمال الميناء وأنا أتطلع إلى السحب التى تتجمع فوق البحر يتحدثون عن عاصفة قادمة، مقياس الحرارة يهبط من ساعة لأخرى. قرابة الساعة

الواحدة بعد الظهر عندما أصبح كل شىء هادئًا أفتح خطاب لور أخيرًا أقرأ الكلمات الأولى التى تنهكنى .

"عزيزى على عندما تصلك هذه الرسالة إذا كانت ستجدك لا أدرى إذا كانت ماما ستكون عل قيد الحياة..."

عيناى تضطربان، أعلم أن كل شىء انتهى الآن. لاشىء يمكنه أن يبقينى هنا بما أن ماما فى هذا السوء. الفرقاطة ستكون هنا فى غضون أيام قليلة سأرحل معها. سأرسل برقية للور لأخبرها بعودتى لكن الصمت فى داخلى يصحبنى فى كل مكان.

العاصفة بدأت تهب هذه الليلة واستيقظت من القلق.. بداية هو ريح بطىء ومتواصل فى ليلة سوداء خانقة، فى الصباح أرى السحب تحلق فوق الوادى فى هبة متقطعة وبينهما الشمس تلقى برقًا. فى مخبئى بالكوخ أسمع ضجيج البحر على الأرصفة، ضجيجًا مرعب حيوانى تقريبًا وأفهم أن إعصارًا فى طريقه إلى الوصول فوق الجزيرة. لايجب أن أفقد لحظة واحدة أتناول حقيبة الجندية وأترك فى الكوخ متعلقاتى الأخرى أتسلق التل نحو رأس فينوس فى مواجهة الزوبعة تكون مبانى البرق هى الملاذ الوحيد.

عندما أصل أمام المستودعات الرمادية الكبيرة أرى ناس الحى يحتشدون هناك: رجال ونساء وأطفال حتى الكلاب والخنازير التى جلبها السكان معهم هندى موظف البرق يعلن أن قياس الحرارة تحت

الثلاثين الآن. عند الظهر وصل الريح يعوى فوق رأس فينوس المبانى بدأت تضطرب وانطفأت الإضاءة الآلية. الأمطار الغزيرة سقطت على معدن الجدران والسقف مع هدير شلال. شخص ما أشعل مصباح العاصفة الذى يضىء الوجوه بطريقة رائعة .

الزوبعة تصفر طوال اليوم. فى المساء نغفو مستنفدين على أرضيته المستودع ونحن نسمع عويل الريح وأنين هياكل المنازل المعدنية .

فى الفجر استيقظ من الصمت. فى الخارج ضعف الريح لكنا نسمع هدير البحر على الأرصفة، الناس يحتشدون فوق الصخرة الشاهقة أمام مبنى البرق. عندما أقترب أرى ما ينظرون إليه: حاجز المرجان أمام رأس فينوس بقايا سفينة غارقة. على بعد أقل من ميل من الساحل نستنتج بوضوح الصوارى محطمة والهيكل مفكك. لم يتبق غير نصف مركب والمؤخرة مرفوعة والأمواج العنيفة تتكسر على الحطام وهى تلقى بسحب الرذاذ. اسم المركب يجرى على الشفاه، لكن عندما سمعته عرفته على الفور: إنها زيتا. على المقدمة أرى جيداً المقعد القديم المثبت بالسطح الذى كان يجلس عليه القبطان برادمير لكن أين الطاقم؟ لا أحد يعرف شيئًا. الزوبعة وقعت فى الليل.

أنزل وأنا أركض نحو الشاطئ، أسير بطول الساحل الشاسع الذى تغزوه الفروع والحجارة. أريد

أن أجد فرقاطة أى شخص يساعدنى لكن دون جدوى لايوجد أحد على شاطئ البحر.

ربما فى پور ماتوران مقدان، قارب الإنقاذ؟ لكن قلقى قوى للغاية لا أستطيع الانتظار. أخلع ملابسى، أدخل فى البحر وأنا أنزلق على الصخور، تضربنى الأمواج. البحر هائج، يغطى حاجز المرجان. الماء مضطرب كمياه نهر فى الفيضان. أسبح ضد التيار القوى لدرجة أنى بقيت فى مكانى زمجرة الأمواج التى تتلاطم أمامى بالضبط، أرى حثالة الرغوة نحو السماء السوداء. الحطام على مائة متر تقريبًا، أسنان الشعاب الحادة قسمتها نصفين بارتفاع الصوارى. البحر يغطى السطح ويغلف المقعد الخالى. لا أستطيع أن أقترب أكثر، دون أن أخاطر بأن أسحق أنا نفسى فى مواجهة الشعاب. أريد أن أصرخ، أنادى: " برادمير !....." لكن صوتى يغطيه طنين الأمواج فلا أسمعه حتى! بعد فترة طويلة، أسبح ضد البحر الذى يغطى الحاجز. الحطام بلا حياة، يبدو أنه أسقط هنا منذ قرون. البرد يهاجمنى، ينفذ فى صدرى . يجب أن أتخلى ، أعود إلى الوراء ببطء، تركت نفسى أحمل على موجة كبيرة مع حطام العاصفة . عندما لمست الشاطئ ، كنت متعبًا للغاية، ويائسًا، لدرجة أنى لم أشعر بالجرح الذى أصاب ركبتى وأنا أصطدم بصخرة. فى بداية فترة بعد الظهر، توقف الريح تمامًا. الشمس تشرق على الأرض والبحرالشاسعين. وكل شىء انتهى. أنا أترنح، على حافة الإغماء أمشى

نحو شرم الإنجليز. قريبًا من مبانى البرق ، الجميع فى الخارج يضحكون ويتحدثون بصوت عالٍ: الإقلاع عن الخوف. عندما أصل فوق شرم الإنجليز، أرى مشهدًا مدمرًا. نهر روزر عبارة عن نهر من الطين الداكن يتدفق بضجيج كبير فى الوادى كوخى اختفى، الأشجار والتكعيبات اقتلعت من جذورها ولم يبق شىء من زراعاتى،لا يتبقى فى أعماق الوادى غير الأرض المخططة بالجداول وكتل البازلت التى انبسقت من التربة. كل ما تركته فى قمرتى اختفى: ملابسى، الأوانى، وبصفة خاصة جهاز قياس الزوايا ومعظم مستنداتى الخاصة بالكنز.

النهار انتهى بسرعة فى هذا الجو من نهاية العالم. مرة أخرى أمشى أسفل شرم الإنجليز بحثًا عن مارة ما عن أثر يكون قد نجا من الزوبعة، أنظر فى كل مكان لكن كل شىء قد تغير، وأصبح صعب التعرف عليه، أين كومة الحجارة التى كانت تشكل نسخة طبق الأصل من المثلث الجنوبى؟ وهذا البازلت القريب من السطح الأملس والذى أرشدنى أول مرة حتى المراسى الشقق فى لون النحاس، لون المعدن المنصهر. لأول مرة طيور البحر لا تعبر الشرم لتفوز بملاذها. أين ذهبت؟ كم منها نجا من الزوبعة؟ للمرة الأولى أيضًا وصلت الفئران إلى أسفل الوادى مطاردة من جحورها بفعل سيول الوحل. تقفز حولى فى الظلام، وهى تطلق صيحات ضعيفة وحادة تخيفنى .

فى قلب الوادى، بالقرب من النهر الذى غاص، أرى شاهد البازلت الكبير حيث حفرت قبل أن أذهب إلى الحرب خط شرق ـ غرب والمثلثين المقلوبين للمراسى التى ترسم نجم سليمان. الشاهد قاوم الريح والمطر، فقط دفن قليلا فى الأرض، وفى وسط البلد المدمر، الشبيه بنصب من بداية الجنس البشرى، من سيجده، يومًا، ويفهم ما الذى يعنيه؟ وادى شرم الإنجليز أغلق سره، أغلق أبوابه التى كانت للخطة مفتوحة لى وحدى. على جرف الشرق. هنا حيث تضرب أشعة الشمس النائمة فى مدخل الوادى الصغير الذى يجذبه للمرة الأخيرة. لكن عندما أقترب، ألاحظ أن تحت عنق السيل، جزء من الجرف أنهار، وقد سد ممر الوصول. تدفق الوحل الذى انبثق من الوادى الصغير دمر كل شىء أمامه، وخلع شجرة التمر الهندى القديمة، التى أحببت دومًا ظلها الرطب. بعد عام واحد لم يبق شىء من جذعها، غير ساتر ترابى تعلوه بعض الشجيرات الشائكة .

أبقى لفترة طويلة حتى الليل، أسمع ضجيج الوادى. النهر الذى يتدفق بقوة. يجتاح الأرض والأشجار، المياه التى تسيل منها المنحدرات الصخرية، وبعيدًا، رعد البحر المستمر. خلال اليومين المتبقيين لى، لا أكف عن النظر إلى الوادى كل صباح، أترك مبكرًا غرفتى الضيقة فى الفندق الصغير وأصعد حتى أعلى قمة القائد. لكنى لا أهبط مطلقًا إلى الوادى. أبقى جالسًا وسط الشجيرات بالقرب من

البرج المدمر، وأنظر إلى الوادى الطويل الأسود والأصم حيث اختفى أثرى تمامًا. فى البحر. غير الواقعى، المعلق بالشعاب المرجانية. مؤخرة زيتا ساكنة تحت ضربات الأمواج . أفكر فى القبطان برادمير، الذى لم يعثروا على جسده، كان حسب ما يحكى عنه وحده على مركبه ولم يبحث عن إنقاذ نفسه. إنها آخر صورة أحملها عن رودريج، على سطح الفرقاطة الصغيرة التى تتقدم نحو الاتساع ترفرف كل أشرعتها تحت قوة ماكينتها. أمام الجبال الغالية العارية، التى تلألأ فى شمس الصباح كما فى التوازن الدائم على حافة المياه العميقة. حطام زيتا، الذى تحلق فوقه بعض طيور البحر التى تشبه تمامًا هيكل عنبر ألقته العاصفة.



مانانافا ١٩٢٢



منذ عودتى أصبح كل شىء غريبًا صامتًا فى فورست سايد. المنزل القديم ـ كوخ خشب كما تقول لورـ مثل مركب تتسرب منها المياه من كل جانب تم إصلاحها على عجل وإلى حد ما بقطع من الصفائح المعدنية والكرتون المطلى بالقطران. الرطوبة والحرارة سيلحقان به قريبًا. لم تعد ماما تتكلم: ولم تعد تتحرك، لاتكاد تأكل وتشرب. أعجب بشجاعة لور التى تبقى بالقرب منها ليل ونهار. ليست لدى هذه القوة. لذلك أمشى على طرق القصب، من ناحية كانز كانتون هنا حيث تلحظ قمم الضروع الثلاثة أو الجانب الآخر من السماء.

يجب أن أعمل، وحسب فكرة لور، جرؤت على التقدم من جديد من المكان الذى يديره الآن ابن عمى فرديناند. العم لودفيك أصبح هرمًا، يعيش خارج نطاق العمل فى المنزل الذى بناه بالقرب من اليمن، هناك حيث كانت تبدأ أرضنا فى الماضى. فرديناند استقبلنى بسخرية واحتقار وكان قد أثار غضبى فيما مضى. الآن، لا يهمنى . عندما قال لى:

"إذًا تعود للأماكن التى ..

اقترحت :

"مسكونة؟"

حتى عندما تحدث عن أبطال الحرب الذين نراهم كل يوم "لم أتراجع. لكى ينتهى الأمر، عرض على أن أكون رئيسًا فى مزارع المدينة. واضطررت للقبول. هأنذا أصبحت سيردار! .

أعيش فى كوخ ناحية الخيرزان، وكل يوم أتفقد الزراعات على جواد لأراقب العمل. بعد الظهر، أكون فى صخب مصنع السكر . لرصد وصول القصب، والتفل وجودة الشراب. إنه عمل مرهق، لكنى أفضل ذلك على اختناق مكاتب سكك حديد الغرب. مدير مصنع السكر إنجليزى، اسمه بيلنج، مبعوث من سيشيل عن طريق الشركة الزراعية. فى البداية كان متحيزًا ضدى من قبل فرديناند. لكنه رجل عادل وعلاقتنا ممتازة. يتحدث عن شاما ريل حيث يأمل فى الذهاب إلى هناك. اذا أرسلوه هناك: وعدنى بمحاولة ذهابى أيضًا .

اليمن: هى العزلة. فى الصباح، فى الحقول الشاسعة، العمال والنساء يرتدون الخيش يتقدمون مثل جيش فى الأسماك .

ضجيج المناجل يحدث إيقاعًا بطيئًا، ومنتظمًا. فى حدود الحقول، من ناحية والها للا، الرجال

يكسرون "الجذوع " والحجارة الثقيلة، لبناء الأهرامات. على الجواد، أعبر المزارع نحو الجنوب، وأنا أسمع ضجيج المناجل ونباح السيردار. أتصبب عرقًا. فى رودريج. حروق الشمس كانت دوارا، أرى الشرارات تضىء فوق الأحجار، وفوق التكعيبات. لكن هنا، الحرارة عزلة أخرى على مدى حقول القصب الخضراء الداكنة .

أفكر فى مانانا فا، حاليًا، المكان الأخير المتبقى لى. إنه فى داخلى منذ فترة طويلة، منذ الأيام التى كنا نمشى فيها، دونيس وأنا حتى مدخل الوديان. فى كثير من الأحيان، بينما أذهب على الجواد على طول طرق القصب، أنظر ناحية الجنوب، وأتخيل المخابئ عند منبع الأنهار. أعرف أن هناك ما يجب علىَّ أن أذهب، فى النهاية.

اليوم ،رأيت أوما .

التقطيع بدا فى القصب البكر أعلى المزارع. الرجال والنساء جاءوا من جميع أنحاء الساحل، الوجوه قلقة، لأنهم يعلمون أن ثلثهم فقط هو الذى سيعمل. الآخرون عليهم أن يعودوا إلى ديارهم، بجوعهم .

على طريق مصنع السكر، امرأة خيش كانت بعيدًا. استدارت نصف دائرة نحوى، ونظرت إلىّ. رغم وجهها المختفى بالحجاب الأبيض الكبير، عرفتها. لكنها ما لبثت أن اختفت وسط الحشد الذى انقسم

على الطرق بين الحقول. حاولت أن أجرى نحوها، ولكنى اصطدمت بالعمال والنساء المبعدين، وكل شىء غطته سحابة من التراب .

عندما وصلت أمام الحقول، لا أرى إلا هذا الجدار السميك الأخضر الذى يتموج تحت الريح. الشمس تحرق الأرض الجافة وتحرق وجهى، أركض عشوائيًا: على طول الطريق أصيح: " أوما ! أوما!...."

من بعيد لبعيد، نساء الخيش يرفعن رءوسهن، ويتوقفن عن قص العشب وسط القصب. سيردار يصيح بى، صوته حاد. بنظرة حائرة بعض الشىء سألته. هل يوجد مناف هنا؟ لم يفهم. أناس من رودريج؟ هز رأسه. يوجد، ولكنهم فى مجتمعات اللاجئين، ناحية مورن ، عند جداول كريبيول.

كل يوم أبحث عن أوما فى الطريق الذى تسير فيه مرتديات الخيش، وفى المساء أمام مكاتب المحاسبة وقت الرواتب.

النساء فهمن بالفعل، يسخرن منى يصحن بى، ويلقين على بالشتائم. هكذا لم أعد أجرؤ على السير فى طرق القصب. أنتظر الليل ، وأذهب عبر الحقول، أقابل الأطفال الذين يلتقطون السنابل. لايخافون منى يعرفون أنى لن أشى بهم. كم يبلغ "سرى" من العمر الآن ؟

الأيام، أمضيها فى التجول بالجواد عبر المزارع، فى التراب، تحت الشمس التى تصيبنى بالدوار. هل

هى هنا حقًا؟ كل نساء الخيش يشبهنها، ظلال هشة محنية على ظلها، يعملن بمناجلهن، ومعازقهن. أوما لم تظهر لى إلا مرة واحدة، كما كانت تفعل فيما مضى بالقرب من نهر روزو. أفكر فى لقائنا الأول، عندما كانت تفر فى الوادى بين الشجيرات، وعندما كانت تصعد نحو الجبال، رشيقة مثل عنزة. هل حلمت بكل هذا؟

وهكذا أخذت القرار بترك كل شىء، وإلقاء كل شىء خارجى. أوما أشارت لى بما يجب أن أفعله، قالت لى ذلك، بطريقتها دون كلام ببساطة وهى تظهر أمامى كالسراب بين كل هؤلاء الناس الذين يجيئون للعمل على هذه الأراضى التى لن تكون أبدا لهم: سود، هنود هجناء، كل يوم مئات الرجال والنساء هنا فى اليمن فى مالها للا، أو فى المدينة وفونيكس، فى صحرائى، فى عزلتى فى فور باش مئات الرجال والنساء الذين يكومون الحجارة على الجدران والأهرامات وهؤلاء الذين يقطعون الجذوع ، ويحرثون ويزرعون القصب الصغير ثم على امتداد المواسم ينتفون القصب ويقصون رءوسه، وينظفون الأرض وعندما يحل الصيف، يتقدمون فى المزارع مربعًا مربعًا ويقطعون من الصباح حتى المساء، لايتوقفون إلا للف مناجلهم حتى بنزف أيديهم وسيقانهم التى يمزقها سلك الأوراق حتى تصيبهم الشمس بالغثيان والدوار.

دون أن أدرك تقريبًا، عبرت المزارع حتى الجنوب هنا حيث تقف أنقاض مصنع سكر قديم ومدمر. البحر ليس بعيدًا، لكنا لا نراه ، ولا نسمعه. فقط، فى السماء الزرقاء تحلق الطيور أحيانًا، حرة. هنا يعمل الرجال فى مسح الأراضى الجديدة. تحت الشمس، يحملون الحجارة السوداء على الشاحنات، ويحفرون الأرض بضربات محرقة. عندما، رأونى، توقفوا عن العمل. كما لو كانوا يخافون من شىء ما. ثم، اقتربت من الشاحنة وبدأت أنا أيضًا فى نزع الحجارة وإلقائها مع الآخرين. نعمل دون توقف، بينما تهبط الشمس نحو الأفق، تحرق وجوهنا. عندما تمتلئ شاحنة بالحجارة والجذوع، تحل محلها أخرى. الجدران القديمة تمتد بعيدًا، ربما حتى شاطئ البحر. أفكر فى العبيد الذين شيدوها، الذين أسمتهم لور "الشهداء" الذين ماتوا فى هذه الحقول، هؤلاء الذين هربوا إلى جبال الجنوب، فى مورن... الشمس قريبة جدًا من الأفق. كما فى رودريج، يبدو لى أن حرقها اليوم نقانى وحررنى.

امرأة خيش جاءت .هندية عجوز ذات وجه يبس. تحمل ماء للعمال، ولبنًا حامضًا تصبه فى وعاء مع قصعة من الخشب. عندما اقتربت منى ترددت ثم قدمت لى القصعة. اللبن الحامض رطب حلقى الذى أحرقه الغبار.

الشاحنة الأخيرة المحملة بالحجارة تبتعد. بعيدًا فى صفارة المرجل الحادة تعلن نهاية العمل. دون تسرع أخذ الرجال معازقهم وذهبوا. عندما وصلت إلى

مصنع السكر السيد بيلنج ينتظرنى أمام مكتبه. تطلع إلى وجهى الذى حرقته الشمس وشعرى وملابسى المغطاة بالغبار. لما كنت قد قلت له أنى أريد أن أعمل منذ الآن فى الحقول فى التقطيع فى تطهير الأراضى قاطعنى: «بجفاء أنت غير قادر على عمل ذلك وفى كل الأحوال هذا مستحيل أبدًا لم يعمل ولا أحد من البيض فى الحقول» ثم أضاف بهدوء: «اعتقد أنك فى حاجة إلى الراحة وأنك جئت لتقدم لى استقالتك» المقابلة انتهت، أسير ببطء على الطريق الأرضى المهجور الآن. فى ضوء الشمس المختفية تبدو حقول القصب كبيرة مثل البحر ومن بعيد إلى بعيد تشبه مداخن مصنع السكر الأخرى مداخن السفن.

هذه هى ضوضاء الفتنة التى تجذبنى من جديد إلى الأراضى الحارة ناحية اليمن. يبدو أن المزارع تحترق فى المدينة وفى والها للا، وأن الرجال العاطلين يهددون مصانع السكر، لور هى التى قالت لى الخبر، دون أن ترفع صوتها حتى لاتقلق ماما . ارتديت ملابسى بسرعة. رغم مطر الصباح الخفيف، خرجت مرتديًا قميصى العسكرى بدون سترة . بدون قبعة حافى القدمين فى حذائى. عندما وصلت إلى أعلى الهضبة، بالقرب من الضروع الثلاثة، كانت تسطع على امتداد الحقول. رأيت أعمدة الدخان التى تصعد من المزارع، ناحية اليمن. سجلت أربعة حرائق وربما خمسة.

بدأت أهبط المنحدر وأنا أقطع عبر الشجيرات، فكرت فى أوما، التى هى أسفل بدون شك. أتذكر اليوم الذى، مع فرديناند، رأيت فيه الهنود يضعون رئيس العمال الأبيض فى فرن تفل القصب، وصمت الحشد عندما يختفى فى فم الفرن المشتعل.

أنا فى اليمن قرابة الظهر. أتصبب عرقًا ويغطينى التراب، والوجه خدشته الشجيرات وتجمع الناس بالقرب من مصنع السكر. ماذا يحدث ؟ السيردارات يقولون أشياء متناقضة. بعض الرجال هربوا إلى تاما ران، بعد أن أشعلوا النار فى المستودعات، الشرطة خرجت لمطاردتهم.

أين هى أوما ؟ أقترب من مبانى المصفاة المحاطة بالشرطة، التى منعتنى من المرور فى الباحة التى تحرسها ميليشيات مسلحة ببنادق، ورجال ونساء يجلسون القرفصاء فى الظل وأيديهم على رقابهم فى انتظار تحديد مصيرهم. ثم استأنفت رحلتى عبر المزارع فى اتجاه البحر. إذا كانت أوما هنا ، فأنا متأكد أنها تبحث عن ملاذ ناحية البحر. ليس بعيدًا وسط الحقول دخان كثيف يتصاعد فى السماء وأسمع صرخات الرجال الذين يقاومون النار. فى مكان ما، تدوى طلقات رصاص فى عمق الحقول. لكن العصى مرتفعة لدرجة أنى لا أستطيع أن أرى من فوق الأوراق. أركض عبر القصب دون أن أعلم إلى أين أذهب، أحيانًا من ناحية وأحيانًا من ناحية أخرى، وأنا

أسمع انفجارات البنادق، فجأه أتعثر وأتوقف على آخر نفس. أسمع قلبى يهتز فى جسدى وساقاى ترتعشان. وصلت إلى حدود المقاطعة. كل شىء هادئ هنا.

أتسلق هرما من الحصى، أرى أن الحرائق قد همدت بالفعل فقط عمود دخان واحد واضح يتصاعد إلى السماء، من ناحية مصنع السكر، مشيرًا إلى أن فرن التفل تم تشغيله.

كل شىء انتهى، بقيت ساكنًا وسط جذوع وفروع ألقتها العاصفة. أفعل هذا حتى ترانى أوما. الساحل مهجور، متوحش مثل خليج الإنجليز. أمشى بطول خليج تاماران، فى ضوء الشمس المختفية. أنا على يقين من أن أوما رأتنى.. تتبعنى دون أن تحدث ضوضاء، دون أن تترك أثرًا. لايجب أن أبحث عن رؤيتها. إنها لعبتها. عندما حدثتها عنها، ذات مرة قالت لى لور بصوتها الساخر: " ألقت لك قدرًا! " الآن أعتقد أنها على حق تمامًا.

منذ فترة طويلة لم آت إلى هنا. يبدو لى أنى أسير على آثارى، تلك التى تركتها عندما ذهبت مع دونيس لرؤية الشمس وهى تنزلق تحت البحر.

فى الليل، أنا على الجانب الآخر من نهر تاماران. فى المواجهة، أرى وميض أضواء مدينة الصيادين. الخفافيش تحلق فى السماء الصافية. الليل لطيف وهادئ. للمرة الأولى منذ فترة طويلة أستعد للنوم فى

النجمة الجميلة. فى كثبان الرمل الأسود، تحت شجرة التمر هندى، أعددت فراشى، ونمت، ويداى تحت ذقنى. أظل مفتوح العينين أنظر جمال السماء. أسمع ضجيج نهر تاماران العذب الذى يندمج بالبحر.

ثم ظهر القمر. يتقدم وسط السماء والبحر ساطع تحته. ثم أرى أوما، جالسة ليس بعيدًا عنى فى الرمل الذى يضىء. جالسة كما تفعل دائمًا، الذراعان متشابكتان حول ساقيها، وجهها يظهر من الجانب. قلبى يدق بقوة شديدة، أرتعش من البرد ربما؟ أخاف ألا يكون غير وهم، وأنه سيختفى. ريح البحر يهب علينا، يوقظ ضجيج البحر. ثم تقترب أوما منى، تأخذنى من يدى كما فيما مضى، وفى شرم الإنجليز تخلع ثوبها، تسير نحو البحر، دون أن تنتظرنى. معًا نغطس فى الماء البارد، نسبح ضد الأمواج. الريش الطويل الذى يأتى من مختلف أنحاء العالم يمر فوقنا. نسبح طويلاً فى البحر الأسود، تحت القمر. ثم نستدير نحو الشاطئ. أوما تجذبنى حتى الشاطئ، حيث نغسل ملح أجسادنا وشعورنا ممددين على حصى السطح. هواء البحر يجعلنا نرتجف ونتحدث بصوت منخفض لكى لا توقظ كلاب المنطقة. كما كنا نفعل نرش بعضنا بالرمل الأسود، وننتظر حتى يدفع الريح الرمل فى جداول صغيرة على بطنينا، وأكتافنا. لدى الكثير لأقوله ولكنى لا أعرف من أين أبدأ. أوما تحدثنى هى الأخرى، تحكى عن الموت الذى وصل إلى رودريج، مع التيفويد، وموت أمها على المركب الذى

حمل اللاجئين الى بور لوى. حدثتنى عن معسكر جدول كريبول وملاحات النهر الأسود، حيث عملت مع "سرى" كيف علمت أنى كنت فى اليمن بأية معجزة؟ " ليست معجزة" تقول أوما. صوتها بدا غاضبًا فجأة كل يوم، كل لحظة كنت أنتظرك، فى فورست سايد، أو أذهب إلى بور لوى. ورمپار ستريت عندما عدت من الحرب، انتظرت طويلا، وكنت أستطيع أن أنتظر أيضًا، وتابعتك فى كل مكان، حتى اليمن. عملت حتى فى الحقول، حتى ترانى؟ أشعر كما لو أنه دوار، وشد حلقى. كيف استطعت أن أبقى طويلاً إلى هذا الحد، دون أن أفهم؟

الآن، لم نعد نتحدث. بقينا ممددين أحدنا فى مواجهة الآخر، متشابكين بقوة لكى لا نشعر ببرد الليل. نسمع البحر. والريح فى قمم الأشجار السامقة، فلا شىء آخر يوجد فى العالم.

الشمس تشرق فوق الضروع الثلاثة كما من قبل فى الوقت الذى كنت أتجول فيه مع دونيس أرى البراكين الزرقاء ـ السوداء فى مواجهة السماء المليئة بالضوء. أحببت دائمًا فيما أتذكر طائر النقار المنتشر أكثر فى الجنوب والذى يشبه الخطاف وهو المحور الذى يدور حوله القمر والشمس.

انتظرت أمام باراشوا جالسًا على الرمل أنظر إلى تدفق النهر ببطء. طيور البحر تمر ببطء على سطح الماء والغاز والغاق والنوارس المشاغبة فى مقابلة قوارب الصيد. ثم تسلقت نهر بوكان حتى بانون وأنا

أمشى ببطء وبحذر كما على أرض مزروعة بالألغام. بعيدًا عبر أوراق الشجر أرى مدخنة اليمن التى تدخن وأشعر برائحة عصير القصب الحلوة عاليًا بعض الشىء أرى أيضًا فى الناحية الأخرى من النهر منزل العم لودوفيك الجديد شديد البياض.

أشعر بألم فى أعماقى لأنى أعرف أين أنا. هنا كانت تبدأ حديقتنا وعاليًا بعض الشىء فى نهاية الممر كنت أستطيع أن أرى منزلنا وسقفه الأزرق الذى يلمع فى الشمس. أتقدم وسط الأعشاب العالية تجرحنى الشجيرات الشائكة. لم يعد يوجد ما يرى. كل شىء دمر احترق ونهب منذ سنوات طويلة هنا ربما كانت تبدأ شرفتنا؟ يبدو لى أنى أتعرف على شجرة ثم أخرى لكن فى الوقت نفسه لمح عشر شجرات مماثلة تمر هندى مانجو وأشجار سامقة أتعثر فى أحجار غير معروفة وأسقط فى حفر. هل كنا نعيش هنا حقًا؟ أليس فى عالم آخر؟

أواصل بحمى وأنا أشعر بالدم يضرب فى عروقى أريد أن أجد أى شىء، قطعة من أرضنا. عندما تحدثت عن ذلك مع ماما لمعت نظرتها، أنا على يقين من ذلك تناولت يدها المتشبثة بقوة شديدة بيدى محاولا أن أعطيها حياتى وقوتى. حدثتها عن كل ذلك كما لو كان منزلنا لايزال موجودًا حدثتها كما أن شيئًا لاينبغى أن ينتهى أبدًا وأن الأيام الضائعة ستولد فى حر الحديقة القائظ فى شهر ديسمبر عندما كنا نسمع، لور وأنا صوتها المنغم وهى تقرأ علينا التاريخ المقدس.

صوتها هو الذى أريد أن أسمعه هنا الآن فى الأدغال المتوحشة بين أكوام الحجارة السوداء التى كانت أساسًا لمنزلنا وأنا أصعد التلال لمحت الوادى الصغير فجأة حيث أمضينا ساعات طويلة معلقين فوق فرع الشجرة الرئيسى ونحن ننظر إلى تدفق ماء الجدول عديم الأسم. وجدت صعوبة فى التعرف عليه فى حين أن الشجيرات والأعشاب الضارة فى كل مكان تجتاح الأرض، كل شىء هنا مقشر قاحل كما بعد اندلاع حريق. قلبى يدق بقوة شديدة لأن هنا كان مجالنا حقًا بالنسبة إلى لور ولى ملاذنا. لكن حاليًا هو مجرد واد صغير، هوة مظلمة وقبيحة بلا حياة الشجرة، شجرتنا أين هى؟ يبدو لى التعرف عليها بجذعها العجوز الأسود وفروعها المكسورة وأوراقها القليلة. إنها قبيحة للغاية، وصغيرة جدًا لدرجة أنى لا أفهم كيف استطعنا أن نتسلقها فيما مضى. عندما أميل فوق الوادى الصغير أرى الفرع الشهير الذى كنا نطاله والذى يشبه ذراعًا نحيلة يمتد فوق الفراغ. تحت فى أسفل الوادى الصغير يتدفق الماء وسط أنقاض الضروع وقطع المعدن والألواح القديمة. الوادى الصغير أفاده التفريغ خلال هدم منزلنا.

لم أحك شيئًا من ذلك لماما ذلك لم يكن له أية أهمية. حدثتها عن كل ما كان فيما مضى ما كان واقعيًا أكثر وحقيقيًا من هذه الأرض الخراب. حدثتها عما كانت تحبه أكثر. الحديقة المليئة بالكرلديه والبونسيتة وبساتين الفاكهة وزنابقها البيضاء حدثتها

عن الحوض البيضاوى الكبير أمام الشرفة حيث كنا نستمع إلى غناء الضفادع. حدثتها أيضًا عما كنت أحبه ولن أنساه أبدًا، عن صوتها عندما كانت تتلو علينا قصيدة أو عندما كانت تتلو صلوات الليل، وعن الممر الذى كنا نمشى فيه برصانة معًا جميعًا لكى نتطلع إلى النجوم ونحن نستمع إلى مشروع والدنا.

بقيت هنا حتى الليل أجوب عبر الأدغال بحثًا عن آثار ومؤشرات بحثًا عن روائح وذكريات. لكنها أرض محطمة وجافة، قنوات الرى متحولة منذ سنوات الأشجار المتبقية حرقتها الشمس لم تعد توجد أشجار المانجو والاسكادنيا والكاكا. بقيت أشجار التمر هندى، ضخمة ونحيفة كما فى رودريج وتلك التى لا تموت أبدا. ما أريد أن أجدها هى شجرة شالتا شجرة الخير والشر، يبدو لى أنه إذا توصلت لإيجادها، شىء ما من الزمن الماضى سوف ينقذ فى ذاكرتى إنها فى نهاية الحديقة على حدود الأراضى البور هناك؛ حيث كان يبدأ الطريق المؤدى إلى الجبال ووديان النهر الأسود أعبر الأدغال أصعد بسرعة إلى أعلى الأرض هناك حيث نلمح جبل الأرض الحمراء وقواطع الحديد. وهنا رأيتها فجأة أمامى وسط الشجيرات، كبيرة أيضًا كما كانت بأوراقها الداكنة التى تكون بحيرة ظل اقترب منها ورائحتها هى التى تعرفت عليها، رائحة حلوة ومثيرة للقلق تجعلنا ندير الرأس عندما نتعلق بفروعها لم تخضع، لم تدمر. طوال الوقت وأنا بعيد عن حمى أوراقها بعيد عن فروعها

فإن هذا لم يكن بالنسبة لها غير لحظة واحدة. مياه الأعاصير انسحبت والجفاف والحرائق وحتى الرجال الذين هدموا منزلنا وداسوا الزهور فى الحديقة وتركوا ماء الحوض يموت وكذلك القنوات لكنها ظلت شجرة الخير والشر التى تعرف كل شىء وترى كل شىء بحثت عن العلامات التى حفرناها لور وأنا بسكين لكى نسجل اسمينا وطولينا. بحيث عن جرح الفرع الذى نزعته الأعاصير. ظلها وفير ولطيف، رائحتها تسكرنى. الزمن توقف عن المرور. هواء الحشرات والطيور الذى يهتز والأرض فوقه رطبة وحية.

هنا العالم لا يعرف الجوع ولا ألم الحرب. لا وجود لها. شجرة شالتا تمسك بالعالم بعيداً بقوة فروعها. منزلنا دمر والدنا مات لكن لا شىء ميئوس منه طالما وجدت شجرة شالتا. تحتها يمكننى أن أنام الليل يهبط فى الخارج يطمس الجبال، كل ما فعلته كل ما بحثت عنه كان من أجل وصولى إلى هنا عند مدخل مانانافا.

كم من الوقت مضى منذ أن ماتت ماما؟ كان ذلك بالأمس أو أول أمس لم أعد أعرف. طوال أيام وليال سهرنا عليها بالتناوب أنا فى النهار ولور فى الليل حتى تكون دون أن تكف يد ممسكة بأصابعها النحيلة، كل يوم أحكى لها القصة نفسها بوكان حيث كل شىء شاب وجميل إلى الأبد حيث يلمع السقف باللون

الأزرق السماوى إنه بلد لا وجود له لا يوجد سوى بالنسبة لثلاثتنا. وأعتقد من كثرة ما تحدثنا عن الخلود بداخلنا توجدنا فى مواجهة الموت القريب للغاية.

لور لا تتكلم. على العكس هى صامتة عنيدة لكنها طريقتها فى الصراع ضد التدمير. أحضرت لها فرعًا من شجرة شالتا وعندما أعطيته لها رأيت أنها لم تكن قد نسيت. عيناها لمعتا من السعادة عندما تناولت الفرع ووضعته على طاولة رأس السرير أو ألقته بعد ذلك بغير قصد وهكذا كانت تفعل مع الأشياء التى تحبها.

وكان هذا الصباح الرهيب عندما جاءت لور لإيقاظى، تقف أمام السرير المسرج حيث أنام فى غرفة الطعام الخالية. أتذكرها شعرها المجعد وهذا الوميض القاسى العنيف فى نظرتها.

"ماما ماتت "

هذا هو كل ماقالته وتبعتها وما زلت مخدرًا من النوم فى الحجرة المظلمة حيث المصباح محترق. نظرت إلى ماما وجهها النحيف والثابت شعرها الجميل المسدل على الوسادة شديد البياض. لور ذهبت لتتمدد على السرير المسرج بدورها وراحت فى النوم على الفور ذراعاها مثنيتان على وجهها وأنا ظللت وحدى فى الحجرة المظلمة مع ماما مذهولا دون أن أفهم جالسًا على الكرسى المتهالك أمام المصباح

الذى يتواتر مستعد فى كل لحظة لأبدأ قصتى من جديد وأتحدث بصوت منخفض عن الحديقة الكبيرة حيث كنا نمشى معًا فى المساء لاكتشاف النجوم والتحدث عن هذه الممرات التى تتناثر فيها قرون التمر هندى والكركديه ونحن نستمع إلى غناء البعوض الحاد الذى يرقص حول شعورنا وعند العودة تكون السعادة فى رؤية أثناء الليل الأزرق، النافذة الكبيرة المضاءة فى المكتب حيث أبى وهو ينظر إلى خرائطه البحرية.

وهذا الصباح تحت المطر فى المقبرة بالقرب من بيجارا أسمع الأرض تسقط فوق النعش وأنظر إلى وجه لور الشاحب للغاية وشعرها المجعد فى شال ماما الأسود وقطرات الماء التى تسيل على خديها مثل الدموع.

كم من الوقت منذ رحلت ماما؟ لا أستطيع أن أصدق ذلك. كل شىء انتهى لن يكون هناك صوتها وهى تتحدث فى عتمة الشرفة ولا رائحتها أبدًا ولا نظرتها. عندما مات أبى بدا لى أنى بدأت فى الهبوط إلى الخلف نحو نسيان لا يمكننى أن أقبله يبعدنى إلى الأبد ما كانت هى قوتى وشبابى. الكنوز لايمكن الوصول إليها مستحيلة إنها "ذهب الأبله" الذى حمله إلىّ السود الباحثون عن الذهب عند وصولى الى بورماتوران. وجدنا أنفسنا وحدنا لور وأنا فى هذا الكوخ الخالى والبارد ومصاريعه المغلقة. فى غرفة

ماما المصباح غارق وأشعلت آخر فوق طاولة السرير وسط جرارات لا لزوم لها بالقرب من السرير وملاءاته الداكنة .

" لاشيء كان سيحدث لو كنت بقيت... هذا خطئى ما كان ينبغى أن أتركها "

"لكن كان عليك أن ترحل ؟ إنه سؤال طرحته لور على نفسها . نظرت إليها بقلق

"ماذا سنفعل الآن ؟"" لا أعرف، أظل هنا أفترض"

"تعال معى"

"إلى أين ؟"

"إلى مانانافا يمكننا أن نعيش على الخطوات الهندسية "

نظرت إلىّ بسخرية

"الثلاثة جميعًا مع يانج كاتيرا ؟" هكذا كانت تسميها أوما . لكن عينيها أصبحتا باردتين. وجهها يعبر عن الملل والعزلة .

"تعلم جيدًا أن هذا مستحيل "

"لكن لماذا؟"

لم تجب. نظرتها عبرتنى. فهمت فجأة خلال هذه السنوات من النفى أنى فقدتها . سلكت طريقًا آخر أصبحت شخصًا آخر، حياتنا لم يعد ممكنًا أن نتلاقى حياتها بين راهبات الزيارة هناك حيث تهيم

النسـاء بدون مـال بـدون بيوت حياتهـا بـالقـرب من الـهـنديات المريضـات والمصابات بـالسـرطـان اللاتى يتسولن بعض الروبيات وابتسامة وكلمات عزاء، بين الأطفال الذين يعانـون من الحمى فى بطونهم تطبخ من أجلهم أوانى من الأرز وتذهب لتنتزع بعض المال لأجلهم من" البورزوا " أبناء طبقتها.

بعد لحظة علت صوتهـا نبرة من القلق كما فيما مضى عندما كنت أعبر حافى القدمين الغرفة لأخرج أثناء الليل.

"ماذا ستفعل أنت ؟ "

أتبجح :

"حسنًا سـأغسل الجداول كما فى كلونديك. أنا متأكد أنه يوجد ذهب فى مانانافا "

نعم، لحظة أخرى نظرتها تلمع بالتسلية نحن قريبون أيضًا نحن ـ المحبين ـ كما كان يقول الناس فيما مضى عندما كانوا يشاهدوننا معًا .

فى وقت لاحق أنظر إليها بينما تعد حقيبتها الصغيرة لكى تذهب للحياة عند راهبات لوريت . وجهها أصبح هادئًا غير مبال. فقط عيناها تلمعان بنوع من الغضب تلف شعرها الجميل الأسود بشال ماما وتذهب دون أن تستدير مع حقيبتها الكرتون ومظلتها الكبيرة العالية والمستقيمة وعبثا لاشىء مطلقا يمكنه أن يبقيها ولا أن يغير طريقها .

طوال اليوم أجلس عند مصب الأنهار أمام باراشوا أنظر إلى البحر المنخفض أتبين شواطئ الرمل الأسود. عندما يكون التيار منخفضًا يجىء مراهقون سود لصيد الأخطبوط وطائر الأقدام الطويلة فى الماء نحاسية اللون. الأكثر جرأة يجيئون للنظر فىَّ. أحدهم مخدوعًا فى قميصى العسكرى يعتقد أننى عسكرى إنجليزى ويوجه لى الكلام بهذه اللغة لكى لا أخيب ظنه أرد عليه بالإنجليزية ونثرثر للحظة، هو واقف مستند إلى حربته الطويلة وأنا جالس على الرمل أدخن سيجارة فى ظل المخامل .

ثم ينضم إلى الفتيان الآخرين وأسمع أصواتهم وضحكاتهم تجلجل فى الناحية الأخرى من نهر تاماران. لايبقى غير الصيادين الواقفين فى زوارقهم التى تنزلق ببطء فوق الماء الذى يعكس صورتهم .

أنتظر حتى دفعه للمد الذى يرسل موجته على الرمل الريح يأتى ضجيج البحر كما فيما مضى يجعلنى أرتجف. ثم وحقيبتى العسكرية فوق كتفى أصعد إلى النهر نحو بوكان. قبل اليمن أنحرف نحو الأدغال هناك حيث فتح طريقنا هذا الممر من الأرض الحمراء التى تؤدى مباشرة بين الأشجار إلى منزلنا الأبيض تمامًا بسقف أزرق اللون. على هذا الممر مشينا أتذكر ذلك منذ فترة طويلة عندما طردنا وكلاء الدائنين والمحامين التابعين للعم لودوفيك. الآن الطريق اختفى أكلته الأعشاب ومعه العالم الذى تبعه.

كم هو جميل هذا الضوء ورمادى هنا شبيه بذلك الذى أحاط بى عندما كنت فى الشرفة أشاهد المساء وهو يغزو الحديقة لاشىء غيره أعرفه أتقدم بين الشجيرات ولا أتحدث حتى عن رؤية شجرة شالتا أو الوادى الصغير مثل طيور البحر أشعر بسرعة ما وقلق اليوم الذى ينتهى الآن أمشى بسرعة ناحية الجنوب بإرشاد جبل الأرض الحمراء فجأة أمامى بركة تلمع فى ضوء السماء إنه حوض ايجريت هنا حيث ثبت والدى مولده الكهربائى محاطًا بالأعشاب والبوص. الحوض مهجور اليوم لم يبق شىء من أعمال والدى السدود، هياكل الحديد التى كانت تدعم الدينامو بيعت لسداد الديون الماء والطين ضيعا حلم أبى. طيور تفر وهى تصيح بينما أدور حول الحوض لأتخذ طريق الحلوق .

أتخطى بريزفير وأرى تحتى وادى النهر الأسود وعلى البعد بين الأشجار البحر الذى يبرق فى الشمس أنا هنا أمام مانانافا أتصبب عرقًا ألهث أشعر بالقلق. لحظة الدخول فى الحلق أشعر بخوف هل هنا ما يجب أن أعيش الآن فاشل الحلم غريقًا؟ فى ضوء شمس الغروب القوى وخلال الجبال ماشابيه، بيه دى مارميت أظهرت الحلوق أكثر ظلامًا. فوق مانانافا المنحدرات الحمراء كونت جدارًا لايخترق فى الجنوب نحو البحر أرى دخان مصانع السكر والقرى، كازنوابيل النهر الأسود مانانافا هى نهاية العالم حيث يمكننا أن نرى دون أن يرانا أحد.

أنا فى قلب الوادى الان فى ظل الأشجار السامقة وقد هبط الليل. تهب الرياح من البحر وأسمع حفيف الأوراق وهذه الممرات غير المرئية وهذا الركض وهذا الرقص. لم أذهب بعيدًا هكذا إلى قلب مانانافا بينما أتقدم فى الظل تحت الشمس التى لاتزال ساطعة للغاية تفتح الغابة أمامى بلا حدود، حولى خشب الأبنوس بجذوع ناعمة والسنديان والروزين والتين البرى والجميز. قدماى تغوصان فى بساط الأوراق أشعر برائحة الأرض المسبخة ورطوبة السماء أصعد إلى مجرى السيل وأنا أمر أقطف جوافة حمراء وفستقًا بنيًا أشعر بنشوة هذه الحرية. أليس هناك ينبغى أن أجىء منذ وقت طويل؟ أليس هذا هو المكان الذى كانت تشير إليه خرائط القرصان المجهول وهذا الوادى الذى نسيه الرجال الموجه حسب خط كوكب آرجو ؟ كما فى السابق. فى شرم الإنجليز بينما أسير بين الأشجار أسمع قلبى يدق. أشعر بهذا الوضوح: لست وحدى فى مانانافا. فى مكان ما ليس بعيدًا عنى شخص ما يسير فى الغابة يسلك طريقًا سينضم إلى طريقى. شخص ما ينزلق دون ضجيج بين الأوراق وأشعر بنظرته علىَّ نظره تعبر كل شىء وتنيرنى. بعد قليل أكون أمام المنحدر الذى مازالت تضيئه الشمس. أنا فوق الغابة بالقرب من مصب الأنهار ويمكننى أن أشاهد الأوراق التى تميل حتى البحر. السماء مبهرة والشمس تنزلق تحت الأفق. سأنام هنا متجهًا نحو الغرب وسط كتل الحمم الساخنة من الضوء. سيكون بيتى حيث سأرى منه البحر دائمًا .

ثم أرى أوما تجىء نحوى بمشيتها الخفيفة تخرج من الغابة. فى الوقت نفسه أرى ظهور الطائرين البيضاوين عاليًا فى السماء بلا لون يحومان فى الريح ويدوران حول مانانافا. هل شاهدانى؟ صامتان أحدهما بجوار الآخر دون أن يحركا أجنحتهما تقريبًا شبيهان بمذنبين أبيضين يتطلعان إلى هالة الشمس فوق الأفق. بفضلهما توقف العالم، جريان النجوم علق. فقط جسماهما يتحركان فى الريح.

أوما بالقرب منى. أشعر برائحة جسدنا وحرارة جسدها. أقول بصوت منخفض جدًا" انظرى! إنهما اللذان كنت أراهما فيما مضى، إنهما هنا!... " تحليقهما يقودهما نحو جبل ماشابيه بينما السماء تتغير وتصبح رمادية. فجأة يختفيان وراء الجبال ويغطسان فى النهر الأسود ويهبط الليل .

حلمنا بأيام من السعادة فى مانانافا. دون أن نعلم شيئًا عن الناس. عشنا حياة متوحشة مشغولين فقط بالأشجار. بالتوت، بالأعشاب بمياه الينابيع التى تتدفق من المنحدر الأحمر. يصطاد جراد البحر فى ذراع النهر الأسود وبالقرب من المصب الجمبرى وسرطان البحر تحت الأحجار المسطحة أتذكر الحكايات التى كان يحكيها الكابتن كوك العجوز عن القرد زاكو الذى كان يصطاد الجمبرى بذيله.

هنا كل شىء بسيط. عند الفجر ننسل فى الغابة المرتعشة بالورد لالتقاط الجوافة الحمراء والكرز وخوخ مدغشقر وقلوب البقر أو لجمع الأثير البرى

والعقعق. نسكن على الأماكن التى عاش الكستناء فى عهد ساكالافو العظيم فى زمن سنجور "هناك" انظرى! كانت حقولهم كانوا يحتفظون هناك بخنازيرهم، بجديانهم، بدجاجاتهم. كانوا يزرعون الفول والعدس والبطاطا والذرة. أوما تبين لى الجدران المتداعية وأكوام الحجارة المغطاة بالشجيرات.. فى مواجهة منحدر من الحمم خشخشن شائك يخفى مدخل كهف. أوما تحضر لى زهورًا ذات رائحة تضعها فى شعرها الكثيف خلف أذنيها " زهور كاسسى " .

لم تكن جميلة أبدًا هكذا بشعرها الأسود الذى يحدد وجهها الناعم وجسدها النحيل فى ثوبها من الخيش والمتسخ والمرقع.

لم أعد أفكر فى الذهب ولم تعد لى رغبة فيه. أدواتى ظلت على شاطئ النهر بالقرب من المنبع وأركض فى الغابة فى اعقاب أوما. ملابسى مزقتها الفروع، شعرى ولحيتى طالا مثل روبنسون .

أوما غزلت لى قبعة وأعتقد أن أحدًا لن يستطيع أن يتعرف علىّ فى هذا الزى .

فى كثير من الأحيان نزلنا حتى مصب النهر الأسود لكن أوما تخاف من الناس بسبب ثورة لابسى الخيش. ومع ذلك ذهبنا فى الفجر حتى مصب تاماران ومشينا على الرمل الأسود. كل شىء لايزال فى ضباب الفجر والريح الذى يصفر بارد. نصف

مختفين وسط التكعيبات تطلعنا إلى البحر الهائج الملىء بالأمواج التى تقذف رغوة. لاشىء أجمل فى العالم .

أحيانًا تذهب أوما لتصطاد فى مياه البحيرة من ناحية البرج أو بالقرب من المستنقعات لترى شقيقها. فى المساء تحمل إلىّ السمك ونقوم بشوائه فى مخبئنا بالقرب من الينابيع .

كل مساء عندما تهبط الشمس نحو البحر ننتظر بلا حراك فى الصخور وصول طيور الكفيات. فى السماء المضيئة تجىء على مسافة مرتفعة وهى تنزلق ببطء مثل النجوم. بنت عشتها أعلى المنحدرات من ناحية ماشابيه إنها جميلة للغاية بيضاء تمامًا تطفو طويلا فى السماء فوق ريح البحر بحيث لا نشعر إطلاقًا بالجوع ولا التعب ولا القلق من الغد. أليست خالدة؟ تقول أوما إنهما الطائران اللذان يسبحان بحمد الله. ننتظرهما كل يوم عند الغسق؛ لأنهما يجعلاننا سعداء ومع هذا عندما يهبط الليل أشعر بشىء ما يدعو للاضطراب، وجه أوما الجميل بلون النحاس الداكن له تعبير شاغر كما لو أن لاشىء واقعى حولنا. مرات كثيرة تقول بصوت منخفض: "يومًا ما سأرحل ..."أين تذهبين؟ " لكنها لاتقول شيئا آخر.

الفصول ولت، شتاء وصيف. منذ فترة طويلة لم أر رجالا آخرين! لا أعرف كيف كانت الأحوال فيما قبل فى فورست سايد، فى بورلوى. مانانافا شاسعة.

الوحيدة التى تربطنى بالعالم الخارجى هى لور. عندما أتحدث عنها أوما تقول " أريد حقًا التعرف عليها" لكنها تضيف "هذا مستحيل" أتحدث عنها وأتذكر عندما كانت تذهب لتتسول نقودًا من الأثرياء فى كوربيب وفلوريال للفقيرات، لبائسات القصب. أتحدث عن الخرق التى كانت تبحث عنها فى البيوت الجميلة لكى تصنع أغطية واقية للهنديات العجائز اللاتى على شفا الموت. تقول أوما "يجب أن تعود معها" صوتها واضح وهذا يزعجنى ويؤلمنى.

هذه الليلة باردة ونقية ليلة شتاء شبيهة بليالى رودريج عندما كنا ممددين فى رمل شرم الإنجليز وكنا نتطلع إلى السماء المليئة بالنجوم .

كل شىء هادئ ومنظم، الزمن على الأرض هو زمن الكون. ممدد على سجادة التكعيبات مغطى مع أوما فى بطانية الجيش أتطلع إلى النجوم الجوزاء فى الغرب وممسك بشراع المركب آرجو، الكلب الكبير حيث يلمع سيريوس شمس الليل. أحب أن أتحدث عن النجوم (ولا أنكر ذلك) أقول أسماءها بصوت مرتفع كما كنت أقرؤها على أبى وأنا أسير فى ممر النجوم:

"أركتورس، دينيبولا، بيللاتريكس، بيتيلجوس، آكومار، انتاريس، شولا، آ لتايير، أندروماد، فومالهو..."

فجأة فوقنا على القبة السماوية وابل من النجوم ينزلق من ناحية خطوط الضوء تشع فى الليل ثم تخبو

بعضها وجيز جدًا وأخرى طويلة جدًا بحيث تبقى مسجلة فى شبكية العين. استيقظنا لنرى أفضل، الرأس مائلة إلى الخلف مبهورين أشعر بجسد أوما يرتجف فى جسدى. أريد أن أدفئها لكنها تبعدنى. وأنا ألمس وجهها فهمت أنها تبكى، ثم ركضت نحو الغابة واختفت تحت الأشجار حتى لاترى مطلقًا خطوط النار التى تملأ السماء. عندما لحقت بها تكلمت بصوت أجش ملىء بالحزن والتعب. تحدثت عن التعاسة وعن الحرب الذين يجب أن يعودوا مرة أخرى، عن موت أمها، عن المناف المطاردين فى كل مكان الذين يجب أن يرحلوا الآن. أحاول أن أهدئها أريد أن أقول لها: لكنها ليست إلا شهبًا! لا أجرؤ على أن أقول لها ذلك ومع هذا هل هى حقا شهب؟

عبر الأوراق أرى النجوم السارية تنزلق صامتة فى السماء المجمدة حاملة معها نجومًا أخرى وشموسًا أخرى. الحرب ستعود ربما السماء ستضاء من جديد يتوهج القنابل والحرائق .

نظل طويلا متشابكين أحدنا فى الآخر تحت الأشجار فى منجى من علامات القدر. ثم تعود الشمس هادئة والنجوم تبدأ بريقها. أوما لاتريد أن تعود بين الصخور. ألفها فى البطانية وأرقد جالسًا إلى جوارها مثل حارس عديم الفائدة .

أوما ذهبت تحت مظلة الفروع يهدأ التيار لايوجد سوى حصيرة التكعيبات حيث أثر جسدها قد تلاشى

بالفعل. أريد أن أعتقد أنها ستعود ولكى أفكر فى ذلك أذهب حتى الجدول لأغسل الرمل بأداة الغسيل. البعوض يرقص حولى، طيور البحر تحلق وتنادى بصيحاتها الساخرة فى بعض الأحيان فى كثافة الغابة أعتقد أنى أرى خيال المرأة الشابة يقفز بين الأدغال لكنها ليست سوى قردة تفر عندما أقترب .

كل يوم أنتظرها بالقرب من النبع حيث كنا نذهب للاستحمام والبحث عن الجوافة الحمراء. أنتظرها وأنا ألعب بقيثارة العشب ذلك لأن هذه هى الطريقة التى اتفقنا على التحدث بها. أتذكر أوقات ما بعد الظهر حيث كنت أنتظر دونيس وأسمع الإشارة التى كانت تصر وسط الأعشاب العالية بينما تردد حشرة غريبة : فينى يفينى فينى ...

لكن هنا لا أحد يجيب. الليل يهبط يملأ الوادى. فقط تبقى الجبال التى تحيط بى وبريزفير وجبل ماشابيه وبعيداً أمام بحر المعدن، مورن. الريح يهبط مع المد والجزر. أتذكر ماكان يقوله كوك عندما كان الريح يحلق فى الأخاديد. كان يقول "اسمع ! إنه ساكالافو الذى يئن لأن البيض ألقوا به من أعلى الجبل. إنه صوت ساكالافو العظيم! " أسمع الشكوى وأنا أنظر إلى الضوء الذى يمحى. ورائى صخور المنحدر الحمراء مازالت تشتعل وفى أسفل يقع الوادى بكل دخانه. يبدو لى فى كل لحظة أنى سأسمع وقع خطوات أوما فى الغابة وأنى سأشعر برائحة جسدها .

الجنود الانجليز طوقوا مخيم اللاجئين فى النهر الأسود. منذ أيام كثيرة لفات السلك الشائك أحاطت بالمخيم لمنع أى شخص من الدخول أو الخروج. الموجودون فى المخيم من رودريج ومن جزر القمر وأبناء دييجوسوواريز ومن أجاليجا وأستراليا والهند أو باكستان فى انتظار اختبارهم. الذين ليست أوراقهم سليمة عليهم العودة إلى ديارهم فى جزرهم. جندى إنجليزى هو الذى قال لى الخبر عندما أردت أن أدخل إلى المخيم لكى أبحث عن أوما. خلفه فى التراب بين الأكواخ أرى أطفالا يلعبون فى الشمس إنه البؤس الذى يحرق حقول القصب ويشعل الغضب ويثمل .

أنتظر طويلاً أمام المخيم على أمل رؤية أوما. فى المساء لم أرغب فى العودة إلى مانانافا. فى أنقاض مكان إقامتنا القديم فى بوكان نمت فى حمى شجرة شالتا للخير والشر. سمعت قبل أن أغط فى النوم غناء الضفادع فى الوادى الصغير وشعرت بريح البحر يرتفع مع القمر والأمواج تتدفق حتى فى حقول العشب.

عند الفجر جاء الرجال مع سيردار وأنا أختفى تحت شجرتى فى حالة، إذا كانوا يجيئون من أجلى لكن لست أنا الذى يبحثون عنه. يحملون "الجثث" وهذه المشابك الثقيلة من حديد الزهر التى تستخدم فى دفن الجذور والأحجار الضخمة. معهم أيضا معاول ومجارف وفئوس ومعهم تأتى مجموعة من

نساء الخيش ومعازقهن متوازنة على رءوسهن اثنان من الفرسان يرافقانهم، اثنان من البيض تعرفت عليهما من طريقتهما فى القيادة. أحدهما هو ابن عمى فرديناند والآخر إنجليزى لا أعرفه مدير ميدانى بطبيعة الحال. من مخبئى تحت الشجرة لايمكننى أن أسمع مايقولونه لكن من السهل فهمه. إنها الفدادين الأخيرة من أرضنا التى يمسحونها من أجل القصب انظر إلى كل هذا بلامبالاة. أتذكر اليأس الذى شعرنا به جميعًا عندما طردنا وذهبنا ببطء فى العربة المحملة بالأثاث والحقائب. فى تراب الطريق الكبير المستقيم. أتذكر الغضب الذى يتردد فى صوت لور عندما كانت تردد بينما ماما لاتعترض إطلاقًا " كنت أتمنى لو أنه كان ميتًا! " وهى تتحدث عن العم لودوفيك! الآن كما لو أن كل هذا كان يعنى حياة أخرى الفارسان ذهبا ومن مخبئى أسمع وقد تخففت بورق الشجر، ضربات المعول فى الأرض وأنين الجثث على الصخور وأيضًا غناء السود البطىء والحزين وهم يعملون. عندما تكون الشمس فى أوجها أشعر بالجوع وأذهب ناحية الغابة بحثا عن الجوافة والفستق البنى. ينقبض قلبى وأنا أفكر فى أوما فى سجن المعسكر حيث اختارت أن تلحق بأخيها .من التل أرى الذى يتصاعد من معسكر النهر الأسود.

نحو المساء رأيت تراب الطريق وقافلة طويلة من الشاحنات تتجه نحو بورلوى، أصل إلى حافة الطريق عندما كانت تمر الشاحنات الأخيرة. تحت الأغطية

المفتوحة بسبب الحرارة، ألمح وجوهًا مظلمة متعبة ملطخة بالغبار. فهمت انهم ينقلونهم، ينقلون أوما فى أى مكان فى جهة أخرى ويصعدون بهم إلى عنابر مركب نحو بلادهم حتى لايطلبوا على الإطلاق ماء ولا أرزًا ولا عملاً لكى لايعودوا إلى إضرام النار فى حقول البيض. ركضت لفترة على الطريق فى التراب الذى يغطى كل شىء ثم توقفت لاهثًا محترقًا بشكة خاصرة. حولى أناس وأطفال ينظرون إلىَّ دون أن يفهموا .

أهيم طويلا على الشاطئ فوقى البرج بصخرته المقطوعة يشبه مرصادًا أمام البحر. وأنا أتسلق عبر الشجيرات حتى النجمة أكون فى المكان نفسه حيث رأيت منذ ثلاثين عامًا الإعصار الكبير يأتى ليدمر منزلنا. ورائى الأفق الذى تجىء منه الغيوم والدخان والسحب المحملة بالبرق والماء. يبدو لى أنى أسمع الآن حقيقة صفير الريح وصوت الكارثة القادمة فى الطريق .

كيف وصلت إلى بورلوى ؟ مشيت فى الشمس حتى الإنهاك فوق آثار الشاحنات الحربية. أكلت ماوجدته على جانب الطريق قصب ساقط من العربات بعض الأرز، وعاء من القير فى كوخ سيدة هندية. تحاشيت القرى خوفًا من سخرية الأطفال أو خشية الشرطة التى مازالت تبحث عن مشعلى الحرائق. شربت من ماء البرك، نمت فى الشجيرات على جانب الطريق أو مختفيًا فى الكثبان الرملية. فى

الليل كما لو كنت ما أزال مع أوما استحميت فى البحر لكى أنعش جسدى المحترق بالحمى. سبحت فى الأمواج ببطء شديد وكان هذا شبيهها بالنعاس. ثم رششت جسدى ببطء وانتظرت حتى ينزلق فى الجداول فى الريح.

عندما وصلت إلى الميناء رأيت المركب التى كان فيها أبناء رودريج وجزر القمر واجاليجا، إنها مركب كبيرة وجديدة لصاحبها عبد الرسول "اتحاد العقبة". بعيدة على مياه المرفأ ولا يستطيع أحد أن يقترب. الجنود الإنجليز يحرسون مبانى الدواوين ومستودعات الجمارك. قضيت الليل كله تحت أشجار الإدارة أنتظر مع الصعاليك والبحارة المخمورين .

ضوء الصباح الرمادى هو الذى أيقظنى. لم يكن هناك أحد على الإطلاق فوق الأرصفة. الجنود كانوا قد عادوا فى شاحناتهم إلى فورجورج. الشمس تشرق ببطء لكن الأرصفة ظلت خالية كما لو كان يوم عطلة. ثم رفعت مركب "اتحاد العقبة" مراسيها وأثناء التدخين بدأت تنزلق فوق البحر الهادئ مع طيور البحر التى كانت تحلق حول صواريها. اتجهت أولا نحو الغرب حتى أصبحت نقطة صغيرة ثم تحولت وانزلقت من الناحية الأخرى للأفق نحو الشمال .

أعود مرة أخرى إلى مانانافا المكان الأكثر غموضا فى العالم، أتذكر أنه فيما مضى كنت أعتقد أن هنا يولد الليل ثم يتدفق بطول الأنهار حتى البحر .

أمشى ببطء فى الغابة الرطبة وأنا أتبع الجداول. فى كل مكان. حولى أشعر بوجود أوما فى ظل خشب الأبنوس أشعر برائحة جسدها المختلطة برائحة الأوراق أسمع حفيف خطاها فى الريح.

أبقى قريبًا من الينابيع. أسمع خرير الماء الذى يتدفق فوق الحصى. الريح يجعل قمم الأشجار تتوهج. من الثغرات أرى السماء المبهرة والضوء الخالص. ماذا يمكن أن أنتظر هنا؟ مانانافا مكان للموت ولذلك لايغامر الرجال فيه أبدًا. هو موقع ساكالافو والسود العبيد الذين ليسوا أكثر من أشباح.

بسرعة جمعت الأشياء القليلة التى هى أثرى فى هذا العالم وبطانيتى الكاكى وحقيبتى العسكرية وآلات البحث عن الذهب. ومنقب ومنخل وزجاجة ماء شرب بعناية كما علمتنى أوما محوت آثارى وعلامة النار ثم دفنت نفاياتى.

المشهد يضىء فى الجانب الغربى على الجانب الآخر من جبل الأرض الحمراء أرى البقعة المظلمة من أرض بوكان المنخفضة حيث الأراضى ممسوحة ومحترقة. أفكر فى الطريق الذى يخترق المصايد حتى أعلى الضروع الثلاثة أفكر فى الطريق الترابى الذى يذهب إلى منتصف القصب حتى كانزكانتون. لور تنتظرنى ربما أو لا تنتظرنى. عندما سأصل ستكمل عبارتها الساخرة والمضحكة كما لو كنا اقترفنا بالأمس كما لو أن الزمن لاوجود له بالنسبة إليها.

أصل إلى مصب النهر الأسود فى نهاية اليوم. الماء أسود وسلس، الريح لايهب. فى الأفق بعض الزوارق تنسل شراعها الثلاثى معلق على درابزين القيادة بحثًا عن تيار هواء. طيور البحر بدأت تصل من الجنوب والشمال تتلاقى فى مستوى الماء وهى تلقى صيحات مزعجة أخرجت من حقيبتى أوراق الكنز التى تبقت لى والخرائط والرسومات وكراسات المذكرات التى كتبتها هنا وفى رودريج، وأحرقتها على الشاطئ الموجة التى تمر فوق الرمل حملت الرماد. الآن أعرف أن القرصان فعل هذا بعد أن سحب كنزه من مخابئ الوادى الصغير فى شرم الإنجليز. بدد كل شىء وألقى كل شىء فى البحر. هكذا وذات يوم بعد أن عاش المزيد من عمليات القتل والمزيد من المجد عاد أدراجه وقضى على ماكان قد ابتدعه لكى يكون حرًا فى النهاية .

على الشاطئ الأسود أسير فى اتجاه البرج ولم يعد معى أى شىء .

على تل النجمة قبل البرج بقيت الليل. على اليمين إدارة بوكان فى الظل وبعيدًا الى حد ما مدخنة اليمن التى تدخن. هل انتهى رجال الأمن من تنظيف الأرض هنا حيث كانت إقامتنا؟ ربما يكونون قد قتلوا شجرة شالتا بضربيات الفأس. شجرة الخير والشر. هكذا لم يبق أى شىء منا على هذه الأرض لم تعد هناك أية نقطة عودة واحدة .

أفكر فى ماما. يخيل إلىّ أنها لاتزال نائمة فى مكان ما وحدها فى سريرها النحاسى الكبير تحت الناموسية. معها أريد أن أتحدث بصوت منخفض عن هذه الأشياء التى لاتنتهى، بيتنا بسقفه الأزرق الهش الشفاف مثل السراب والحديقة المليئة بالعصافير ما أن يجىء الليل، الوهدة وحتى شجرة الخير والشر على أبواب مانانافا .

هأنذا من جديد فى المكان نفسه الذى رأيت فيه الإعصار الكبير يندلع فى عامى الثامن عندما طردنا من بيتنا وألقى بنا فى الدنيا كما ولادة ثانية. على تل النجمة أشعر بضجيج البحر يكبر فى داخلى. أريد أن أتحدث إلى لورنداليلى التى عثرت عليها بدلاً من الكنز والتى عادت إلى جزيرتها. أريد أن أتحدث معها عن الرحلات وأرى لمعان عينيها كما عندما كنا نلمح من أعلى هرم امتداد البحر حيث نكون أحرارًا .

سأذهب إلى الميناء لأختار مركبى هاهى مركبى إنها رقيقة وخفيفة تشبه فرقاطة بأجنحة ضخمة أسمها آرجو تتهادى ببطء نحو العرض فوق البحر الأسود بالغسق محاطة بالطيور. وسرعان ما تبحر فى الليل تحت النجوم. وفقًا لمصيرها فى السماء. أنا على السطح فى المؤخرة ملفوفًا بالريح أسمع ضربات الأمواج فى القوس وازدهار الريح فى الأشرعة. الربان يغنى لنفسه وحده غناءه الرتيب بلا نهاية، أسمع أصوات البحَّارة الذين يلعبون النرد فى العنبر نحن

وحدنا فوق البحر، الأحياء الوحيدين. أوما معى من جديد. أشعر بحرارة جسدها وأنفاسها أسمع نبض قلبها. إلى أى مدى سنذهب معًا؟ آجاليجا، الدابرا خوان دى نوفا؟ الجزر لا حصر لها. ربما نتحدى الممنوع ونذهب حتى سان براندون هناك حيث وجد القبطان برادمير وربانه ملاذهما؟ فى الجانب الآخر من العالم، فى مكان لايخشى فيه أحد على الإطلاق علامات السماء ولا حرب الرجال .

الوقت ليلا الآن، أسمع حتى أعماقى ضجيج البحر الحى الذى يجىء.

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت».. للكاتبة الفرنسية «مارى نيميه» .. رواية .. جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر».. للكاتب الفرنسى «بيير بيجى».. رواية.. جائزة إنتر.

٣ ـ «موال البيات والنوم».. للكاتب المصرى «خيرى شلبى» .. رواية .. جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» .. سيرة ذاتية.. جائزة سلطان العويس.

٥ ـ «اللمس».. للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله».. مسرح .. جائزة أبها.

٦ ـ «عاشوا فى حياتى».. للكاتب المصرى «أنيس منصور» .. سيرة ذاتية.. جائزة مبارك.

٧ ـ «قبلة الحياة».. للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» .. رواية.. جائزة التفوق.

٨ ـ «ليلة الحنة».. للكاتبة المصرية «فتحية العسال» .. مسرح.. جائزة التفوق.

٩ ـ العاشقات.. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» .. رواية.. جائزة نوبل.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

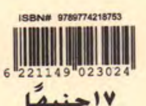
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

الرواية

تكاد تكون رواية "الباحث عن الذهب" سيرة ذاتية لـ "لوكليزيو". فالشخصية الرئيسية تنطبق عليها كل الصفات والمواصفات التى ترسم شخصية الكاتب. كما أعلن عنها فى تصريحاته وحواراته القليلة.
تدور الرواية حول أسرة صغيرة تتكون من الأب والأم والابن والابنة.. وتنطلق الأحداث من حبلة كلاسيكية اتسمت بها الرواية الأوروبية، حيث يجد الابن / البطل فى أوراق والده خرائط تؤكد وجود كنز فى البلاد البعيدة، وعليه أن يركب البحر من أجل الوصول إليه، ويقدم على الرحيل بعد وفاة والده وبعد أن طردهم العم من بيتهم، تاركاً أمه للمرض وأخته للفراغ والحيرة والقلق والتفكير فى الالتحاق بالدير، وهو ما فعلته بعد ذلك، وتطول رحلة الفتى الذى يصادف المغامرات البحرية وأهوال الحرب العالمية التى انخرط بسببها متطوعاً فى صفوف الجيش الفرنسى وكاد أن يلقى حتفه،
ويصل إلى موقع الكنز المزعوم، ولكنه لا يجد شيئا، كل ما يجده أو يعثر عليه، فتاة غجرية من لابسات الخيش يحبها وتحبه، وأخيراً يقرر العودة إلى موطنه بعد أن يئس من الوصول إلى الكنز أو الوهم، كما كانت تسميه أخته وكذلك حبيبته..
وربما كان الكنز الحقيقى الذى سيحظى به البطل هو مغامرة حياته نفسها وامتزاجه بالفلك والنجوم والسماء والبحر والجبال والطيور والأشجار والأجناس البشرية المختلفة وحتى بأسلحة الجيوش وآلات ومعدات الحروب.. ربما كان كنزه الحقيقى اكتشافه لنفسه.

الروائى: ج. م جوستاف لوكليزيو روائى فرنسى.
الجائزة: جائزة نوبل للآداب عام ٢٠٠٨.





ISBN# 9789774218753

١٧ جنيهًا